صــديــق الــرئيــس

حُكام مصر السريون

صديق الرئيس

حكام مصر السريون

د. ياسر ثابت

تصميم الغلاف: محمد عيد

رقم الإيداع: 2876 / 2015

I.S.B.N: 978-977-488-357-6

دار اكتب للنشر والتوزيع



الإدارة: 10 ش عبد الهادي الطحان من ش الشيخ منصور، المرج الغربية، القاهرة.

المدير العام: يحيى هاشم

هاتف: 01144552557 - 01147633268

E- mail: daroktob1@yahoo.com

Facebook: دار اكتب للنشر والتوزيع

الطبعة الأولى، 2015م

جميع الحقوق محفوظة©

دار اكتب للنشر والتوزيع

صديق الرئيس

حكام مصر السريون

د. ياسر ثابت



دار اكتب للنشر والتوزيع



المقدمة

لم تكن مجرد صداقاتٍ عادية، تلك التي جمعت بين حكام مصر وبين آخرين في فترات مختلفة من تاريخ المحروسة. إنها صداقات فتحت لأصدقاء الزعماء والرؤساء والملوك كل الأبواب المغلقة، ومنحتهم صكوك الغفران من المساءلة القانونية والسياسية.

أصبح هؤلاء حكامًا موازيين، فإن كانوا لا يحكمون فإنهم يتحكمون في مصائر العباد وخزائن الدولة، دون أي سند أو مبرر.

الغريب أن هذه الصداقات الغامضة نمت وازدادت تشابكًا لتصل في مراتٍ إلى علاقات مصاهرة، ولتصبح في مراتٍ أخرى مدخلاً إلى علاقاتٍ آثمة.

وفي كل الأحوال، كانت مصر هي التي تدفع ثمن تلك الصداقات. ثمن باهظ، يصعب قياسه بالأرقام أو حصره بالسنين، أو تحديده بالأفراد؛ لأنه ببساطة تم انتزاعه من وطن كبير بحجم مصر.

إحدى هذه الصداقات، وهي الأقرب إلى الأذهان، تسببت بدرجة أو بأخرى في سقوط نظام وانهيار تجربة حُكم للإسلام السياسي دامت

عامًا واحدًا.

صداقة ثانية انتهت بهزيمةٍ عسكرية قاسية تشبه الجرح الغائر في ذاكرة المصريين.

صداقةٌ أخرى، كانت من أسباب سقوط ملك عن عرشه، وثالثة كانت وراء تورط الدولة في استشارات سياسية معيبة ومشروعات اقتصادية خاسرة.

أما الرابعة، فقد أدت إلى نهب مصر طوال عقود، وأفضت إلى الاستيلاء على ثروات مصر فوق الأرض وفي باطنها، وامتدت جغرافيتها إلى ما خارج الحدود، حتى عبرت المحيط الأطلسي.

ومع ذلك، استمرت هذه العلاقات "المتينة" بين رؤساء وزعماء مصر وبين آخرين استفادوا من هذه الصداقات، ربما سياسيًا، أو اجتماعيًا، أو اقتصاديًا.. لكن الفاتورة الباهظة لهذه الصداقات كانت أغلى من أن نتجاهلها أو نمر عليها مرور الكرام.

إن التسمم بالصداقة التي تتداخل مع دوائر السلطة، شأنه في ذلك شأن التسمم بالعداوة، يتعدى مسألة الانحطاط الأخلاقي، ليصبح أيضًا نوعًا من الخذلان السياسي، وخيانة العقد الاجتماعي بين الحاكم والمحكوم، وخيبة كبرى في إدارة شؤون البلاد والعباد بالعدل، دون تحيز أو تمييز.

لقد نسي هؤلاء أن مصر ليست عقارًا يورث أو امتيازًا يُمنح

لأصحاب الحظوة، ممن شاءت الأقدار أن يكونوا من المقربين إلى عزيز مصر، الذي يزل ثم يذل قرب خط النهاية بقليل، كما شهدنا منذ منتصف القرن العشرين حتى اللحظة.

لنا هنا ثلاث ملاحظات:

أولها، أنه في النماذج التي أوردناها في الكتاب، سنجد أن حسين سالم هو المثال الوحيد الذي لم يرحل عن دنيانا قبل رحيل صديقه عن قمة السلطة، وربما كان المثال الأكثر وضوحًا للاتهام بالوقوع في دئرة الفساد المالي عبر بوابة الامتيازات الخاصة والعمولات غير الشرعية والصفقات المشبوهة.

ثانيًا: إن أصدقاء الحكام المخلوعين أو المعزولين الذين نالوا نصيبًا من السلطة والنفوذ أو حصة من المغانم، هم شركاء في الحقبة كاملة ويجب محاكمتهم؛ على الأقل هم من زيَّن للطاغية أفعاله السيئة، وهم من استفادوا من عصره بمكاسب شخصية سواء على مستوى الاقتراب من مواقع صنع القرار أو جني ثروات طائلة تحيط بها الشبهات؛ وبالتالي يصعب عدم اعتبارهم شركاء في كل ما حصل من انتهاكات ومخالفات.

ثالثًا: لا أصدقاء أوفياء في عالم السياسة أبدًا، ولذلك دائمًا ما يكون أصدقاء الحاكم الفرد هم أول من يعريه في حال وقوع خلافات أو صراعات، أو إن سنحت لهم الفرصة.

تحتاج الأمم في ظروف معينة إلى من يُذكرها بماضيها، حتى لا تضل طريقها نحو المستقبل. وتحتاج الأوطان إلى مراجعةٍ هادئة لدفتر أحوالها، حتى لا تقع ضحية جماعات أو عصابات أو نخب سياسية تسرق ثرواتها وتبدد أصولها تفرط في موروثاتها ومنجزاتها.

هذا الكتاب فيه من الحقائق واستقراءات الأحداث ما قد يزعج كثيرين ممن اعتادوا القول إن تاريخنا وحياتنا ومجتمعنا شهد تطورًا طبيعيًا، ويختارون عند وصف ما جرى الجزء المحمود من ذلك التطور، مع إهمال وتحريم الجزء المشين منه.

وفي هذا الكتاب وصفٌ وتحليل لتأثير أصدقاء حكام مصر على حُكمها، والمآلات التي انتهى إليها هؤلاء الحكام ووطنهم، دون خداع أو إغراق في التحيز أو الوهم. هي قراءة كاشفة لصداقاتٍ وتحالفات صاغت ترتيبات الحُكم وتورطت في الانحياز إلى أطراف ومراكز قوى بعينها، لحساباتٍ خاصة حينًا، ولمبايعاتٍ ممجوجة للحاكم المطلق حينًا آخر، تأتي على هيئة صفقات تفضي إلى الاستيلاء على مال عام، أو تمرير نصوص وقوانين قمعية، أو خروج على الإجراءات الديمقراطية.

إنها تذكِرة، بعد أن فقدنا لعقودٍ طويلة البوصلة، بل والقدرة على صناعة المسار الصحيح الراشد والعادل، القادر والفاعل، القابل للتطبيق.

وربما كانت أجواء الصداقات التي تنشأ، والتحالفات الجديدة التي تتشكل على الساحتين السياسية والحزبية في مصر في مرحلة ما بعد

ثورتَي 25 يناير و30 يونيو، دافعًا لنا كي نفتح هذا الملف الشائك، ونشير بأصابعنا إلى هذه العلاقات: بداياتها، ظروف نموها، تأثيرها على الحياة العامة وصنع القرار السياسي أو الاقتصادي في مصر.. والأهم من ذلك كله: حساب "الفاتورة" التي دفعتها مصر ثمنًا لتلك الصداقات الغامضة.

والمعنى هذه المرة ليس في بطن الشاعر.. وإنما على ألسنة الناس.

ياسر ثابت

القاهرة

10 ديسمبر 2014

Email: yasser.thabet@gmail.com



1

الشاطر ومرسي: "أصحاب البلد"

القواسم المشتركة بينهما كثيرة، بدءًا من الانتماء إلى جماعة دينية واحدة، مرورًا بالدور البارز في الجماعة عبر الموقع والدور في مكتب الإرشاد، وانتهاء بالسلطة: أحدهما صار رئيسـًا.. والآخر قاد من وراء ستار.

أما المآلات، فهي تشير حتى اللحظة إلى نهاياتٍ متشابهة بين الرئيس المعزول محمد مرسي والرجل القوي في جماعة الإخوان المسلمين خيرت الشاطر.

الخطير في الأمر أن تلك العلاقة المتأرجحة بينهما رسمت معالم تجربة الحُكم القصيرة للإخوان المسلمين في مصر.

عامٌ واحد كان أكثر من كافٍ لخروج ملايين المصريين مطالبين بإنهاء هذه التجربة بعد تفسخ العقد الاجتماعي وتفككه.

المترفقون بمحمد مرسي يشيرون بوضوح إلى أن خيرت الشاطر يتحمل المسؤولية الأكبر في هذا السقوط المدويّ؛ إذ يعزو المراقبون إلى الشاطر القرارات المفصلية التي شهدها مصر خلال عهد مرسي وما سبقه خلال المرحلة الانتقالية، بهدف دفع الجماعة لتحقيق حلم "التمكين وأستاذية العالم" في أقصر وقت ممكن.

سقطت تجربة الجماعة في الحُكم، وتم الزج بقياداتها في السجون، وصدرت بحقهم أحكام بالإعدام والسجن، وسط قراءات مختلفة لأسباب الفشل الذريع، ومدى تأثير الشاطر في تهاوي تجربة الإخوان في الحُكم بأسرع مما قدَّر كثيرون.

"الإخوان فصيل أساسي في المجتمع، وحريص على مصلحة ونهضة مصر".

تلخص هذه الكلمات شخصية خيرت الشاطر، فهو يحمل راية الدفاع عن الجماعة، بعدما كان عضوًا بمنظمة الشباب التابعة للاتحاد الاشتراكي، ولا يتهاون في دعم مكانتها، فيقول وهو يقف وراء القضبان في عهد مبارك: "إحنا أصحاب الحق في البلد دي"، مدعمـًا رسالته بهتافه الشهير: "قولوا يا ناس لرأس الدولة عمر الظلم ما قوم دولة"[1].

احتكار الحق والحقيقة، واحدة من خطايا كثيرة ارتكبها الشاطر ودفع ثمنها محمد مرسي وباقي أعضاء جماعة الإخوان المسلمين.

---

[1] معتز نادي، خيرت الشاطر في عامه الـــ63.. "مهندس النهضة" يحكم من وراء ستار، موقع "بوابة المصري اليوم" الإلكتروني، 4 مايو 2013.

خيرت الشاطر الذي نال شهادة في الهندسة من جامعة الإسكندرية، ثم أصبح مدرســًا مساعدًا بكلية الهندسة في المنصورة، إلى أن شملته قرارات سبتمبر 1981، تعرض للسجن 5 مرات. الأولى عام 1968 لاشتراكه في المظاهرات الطلابية، ثم عام 1992 في قضية "سلسبيل"، وجاءت الثالثة عام 1995 وبقي بالسجن 5 سنوات، وكانت الرابعة في عام 2001 حيث سُجِن لمدة عام تقريبــًا، والخامسة بدأت في 14 ديسمبر 2006 وبلغت ذروتها في 15 إبريل 2008 حين أصدرت محكمة عسكرية حكمــًا بسجنه 7 سنوات[2].

في قضية "سلسبيل" تحديدًا، اتهمه نظام مبارك بأن جماعته تسعى للسيطرة على مصر من خلال ما عُرف باسم "خطة التمكين"، التي جاءت في 13 ورقة.

وتحدثت سطور "خطة التمكين" التي نسبها نظام مبارك إلى الشاطر، بأنه يسعى لاستيلاء الإخوان المسلمين على الحكم "عبر التغلغل في مؤسسات الدولة الحيوية بداية من الجيش والشرطة، وصولاً إلى النقابات والاتحادات الطلابية، فضلاً عن استقطاب رموز المجتمع من رجال أعمال وفئات شعبية كجدار واقٍ ضد النظام المباركي".

ذهبت "وثيقة التمكين"، التي نشرتها مجلة "المصور" في تسعينيات القرن العشرين، للحديث عن سعي الإخوان المسلمين لإشعار دول

---

[2] سامي عبدالراضي، الإخــوان: خيرت الشاطر المحظور ابن "المحظورة"، جريدة "المصري اليوم"، القاهرة، 7 يونيو 2007.

الغرب وخاصة الولايات المتحدة أنه من صالحهم التعامل مع "الجماعة" عند تمكنهم من كرسي السلطة؛ لأنهم يمثلون "الاستقرار والانضباط".

تنكرت "الجماعة" مما سبه إليها نظام مبارك، بل واستعانت أوساط مؤيدة لها بحديث للرئيس السابق مبارك، مع "لوموند" الفرنسية، نشرت صحيفة "الأهرام" مقتطفات منه، 1993، قال خلاله: "هناك حركة إسلامية في مصر تفضل النضال السياسي على العنف، وقد دخلت هذه الحركة بعض المؤسسات الاجتماعية واستطاعوا النجاح في انتخابات بعض النقابات مثل الأطباء والمهندسين رالمحامين"، أبى مبارك أن ينطق صراحة باسم جماعة الإخوان المسلمين، فهو يراها طوال عهده "محظورة"، لكن أنصار "الجماعة" رأوا في شهادته دليلاً على دعوتها السلمية الرافضة للعنف.

وقبل إسدال الستار على قضية "سلسبيل"، ضرب نظام مبارك جماعة الإخوان المسلمين في مقتل في محاولة لإخماد صوتها قبل الانتخابات البرلمانية، عام 1995، حيث وجه إليها اتهامات نظرها القضاء العسكري تفيد بأن الشاطر ومعه ما يزيد على 40 متهمـًا أداروا على خلاف أحكام القانون "الجماعة"، وعقدوا لقاءات وندوات سرية لشرح مبادئ مناهضة للدستور والقوانين، ونال إثر تلك التهم 5 سنوات، بالإضافة لغلق مقر الإخوان، الكائن آنذاك في شارع التوفيقية، ومصادرة جميع ما فيه[3].

---

[3] معتز نادي، خيرت الشاطر في عامه الـــ63.. "مهندس النهضة" يحكم من وراء ستار، مصدر سابق.

"أحكام سياسية غير جنائية ولا قضائية.. ولم تكن تلك الأحكام عقابـــًا على جريمة، ولكنها كانت مانعـــًا صُنع عن عمد، للحيلولة بين رجال الإخوان المسلمين وبين خوض الانتخابات البرلمانية التي أجريت سنة 1995".. كان ذلك تعليق المحامي، آنذاك، د. محمد سليم العوا، الذي كان ضمن فريق الدفاع عن متهمي الإخوان[4].

ومع مطلع الألفية الثالثة، ظهرت القضية التي عُرفت باسم "العرض العسكري"، وبقي مسلسل الصراع بين مبارك والشاطر ما يزيد على 70 جلسة، حتى نال حكمـــًا عسكريـــًا يجبره على البقاء خلف القضبان لمدة 7 سنوات.

ورغم تكرار اعتقاله والحُكم بسجنه، فإن الشاطر ظل الرقم الصعب في معادلة الإخوان المسلمين، وظل أبعد من مجرد رجل أعمال، وأكبر من مجرد قيادة تنظيمية لتلك الجماعة الدينية، بل هو مزيج نادر منهما. وجد خيرت الشاطر أقلامـــًا وأصواتـــًا محايدة تأسف للأحكام الصادرة ضده، وترى أن "كل جريمته أنه ينتمي لمعسكر معارض للنظام، ومن الشرفاء الذين لم يلوثهم في أي يوم من الأيام جرائم رجال الأعمال الذين تضعهم الدولة فوق الرؤوس الطالح قبل الصالح، واعتبرته رجل أعمال يقوم على تمويل جماعة الإخوان الإرهابية التي تتكفل بآلاف الأيتام والأرامل والمطلقات وذوي الحاجات"[5].

---

[4] د. محمد سليم العوا، قضية الإخوان المسلمين، دار الشروق، القاهرة، 2012.

[5] أحمد الخطيب، المهندس خيرت الشاطر، جريدة "المصري اليوم"، القاهرة، 21 إبريل 2010.

بعد ثورة 25 يناير 2011، والإفراج عنه بعفو صحي، أصبح يُنظر إلى الشاطر على أنه الرجل الحديدي داخل الجماعة، وأحد الذين يرسمون إطار المحادثات مع المجلس العسكري، حيث أشرف على إدارة الانتخابات البرلمانية وتفاو ـ مع ممثلي دول الخليج وصندوق النقد الدولي بشأن حصول مصر على قروض، قبل أن ترشحه الجماعة لخوض أول انتخابات رئاسية في مصر بعد سقوط نظام حسني مبارك[6].

فقد فاجأ المرشد العام للجماعة، د. محمد بديع، شعب مصر في نهاية مارس 2012 بإعلانه أن الشاطر رضخ لقرار مكتب الإرشاد بعد تصويت مجلس شورى الجماعة بالترشح لرئاسة مصر، وقدم استقالته من منصبَي نائب المرشد وعضو مكتب الإرشاد حتى يكون "مرشحـــاً لكل المصريين".

طوفان الدعاية الإخواني انطلق يروج لمرشحه على أنه صاحب "مشروع النهضة" إلى جانب شعار آخر لمرشحي الجماعة في أول انتخابات نيابية بعد ثورة ميدان التحرير ، وهو "نحمل الخير لمصر".

مثَّل الدفع بالشاطر الخارج لتوه من السجن إشارة لبدء عهد جديد لم تعد فيه الجماعة ضحية نظام حُكم قائم، وإن لم تتخل عن الخطاب الذي يعلن تعرضها الدائم للتهديد والتربص. فعقب الثورة خرجت جماعة الإخوان المسلمين "من ظلمة السجن إلى أروقة

---

[6] هاني الوزيري، الإخوان تختار "الشاطر" مرشحـــاً للرئاسة، جريدة "المصري اليوم"، القاهرة، 1 إبريل 2012.

القصور"، حسب تعبير ناجح إبراهيم، القيادي السابق في الجماعة الإسلامية. فكما انحسرت موجة الثورة الأولى كاشفة عن عماد تنظيم جماعة الإخوان المتماسك الذي يدين بالولاء لرأسه -المرشد العام ونائبه محمود عزت- انحسرت غياهب السجن عن الشاطر كاشفة عن إمبراطوريته الاقتصادية، مترامية الأطراف، التي لم يمسسها سوء، وقوة التنظيم المساند له الذي لم تفككه الملاحقات المستمرة ولا التحالفات المشهرة مع نظام مبارك[7].

تقدم الشاطر بأوراقه إلى اللجنة العليا للانتخابات الرئاسية، لكن الحلم الإخواني بالوصول إلى كرسي الرئاسة واجه صعوبة عندما قرر "الصندوق الأسود لنظام مبارك"، عمر سليمان، مزاحمة "الجماعة" في السباق الرئاسي. إلا أنه يبدو أنه تمت الاستعانة برجل المخابرات كي يسحب معه مرشحين أثارا الجدل في قطار الرئاسة، فمنعت اللجنة العليا للانتخابات الشاطر من تحقيق حلم "الجماعة"، فاستبعدته من السباق لعدم صدور عفو صريح يرد إليه اعتباره ويعيد إليه حقوقه السياسية في القضايا سالفة الذكر، كما ابتعد أبو حازم صلاح إسماعيل لحصول والدته على الجنسية الأميركية.

ابتعد الثلاثي ولجأت "الجماعة" لترشيح د. محمد مرسي، الذي نافس للنهاية ضد الفريق أحمد شفيق، حتى وصلت جماعة الإخوان المسلمين للكرسي.

---

[7] عزة مغازي، 5 رجال اغتالوا حلم البنا، جريدة "المصري اليوم"، القاهرة، 6 يوليو 2013.

قبل حسم هوية رئيس مصر في صيف 2012، استبق خيرت الشاطر، نائب مرشد جماعة الإخوان المسلمين الأمر في 14 يونيو 2012 بحديث للصحفي ديفيد إيغنيشاس من "واشنطن بوست"، قال فيه إن "الشعب لن يقبل [أحمد] شفيق رئيسـًا، وسيعود الشعب للتحرير فور الإعلان عن ذلك. إذا كان خيار الشعب هو الاحتجاج، فنحن معه". وحذر خيرت الشاطر المجتمع الدولي من اتخاذ خطوات متسرعة للاعتراف بشفيق. "الثورة المقبلة ستكون أقل سلمية، وأكثر عنفـًا من تلك الي أطاحت بمبارك. سيكون من الصعب السيطرة على الشوارع، بعض الأطراف، وليس من بينها الإخوان، قد تلجأ لمزيد من العنف والتطرف، عندما يجدون باب التغيير السلمي موصدًا".

هذه هي اللغة المفضلة لرجل الجماعة القوي، خيرت الشاطر، الذي ساند محمد مرسي في السلطة، اقتناعـًا منه بأن الأخير يأتمر بأمر مكتب الإرشاد، وينفذ تعليماته في نهاية الأمر.

كرَّت حبات السبحة، حتى فاز مرشح الجماعة بمنصب الرئيس؛ ليبدأ مسلسل التمكين والأخونة، وإقصاء المخالفين في الرأي، وشن حروب على القضاء والإعلام، وإصدار إعلانات دستورية تعطيه صلاحيات مطلقة، دون تحقيق تطلعات المصريين ومطالب الثورة.

لم يبتعد خيرت عن المسرح، بل كان المحرك الرئيسي لكل ما يجري.. ربما لم يطلب الرجل ذلك، لكن الذي حدث هو أن مرسي، أو بمعنى أدق مكتب الإرشاد، فوَّضه في مسؤوليات كثيرة، منها تحديد وتقرير مدى صلاحية وزراء حكومة د. هشام قنديل، فكان يقابلهم

فردًا فردًا.. وفي يوم كان جالســًا بمكتبه وحوله مجموعة من الشباب، إذا به يقول لهم، تباهيــًا وتفاخرًا، إن جميع الوزراء مروا عليه؛ ثم استطرد قائلاً: الشخص الوحيد الذي لم ألتقه هو وزير النقل والمواصلات، وربما أراه قريبــًا، فقال أحدهم في غطرسة وغرور لا يخلوان من المداهنة والتملق: نأتي به إليك هنا يا باشمهندس[8].

حاولت الجماعة، تحت قيادة الشاطر، أخونة الدولة وتخويل رئيسها صلاحيات دكتاتورية في إعلان دستوري للمضي في هذا المشروع لنهايته. استهدف الإعلان، الصادر في نوفمبر 2012، التنكيل بالمعارضة بظن أن الديمقراطية تنال من مشروع "التمكين" وأن المعارضة صداع يتعين التخلص منه. ورغم التراجع الإجباري عن هذا الإعلان فإن جوهر توجهه ظل ماثلاً حتى اللحظات الأخيرة في الحُكم.

لم تفكر الجماعة في أية حلول سياسية وفق قواعد الديمقراطية، وتحدثت في وقت واحد عن الشرعية والشريعة كأنها ساحر على مسرح مولد ريفي. تلاعب مكشوف بالمفاهيم والحقائق وخلط ما لا يختلط، فمرة تتحدث عن الديمقراطية والأغلبية ومرة أخرى تتحدث بلغة العنف والتلويح بالسلاح. مرة عن الدولة الحديثة ومرة أخرى عن الدولة الدينية.

الأخطر أنها دخلت –بقيادة الشاطر وتحت رعايته– في تحالفات شبه معلنة مع تنظيمات تكفيرية ورفعت أعلام القاعدة في تظاهراتها واندفعت في أعمال عنف ضد مواطنيها عمقت مشاعر كراهيتها. امتد نفوذ

---

[8] محمد حبيب، لماذا فشل الإخوان؟!، جريدة "المصري اليوم"، القاهرة، 20 إبريل 2014.

الشاطر إلى الهيئة الشرعية للحقوق والإصلاح التي احتل موقع العضوية فيها، وهي جبهة تضم عددًا من مشايخ التيارات السلفية والجهادية ورجال الدين المحسوب بعضهم على جماعة الإخوان المسلمين، مما دعا الشاطر نفسه للتقدم باستقالة رفضها علماء الهيئة.

حتى عندما كان الشعب يئن ويحتج ويتظاهر، كان الشاطر ينبري ليهاجم معارضي الرئيس مرسي ويصفهم بأنهم "أقباط وفلول وعلمانيون"[9].

كانت إدارة جماعة الإخوان للدولة أقرب إلى أعمال الهواة وأضفت على رجلها القوي، الشاطر، صفة "العبقرية" بينما هو يقودها إلى حتفها.

لم تتوقع النهايات؛ لأنها لم تقرأ البدايات.

لم يكن خيرت الشاطر على أدنى استعداد لقراءة المشاهد التي تتحرك أمامه أو رؤية مزالقها إلى نهاياتها.

تصور أنه وجماعة الإخوان المسلمين في موقع قوة يخول الانفراد بالسلطة السياسية وتقويض مؤسسات الدولة واعتقال المعارضين بعد أن يفشلوا في التظاهرات التي ينتوون تنظيمها.

بنى الشاطر حساباته على فكرتين. الأولى أن الجماعة تحوز قوة تنظيمية ومالية لا تتوافر لأية أطراف أخرى، وتحالفاتها اتسعت إلى حد يردع بالسلاح التفكير في إزاحتها.

---

[9] من كلمة المهندس خيرت الشاطر في مؤتمر صحفي للهيئة الشرعية للحقوق والاصلاح عقدته يوم 8 ديسمبر 2013، قال: إن 80 في المائة من المتظاهرين أمام قصر الاتحادية ضد قرارات مرسي هم من الأقباط، وهذا الكلام كرّره أيضًا د. محمد البلتاجي، القيادي في جماعة الإخوان.

والثانية أن الجيش لن يتدخل تحت أي ظرف وأيـًا كانت أحجام التظاهرات واحتمالات الصدام في الشوارع المضطربة استنادًا إلى فكرة خاطئة أو متوهمة مفادها أن السيسي هو رجل الجماعة القريب من أفكارها وتوجهاتها.

أزاح الشاطر الحلول السياسية من على أجندة تفكيره أقرب إلى التهديد والعجرفة.

في لحظات الحسم، بدا خطاب الشاطر خليطـًا من عجرفة القوة والتهديد بالدماء، وتصور رغم الحقائق حوله أنه يمكن أن تحصد كل شيء بلا تنازل واحد.

في اللحظات الأخيرة قبل الإطاحة بالرئيس الأسبق محمد مرسي، توافرت حلول سياسية أمام الجماعة للخروج من مأزقها بأقل خسائر ممكنة، لكنها استهترت على نحو ألحق بها أسوأ هزيمة في تاريخها منذ تأسيسها.

من هذه الحلول تغيير النائب العام المستشار طلعت عبدالله، الذي كانت تصفه المعارضة بـ"النائب الخصوصي"، وتضع إقالته في مقدمة مطالبها.

لم يكن الأمر يتعدى إعلان الالتزام بالأحكام القضائية التي أبطلت توليه منصبه، لكن ضيق الجماعة بالقضاء والعمل على تقويض مؤسسته دعاها إلى تحدي أحكامه، وانتقص ذلك بفداحة من شرعية الرئاسة وتأسيس ثأرات امتدت آثارها.

ومن هذه الحلول إقالة حكومة د. هشام قنديل والسعي إلى حكومة توافقية، وكان ذلك مطلبـــاً رئيســاً لجبهة "الإنقاذ الوطني، التي كانت راية المعارضة وقتها.

لم تكن الحكومة نفسها تحـى بقبول كبير في أوساط الجماعة، ودأب رجلها القوي خيرت الشاطرعلى الحديث باستخفاف عن رئيسها، حسب معلومات متواترة[10].

الشاطر هو عقدة الموقف كله. كان يمسك بيده مقاليد الجماعة، ومرسي اعتاد لسنوات طويلة أن يتبعه. تطلع لتولي رئاسة الحكومة بعد حصد الجماعة أكثرية أول مجلس نيابي بعد ثورة 25 يناير، غير أن المجلس الأعلى للقوات المسلحة "المجلس العسكري" مانع في طموحه. تحاور طويلاً في هذا الملف مع قادة عسكريين بينهم رئيس المخابرات الحربية في ذلك الوقت اللواء عبدالفتاح السيسي، واستمع إلى الردود نفسها.

حسب رواية موثقة للواء حسن الرويني، قائد المنطقة العسكرية المركزية السابق، فإنه أبلغ الشاطر أن هناك ثلاثة خطوط لا يجب تخطيها، والرسالة بنصها تلقاها مرسي عندما فاتحه في أمر الجيش والإخوان.

الأول، التفكير في حصة للجماعة في دفعات الكليات العسكرية، فالجيش ليس حزبيـــاً ولا طائفيــاً.

والثاني، التفكير في تولي الحكومة، فهذه قضية مستبعدة الآن.

---

[10] عبدالله السناوي، إما كل شيء أو لا شيء.. وقد كان، جريدة "الشروق"، القاهرة، 30 يونيو 2014.

والثالث، التفكير في الترشح لرئاسة الجمهورية، فهذا يصعب قبوله[11].

الخط الأخير جرى اختراقه وتراجعت الجماعة بضوء أخضر أميركي عن تعهدها السابق بعدم الترشح للرئاسة وطرح الشاطر نفسه في سباقها قبل أن يخلي موقعه لأسباب قانونية للمرشح البديل مرسي.

بدرجة ما نشأت حساسيات بين المرشح الأصلي والرئيس البديل، وتدخل في أكثر من موضع المرشد العام محمد بديع لتخفيضها ومنع تفاقمها. الشاطر طلب السلطة الفعلية معتقدًا أنه صاحب الحق فيها والأكثر مقدرة، وفي سعيه لرئاسة الحكومة سعيٌ آخر لكي يكون صاحب الكلمة الأولى في أية قرارات سياسية تصدر، ومرسي حاول أن يمنع صعوده لرئاسة الحكومة خشية أن يتعرض لإذلال أدبي بتصويره على أنه مجرد واجهة لا سلطة معها. لهذا السبب فإنه قاتل تقريبــًا للحفاظ على قنديل في رئاسة الحكومة، وربما أراد أن يثبت لخيرت الشاطر أمام طغيان مكتب الإرشاد في الاتحادية أنه هو الرئيس.

لم تكن إقالة الحكومة جملة سياسية عادية، حيث كان الشاطر ينتظر إقالتها ليصعد هو شريكــًا أول في السلطة، ولا يتصور أن تُقال ليصعد غيره باسم التوافق الوطني.. ومرسي يرفض إقالتها خشية صعود رئيس حكومة قوي من داخل الجماعة أو خارجها يضعه في حالة انكشاف.

---

[11] المصدر نفسه.

في إدارة الأزمة، تراجع دور الرئيس لصالح دور رجل الجماعة. مال مرسي تحت الشعور بالخطر لتهدئة المناخ العام وتعهد لوزير الدفاع عبدالفتاح السيسي بإجراءات جدية محددة. غير أنه ألقى في 23 يونيو 2013 خطابـــاً مناقضـــاً في قمة المؤتمرات بتوجيهات من الشاطر، فتح المجال واسعـــاً لإطاحته من الحكم.

في الخطاب المذكور، هاجم مرسي القضاء والإعلام ورفض أية إشارة لتغييرات تستجيب لمتطلبات التهدئة ولوح بإجراءات استثنائية، والتنكيل بخصومه، وهدد بالاحتراب الأهلي. استخدم نفس اللغة التي تبناها الشاطر واتسعت من فوق منصة رابعة العدوية قبل الإطاحة به وبعدها.

في تلك اللحظة تقوضت شرعية مرسي نهائيـــاً، وبدت الجماعة في حالة انتحار تاريخي.

2

الشاطر ومرسي :
صفقات سرية

عاش خيرت الشاطر طويلاً أسير فكرة تقوية تنظيم تحت الأرض بكل حيل التجار، الذين يستعيدون ثرواهم بقوة شخصياهم، دون أن يكون ذلك دليلاً على عبقريتهم الاقتصادية.

في المغامرة الإخوانية، أثبت خيرت الشاطر أنه قناص شعوب تستهلك ولا تنتج.. وأفكاره لا تتعلق سوى بتغيير وجهة الاستهلاك.

بعد عزل الرئيس محمد مرسي، تعالت المطالب الشعبية بالقبض على الشاطر، وهو ما جرى في 5 يوليو 2013 ليتم نقله إلى سجن طرة، ليبدأ التحقيق معه بشأن اهامه بالتحريض على قتل المتظاهرين أمام مكتب الإرشاد. وسرعان ما قرر المستشار هشام بركات، النائب العام، التحفظ على أموال الشاطر ضمن 14 من قيادات جماعة الإخوان المسلمين والتيار الإسلامي، على خلفية أحداث ميدان النهضة بالجيزة، ومحيط مكتب الإرشاد بالمقطم، إلى جانب الأحداث التي وقعت أمام دار الحرس الجمهوري، وقصر الاتحادية[12].

---

[12] أحمد شلبي، التحفظ على أموال بديع والشاطر و12 من قيادات "الإخوان" وحلفائها، جريدة "المصري اليوم"، القاهرة، 15 يوليو 2013.

غير أن ما يهمنا هنا هو ما كشفته المراسلات السرية للشاطر التي تسربت إلى وسائل الإعلام عقب إلقاء القبض عليه؛ إذ تبين هذه المراسلات والمستندات تعدد الأنشطة الاقتصادية للشاطر وتنوعها، وضلوعه في الوساطة بين مستثمرين وحكومة د. هشام قنديل، بدرجة أكبر من أي وزير في تلك الحكومة.

تضم المستندات مراسلات حول شراكة بين إحدى أكبر شركات الرخام في العالم، وهي شركة "هاز" السعودية المتخصصة في الأنواع الراقية في الرخام.

المراسلات الممتدة منذ بداية يونيو 2013، تدور حول صفقة من طرف خيرت الشاطر، وأشرف سري، عضو المكتب التنفيذي لمشروع النهضة، وعز ناصر، مدير شؤون دولتي مصر وسوريا في مجموعة "فيلوسي" العالمية، من جهة، وهاني أبو بكر من جهة، ومدير منطقة الشرق الأوسط بشركة "هاز" ويقع مكتبه في أبوظبي بالإمارات.

ويظهر من المستندات أن المفاوضات حول قيمة "هاز"، التي تقدر بـــ40 مليون دولار، وأن مُعامل الربح 28 مليون دولار، وأن هناك تفاوضـــاً بين الشركة وسري حول رغبة "الطرف المصري"، الذي لم يتم تحديد هويته بالضبط، الاستحواذ على نسبة من الشركة.

ويعرض سري دفع 20 مليون دولار، مقابل الاستحواذ على 30% من الشركة. ولا يظهر من المراسلات إن كانت الصفقة اكتملت أم لا.

في رسالة أخرى، تلقى الشاطر رسالة من "أفنتيكوم كابيتال" في فبراير 2013، وهي مشروع مشترك للاستثمار بين "كريديه سويس" السويسرية، والقابضة القطرية؛ حيث تشكر الشركة الشاطر على زيارتها لها يوم الاثنين الموافق 11 فبراير في العاصمة القطرية الدوحة، وتطلب منه مقابلته، وأن يتولى ترتيب زيارة بين مسؤولي الشركة من جهة، ومحافظ البنك المركزي، ووزير المالية، ووزير البترول والثروة المعدنية، ووزير التجارة الخارجية، ورئيس الوزراء، والرئيس إن أمكن[13].

وتظهر ثقة الشركة في قدرة الشاطر على تنظيم هذه اللقاءات وتسهيل أمور الشركة، رغم أنه لا يتمتع بأي صفة رسمية خارج إطار جماعة الإخوان المسلمين.

على حبال السياسة يسير الاقتصاد.

يقول الباحث والمحاضر في جامعة دورهام البريطانية، د. خليل العناني، إنه على مدار العقد الأول من الألفية الجديدة نجح تحالف "عزت- الشاطر" (بالمناسبة فإن العلاقة بين الرجلين لها جذور قديمة بدأت في اليمن أولاً ثم بريطانيا لاحقاً وذلك خلال النصف الأول من ثمانينيات القرن العشرين) في إعادة الهيكلة الفعلية (وليست

---

[13] أحمد عطية، بالمستندات.. الوطن تخترق حصار أقوى رجال الجماعة.. وتنشر مراسلات الشاطر لأعضاء الإخوان "الملف الكامل": إمبراطورية خيرت الاقتصادية.. مفاوضات لشراء مصنع رخام سعودي.. وتوكيل ملابس تركية.. ومراكب لصيد التونة، موقع "بوابة الوطن" الإلكتروني، 7 يوليو 2013.

اللائحية) للجماعة بحيث باتت مفاصل التنظيم تحت الهيمنة الكاملة للمحافظين. على سبيل المثال جرى إعادة ترتيب مكتب الإرشاد وتم إقصاء كافة الوجوه الإصلاحية ومن أبرزها أبو الفتوح ومحمد حبيب الذي خرج من الجماعة بشكل لم يكن يليق بوزنه كنائب أول للمرشد. كما تمت إعادة هيكلة مجلس شورى الجماعة كي يضم الكثير من أبناء المحافظات كما أعيد ترتيب الوزن التنظيمي والتمثيلي للمكاتب الإدارية ومجالس شورى المحافظات. وتم تصعيد جيل جديد من المحافظين أكثر ولاء وتبعية لتكتل "عزت -الشاطر"، لعل أبرزهم محمد سعد الكتاتني وسعد الحسيني وصبحي صالح ومحمود غزلان ومحيي حامد ومحمد عبدالرحمن وأسامة نصر وعبدالرحمن البر وعصام الحداد، وقبلهم جميعـاً الرئيس المعزول محمد مرسي[14].

ومن المجموعة الأخيرة، ستجد أسماء ترددت في عهد مرسي باعتبارهم من أهل السياسة، في حين أن نشاطهم الاقتصادي والتجاري لا تخطئه العين.

والحقيقة أنه بعد ثورة 25 يناير، أصبح رجال الشاطر وشركاؤه نجومـاً في المشهد السياسي الإخواني، ومنهم د. حسام أبو بكر، شريك الشاطر وصاحب شركة "هيونداي للمصاعد"، الذي تم تصعيده إلى عضوية مكتب الإرشاد بعد الثورة مباشرة.

---

[14] د. خليل العناني، البريسترويكا الإخوانية، جريدة "الشروق"، القاهرة، 3 مارس 2013.

يعد رجل الأعمال الإخواني حسن مالك، أحد قطبَي الإمبراطورية الاقتصادية لجماعة الاخوان المسلمين، مع خيرت الشاطر، ويوصف بأنه "شاهبندر تجار جماعة الإخوان المسلمين"15.

ولد مالك في 28 أغسطس 1958 في القاهرة، وبدأ حياة البيزنس تاجرًا للقماش في الأزهر مع والده، وهو خريج كلية التجارة جامعة الإسكندرية عام 1980.

مالك وغيره من رجال الأعمال المنتمين إلى الجماعة، كانوا في صف خيرت الشاطر، الذي طبق قاعدة ذهبية مفادها: من يمول.. يقود.

بدت توجهات الشاطر الاقتصادية أقرب إلى النيوليبرالية، وربما تقاطعت في كثير من الأحيان مع سياسات الرئيس الأسبق حسني مبارك الاقتصادية.

في 9 يونيو 2012 أكد ستيف فارس رئيس الجانب الأميركي في مجلس الأعمال المصري الأميركي أن العلاقات الاقتصادية مع مصر ستستمر قوية، وأن تدفق الاستثمارات الأميركية على مصر سيستمر حتى لو وصل الإخوان المسلمون للحُكم طالما أن السياسات الاقتصادية تحفز وتشجع على جذب الاستثمارات، "فالمهم هو السياسات وليس من يصل إلى الحُكم".

---

[15] نشوى الحوفي، "مالك" شاهبندر التجار، جريدة "المصري اليوم"، القاهرة، 7 سبتمبر 2012.

وفي 24 يناير، إبان الذكرى الأولى لثورة 25 يناير، أشادت صحيفة "نيويورك تايمز" بما أبدته جماعة الإخوان المسلمين من انفتاح بقبولها إلقاء صندوق النقد الدولي بـــ"حبل النجاة اقتصاديا للقاهرة"، وذلك خلال لقاء لم يُنشر عنه إعلاميـــاً جمع ممثلين عن الجماعة مع ممثلي الصندوق، لافتة النظر إلى مفارقة أن يحدث هذا التحول في توجهات الجماعة "بعد ثمانية عقود من شجب الاستعمار الغربي والتبعية العربية".

وبعدها في 5 فبراير نشر موقع "صالون" الإخباري الأميركي مقالاً بعنوان "الإخوان الجمهوريون في مصر"، يشير إلى أوجه التشابه بين الإخوان المسلمين والحزب الجمهوري، فكلاهما "يقوده مجموعة من رجال الأعمال شديدي الثراء، يتبنون مفاهيم السوق الحرة والخصخصة، ولا يحبون فكرة إعادة توزيع الثروة، ويفضّلون بدلاً منها التصدق على الفقراء من أتباعهم بأعمال البر والإحسان"، ويشير المقال إلى أن خيرت الشاطر يبدو أنه أقوى رجال الإخوان، وهو "داعية متحمس للخصخصة".

قواعد السوق سارت على نسق عهد مبارك، مع ظهور نجوم جدد من جماعة الإخوان.

أخذت النخبة المسيطرة على مقدرات المصريين تُعيد تشكيل نفسها بهدوء بعد حالة مؤقتة أصابتها من عدم التوازن. غير أن المحتكرين القدامى أصبحوا مُجبرين على فتح المجال لنخبة البيزنس الإخوانية الصاعدة، بزعامة عرَّاب الجماعة خيرت الشاطر ورجال

أمثال عبدالرحمن سعودي وأيمن عبدالغني، صهر خيرت الشاطر، وأحمد شوشة وشريكه حسن مالك وغيرهم، ممن سعوا لترتيب السوق واستعادة هدوئه، وطمأنة من يملكون آلياته من نخب قديمة بأنهم فقط يريدون نصيبهم من الربح لا تصفية الحسابات[16].

وفي الحقيقة أن تجربة الإخوان الاقتصادية لم تكن تعدو مجرد تجميل للرأسمالية الغربية بمساحيق فقهية، يُطلق عليها خطأ أنها الرؤية الاقتصادية للإسلام، من زاوية "الاستمتاع بزينة الدنيا"، و"التحدث بالنعمة"، و"حق التملك الخاص"، ليبقى للفقراء مجرد صدقات وليس حقوقـاً[17].

وحسب دراسة استقصائية أعدها باحثون في مركز النيل للدراسات الاقتصادية والاستراتيجية، فإن بعض الإخوان المسلمين امتلكوا "إمبراطوريات مالية صغيرة" لا يقل رأسمال الواحدة منها عن 500 مليون جنيه، إلى جانب إمبراطوريات أكبر في الخارج يبلغ رأسمالها مليارات الدولارات. ويُنكر الإخوان هذا بالطبع، ويُسربون أحيانـاً أرقامـاً متواضعة عن حجم ثروات بعض رجال أعمالهم في مصر مثل خيرت الشاطر وحسن مالك.

---

[16] محمد همام، محمد مرسي والـ80 حرامي، موقع "الاشتراكيون الثوريون" الإلكتروني، 29 أغسطس 2012، http://revsoc.me/economy/mhmd-mrsy-wl-80-hrmy

[17] د. عمار علي حسن، الإخوان و"الرأسمالية المتوضئة" (2ـــ 2)، جريدة "المصري اليوم"، القاهرة، 22 مارس 2013.

أغلب هذه القدرات الرأسمالية الإخوانية غير تنموية؛ لأنها تقوم بالأساس على التجارة. وينصرف جزء كبير أيضـــاً من هذه الأنشطة إلى التوزيع والخدمات،وليس بالقطع إلى استصلاح الأرض وفلاحتها، وتشييد المصانع، وتعزيز اقتصاديات المعرفة. ولا يبدو، حتى الآن، ما يدل على أن الإخوان يُغيرون توجهاتهم الاقتصادية، عن طريق جلب رؤوس أموالهم المستقرة في الخارج بهدف استثمارها في الداخل18.

وكرئيس خرج من رحم الجناح اليميني النيوليبرالي لجماعة الإخوان المسلمين، فقد أبدى محمد مرسي بدوره اهتمامـــاً بإنشاء تحالف بين البورجوازيين الإسلاميين النيوليبراليين،ويمثل خيرت الشاطر أبرز وجوههم، وبين البورجوازية المباركية19.

يبقى سؤال جوهري: ما هو حجم ثروة خيرت الشاطر؟

---

[18] د. عمار علي حسن، الإخوان و"الرأسمالية المتوضئة" (1- 2)، جريدة "المصري اليوم"، القاهرة، 15 مارس 2013.

[19] د. عمار علي حسن، الإخوان و"الرأسمالية المتوضئة" (1- 2)، جريدة "المصري اليوم"، القاهرة، 15 مارس 2013.

3

الشاطر ومرسي:
إمبراطورية عائلية

يعد خيرت الشاطر من أبرز أثرياء الإخوان المسلمين في مصر، ورجل الأعمال الأقوى في الجماعة.

انضم إلى جماعة الإخوان عام 1974، قبل أن يصبح عضوًا في مكتب الإرشاد عام 1995. شغل موقع النائب الثاني للمرشد العام في عهد المرشد محمد مهدي عاكف، والنائب الأول للمرشد العام د. محمد بديع.

وُلِدَ محمد خيرت سعد عبداللطيف الشاطر، لأسرة متوسطة الحال في شربين بمحافظة الدقهلية في 26 يونيو عام 1950. انضم في سن مبكرة إلى التنظيم الطليعي، واعتُقِل بسبب دوره في احتجاجات داخل الجامعة عام 1968، ليُسجن عدة أشهر ويتم تجنيده إجباريـــاً مع آخرين أثناء دراسته، مما جعله يتأخر عن زملاء الدراسة حوالي عامين.. ثم خرج من الجيش وقد اقترب كثيرًا من الفكرة الإسلامية.

تقارب الشاطر مع "الجماعة الدينية" التي ظهرت عام 1971، ثم ما لبث أن انضم إليها قبيل تحولها إلى جماعة "الدراسات الإسلامية" عام 1973. أنشأ عام 1973 جمعية فاطمة الزهراء للأخوات، وقام فيها بدور فعال ونظم الكثير من اللقاءات والمحاضرات.

ولما انتهى من دراسته بهندسة الإسكندرية عام 1974، عاد إلى المنصورة، وهناك احتك بالشيخ صبري عرفة ومحمد العدوي، وهما من القيادات المعروفين في جماعة الإخوان المسلمين، أو من يطلق عليهم جيل تنظيم 1965. تأثر بهما الشاطر كثيرًا والتحق رسميـــًا بالجماعة[20].

وعندما شن نظام السادات اعتقالات سبتمبر الشهيرة عام 1981 سافر الشاطر هاربـــًا من الملاحقة، وظل يتنقل من دولة إلى أخرى، فذهب للسعودية، وهناك التقى بالمهندس أسامة سليمان الذي كان يعمل في تجارة العملة آنذاك. عمل الشاطر مع سليمان في تجارة العملة أو قيل إنه دخل بأمواله دون المشاركة المباشرة معه، لكنه تعرض لخسائر مالية فادحة.

ثم ذهب إلى الأردن، فاليمن، وانطلق بعد ذلك إلى انجلترا، وظل في غربته نحو سبعة أعوام مارس فيها التجارة في كثير من المجالات دون أن يعوض ما خسره في تجارة العملة.

وإذا كان قد بدأ الشاطر نشاطه الاقتصادي في أوائل ثمانينيات القرن العشرين، فإنه انتهى به الأمر بعد نحو ربع قرن بثروة قدَّرها

20 هيثم أبو خليل، خيرت الشاطر المفترى عليه.. والمفتري علينا (1)، موقع "البديل" الإلكتروني، 21 مارس 2012.

البعض بحوالي 40 مليون جنيه، وقدّرتها الدولة بحوالي 15 مليون جنيه21؛ إذ إنه عقب عودته من السفر عام 1987، دخل في تجارة متنوعة مع صديقه القديم حسن مالك شملت الاستيراد والتصدير، ثم ما لبثا أن أسسا شركة "سلسبيل لخدمات الحاسب الآلي"، التي كانت من أولى وكبرى شركات الحاسب الآلي في مصر.

مع بدء سيطرة الإخوان على النقابات المهنية، أسس الشاطر ومالك شركة "سلسبيل لتنظيم المعارض"، واستطاع الشاطر الترويج لشركته والاستحواذ على معارض السلع المعمرة الخاصة بالنقابات، وخاصة نقابة المهندسين، بعدما أزيح منظم هذه المعارض وقتها المهندس هشام الحداد صاحب الشركة العربية لتنظيم المعارض والشقيق الأصغر للمهندس مدحت الحداد رئيس المكتب الإداري لإخوان الإسكندرية.

واعتُبرت معارض السلع المعمرة في عام 1991 لشركة "سلسبيل" نقطة انطلاق للشاطر ومالك، حيث خرجا منها بأرباح تجاوزت عدة ملايين بأسعار هذه الأيام نتيجة لنسبة المرابحة العالية في هذه المعارض.

امتد نشاط الشاطر إلى عدة مشروعات أخرى مثل تمليك المشروعات الصغيرة بالتقسيط، وإنشاء سلاسل من محال تجارية في مجالات مختلفة، بالإضافة إلى تأسيس شركة لتصدير الخامات للخارج والعمل في المجال الزراعي والحيواني22.

---

21 الحلال والحرام في ثروة الشاطر وعز، جريدة "الدستور"، القاهرة، 7 مارس 2007.

22 د. ياسر ثابت، قصة الثروة في مصر، دار ميريت، القاهرة، 2012، ص 387.

حقق الشاطر نجاحات متفرقة في التجارة مع شريكه حسن مالك في مصانع ومحال الأثاث التركية، في حين لم يوفق عندما أنشأ شركة "كول سنتر" بتكلفة بلغت 6 ملايين جنيه وأسند إدارتها إلى شقيقه الأصغر بهاء وخسر فيها خسارة كبيرة. كما استثمر الشاطر في مجال البتروكيماويات إلا أنه لم يحقق فيها أيضًا نجاحًا كبيرًا. وأنشأ أيضًا شركة ICG في مجال الاتصالات وتكنولوجيا المعلومات، واستثمر في مجال الأراضي والسيارات بصورة واسعة23.

بعد تعثر مشروع "سلسبيل" عام 1992 إثر ملاحقات أمنية ومصادر أمواله، استأنف الشاطر نشاطه الاقتصادي في مجال الأدوية وتصدير المنسوجات للخارج، وأسس في ذلك الوقت شركات مثل "حياة" للأدوية و"الأنوار" للأدوات الكهربائية و"مالك" و"رواج" وغيرها24. وامتلك أيضًا "سيوة" لاستصلاح الأراضي، و33% من فرجينيا للسياحة.

مع توسع نشاطه، اختير عضوًا في مجلس إدارة المصرف الإسلامي، ومجلس إدارة بنك المهندس، وعدد من الشركات المساهمة الأخرى. بعد الإفراج عنه عام 2011، أسس الشركة المصرية لأسواق التوفير "زاد" المالكة لسلسلة "زاد" لتجارة التجزئة.

خلال فترة الحديث عنه كمرشح رئاسي محتمل في عام 2012، بادر الشاطر إلى نقل معظم أسهمه في العديد من الشركات إلى عدد

---

23 هيثم أبو خليل، خيرت الشاطر المفترى عليه.. والمفتري علينا (2) : زعيم الصدفة، موقع "البديل" الإلكتروني، 28 مارس 2012.

24 مصطفى المرصفاوي، بالأرقام.. إمبراطورية خيرت الشاطر، جريدة "المصري اليوم"، القاهرة، 13 إبريل 2011.

من أقاربه وبعض أصهاره من الرجال والسيدات، ثم استكمل العملية بعد فوز محمد مرسي بالرئاسة، تمهيدًا لطرح اسمه في مرحلة لاحقة كرئيس للحكومة، وانتهى بالفعل من نقل أغلبية ممتلكاته من أصول وعقارات وأسهم إلى ثمانية أشخاص من عائلته وأقاربه.

وحسب مصادر حكومية، فإن الأجهزة الحكومية المعنية تأكدت من أن الشاطر دخل في شراكات مع عدة شركات معروفة، أبرزها شركة "الشهاب" للسيارات، ومجموعة "استقبال"، و"سرار" التي يملكها القيادي الإخواني حسن مالك، فضلاً عن كونه المالك والمؤسس لسلسلة التجزئة المعروفة باسم "زاد"، التي افتتحها في 15 يوليو 2012، إلى جانب شراكته في مجموعة شركات مالك، و"نقاء"، و"رواج"، و"ترندي"، و"المستقبل"، ومجموعة "الشريف للتجارة والصناعة"25.

وأظهر تقرير إدارة خبراء الكسب غير المشروع والأموال العامة بوزارة العدل رقم 963 لسنة 2006، الذي أعده الخبراء سعد الدين السيد رجب وعبدالرحمن عزت عبدالرحمن وأحمد محمد حسن، تفصيلات عن ممتلكات خيرت الشاطر وقت أن كان متهمـًا في قضية أمن دولة. نكتفي هنا من التقرير بالحقائق التي جاءت في أوراق شركات الشاطر وشريكه حسن مالك، وهي كالتالي:

الأصول: فيلا و8 شقق بمشروع "القوات المسلحة" والتجمع ومدينة نصر والعجمي وثلاث قطع أراض بالشروق.

---

25 ناجي عبدالعزيز، مصادر: خيرت الشاطر أخفى ثرواته ونقلها لـ8 من عائلته وأقاربه قبل سقوط مرسي، جريدة "المصري اليوم"، القاهرة،4 يناير 2014.

مشروعات توقفت أو تركها: 70% من شركة "محمد هشام" و25% في "الفريدة" و"الفجر" و40% من "سنابل".

شركة "رواج" التي تعمل في استيراد وتصدير أجهزة منزلية، برأسمال قدره 200 ألف جنيه. تاريخ التأسيس 16 ديسمبر 2002. تصل حصته إلى نحو 75%.

توكيل ملابس "سرار" ملكية من خلال شركة "رواج"، وشركة "استقبال" للأثاث ملكية من خلال شركة "رواج"، وشركة "مادوك" ملكية من خلال شركة رواج، وشركة "دانيال كريموه" ملكية من خلال شركة "رواج".

يضاف إلى ذلك، الشركة الدولية لنظم الحاسبات الإلكترونية: المستقبل. عملت هذه الشركة في مجال شراء وبيع أجهزة الكمبيوتر. تاريخ التأسيس: 1 مايو 1996. رأسمالها 25 ألف جنيه، ونصيبه فيها 39% وهو شريك غير ظاهر.

أما شركة حسن عز الدين مالك وشركاه، التي تعمل في تجارة الملابس، فإن تاريخ التأسيس غير معلوم. ورأسمالها 30 ألف جنيه، نصيب الشاطر بها 45%.

شركة الأنوار للتجارة والتوكيلات، المتخصصة في الاستيراد والتصدير والتوكيلات التجارية، يبلغ رأسمالها 100 ألف جنيه. تاريخ التأسيس: 1 ديسمبر 2001، ونصيب الشاطر فيها 35%.

نأتي إلى شركة الفجر لتجارة الخيوط والمنسوجات، وتعمل في تجارة الخيوط والمنسوجات والملابس الجاهزة. بلغ رأسمالها مليون جنيه، نصيب الشاطر منها 25% مرتفعـــاً من 10%، ثم تخارج منها بتاريخ 1 يوليو 2005.

أما شركة "نقاء"، المتخصصة في تجارة الكيماويات بجميع أنواعها، فإن رأسمالها هو 100 ألف جنيه. تاريخ التأسيس: 16 فبراير 2002، ونصيب الشاطر منها نحو 33%.

بالنسبة إلى الشركة الدولية للتنمية والنظم المتطورة: "سلسبيل"، فقد عملت في تقديم الخدمات الفنية والعلمية والإدارية، ورأسمالها: 255 ألف جنيه، كان نصيب الشاطر فيها 45%. توقفت الشركة عام 1999.

وبلغ رأسمال شركة "سلسبيل للتنمية والاستثمار وإدارة المشروعات" 100 ألف جنيه، وهي تعمل في إدارة المشروعات والتوكيلات التجارية. تاريخ التأسيس: 22 مايو 2005، نصيب الشاطر فيها 80%.

وفي قائمة الممتلكات أيضـــاً نجد شركة "سنابل" للتجارة محمد محمد خليل، التي عملت في تجارة المنتجات الغذائية والألبان، ورأسمالها: 20 ألف جنيه، وتاريخ التأسيس: 1 نوفمبر 1993. بلغ نصيب الشاطر في هذه الشركة 40%، وتوقف النشاط في 15 مارس 1996.

أما شركة "مالك إليكتريك"، فهي تعمل في إنتاج الأدوات الكهربائية، وبلغ رأسمالها مليونـــاً و200 ألف جنيه. تاريخ التأسيس هو 18 أغسطس 2002، ونصيب الشاطر فيها 40%.

ممتلكات الشاطر تضم شركة "آي. سي. جي"، التي تعمل في استيراد أجهزة كمبيوتر، برأسمال قدره 4 ملايين و700 ألف جنيه، وتاريخ التأسيس 10 أكتوبر 2006. امتلك خيرت الشاطر 80% من أسهمها. هناك أيضـــاً شركة محمد خيرت سعد وشركاه التي تعمل في تشغيل المعادن، وبلغ رأسمالها 10 آلاف جنيه، وتاريخ التأسيس 1 يناير 2001، ونصيب الشاطر فيها 40%.

وتعمل الشركة الدولية للأدوية والعلاج البديل "حياة"، في مجال التجارة والتوزيع واستيراد وتصدير الأدوية والكيماويات، برأسمال يصل إلى مليوني جنيه. تاريخ التأسيس: 15 نوفمبر، ونصيب الشاطر فيها 50%.

إمبراطورية الشاطر تشمل "دار الطباعة والنشر الإسلامية" التي تعمل في مجال نشر الكتب والمؤلفات العلمية. رأسمالها: 250 ألف جنيه، وتاريخ التأسيس هو 1 يناير 1992، ونصيب الشاطر فيها حوالي 38% تقريبـــاً. ولديه في القائمة شركة الفريدة لتجارة الملابس، ورأسمالها: 20 ألف جنيه، وتاريخ التأسيس هو 1 يناير 2000، وبلغ نصيب الشاطر فيها 25% ثم تخارج منها 1 يونيو 2002. أما شركة مالك لتجارة الملابس الجاهزة التي تعمل في تجارة الملابس الجاهزة، فإن رأسمالها 500 ألف جنيه، وتاريخ التأسيس: 11 نوفمبر 1997، ويمتلك الشاطر حوالي 50% من أسهمها.

وتمتد القائمة لتشمل شركة "الشهاب للسيارات" التي تعمل في بناء هياكل الأتوبيسات، ورأسمالها: 250 ألف جنيه، وتاريخ التأسيس: 23 يونيو 2004، مساهمة الشاطر بها تزيد على 20%. أما شركة "أجياد للخدمات" التي تعمل في أعمال الصيانة والنظافة، فإن رأسمالها: 40 ألف جنيه، وتاريخ التأسيس: 9 نوفمبر 1991، ويمتلك الشاطر فيها نسبة تتجاوز 25%. وتعمل شركة محمد هشام وشركاه في المزارع السمكية، وتاريخ التأسيس: 11 مارس 1990. رأسمالها: 10 آلاف جنيه، وتم إيقافها نظرًا لعدم ممارسة النشاط، وكان نصيب الشاطر بها 70%.

نقرأ أيضـــًا عن شركة "العباءة الشرقية" ملكية من خلال شركة "الفريدة" لتجارة الملابس، وشركة "روافد للتنمية والتطوير وإدارة المشروعات"، ونشاطها هو تنمية وادارة المشروعات الاستثمارية والتجارية. رأسمالها 100 ألف جنيه، نصيب الشاطر منها 60% من خلال شركة "سلسبيل". أما شركة "الفريدة" لتجارة الملابس، التي تعمل في تجارة الملابس الجاهزة، فإن تاريخ التأسيس هو 25 اكتوبر 1999. وتم تخارج الشاطر بتاريخ 1 يونيو 2002 وكانت حصته 33.3%.

نأتي إلى الشركات ذات الملكية غير المباشرة من خلال مجموعة مالك، وتتوزع ملكية هذه الشركات بين خمس مجموعات هي: مجموعة حسن مالك، ومجموعة الورثة، ومجموعة آل سعودي، ومجموعة شبين الكوم، ومجموعة عبدالحليم.

أولاً: شركة الجيزة للأجهزة الطبية.

ثانيـــاً: شركة التنمية العمرانية عبدالرحمن سعودي.

ثالثـــاً: شركة التنمية العمرانية للاستثمار العقاري.

رابعـــاً: شركة مصطفى محمد سعودي.

خامســـاً: شركة المركز الدولي الحديث.

سادســـاً: شركة البركة للتجارة والتوكيلات.

سابعـــاً: شركة الأقصى للتجارة والتوزيع.

ثامنـــاً: شركة مجموعة الصفوة الدولية.

تاسعـــاً: شركة الملتقى العربي للخبرة والاستشارات.

بقيت الأصول والممتلكات؛ إذ يمتلك الشاطر ما يلي:

فيلا بمدينة الشروق، وشقة فوق العقاد مول، وثانية بمشروع القوات المسلحة، وثالثة في شارع هشام لبيب بمدينة نصر، ورابعة في شارع مكرم عبيد بمدينة نصر، بالإضافة إلى شقتين في التجمع الأول بالقاهرة الجديدة، ومثلهما في العجمي. ومن الأراضي، يمتلك خيرت الشاطر ثلاث قطع أراض بالشروق متوسط المساحة 700 متر، إضافة إلى سلسلة محال هي: خمسة محال بالعقاد مول، ومحلين في حي المهندسين في شارع جامعة الدول العربية، ومحل بشارع عطية الصوالحي بمدينة نصر، وآخر في عين شمس، وخمسة محال في أركاديا

مول. أما المخازن، فإن خيرت الشاطر يمتلك مخزنـــًا بشارع جسر السويس26.

ويتعين الإشارة إلى الإمبراطورية الاقتصادية المشتركة بين المهندس خيرت الشاطر ورجل الأعمال حسن مالك، والتي تضم مجموعة من الشركات تصل إلى 70 شركة، منها شركة "مالك لتجارة الملابس الجاهزة والمنسوجات وخيوط الغزل"، ويدخل كل من أشقاء مالك والشاطر أيضـــًا شركاء فيها. وقد تحفظت لجنة حصر أموال جماعة الإخوان على نحو 40 فرعـــًا من مجموعة محال "زاد" المملوكة لخيرت الشاطر، ومجموعة محال عبدالرحمن السعودي التي تحمل اسم "سعودي ماركت"، بعد ثبوت صلتهما بالنشاط الاقتصادي للجماعة27. وتحفظت لجنة حصر وإدارة أموال جماعة الإخوان على ٦٦ شركة مملوكة لكل من خيرت الشاطر وحسن مالك، وأسرتيهما28. وجمّدت هيئة الاستثمار جميع أسهم القياديين الإخوانيين في هذه الشركات بعد تلقيها إخطارات من اللجنة المذكورة بالتحفظ على شركاهما.

تمتد أموال الشاطر في عروق أسرته وشبكة المصاهرة التي أقامها.

من الطبيعي، إذًا، أن نجد عزة أحمد توفيق زوجة خيرت الشاطر – التي رُزق منها بتسع من البنات وولدين وستة عشر حفيدًا–

26 مصطفى المرصفاوي، بالأرقام.. إمبراطورية خيرت الشاطر، مصدر سابق.

27 مصطفى أمير، بعد غلق "زاد وسعودي".. هل تسقط إمبراطورية الإخوان الاقتصادية؟، موقع "بوابة الشروق" الإلكتروني، 15 يونيو 2014.

28 محمد السنهوري وياسر علي، "حصر أموال الإخوان": جرد شركات "مالك والشاطر" مستمر ٣ أيام، جريدة "المصري اليوم"، القاهرة، 19 يوليو 2014.

شريكـــًا منفردًا مع حسن مالك في شركة "سيوة لاستصلاح الأراضي"، ويأتي من بعدها بهاء الشاطر، الساعد الأيمن لشقيقه خيرت في إدارة مشروعاته الاقتصادية؛ إذ كان بهاء الشاطر هو مدير معارض السلع المعمرة بنقابة المهندسين، الخطوة الأولى التي انطلقت منها الإمبراطورية الاقتصادية للشاطر ومالك بعد ذلك، فكان يلجأ كل من الشاطر ومالك إلى تسجيل بعض الشركات باسم بهاء تحايلاً على نظام مبارك، كما هي الحال في شركة "المستقبل" المملوكة لمالك والشاطر والمسجلة باسمه، في تجسيد حي لعمق المصالح المشتركة والعلاقات العائلية في منظومة النفوذ الاقتصادي والسياسي داخل الجماعة29.

ويشارك الأبناء في إدارة إمبراطورية الشاطر الاقتصادية، وقد أسست ابنته الكبرى، الزهراء، مجموعة مدارس "جنى دان" للغات.

تعد الزهراء -كبرَى بنات خير الشاطر- هي خيط البداية في شبكة العلاقات المالية والتنظيمية المهمة له داخل الجماعة، فزوجها المهندس أيمن عبدالغني مدير أعمال الشاطر، والمتهم معه في قضية ميليشيات الأزهر. وأيمن هو شريك للقيادي أحمد شوشة في حزب الحرية والعدالة ورجل الأعمال الإخواني في شركة "إليجي" بالجزائر، ناهيك عن أن شوشة هو أيضـــًا شريك خيرت الشاطر في شركة "المدائن للمقاولات والإنشاءات"، والذي ظهر على الساحة السياسية التنظيمية أخيرًا بعد الإفراج عنه كعضو بمكتب إداري شرق القاهرة.

---

29 عائلات البيزنس الإخوانية تحكم مصر، موقع "الدستور الأصلي" الإلكتروني. 30 أكتوبر 2012.

وبالدخول إلى خلية الرجل الحديدي داخل جماعة الإخوان المسلمين المهندس خيرت الشاطر، التي تُعد من أكبر العائلات داخل التنظيم اقتصاديـًا -لديه 10 أبناء- وبقراءة لزيجات بناته، على وجه التحديد، سنجد فيها نموذجـًا إخوانيـًا للحرص على حماية المصالح التنظيمية والسياسية والاقتصادية بروابط الدم وعلاقات المصاهرة، حيث إن زوج شقيقة الشاطر الصغرى هو د. محمود غزلان المتحدث الرسمي باسم الجماعة الذي صعد إلى طبقة الحكم في الجماعة، بعد زواجه بفاطمة الشاطر، التي أنجبت له هاجر ومحمد وياسر وأنس وعبدالرحمن ويحيى.

اقترب غزلان بعد هذه الزيجة من دائرة النفوذ التنظيمية، وشغل مناصب عضو مكتب الإرشاد والمتحدث باسم الجماعة وأمينها العام السابق، وتحوّل إلى أحد رجال أعمال الجماعة البارزين، بعد أن أصبح ضمن "طبقة الصفوة" الذين قررت الجماعة على مدار سنوات أن تكتب أموالها بأسمائهم هربـًا من الملاحقة القانونية. دخل غزلان شريكـًا مع خيرت الشاطر في شركة "الواحة"، إحدى المشروعات الزراعية الكبرى التي تم فيها استغلال خبرة غزلان كأستاذ في كلية الزراعة جامعة الزقازيق، حيث امتلكت هذه الشركة مزارع ضخمة لتربية الأبقار وإنتاج الألبان في الكيلو 110 طريق مصر- الإسكندرية الصحراوي، بخلاف مجال المباني والمقاولات الذي ظهر فيه اسم محمود غزلان بثقل، خصوصـًا في شراكته مع رجل الأعمال الأشهر عبدالرحمن سعودي في شركة "التنمية العمرانية" التي كان غزلان عضوًا بمجلس إدارتها[30].

---

30 أحمد ناجي وأميرة العناني، بالأسماء.. شبكة عنكبوتية من الأقارب والأصهار وشركاء البيزنس تحكم مصر (الحلقة 2)، جريدة "المشهد"، القاهرة، 14 يناير 2013.

اهتم الشاطر بالمصاهرة سبيلاً لتقوية مراكز نفوذه وتأثيره في البيت الإخواني.

بيت خيرت الشاطر مليء بصلات مصاهرة مع قيادات إخوانية قديمة وحديثة. فالزهراء الابنة الكبرى والأشهر لخيرت هي زوجة القيادي الإخواني المهندس أيمن عبدالغني، الذي قضى عقوبة السجن مع خيرت الشاطر في قضية الأحكام العسكرية. تزوج أيمن من الزهراء وأنجب منها أطفاله الأربعة سارة وأنس وسلمان وحبيبة. شغل أيمن منصب نائب رئيس قسم الطلبة بجماعة الإخوان المسلمين، ثم أصبح أمين شباب حزب الحرية والعدالة، وهو شقيق كل من د. محمد عبدالغني عضو مجلس شورى الجماعة، ومسؤول القسم السياسي السابق بالجماعة، وكذلك د. عمر عبدالغني مسؤول مكتب إداري جنوب القاهرة.

وتزوجت رضوى الشاطر من عبدالرحمن علي –أحد القيادات الشابة بقسم نشر الدعوة بالجماعة– في حين تزوجت ابنته سمية إخوانيـــاً بارزًا آخر هو الصيدلاني خالد أبو شادي، الذي يشغل منصبـــاً قياديـــاً في قسم نشر الدعوة والتربية وحقق نجاحـــاً منقطع النظير في مجاله، بحيث لا يخلو بيت إخواني من مؤلفاته الدعوية وتسجيلات الإنشاد والأذكار الخاصة به، كما تلقى ندواته إقبالاً بين شباب الإخوان، وهو ابن القيادي التاريخي بالجماعة أحمد أبو شادي، الذي كان مسؤولاً عن قسم الأخوات في بداية نشأته، كما كان مسؤولاً عن منطقة مدينة نصر.

أما عائشة الشاطر فهي زوجة د. محمد الحديدي مسؤول الإخوان المسلمين في ألمانيا لسنوات طويلة، وهو نجل صالح الحديدي أحد أعمدة النظام الخاص في الإخوان. وحفصة الشاطر هي زوجة د. مصطفى حسن، في حين أن مريم الشاطر هي زوجة أحمد علي درويش. أما سارة الشاطر التي عُقد قرانها أثناء وجود والدها خلف القضبان، فهي زوجة المهندس الإخواني عبدالرحمن ثروت.

صلة مصاهرة أخرى داخل مكتب الإرشاد بين خيرت الشاطر نائب المرشد وبين محمود غزلان عضو مكتب الإرشاد، وهي الزيجة التي ظهرت للإعلام بوضوح عقب تشييع جنازة والدة خيرت الشاطر، حيث كتب غزلان مقالاً مطولاً على الموقع الرسمي للجماعة استعاد فيه ذكرياته مع حماته وحميه، الحاج سعد الشاطر، عندما تقدم في بداية الثمانينيات لطلب يد شقيقة صديقه خيرت، ولم يكن وقتها يملك الإمكانات المادية الكافية لإتمام هذا الزواج، فعرض عليه حماه شراء الشقة له ورفض أن يجعله يوقع على مؤخر صداق أو حتى قائمة بالأثاث. ولم يتحرج غزلان من أن يقول إن خيرت ساعده حتى تمت الزيجة على خير.

بفضل المصاهرة والعلاقات المختلفة مع أبرز مراكز صنع القرار في الجماعة، سيطر الشاطر مع محمود عزت على الإخوان المسلمين، وأحكم الاثنان سيطرة التيار القطبي (بديع – الشاطر – الجزار – الكتاتني – محمد مرسي – العريان – البلتاجي) على مقدرات الجماعة، لتكون خياراته التي عملت على إقصاء الأصوات الإصلاحية

التي تعرب عن ميل للتصالح والمشاركة مع القوى السياسية الأخرى، خطوة على طريق انهيار حلم التمكين القديم31.

سقط الشاطر، لكنه لم يكن وحده. سحب معه قيادات الجماعة بدءاً من المرشد العام محمد بديع وانتهاء بالرئيس محمد مرسي إلى تجربة السجن والملاحقات القضائية والمحاكمات والأحكام المشددة.

"هنفضل قاعدين على قلب النظام"32.

هكذا هتف خيرت الشاطر من محبسه، أثناء محاكمته في قضية "أحداث مكتب الإرشاد".

واصل الشاطر تهديداته وبدا كما لو أنه ينكر الواقع ويعيش في عالمه الافتراضي، رغم كل ما جرى لمصر على يد الجماعة خلال عام من الحُكم المرتبك.

---

31 حسام تمام، الإخوان المسلمون: سنوات ما قبل الثورة، ط 2، دار الشروق، القاهرة، 2013.

32 محمد طلعت داوود وإبراهيم قراعة وعمر خالد، "الشاطر" أمام "الجنايات": "هانفضل قاعدين على قلب النظام"، جريدة "المصري اليوم"، القاهرة، 19 يونيو 2014.

1

سالم ومبارك:
رجل الظل

إنه الواجهة التي لطالما أرادوك ألا تعرف عنها شيئـــاً.

الثري الوحيد الذي عمل في الخفاء، وكسب أكثر من غيره مليارات الدولارات، قبل أن يصبح الشغل الشاغل لكل مصري يبحث عن إجابة لسؤال محير: أين ذهبت الأموال المنهوبة في عصر مبارك؟

الرجل الذي ظل بعد ثورة 25 يناير ضد الظلم والفساد والاستبداد، يأكل ويشرب وينام وملياراتنا تدفئ شتاءه وتمنحه طمأنينة وتغذي أمله في الاحتفاظ بإمبراطوريته الممتدة وخزائنه المكدسة بالأموال.

لم يكن حسين سالم مجرد رجل أعمال استفاد من حالة الفساد التي تفشت في عموم مصر خلال 30 عامـــاً، لكنه كان الصديق المقرب للرئيس الأسبق حسني مبارك لسنوات أطول من ذلك؛ مقرب

ومستفيد لدرجة دفعت الصحفي الاستقصائي الأميركي فيليب شانون إلى القول في تقرير حول الرجل نشره في موقع Daily Beast إنه إذا كانت الحكومة المصرية بعد الثورة جادة في تتبع الأموال التي يقال إن عائلة مبارك استولت عليها لمخالفة للقانون، فإن ذلك لا يمكن أن يتم دون تتبع ومراجعة حركة الأموال التي يتحكم بها حسين سالم، ويستثمرها في عشرات المشروعات والأعمال.

بالمثل، قال اللواء فاروق حافظ المقرحي مساعد وزير الداخلية الأسبق، في حديثه مع برنامج "الحقيقة" على قناة "دريم" الفضائية: "حسين سالم هو العمود الفقري والأساس لأي انحراف حدث لأسرة الرئيس السابق مبارك، وأشهد الله على أن مبارك لم يكن فاسدًا قبل حسين سالم، وكانت البداية مع شركة "الأجنحة البيضاء" لنقل السلاح من أميركا لمصر ولدول أخرى، والتي أغرى حسين سالم بها مبارك للحصول على سمسرة منها، وبعدها جاءت شركة تصدير الغاز ومن وقتها ترك الحبل على الغارب لحسين سالم الذي يعتبر أنه امتلك شرم الشيخ"33.

لاحقه جهاز الكسب غير المشروع، وأدانه القضاء بالتورط في الفساد، ورأى المحققون أن ثروته الضخمة نجمت في جزء منها على الأقل عن علاقة الصداقة -أو المصالح- التي جمعته بمبارك34.

---

33 مصطفى الأسواني، المقرحي: حسين سالم أساس انحراف مبارك وأغراه بالسمسرة في نقل السلاح، موقع "بوابة الشروق" الإلكتروني، 22 مايو 2011.

34 Bradley Hope, Egypt's pursuit of Mubarak's cronies falters, Abu Dhabi, The National, May 7, 2013.

صداقة يقول عنها حسين سالم إنها "تشرفني ولا اعتراض عليها"، مؤكدًا أن "قربي من مبارك شرف لي دون أي شك، وعلاقتي به نتجت عن طبيعة عملي كرجل أعمال ناجح، وهذه كل القصة"35. غير أن حسين سالم يتبرأ من مبارك عند الضرورة، فيقول -عقب ثورة 25 يناير مثلاً- إنه " لم يكن في يوم من الأيام تابعــًا لأي نظام أو منتفعــًا منه"36، وإنه "فوجئ مع مرور الوقت باحتسابه ضمن حاشية النظام السابق"، ويذكر في اتصال هاتفي مع قناة تليفزيونية أن علاقته بالرئيس الأسبق سطحية وليست بالعُمق الذي يتوقعه البعض، ويعلّق على ما كُتب عنه بأن مُبارك كان يحبُّ تناول الطعمية التي يُعدّها، وأنهما كانوا يلعبون (الطاولة) معــًا، قائلاً: "أنا أشرف من هذا يا بيه.. ومش طبّاخ طعمية"37.

تلك الصداقة جعلته قريبــًا من مبارك، حتى أنه كان يلتقي معه -حسب حسين سالم نفسه- إلى ما قبل ثورة 25 يناير بأيام قلائل، وفي اللقاء الأخير بينهما "كنا نتحدث في التاريخ المصري من أيام محمد علي حتى الوقت الراهن، فأنا أعشق قراءة التاريخ"38.

هو أقدم محمية سياسية وأكثر الشخصيات غموضــًا في سنوات حُكم مبارك.

---

35 محمد طلعت داوود وعمر خالد، رجل الأعمال حسين سالم لـ"المصري اليوم": سأعود عندما يقول القضاء كلمته.. ومبادرة التنازل عن نصف ثروتي "انتهت"، جريدة "المصري اليوم"، القاهرة، 12 يناير 2014.

36 يسري البدري، "حسين سالم" يتبرأ من "مبارك" ويعلن استعداده لمساعدة الشعب المصري، جريدة "المصري اليوم"، القاهرة، 10 إبريل 2012.

37 آلاء سعد، حسين سالم وحكومة الببلاوي.. "سيب وأنا سيب"، موقع "بوابة الشروق الإلكتروني، 10 يناير 2014.

38 محمد طلعت داوود وعمر خالد، مصدر سابق.

لم يكن من الممكن لفترات طويلة أن يذكر اسمه مباشرة، كان يشار إليه بــ"صديق الرئيس" أو "الرجل الغامض".. تربى في مؤسسات تجمع السلطة والانضباط والسرية. تكونت محميته في الخفاء "بعيدًا عن الأضواء" إلى حد كبير.

تبدو صور حسين سالم الشخصية كأنها أسرار عسكرية لا يُسمح بنشرها أو تداولها. والحقيقة أن صورته لم تكن تظهر عادة إلا في صفحات الرياضة، خاصة خلال بطولة الجولف التي تحمل اسمه وتقام في فبراير من كل عام في شرم الشيخ، ذلك المكان الافتراضي الذي يعد في جوهره مقصدًا سياحيــًا يلبي الشروط الدقيقة للسياحة المعتمدة في عصر مبارك.

أحيطت علاقته بالرئيس مبارك وأسرته بأسوار عالية من التعتيم والسرية وصلت إلى درجة منع أي اقتراب من هذا المستثمر الغامض. بل إن هناك من يشير بحذر إلى حرص الدولة على حمايته، قائلاً إن "تلك السياسة مستمرة حتى بعد ثورتين.. فلم تقترب حكوماتهما المتتالية من ملف الرجل للتحقيق في كل ما أعدته الأجهزة الرقابية والسيادية في أوراق سرية حول استثماراته وما ارتبط بها من تربح واستغلال نفوذ وعلاقتها بأسرة الرئيس حتي نسترد مستحقات مصر"39.

ظل سالم يلعب في البيزنس على استحياء؛ لأن الجمع بين السلطة والبيزنس كان ضد القانون وضد أعراف الدولة الشفافة. إلا أنه مع

39 هاني إبراهيم، حسين سالم "بعبع" كل الحكومات، جريدة "الوفد"، القاهرة، 20 سبتمبر 2014.

وصول مبارك للحُكم تفككت الحواجز بالتدريج بين السلطة والبيزنس.

بدأت الصفقة برجل في الظل يعمل باسم الرئيس في السلطة. وهذه كانت لحظة ولادة المحميات السياسية. أراد النظام أن يقول للعالم إنه ودع الاشتراكية بغير رجعة وإنه يفتح الأبواب أمام القطاع الخاص. وفي الوقت نفسه لا يريد أن تنفلت الثروة بعيدًا عن سيطرته. وتقرر أن تتم التقسيمة على "أهل ثقة" من اختيار النظام. هؤلاء كانوا الجيل الأول من الديناصورات الذين كبروا وسمنوا في رعاية "الدولة" وتحت جناحها. لم يشكلوا طبقة رأسمالية وطنية تنمو وينمو بها اقتصاد الدولة. لكنهم ظلوا في حدود مزرعة الديناصورات التي تديرها الدولة بالكامل. تضخمت الثروات بقوة الصاروخ. وتحرك الاقتصاد بسرعة السلحفاة. الهدف لم يكن النمو بل توزيع الثروة بشكل يضمن سيطرة النظام عليها. ورجال الأعمال الذين وصلوا إلى المليار لم يصلوها لأنهم بنوا بنية صناعية حقيقية، وإنما لأنهم دخلوا في إطار محمياته.

هذه المحميات –كما يقول الكاتب الصحفي وائل عبدالفتاح– ليس لها استقلالية عن النظام. تعمل بأوامره وتتحرك في حدود رغباته، وتتضخم ثرواتها ما دامت تدفع النسبة المعروفة. هذه النسبة معروفة لكل من تتعدى مشروعاته رقمـًا معينـًا يُسمى في لغة البيزنس السرية: المنطقة الحمراء. ستدفع النسبة وإلا فلن يمر المشروع وستخرج عليك وحوش البيروقراطية لتُذّكرك أننا في "دولة مؤسسات"40.

40 وائل عبدالفتاح، حكايات القاهرة (1): عودة ميت، جريدة "السفير"، بيروت، 11 يناير 2014.

في "محاكمة القرن" لمبارك ونجليه علاء وجمال، وآخرين، أسندت النيابة العامة لمبارك تهمة حصوله لنفسه ولنجليه، علاء وجمال، على عطايا ومنافع عبارة عن (قصر على مساحة كبيرة وأربع فيلات وملحقاتها بمدينة شرم الشيخ تصل قيمتها إلى 40 مليون جنيه) بأثمان صورية مقابل استغلال نفوذه الحقيقي لدى السلطات المختصة، بأن مكّن المتهم حسين سالم من الحصول على قرارات تخصيص وتملك مساحات من الأراضي بلغت ملايين الأمتار المملوكة للدولة بمحافظة جنوب سيناء في المناطق الأكثر تميزًا بمدينة شرم الشيخ السياحية.

وفي اتهام آخر، أسندت النيابة إلى مبارك تهمة الاشتراك مع وزير البترول الأسبق سامح أمين فهمي وبعض قيادات وزارة البترول ارتكاب جريمة تمكين حسين سالم من الحصول على منافع وأرباح مالية بغير حق تزيد على ملياري دولار، وذلك بإسناد شراء الغاز الطبيعي المصري للشركة التي يمثلها، ورفع قيمة أسهمها وتصدير الغاز ونقله إلى إسرائيل بأسعار متدنية أقل من تكلفة إنتاجه، وبالمخالفة للقواعد القانونية واجبة التطبيق. وأوضحت النيابة أن هذه الاتفاقية تسببت في الإضرار بأموال الدولة بمبلغ 714 مليون جنيه[41].

هذا هو حسين سالم، الرجل المقرب من الرئيس الأسبق، والمعروف بعلاقاته الوثيقة بأعلى مراكز صنع القرار في مصر، الذي تحوَّل إلى هارب في إسبانيا، وجزء غير قليل من ثروته مازال حتى اللحظة بعيدًا عن أيدي الدولة.

---

41 أحمد شلبي، الرئيس السابق و"العادلي" وقيادات "الداخلية" يواجهون الإعدام.. و"علاء" و"جمال" وحسين سالم السجن 15 سنة، جريدة "المصري اليوم"، القاهرة، 3 أغسطس 2011.

خمس كلمات مفتاحية تتردد دائمــًا في حياة رجل الأعمال الهارب حسين سالم: الغاز، إسرائيل، مبارك، شرم الشيخ، صفقات السلاح.

قال عنه وزير العدل المصري الأسبق محمد عبدالعزيز الجندي إنه يمتلك مفاتيح أبواب الفساد في مصر، ووصفته وسائل إعلام محلية بأنه "الصندوق الأسود" لثروات وأنشطة الرئيس الأسبق حسني مبارك في عالم البيزنس. وأطلقت عليه شبكة "ايه بي سي" الإخبارية الأميركية لقب "الواجهة"، في قصة حاولت فيها تعقب مصير أموال مبارك وعائلته.

مع ذلك بقي حسين كمال الدين إبراهيم سالم عطية، بهالة الغموض التي تحيط به. ظلت الأسرار التي تكتنف حياة حسين سالم، محفوظة إلى حد كبير في أدراج مغلقة تمتد أماكنها من البيت الأبيض والكونغرس الأميركي إلى المحاكم الملكية في عدة دول خليجية، مرورًا بعدة مدن أوروبية، إلى جانب القاهرة وشرم الشيخ في مصر.

غير أن الأساطير تتساقط دائمــًا أمام الحقائق.

إحدى الأساطير ترتبط بتاريخ ميلاده، فهو من مواليد 11 نوفمبر 1933، وليس 1928 كما يردد كثيرون. وليس صحيحــًا أنه من أصول بدوية. ويرى البعض أن حكاية الأصول البدوية ليست سوى شائعة روَّجها سالم نفسه، كي ينسج علاقات مع القبائل في جنوب سيناء تؤمن له حماية منشآته السياحية ومصالحه، وتبرر الفرص الاستثنائية التي حصل عليها من أراض وامتيازات، وهي بالأصل

وليدة قربه من "الرئيس" ودوائر الحكم والإدارة وفق قواعد اللعبة في "رأسمالية المحاسيب"42.

الصلة الوحيدة التي تربط حسين سالم ببدو سيناء جاءت عبر المصاهرة. فقد تزوجت أخته غير الشقيقة، سميحة، من أحد شيوخ قبيلة العيايدة التي تتمركز في محافظة الإسماعيلية ولها امتداد محدود في سيناء.

وبينما يقول البعض إن حسين سالم من مواليد سيناء43، يشير تقرير الرقابة الإدارية إلى أن سالم من مواليد قرية الصف قرب ضاحية حلوان. غير أن تقارير صحفية تنقل عن مصادر مطلعة قولها إن سالم من مواليد حي الخليفة أسفل المقطم. في حقيقة الأمر، فإن كمال الدين، والد حسين سالم، هو الذي تعود أصوله إلى قرية الصف، حيث عائلة الأب وزيجته الأولى من فتاة ريفية أنجب منها إخوة سالم غير الأشقاء: عبدالحميد، وصلاح، وقدرية وفوزية وسميحة. كلهم الآن في ذمة الله.

من الأساطير الأخرى التي تبناها كثيرون أن حسين سالم كان طيارًا تزامل مع حسني مبارك في القوات الجوية. والحقيقة أن سالم لم يخدم يومـــًا واحدًا في القوات المسلحة؛ إذ عانى إصابة في إحدى عينيه خلال طفولته، كانت كفيلة بإعفائه من أداء الخدمة العسكرية.

فضلاً عن ذلك، فقد توفي والده كمال الدين، الذي عمل مدرســًا، متأثرًا بإصابته بالتيفود خلال سنوات طفولة ابنه، لتنتقل

---

42 كارم يحيى، الصندوق الأسود: قصة حسين سالم، دار الثقافة الجديدة، القاهرة، 2012.

43 Nayrouz Talaat, A man worth $58.7 billion, The Egyptian Gazette, Cairo, 28 June 2011.

العائلة بعد ذلك إلى شقة بالطابق الأخير من بيت في شارع صغير يدعى "أبو الهول" بمنطقة الكوربة في مصر الجديدة (متفرع من شارع بغداد)44.

واجهت أمه حسنية طبوزاده، التي تنحدر من أصول تركية بعيدة، صعوبات جمة في إعالة أطفالها من المعاش المتواضع لزوجها الراحل، وعائد إيجار وبيع مساحة محدودة من الأفدنة تعود للأب (نحو خمسة أفدنة) ومساحة مماثلة ورثتها هي الأخرى عن أسرتها. ظروف ضاغطة دفعت سالم إلى دخول سوق العمل باكرًا لتوفير قوت العائلة التي تضم والدته وشقيقيه ثريا -الأكبر منه سنـــًا- ورفيق الذي يصغره بنحو عشرة أعوام. كان لدى حسين سالم أيضـــًا خمسة أخوة غير أشقاء من الزوجة الأولى لوالده (كانت حسنية الزوجة الثانية)، لكنه لم يكن مسؤولاً عنهم؛ إذ كان معظمهم أكبر منه سنـــًا.

تخرج حسين سالم في مدرسة مصر الجديدة الثانوية (حكومية). ولم يكن بأي حال طالبـــًا متفوقـــًا أو نابغـــًا، حتى أنه أعاد السنة النهائية في كلية التجارة بجامعة القاهرة قبل أن يتخرج فيها عام 1956. ولعل ما زرع فيه طموحـــًا مبكرًا للثروة والسلطة صداقته حينها لأبناء زهير جرانة، الجد المحامي الشهير والوزير في أولى حكومات ثورة يوليو 1952.

في أحد أحاديثه الصحفية النادرة، يقول حسين سالم "إن هناك أجيالاً شافت المر في بلدنا بسبب الحروب التي امتدت من 1948 إلى

---

44 كارم يحيى، مرجع سابق.

1973.. أجيال قدمت تضحيات هائلة ليس دفاعــاً عن حدود مصر لكن عن فلسطين، وفعلت ذلك عن طيب خاطر وعن وعي ورضا، لكن لا أحد يمكن أن يستمر في حالة حرب إلى الأبد.

يحكي سالم كيف أنه "كان عمري 15 عامــاً عندما اندلعت حرب 1948، أي أنني كنت واعيــاً وقد عانينا دروســاً من الحروب مكنتنا من التوجه إلى السلام في الوقت الصحيح وبالطريقة السليمة"45. ويشكو من أنه بسبب الحرب "أصبح في كل بيت شهيد، كان لي صديق عمر استشهد في الموجة الأولى للعبور على الكباري في حرب أكتوبر وكان ابنه في الثالثة عشرة ومازلت أبكيه للآن. زوج ابنتي قضى 7 سنوات في الخنادق بعد الجامعة وحصل زميل عربي له في الجامعة على الدكتوراه من هارفارد في تلك الفترة، البترول كان بـــ 2.8 دولار أصبح بأربعين دولارًا ولم تقل مصر لأحد فلنتقاسم ذلك. مصر هي البطل الحقيقي للعالم العربي، وهناك من لا يريد لها أن "تقِّب" وأن تظل تحارب حتى آخر جندي وآخر جنيه"46.

ربما ترسم هذه الكلمات ملامح تفكير الرجل وجانبــاً من تصوراته السياسية.

عندما أغارت طائرات العدوان الثلاثي على مصر، لم يُبد سالم رغبة في الانضمام لفرق المتطوعين الذاهبين إلى بورسعيد أو الدفاع

45 مصباح قطب، حسين سالم: شُفنا المُرّ بسبب الحروب.. ومصر "بطل العرب"، جريدة "المصري اليوم"، القاهرة، 26 مارس 2009.

46 المصدر نفسه.

المدني في القاهرة، وذلك على عكس حماسة شقيقه الأصغر رفيق. بل ثمة روايات عن اختبائه تحت فراشه خلال الغارات الجوية التي وصلت إلى شرق القاهرة. فقد عاش الرجل -وفق شهادة من عاصروه حينها ولسنواتٍ لاحقة- فريسة خوف غير مبرر من وفاة مبكرة أسوة بوالده الذي مات بمرض التيفود. وحتى بلغ الأربعين، ظل يظن أنه لن يعيش إلى هذا العمر. وتشير المصادر ذاتها إلى تذمر مكتوم أظهره لخلصائه المقربين عند تأميمات عام 1961 لشركات وأصول كبار الرأسماليين، والتي أسميت حينها بـ"قرارات يوليو الاشتراكية".

عندما صدرت القرارات كان حسين سالم موظفـًا في "صندوق صناعة دعم الغزل" بعمارة "الإيموبيليا" الشهيرة بوسط القاهرة. وهو أول عمل التحق به بعد أشهر معدودة من التخرج وقبيل أيام من العدوان الثلاثي 1956. استقر سالم، إذًا، في وظيفته كمراجع بصندوق دعم صناعة الغزل والمنسوجات القطنية اعتبارًا من 3 أكتوبر 1956. كان حسين الشاب محظوظـًا على نحو ما، فبفضل توسط أحد أقاربه حصل على هذه الوظيفة الممتازة والمفتوحة على فرص السفر إلى خارج بلدٍ وصِفَ اقتصاده بـ"الانغلاق" وخلت أسواقه من السلع الاستهلاكيةِ الكمالية الأجنبية.

كان أول مرتب تقاضاه هو 18 جنيهـًا، اشترى منه ملابس تتناسب مع متطلبات عمله. وظل دخله لا يفي بمتطلبات شاب طموح يعشق الذهاب إلى دور السينما ومتابعة أفلام هوليوود، وهو مزاج فني يمتد إلى الولع بمشاهير المغنين باللغة الإنجليزية لجيله وعصره مثل فرانك سيناترا. وعُرف عنه عشقه للأثاث الإنجليزي

"الفيكتوري" الطراز، الأمر الذي يفسر اختيار الطراز ذاته في تجهيز أول فندق له في شرم الشيخ "موفنبيك" (الذي تحولت تسميته لاحقـًا إلى "جولي فيل" ثم أخيرًا إلى "ماريتيم جولي فيل")، وهو الأثاث الذي بهرت فخامته المدعوين إلى حفل افتتاح الفندق يوم 10 أكتوبر 1991.

زاد من أعباء حسين سالم الموظف الشاب أنه تزوج في عام 1959 من نظيمة عبدالحميد إسماعيل محمد (المولودة بتاريخ 9 يوليو 1936 في بورسعيد). يقول سالم: "كان راتبي 18 جنيهـًا، وكنت متزوجـًا ولديّ ولد، وكانوا يقتطعون من راتب كل منا 2 جنيه ضريبة للدفاع الوطني عن فلسطين، وكانت كل صادراتنا تذهب للاتحاد السوفيتي لتسدد ثمن الأسلحة، والبنية التحتية للقاهرة التي أقيمت عام 1936 لتكفي 1.5 مليون مواطن استمرت كما هي؛ لأن الموارد كلها ذهبت للحرب"47.

انتقل مع أسرته إلى شقة من ثلاث غرف إيجارها تسعة جنيهات شهريـًا في 38 شارع الثورة، وهي عمارة تقابل سنترال الماظة بمنطقة الجولف في مصر الجديدة، وتُدعى عمارة "توكل". يعود تاريخ عقد الإيجار إلى 22 سبتمبر 1959. وفي العمارة شقق من أربع غرف بإيجار 12 جنيهـًا. وتحتل واجهة مميزة مقارنة بالشقة رقم (17) التي استأجرها.

احتفظ رجل الأعمال حسين سالم بهذه الشقة، قبل أن يهجرها لاحقـًا إلى عمارة سكنية بناها قرب "السبع عمارات" بمصر الجديدة، بعد رحلة عمل في الإمارات انتهت عام 1977.

---

47 المصدر نفسه.

لم تكن الحياة ميسرة تمامـــًا في عقد الستينيات، رغم انتقاله من "صندوق دعم الغزل" إلى "الشركة العربية للتجارة الخارجية" التي عمل فيها مديرًا لإدارة الغزل والمنسوجات اعتبارًا من 17 سبتمبر 1961 بمرتب 43 جنيهـــًا. فقد زادت الأعباء الأسرية بعد إنجاب نجليه: خالد، في 4 أغسطس 1961، وماجدة، في 4 مارس 1963. ألحق سالم نجله الأول بمدرسة "سان جورج" بمصروفات، كما يقول جيرانه القدامى. وهناك غير شاهد من خلصائه المقربين يقول إن الرجل كان يقترض بين الحين والآخر بعض المال لتغطية نفقاته في تلك الآونة.

تحت مظلة الشركة العربية للتجارة الخارجية، أصبح سالم مدير المركز التجاري في الدار البيضاء بالمغرب، اعتبارًا من 28 فبراير 1962، ثم شغل منصب مدير المركز التجاري في بغداد بالعراق، اعتبارًا من 9 فبراير 1969.

الأهم من ذلك أن "الشركة العربية" التي التحق بها كانت بمنزلة واجهة تجارية للمخابرات العامة تعمل بالدول العربية في زمن عبدالناصر. ووفق رواية أحد رؤساء مجالس إدارة الشركة ممن عاصروا سالم، فإن الرجل بدا غامضـــًا حتى في هذا السياق. وأضاف قائلاً: "كان يسافر في مهام خارجية عديدة. وربما كان له دور في تجارة الأسلحة لدعم حركات التحرر في منطقة المغرب العربي في إطار السياسة المصرية حينها"48.

---

48 كارم يحيى، مرجع سابق.

بالطبع كان هذا شيئـًا مختلفـًا عن الحديث بشأن حسين سالم وشركائه في تجارة ونقل السلاح منذ نهاية عقد السبعينيات. وهي محطة مهمة في مسيرة رجل الأعمال، تسبقها محطتان حافلتان بالأسرار في بغداد وأبوظبي.

قبيل سقوط نظام عبدالكريم قاسم في بغداد بحلول فبراير عام 1963، تعرف حسين سالم إلى أمين هويدي سفير مصر في المغرب وقتها ووزير الحربية فمدير المخابرات العامة بعد حرب يونيو 1967، وهو شخصية مؤثرة في مسيرة سالم في دوائر السلطة وفي التوجه إلى عالم البيزنس الخاص فيما بعد، ومن دون أن يقصد هويدي. فقد اتضح لاحقـًا أن الرجلين على طرفي نقيض في الاختيارات الاقتصادية السياسية وفي الحياة العملية.

يروي السفير أمين يسري أن حسين سالم كان يعمل في الدار البيضاء مديرًا لفرع الشركة العربية للتجارة الخارجية عندما تعرف للمرة الأولى إلى هويدي. ولما انتقل الأخير سفيرًا في بغداد بعد انتهاء القطيعة بين مصر والعراق بتولي عبدالسلام عارف، استدعى سالم للعمل على مقربة منه مديرًا لفرع الشركة. ونشأت علاقة صداقة وتزاور في البيوت بين الرجل وأمين يسري الملحق الصحفي بالسفارة وكذا السفير إبراهيم يسري السكرتير الثاني بها في ذلك الحين، وهو بالمناسبة لا صلة قرابة بينه وبين السفير أمين يسري.

يؤكد إبراهيم يسري ما ذهب اليه أمين يسري بأن سالم شخصية اجتماعية ومحبوبة؛ لذا نجح في الاقتراب منهما ومن السفير هويدي.

كما يُجمع السفيران يسري على أن الرجل لم يكن مثقفـــاً، حتى أسهم هويدي لاحقـــاً في تثقيفه وأدخله في برنامج قراءات ومناقشات لكتب مهمة في الاستراتيجية العالمية، وذلك بعدما انضم إلى هيئة مكتب مدير المخابرات.

في سنوات بغداد تلك البعيدة، استطاع سالم اكتساب ثقة هويدي فضمه إلى جهاز المخابرات بعد حرب يونيو 1967، وتحديدًا للعمل في مكتب رئيس الجهاز الذي كان قد تولاه هويدي. ويعزو الدبلوماسي إبراهيم يسري هذه الثقة إلى أن الرجل بحركته في الأوساط التجارية بالعراق كان قادرًا ومؤهلاً على تزويد السفير هويدي يوميـــاً بمعلومات وأخبار عجزت عن الحصول عليها قنوات السفارة التقليدية. لكن للدبلوماسي أمين يسري تفسيرًا مختلفـــاً يلخصه قوله: هويدي إنسان تخونه اختياراته أحيانـــاً49.

ويروي لنا أن سالم كسب قلوب العديد من العاملين بالسفارة بمساعدتهم على شراء سيارات مرسيدس ألمانية الصنع بقروض ميسرة موّلها البنك المركزي العراقي، وكان مديره آنذاك د. خير الدين حسيب، الذي اصبح فيما بعد مديرًا لمركز دراسات الوحدة العربية في بيروت. ويؤكد الدبلوماسي أمين يسري أن السفير هويدي وعددًا من العاملين بالسفارة بينهم هو شخصيـــاً لم يقعوا في غواية المرسيدس الميسرة السداد.

---

49 المرجع نفسه.

وباستثناء واقعة المرسيدس، تؤكد ذكريات السفيرين يسري أن حسين سالم لم يبدر منه ما يفيد أنه بدأ مشروعه الخاص في البيزنس وهو في بغداد، كما لم يسمع أيهما بشكاوى تتعلق بنزاهته المالية. فقط يتذكر إبراهيم أن الرجل أحيانـًا كان يُسر إليه بأن عمله في بغداد لا يلبي طموحه، وأن له معارف في أوروبا -بالأخص ألمانيا- بإمكانهم مساعدته على إقامة مشروعات خاصة. وتكتسب هذه الشهادة أهميتها حين نعرف من السفير إبراهيم يسري أن علاقة الصداقة بينهما كانت قوية إلى حد أن سالم علمه السنوكر (من ألعاب البلياردو) وشجعه على لعب الإسكواش.

يجزم الدبلوماسيان يسري بأن سالم لم يلتحق فعليـًا بجهاز المخابرات العامة إلا بعد عودته مع السفير هويدي من بغداد إلى القاهرة، وعندما أصبح الأخير مديرًا للجهاز بعد حرب يونيو 1967.

عمل الرجل في مكتب هويدي، الذي أوفده في مهام لدول الخليج، استطاع سالم خلالها أن يبني شبكة علاقات أفادت في أعماله الخاصة لاحقـًا. إلا أن العلاقة بين هويدي وسالم سارت في طريق الدراما عندما أطيح بالأول من السلطة ومن منصبه وزير دولة لشؤون مجلس الوزراء وسُجن لعدة أشهر فيما أسماه الرئيس أنور السادات "ثورة التصحيح" ضد "مراكز القوى" في 15 مايو 1971. تنكر التلميذ لمعلمه ومربيه وسنده في الدولة والمخابرات. ولعل ذلك يفسر أن هويدي اكتفى في مذكراته المعنونة بـ"50 عامـًا من العواصف: ما رأيته قلته"50 بالإشارة إليه في خمسة أسطر فقط في كتاب يبلغ عدد صفحاته 499 صفحة.

---

50 أمين هويدي، 50 عامـًا من العواصف: ما رأيته قلته، مركز الأهرام للترجمة والنشر، الأهرام، القاهرة، 2002، ص 385.

قال هويدي عن اليوم السابق مباشرة لاعتقاله، أي يوم 15 مايو 1971: سافرت إلى بلدتي بيجرم وبرفقتي حسين سالم رجل الأعمال الشهير، والذي رأس بعد ذلك شركة "ميدور" المصرية – الإسرائيلية، وكنت قد نقلته إلى المخابرات العامة من شركته للتجارة الخارجية من قبل لزراعة 300 شجرة جزورينا كان قد أحضرها لي".

وهذه السطور تقف دليلاً على ما كانت عليه علاقة الرجلين. أما الاهتمام بالزراعة فيمكن تفسيره برواية أحد المقربين لهما بأن مسؤوليات سالم وقتها تضمنت الإشراف على تصدير ورد مصري إلى أوروبا عبر شركة تجارية تعمل كواجهة للمخابرات العامة.

ما حدث بين هويدي وسالم بعد 15 مايو 1971 غير مسجل في أوراق أو كتب بالإمكان مراجعتها. إلا أن الصحفي كارم يحيى يكشف في تحقيق استقصائي –نقلاً عن مصادر موثوقة– عن أن سالم ظل في بيته عاطلاً عن العمل لشهور يتملكه الخوف من المجهول.

كان القدر رحيمـــًا بالمعلم والسند هويدي فلم يعرضه لتجربة خاضها تلميذه مع قضية انحراف جهاز المخابرات عام 1968، فقد كان سالم مكلفـــًا بقيادة مجموعة من الجهاز تصطحب في حراسة مشددة صلاح نصر مدير الجهاز السابق وأشهر قادته (من 1957 إلى 1967) إلى قاعة المحكمة مقيدًا بـــالكلابشات وتعيده إلى محبسه، مع أن سالم كان يكن تقديرًا خاصـــًا له.

وغاية ما كان أن التلميذ سالم تنكر لمعلمه هويدي قبل أن يتنكر لمبادئ الرجل وينخرط بعدها بسنوات في الشراكة مع الإسرائيليين في

أنشطة اقتصادية وتجارية وفي رأسمالية المحاسيب. في هذا السياق، يقول أمين يسري: دعوته إلى شقتي هنا.. أجلسته على هذا المقعد أمامي وعنفته بشدة حتي بكى. كان عاجزًا عن إقناعي بموقفه من هويدي وامتناعه عن زيارته ولو لمرة واحدة في محبسه. وأضاف: الأكثر إيلامـًا أن زوجته (نظيمة) أغلقت خط الهاتف في وجه زوجة هويدي (سمية) وهددها بألا تعاود محاولة الحديث إليها، عندما اتصلت تسأل عنها بعد انقطاعها المفاجئ عن زيارتها اليومية، وحيث كانت ترافقها في كل شيء تقريبـًا حتى في قضاء مشترياتها والإشراف على أعمال المترل.

أخرج السفر إلى دولة الإمارات في عام 1972 حسين سالم من ضياع ما بعد هويدي، وخسارة امتيازات رجل مخابرات في مكتب مدير الجهاز نفسه، بما في ذلك التصييف في شقة تابعة للجهاز تتكون من غرفتين في سيدي بشر بالإسكندرية. وهناك فترة محدودة، انتقل خلالها إلى شركة النصر للاستيراد والتصدير قبل أن يغادر مصر. وقبل أن يتوسط له أخاه غير الشقيق عبدالحميد عند صديقه د. محمد حسن الزيات أحد رجال السادات في أحداث 15 مايو1971 كي يخرج من جهاز المخابرات، ويسافر إلى الإمارات.

تتطابق الروايات في أن د. حسن عباس زكي، وزير الاقتصاد والتجارة الخارجية في عهد عبدالناصر ومهندس قرارات التأميم في الستينيات ثم رجل الأعمال لاحقـًا في عهد انفتاح السبعينيات، هو الذي ألحق سالم بعمله الجديد في أبوظبي عاصمة الدولة الاتحادية

الوليدة، حيث كان زكي حينها مستشارًا اقتصاديـــًا لرئيس الدولة الشيخ زايد بن سلطان آل نهيان.

تم نقل سالم للعمل بالمؤسسة المصرية العامة للتجارة الخارجية، وأعير منها للعمل بشركة الإمارات العربية المتحدة للتجارة في أبوظبي اعتبارًا من 20 نوفمبر 1973. كانت الشركة الأخيرة تابعة لوزارة الاقتصاد الاتحادية وتولت مسؤولية استيراد السلع الغذائية الاستراتيجية.

وحسب تقرير الرقابة الإدارية51، فإن سالم نُقل للعمل بالشركة المصرية للتجارة الخارجية وشغل بها الوظائف الآتية:

– مدير عام الفروع وعضو مجلس الإدارة مع استمرار إعارته إلى أبوظبي اعتبارًا من 23سبتمبر 1974.

– مدير عام الفروع مع استمرار إعارته إلى أبوظبي من 1 يناير1976.

بدأ الرجل خلال عمله بالإمارات بين عامي 1973 و1977 في أنشطة تجارية لحسابه الخاص مستفيدًا من توسع شبكة علاقاته مع رحلات عمل إلى دول غربية والهند وباكستان وغيرها. وبدأ في تحويل أموال جناها من البيزنس الخاص إلى سويسرا وشراء فنادق صغيرة موتيلات بها. كما دفع بنجليه خالد وماجدة للدراسة بمدارسها.

---

51 "الشعب" تنشر نص تقرير الرقابة الإدارية حول ممتلكات الجاسوس الإسرائيلي حسين سالم، موقع "جريدة الشعب الجديد" الإلكتروني، 27 أغسطس 2013 .

وهكذا انتقل حسين سالم إلى عالم الأعمال وعثر على "خميرة" البيزنس الخاصة به. إلا أن الأيام الحلوة في الإمارات انقضت بعد أسابيع معدودة من زيارة السادات إلى القدس في 19 نوفمبر 1977. وقد استقبل سالم مدير الشركة الحكومية في العلن ورجل الأعمال في الخفاء حدث الزيارة بترحاب؛ إذ أحس برياح الغرب تهب على المنطقة محملة بفرص الاستثمار والربح لرجال على شاكلته استفادوا من تحولات اقتصادية سياسية سريعة الإيقاع في مصر ودول الخليج.

لم يكن لنهاية مشوار العمل في أبوظبي علاقة بالسياسة؛ إذ كانت الدول العربية لم تُقدم بعد على المقاطعة. وأكثر الروايات مصداقية تفيد بأن سالم غادر بعدما تحركت ضده عائلات تجارية تقليدية من أهل البلد أضيرت مصالحها في السوق من نشاط شركته، واتهمته بارتكاب تجاوزات ومخالفات، فضلاً عن شبهات لاحقته بتقاضي عمولات غير قانونية من شركات ويؤكد مدير ديوان الرئاسة بالإمارات وقتها علي الشرفا أن هناك تجاوزات منسوبة سالم رفعها ديوان المحاسبة إلى جهات قضائية، لكن الشيخ زايد تدخل وعفا عنه، وسافر من البلد دون صدور أي أحكام قضائية ضده. وزاد على ذلك قوله: جاء إلى الإمارات مرات عدة بعدها. وأكد أنه لم يصدر حُكم يمنعه من الدخول52.

السفير أمين يسري قال إن حسين سالم أبلغه شخصيـاً يومـاً ما بأنه جنى من نشاطه خلال مرحلة الإمارات 200 مليون دولار، حوّلها

---

52 المرجع نفسه.

في البداية إلى سويسرا؛ ثم وضع نصف الثروة لاحقـــاً في إسبانيا، حيث منحته الجنسية، واشترى قصرًا هناك في مايوركا. وهو على الأرجح ذاته القصر الذي تحفظت السلطات الإسبانية على سالم فيه لاحقـــاً.

اللافت أن الرجل الذي غادر الإمارات جوًا إلى القاهرة لم يحمل معه أمواله إلى الوطن، لكنه بدأ ينخرط في ممارسات واضحة الفساد تمهد له الطريق إلى دوائر شخصيات نافذة في القاهرة. وهذه الممارسات من قبيل تعيين أبناء مسؤولين كبار في مصر بالشركة التي يديرها واستضافة أقرباء لهم على حسابها.

هكذا بحلول نهاية عام 1977، عاد حسين سالم إلى القاهرة، وكان ذلك بعد نحو عامين فقط من تعيين الرئيس السادات لحسني مبارك نائبـــاً له. وإلى هذا العام يعود تعرفه على مبارك وبداية العلاقة بين الرجلين، كما أشار باقتضاب في حديثه النادر وربما الوحيد للصحافة المصرية في "العالم اليوم" بعدد 17 سبتمبر 2007، وهو تاريخ يخالف ما يجري الترويج له عن بداية هذه العلاقة في نهاية عقد الثمانينيات.

المؤكد أن المليونير العائد موصومـــاً بشبهات غموض رحيله من الإمارات اتخذ من شقته القديمة مسكنـــاً له لنحو عامين. ورغم انضمامه إلى نادي المليونيرات، فإنه عمل في السلك التجاري التابع لوزارة الاقتصاد، ويحتفظ بالوظيفة الميري، بعدما أصبح في حقيقة الأمر رجل أعمال ومن دون أن يعلم كثيرون. تمامـــاً كما كان يحتفظ بشقة عمارة "توكل"، ويدفع إيجارها الشهري (تسعة

جنيهات)، مع أنه كان قد بنى عمارته في ذات الحي (مصر الجديدة) وفق رواية جيرانه القدامى. ثم انتقل حسين سالم من منطقة الجولف إلى مسكنه الجديد في منطقة السبع عمارات.

إلا أن الوثبة التالية والأخطر كانت نحو واشنطن عام 1979 وزيرًا مفوضـًا للتجارة بالسفارة المصرية، وحيث كان زميلاً للملحق العسكري محمد عبدالحليم أبو غزالة، ومدير المشتريات العسكرية منير ثابت، شقيق من سيطلق عليها لاحقـًا سوزان مبارك.

وهناك في واشنطن جرى واحد من أكثر فصول قصة حسين سالم إثارة وخطورة، وربما غموضـًا.

د. إبراهيم عويس، الخبير الاقتصادي من أصل مصري والأكاديمي بجامعة جورج تاون، والذي عمل في البعثة الاقتصادية الرسمية المصرية بالولايات المتحدة في السبعينيات، حيث تعرف على حسين سالم للمرة الأولى، يصفه ببساطة بأنه "محتال في مجال الأعمال"53.

حسب مصادر مطلعة، فإن الرجل الذي دفع بسالم إلى واشنطن لم يكن سوى د. مصطفى خليل رئيس الوزراء حينها وأحد مهندسي اتفاقات كامب ديفيد مع إسرائيل.

مسيرة انحراف حسين سالم في الولايات المتحدة بدأت تحديدًا عقب توقيع معاهدة السلام المصرية – الإسرائيلية عام 1979، تحت إشراف الرئيس الأميركي الأسبق جيمي كارتر، فقد تضمنت المعاهدة

---

53 إيهاب الزلاقي، كتاب أمريكي يكشف: البيت الأبيض تدخل بكل قوته لإغلاق قضية فساد "حسين سالم" حتى لا يغضب "مسؤولين كبار" في القاهرة، جريدة "المصري اليوم"، القاهرة، 23 فبراير 2011.

اتفاقات جانبية أخرى بين مصر والولايات المتحدة من ناحية وبين إسرائيل والولايات المتحدة من ناحية أخرى، تمنح بمقتضاها الولايات المتحدة كلا البلدين معونة عسكرية وأخرى اقتصادية كل عام، وبينما نالت مصر معونة عسكرية بقيمة 1.3 مليار دولار واقتصادية بقيمة 800 مليون دولار بإجمالي 2.1 مليار دولار سنويـــاً، فاقت المعونة الإسرائيلية نظيرتها المصرية بمبلغ مليار دولار فضلاً عن معونات أخرى لإسرائيل بعضها كان في صورة مقنعة.

وفي الوقت الذي خفضت فيه الولايات المتحدة القيود المفروضة على بيع المعدات العسكرية لمصر، قرر وزير الخارجية المصري كمال حسن علي والسفير المصري في واشنطن أشرف غربال والملحق العسكري لمصر في واشنطن محمد عبدالحليم أبو غزالة إقامة شركة تجارية مسجلة في الولايات المتحدة تتولى شحن المعونة العسكرية الأميركية إلى مصر، على أن تستخدم أرباحها في تمويل لوبي مصري في أميركا إضافة إلى تغطية بعض المصروفات السرية لتحقيق مصالح مصرية في مجالي الإعلام والعمل السياسي.

خلال تلك الفترة كانت هناك علاقة قوية تجمع عبدالحليم أبو غزالة وحسين سالم -الوزير التجاري المفوض حينها- ومنير ثابت مدير المشتريات العسكرية في نفس الفترة، فتقرر وقتها أن يتولى حسين سالم إنشاء ورئاسة هذه الشركة.

هكذا ظهر حسين سالم في الواجهة، باعتباره رئيس شركة TERSAM وهي شركة للشحن البحري مقرها بنما، وحصلت -في ظروف غامضة- على خطاب تفويض لتكون الوكيل الوحيد لشحن المعدات المرسلة من الولايات المتحدة إلى مصر وفق اتفاقيات المعونة.

هذه الشركة رفض أشخاص داخل البنتاغون منحها تصريح العمل إلا بعد دخول شركاء أميركيين.

لهذا الغرض، طلب حسين سالم من إيريك فريتز فون ماربود، الذي كان نائب مدير المساعدات الأمنية في البنتاغون، مشاركته في إنشاء تلك الشركة، لكن مسؤول البنتاغون اقترح على سالم الدخول في شراكة مع توم كلاينس، وهو عميل سابق في المخابرات المركزية الأميركية، كان قد تقاعد في أكتوبر 1978.

وبحلول أغسطس 1979، عندما كانت مبيعات المعدات العسكرية الأميركية لمصر آخذة في النمو، أنشأ حسين سالم وتوماس كلايتز شركة جديدة حملت اسم الشركة المصرية الأميركية لخدمات النقل، في ولاية ديلاوير، ولكن مقرها الرسمي كان في مدينة فولز تشيرش بولاية فرجينيا، كما تأسس لها مكتب في مصر. في الولايات المتحدة، حملت الشركة اسم:

Egyptian American Transport and Services Corporatio “ETSCO”

امتلك حسين سالم 51% من أسهم تلك الشركة، بينما كان الباقي من نصيب توماس كلايتز، علمـاً بأنه كان هناك اتفاق سري بينهما يسمح لحسين سالم بشراء أسهم كلايتز في أي وقت. وتبين فيما بعد أن عددًا كبيرًا من المساهمين في تلك الشركة من كبار الشخصيات اليهودية بالولايات المتحدة فضلاً عن عدد من الشخصيات الإسرائيلية. واتضح أنه كان لحسين سالم هناك شركاء

آخرون مستترون، بينهم ثيودور شاكلي وريتشارد سيكورد وإيريك فون ماربود.

وبعد وقت قصير من تأسيس الشركة منحتها الحكومة المصرية عقدًا حصريـًا لتتولى شحن جميع المعدات العسكرية التي تم تقديمها من الولايات المتحدة، باستثناء الطائرات الحربية التي كان ينقلها سلاح الطيران الأميركي إلى مصر جوًا، فضلاً عن بعض المعدات الحساسة التي كانت الحكومة الأميركية تتولى نقلها بمعرفتها وكانت تكلفة شحنها وتغليفها تخصم من قيمة المعونة الممنوحة لمصر.

نظرًا لافتقاره إلى الخبرة الإدارية اللازمة، عيَّن حسين سالم في منصب نائب رئيس الشركة أحد موظفي المخابرات المركزية الأميركية السابقين، ويُدعى إدوين ويلسون، الذي كان قد ترك الخدمة بالمخابرات الأميركية بسبب شبهات حول تعاملاته السرية مع الحكومة الليبية وتصدير أسلحة ومتفجرات بصورة غير شرعية إليها، ما أسفر عن محاكمته وصدور حُكم بسجنه عام 1983 لمدة طويلة.

لم يُستخدم أي جزء من أرباح الشركة في عمل سياسي لصالح مصر، بل تم صرفها حسب ما نشر في الصحافة الأميركية في ذلك الوقت على نفقات شخصية لبعض كبار المسؤولين المصريين أثناء زياراتهم للولايات المتحدة. وكانت تلك الشركة تؤدي عملاً روتينيـًا؛ لأنها كانت في حقيقة الأمر تتعاقد من الباطن مع شركات أخرى متخصصة في شحن وتغليف المعونة العسكرية الأميركية إلى مصر، ما يعني أن عمل الشركة التي ترأسها حسين سالم كان مقصورًا

على دور الوسيط الإداري والمالي بين وزارتي الدفاع الأميركية والمصرية.

بموجب المعونة العسكرية الأميركية، كانت الولايات المتحدة تدفع ثمن مشتريات السلاح لمصر، على أن تخصم قيمتها من المعونة، وكانت شروط المعونة تتيح استخدام هذه الأموال لسداد تكاليف الشحن لشركة حسين سالم من خلال الفواتير التي كان يقدمها سالم إلى وزارة الدفاع الأميركية.

بعد عامين تقريبـــًا، أيقن حسين سالم أن الحكومة الأميركية لم تكن تعير اهتمامـــًا كبيرًا للفواتير التي كان يرسلها إليها؛ لأنها كانت تخصم من قيمة المعونة الأميركية لمصر، فأخذ يبالغ في مطالباته المالية بخصوص عقود الشحن والتغليف، إلى أن بلغت مطالباته مستوى يفوق بكثير ما كانت تسمح به إدارة المبيعات بوزارة الدفاع الأميركية.

بدأ استشعار الفساد بمراجعة روتينية على يد توماس روميو، الموظف بالهيئة الفيدرالية البحرية FMC، الذي لاحظ الكثير من المبالغة في تقدير قيمة الفواتير الخاصة بأعمال شركة EATSCO، ليبدأ مراجعة أعمال الشركة بالكامل وينكتشف تلاعبها في مبالغ وصلت إلى 8 ملايين دولار، بعد أن قدمت 34 فاتورة مزورة بتكاليف مبالغ فيها إلى الإدارة الأميركية.

في المراحل الأولى لانكشاف القضية، أبلغت الهيئة الفيدرالية البحرية السفارة المصرية في واشنطن ووزارة الدفاع الأميركية بمعلومات تورط الشركة في عمليات مخالفة للقانون وذلك خلال عام

1981. وصلت معلومات القضية بالفعل إلى الرئيس الراحل أنور السادات، الذي أمر بإجراء تحقيق مصري خالص في العمليات المشبوهة التي تقوم بها شركة EATSCO، ولكن هذا التحقيق لم يقدر له أن يكتمل، حيث تم إغلاق الملف من ناحية مصر بعد اغتيال السادات وتولي مبارك السلطة.

وأعقب ذلك إصدار المحكمة الفيدرالية في واشنطن قرار اتهام بحق حسين سالم، وأمرت بالقبض عليه. وعندما بلغ سالم نبأ صدور أمر بالقبض عليه وتجميد أرصدته، سارع بتحويل أرصدته إلى سويسرا وإسبانيا، وفر إلى الأخيرة ليؤسس هناك شركة للتجارة والاستثمار.

لم تكن السلطات الأميركية تتصور في البداية أن حسين سالم – الذي كان يرأس شركات أخرى تعمل في المجال نفسه وتحمل أسماء متعددة منها "فور وينغز"، و"وايت وينغز" "The White wings" {Les Ailes Blanches} المسجلة في باريس– يعمل لصالح بعض الشخصيات المصرية الكبيرة.

التحقيقات الأمريكية التي بدأت في أنشطة شركة EATSCO توصلت إلى أن كلايتر هو مجرد واجهة لمجموعة من الأميركيين والتي ضمت عددًا من المسؤولين داخل وزارة الدفاع والمخابرات الأميركية، وأيضـــاً بعض المتقاعدين من المخابرات الأميركية على رأسهم ويلسون، الذي كانت تجمعه عمليات غامضة بالزعيم الليبي معمر القذافي، لكن الاسمين الكبيرين في القضية كانا حسين سالم وتوم كلايتر الشريكين الظاهرين في عمل الشركة.

ومع استمرار التحقيقات، أنهى كلايتز في يناير 1982، بشكل رسمي علاقته مع الشركة، عندما باع حصته إلى الشريك المصري بمبلغ يتجاوز مليوني دولار. وفي 22 سبتمبر 1982 قدم الضابط كارلوس سالييناس بعض التقارير المحظور الاطلاع عليها، والتي تملكها المخابرات الأميركية بخصوص EATSCO وتضمنت معلومات وصلت البنتاغون أن الفساد في الشركة يطال بعض المسؤولين الكبار في مصر. وكشفت التحقيقات أن الشركة حصلت رسمياً على مبلغ 71.4 مليون دولار مقابل شحن معدات قيمتها نحو 750 مليون دولار لمصر، ولكنها كشفت حصول EATSCO على نسبة تتراوح بين 15 و25% من قيمة الشحنات، بدلاً من نسبة 9.8% المنصوص عليها في العقد الرسمي.

بدأت تفاصيل القضية تعرف طريقها إلى وسائل الإعلام المختلفة، ففي الأول من أكتوبر عام 1982، كتب إدوارد باوند قصة كبيرة في جريدة "وول ستريت جورنال" حول القاضي الفيدرالي الكبير الذي ينظر في قضية EATSCO وكتب: "القضية حساسة للغاية نظرًا لاحتمال وقوع ضرر في العلاقات المصرية– الأميركية؛ ولذا تنظرها مجموعة من كبار القضاة بوزارة العدل سافر أحدهم إلى مصر أخيرًا. وفي هذا الإطار فإن الولايات المتحدة تحاول أن تتجنب إغضاب أو إحراج القاهرة".

استمرت التحقيقات في تلك القضية، والتي كان واضحــاً أن الأسماء المصرية المتورطة فيها تتجاوز بكثير حسين سالم، وأنها ربما تؤثر بالسلب على العلاقة بين واشنطن والقاهرة، الأمر الذي دفع الإدارة

الأميركية لاتباع طريق بعيد تماماً عن طريق القضاء العادي، وإهدار القانون في محاولة للتغطية على الأسماء الكبيرة، التي لا تريد أن تخسرها.

وهكذا عُقِدَ اجتماع محدود في 21 مارس 1983 داخل غرفة الأزمات بالبيت الأبيض، حيث اجتمع مسؤولون كبار بالمخابرات الأميركية ووزارة العدل ووزارة الخارجية لمناقشة موقف البيت الأبيض من الادعاء في قضية الشركة المذكورة.

كان من بين الحاضرين المدعي العام في القضية ثيودور غرينبرغ، ووليام تافت المستشار العام لوزارة الدفاع، وروبرت كيميت، أحد موظفي مجلس الأمن القومي في عهد كارتر، والذي أصبح المستشار العام للمجلس في عهد ريغان. وكان بين الحاضرين أيضاً وينغيت لويد وجيف سميث من وزارة الخارجية.

في البداية، وصفت مذكرة ستانلي سبوركين الاتهامات: "مسؤولون كبار حاليون وسابقون في الإدارة الأميركية تآمروا مع مجموعة من المسؤولين الأجانب على سلب ملايين الدولارات من الولايات المتحدة والحكومة المصرية بالخداع، وقد قام السيد كيميت المستشار العام لمجلس الأمن القومي بالدعوة إلى هذا الاجتماع، نظرًا لما أبداه رجلا القانون كين ولستر ومارتن هوفمان من مخاوف استمرار وزارة العدل في التحقيق في ممارسات شركة EATSCO وأن ذلك سيسبب ضررًا فادحاً للعلاقات المصرية الأميركية". وكتب سبوركن: "إن السيدين هوفمان وويستر لجآ إلى مجلس الأمن القومي للتدخل وإيقاف تحقيقات وزارة العدل".

كانت خلاصة تقرير الاجتماع النهائية كما جاء في تقرير وزارة العدل الأميركية تقول إن "شركة EATSCO استولت على 8 ملايين دولار دون وجه حق، وهذه الأموال من حق الحكومة المصرية، وأن حسين سالم أخرج توم كلاينة من الشركة ومنحه 2.7 مليون دولار للخروج مقابل 49 ألف دولار، دفعها للدخول في الشركة".

اختتم الحاضرون الاجتماع بقرار وضع مسؤولية القضية على عاتق غرينبرغ، مع التشديد على ضرورة تفهم عدم مقاضاة أي مصري جنائيــاً في تلك القضية. وقبل انفضاض الاجتماع تحدث أحد المساعدين من البيت الأبيض ويدعى بيتمان قائلاً إن مستشار الأمن القومي وليام كلارك قد شدد على أن "البيت الأبيض لا يريد أي دعاوى جنائية"، ومع هذه التعليمات الواضحة حمل ثيودور غرينبرغ على عاتقه مهمة تغطية أنشطة EATSCO غير القانونية باعتبارها مهمة أمن قومي.

في نهاية المطاف، وافق غرينبرغ على مساومة محامي حسين سالم على الاتهام الموجه للأخير - وفقــاً لنظام معمول به في الولايات المتحدة يسمح بالمساومة مع المتهم على الاتهام الموجه إليه مقابل اعترافه بذنبه، ويُعرف هذا النظام باسم Plea Bargaining بحيث يعترف سالم بأنه مذنب في تهمتين تتعلقان بتزوير فواتير للبنتاغون مقابل تسوية الدعاوى القضائية المرفوعة ضده.

وبالفعل أصدرت محكمة فيدرالية في مدينة الإسكندرية بولاية فرجينيا حُكمــاً على حسين سالم في 23 يوليو 1983 وألزمته بدفع

غرامة رمزية وتعويض مدني بقيمة 3 ملايين و20 ألف دولار[54]. أما كلايتر فقد دفع غرامات مقدارها 130 ألف دولار لتسوية كل الدعاوى المدنية، رغم أن الإدارة الأميركية تعلم تماماً أنه حصل بطريقة غير شرعية على عدة ملايين من الدولارات من خلال EATSCO.

وفي ظل تلك السابقة الجنائية في سجلاته لدى مكتب التحقيقات الفيدرالي، مُنِعَ سالم من العودة إلى الولايات المتحدة مرة أخرى.

في مرآة الإعلام الأميركي، كانت هناك علامات تدل على تفاصيل مثيرة في تلك القضية.

فقد نشرت جريدة "واشنطن بوست" في 9 أكتوبر 1982 تقريرًا بعنوان "وزير في القاهرة روَّعته أخبار أسلحة"، يتضمن فقرات من بيان وزعته السفارة المصرية في واشنطن ينفي فيه وزير الخارجية حينها، كمال حسن علي، تقارير إخبارية في الولايات المتحدة تحدثت عن مخالفات شركة النقل والخدمات الأميركية المصرية "إتسكو"، التي كان على رأسها حسين سالم. وتنقل الصحيفة عن وزير الخارجية وصفه لهذه التقارير والأنباء تورط مسؤولين مصريين بينهم هو شخصياً بأنها "أكاذيب خبيثة". كما تحدى الوزير، ورئيس الوزراء لاحقاً، أي شخص أو جهة في "الإتيان بأي وثيقة تثبت أياً من هذه الأكاذيب". وأشار إلى أن "الحكومة المصرية أجرت تحقيقاً

---

54 Joseph J. Trento, Prelude to Terror: the Rogue CIA, The Legacy of America's Private Intelligence Network the Compromising of American Intelligence, New York: Carroll & Graf, 2005, pp.261-268.

مستفيضـــاً منذ نحو عام أثبت أن أيـــاً من المسؤولين المصريين لم يرتكب أي عمل خاطئ".

توعد كمال حسن علي في بيانه -وفق الجريدة الأميركية- بالشروع في إجراءات قانونية بالولايات المتحدة ضد "كل من حاول دون أساس إضفاء الشكوك على اسمه وأسماء غيره من المسؤولين المصريين". وبالعودة إلى مذكرات كمال حسن علي[55] المنشورة عام 1994، يتضح أن الكاتب لم يتطرق مطلقـــاً للقضية أو إلى اسم حسين سالم.

ونشرت كلٌ من صحيفتي "نيويورك تايمز" و"واشنطن بوست" في 22 يوليو 1983 و17 يناير 1984 على التوالي، تقريرين تناولا الحُكم في قضية مخالفات شركة "إتسكو"، التي تبين أن شركاء سالم الظاهرين في أصولها وإدراتها عملاء سابقون في المخابرات المركزية الأميركية، ومن بينهم إدوين ويلسون المتورط في أنشطة إجرامية أدت إلى سجنه 22 عامـــاً، فضلاً عن زميله توماس كلاينز. وكلا الاسمين سيتبين لاحقـــاً أنهما من كبار تجارة سلاح سرية أشرفت عليها وكالة المخابرات المركزية الأميركية. وقد زودت هذه التجارة نظمـــاً دكتاتورية معادية لليسار في أميركا اللاتينية فضلاً عن المجاهدين الأفغان بأنواع متعددة وكميات وفيرة من الأسلحة وبتمويل خليجي.

---

55 كمال حسن علي، مشاوير العمر: أسرار وخفايا 70 عامـــاً من عمر مصر في الحرب والمخابرات والسياسة، دار الشروق، القاهرة، 1994.

جاء التقريران تحت عنواني "شركة تعترف بالمبالغة في الحصول على نفقات من الولايات المتحدة" و"إدانة شركة يرأسها مسؤولون سابقون في (سي.آي .أيه) في قضية بيع أسلحة".

أشار التقريران إلى شركاء مصريين آخرين تدخلت الإدارة الأميركية لإبقاء أسمائهم طي الكتمان. وقد أدين سالم وشركاؤه الأميركيون المكشوفون أمام الرأي العام الأميركي للمبالغة في نفقات الشحن البحري لأسلحة المعونة لمصر وللتلاعب في فواتير الشحن المقدمة إلى وزارة الدفاع الأميركية "البنتاغون"، ودفع سالم غرامة تقدر بنحو 8 ملايين دولار.

وفي 14 يناير 1988، نشرت "نيويورك تايمز" تقريرًا جديدًا عن القضية بعنوان "ثيودور غرينبرغ المدعي الذي يعرف كيف يحفظ السر". اتهمت الصحيفة المدعي بالفشل في تحقيق العدالة، وألمحت إلى أنه كان أداة بيد المخابرات المركزية الأميركية والبنتاغون. وقالت الصحيفة إن المدعي الذي كان مكلفًا بالتحقيق في القضية ويعمل بالإدارة الجنائية لوزارة العدل، حجب معلومات مهمة حفاظًا على "مصالح قومية أميركية". ونقلت الصحيفة عن مصادر موثوقة –من بينها القاضي الفيدرالي ستانلي سبوركين– أن غرينبرغ على علاقة جيدة مع المخابرات المركزية الأميركية.

الإعلام الأميركي كان عليه الانتظار إلى ما بعد ثورة 25 يناير 2011 في مصر ليعيد فتح ملف القضية من جديد، على نحو أكثر صراحة وشفافية، وليكشف عن أسماء ظلت محجوبة لأكثر من ربع قرن. وهكذا في الأول من مارس 2011 تحدثت شبكة "إيه. بي. سي"

التليفزيونية الأشهر داخل الولايات المتحدة عن الفساد الذي جاء مع المعونة الأميركية واتفاقات كامب ديفيد، وعن تورط كل من حسني مبارك ومنير ثابت وأبو غزالة في أعمال شركة "إتسكو" غير القانونية، بما في ذلك سمسرة ورشاوى وعطاءات بالأمر المباشر تدر ملايين الدولارات عليهم. وظهر ويلسون ليدلي باعترافات للشبكة التليفزيونية بعد أن خرج من السجن في عام 2004 بعفو لم يستكمل بمقتضاه مدة العقوبة (52 عامـــاً). ووصف الشريك السابق لحسين سالم الرجل بأنه كان الواجهة للرئيس مبارك نفسه.

بعدها بيومين فقط، دعا موقع "كونستريوم نيوز" الأميركي -في تقرير تحت عنوان "مبارك الرجل الحقيبة"- البيت الأبيض وهيئات أميركية أخرى إلى إنهاء السرية المفروضة منذ نهاية السبعينيات ومطلع الثمانينيات على فضيحة شركة "إتسكو" وإلى رفع الحماية المفروضة على دور مبارك وكبار معاونيه فيها. ونقل الموقع عن "واشنطن بوست" قولها إن أي محاولة جادة لتتبع ثروة مبارك تتطلب من إدارة الرئيس باراك أوباما الإفراج عن الوثائق السرية لقضية "إتسكو".

وعلى الرغم من أن الجهات المعنية في مصر آنذاك كانت على دراية بتلك المعلومات، فإنها كانت تدرك في نفس الوقت أن حسين سالم المدان أمام القضاء الأميركي يتمتع بحماية مؤسسة الرئاسة في مصر، الأمر الذي أدى إلى غل يد تلك الجهات عن المساس برجل الأعمال المدلل. ساعد على ذلك ما رواه الصحفي الأميركي بوب ودوارد مفجر فضيحة "ووترغيت" الشهيرة في كتابه "الحجاب"، من أن سالم أبقى فمه مطبقـــاً، وعمل على الدوام على إبعاد اسم مبارك عن أي حديث له صلة بهذا النشاط السري[56].

---

56 Bob Woodward, Veil: The Secret Wars of the CIA, 1981-1987, New York: Simon & Schuster, 1987.

ينقل الصحفي كارم يحيى عن شاهد كان يعرف المشير أبو غزالة في عقد الثمانينيات قوله بعدما طلب عدم نشر اسمه وهويته: "إن قصة شراء السلاح والتربح من نقله مسألة تورط فيها مبارك قبل أن يصبح رئيسـاً للبلاد. واستفحلت على نحو غير مسبوق منذ اتفاقات كامب ديفيد". ويؤكد: "اتخذت عمليات شحن السلاح، شركات عدة تنقلت بين دول كان منها "إتسكو" و"فور وينغز" الشهيرة". ويفجر المصدر مفاجأة أخرى عندما يضيف: "شركات الشحن هذه كانت تعمل في الآن نفسه غطاءً لتجارة شراء وبيع الأسلحة إلى مناطق النزاع في العالم".

يوضح المصدر نفسه أن الأجهزة الرقابية كانت على علم بما يدور، "لكن لأن الأسماء المتورطة كبيرة جدًا لم يكن بالإمكان عمل أي شيء". اللافت هنا أن الرئيس السادات أرسى تقليدًا يفوض بمقتضاه مجلس الشعب رئيس الجمهورية في صفقات الأسلحة من دون رقابة أو علم البرلمان. وهي سنة غير حميدة سار عليها خلفه مبارك حتى نهاية عهده. مفاجأة أخرى ثالثة يكشف عنها المصدر نفسه حين يقول إنه شاهد بنفسه "حسين سالم يتردد مرات ومرات على مكتب أبو غزالة بالوزارة في مقابلات خاصة لم يكن مسموحـاً بتسجيل محاضر لها"[57].

لكن ما الذي حدث بين الرجلين ليدفع صحيفة "العالم اليوم" في الحوار النادر مع حسين سالم بتاريخ 17 مارس 2007 إلى سؤاله: "كنتما صديقين، فهل انتهت العلاقة بينكما؟"، فيجيب باقتضاب:

---

57 كارم يحيى، مرجع سابق.

"مافيش لزوم لهذا الكلام"؟ وكيف يتسق السؤال والإجابة مع إعلان العزاء والمواساة الذي نشره سالم في صفحة الوفيات في "الأهرام" في 8 سبتمبر 2008، وقد وصف الإعلان الراحل أبو غزالة بـــــ"الصديق الكريم"؟

التفسير المنطقي الوحيد هو أن حسين سالم باع "صديقه الكريم" إلى الصديق الأكرم حسني مبارك، وساعد الأخير على التخلص من وزير الدفاع القوي أبو غزالة في عام 1989. ولعل الدراما الخاصة بعلاقة الرجلين تصل إلى الذروة عندما نعلم أن المشير أبو غزالة كان شاهد عقد قران خالد نجل حسين سالم قبل الإطاحة به بنحو عام واحد. وعندما نعلم أيضـــاً أن سالم حاول أن يُكفِّر عن ذنبه في أيام أبو غزالة الأخيرة، فزاره في مستشفاه بباريس وعرض عليه شيكـــاً بملايين الدولارات، لكن أبو غزالة رفض تسلمه58.

تحت قبة البرلمان المصري، دارت معركة قصيرة على شراستها، حول تورط حسين سالم وشركائه في الفساد و"العمولات الحرام".

ففي الساعة السابعة و35 دقيقة مساء الخامس من مارس 1990، بدأ استجواب النائب الوفدي علوي حافظ تحت قبة مجلس الشعب تحت عنوان "الفساد وطهارة الحُكم"، وهو الاستجواب الذي تناول قضية حسين سالم وشركائه الكبار في نقل سلاح المساعدات الأميركية.

---

58 المرجع نفسه.

خضعت الجلسة لتعتيم إعلامي مخطط بعناية إلى حد اختيار موعد انعقادها في ذات توقيت بث التليفزيون مباراة كرة قدم بين منتخب مصر القومي ونظيره النيجيري، وبعدما تأجلت مناقشة الاستجواب لنحو عامين. كما خلت تغطيات الصحف في اليوم التالي من أية إشارة لحديث علوي حافظ المستفيض عن الفساد في نقل السلاح.

من واقع أوراق مضبطة الجلسة (38 صفحة)، يتضح لنا أن وزير الدفاع وقتها الفريق يوسف صبري أبو طالب تغيب عن الجلسة، وأن رئيس المجلس د. رفعت المحجوب ورئيس الوزراء د. عاطف صدقي ورئيس الكتلة البرلمانية للحزب الوطني كمال الشاذلي جاهدوا جميعـًا لمنع الإعلان عن أسماء المتورطين، وعلى رأسهم حسين سالم، الذي ألمح إليه مقدم الاستجواب مرارًا وتكرارًا بأوصاف وأفعال تدل على شخصه.

وفي النهاية، تقدم الشاذلي بطلب وافقت عليه الأغلبية بحذف الأسماء من المضبطة. قام د. رفعت المحجوب بتنقية المضبطة وتنقيحها وتوضيحها بنفسه، وهكذا وصلت إلينا خالية منها.

في تلك الجلسة، قدم النائب علوي حافظ محاضر رسمية موثقة، وتسجيلات فيديو، وصورًا فوتوغرافية، وخطابات رسمية بتوقيعات مسؤولين مصريين وأجانب، ومضابط وتقارير رسمية للكونغرس الأميركي ولجانه الفرعية، ووزارة العدل الأميركية وكشفـًا بأسماء شخصيات مصرية وعالمية أبدت استعدادها للشهادة أمام أي لجنة استماع أو تحقيق برلمانية عن تورط شخصية مصرية -المقصود بها حسين سالم- في قضية فساد تتعلق بالتسليح.

قال علوي حافظ إن الصدفة وحدها هي التي قادته إلى هذه الفضيحة ليكون هذا الاستجواب تعرية لفساد الكبار أمام نواب الشعب. ويوضح قائلاً: "كنت عائدًا من مطار القاهرة قاصدًا منزلي في ناحية الروضة، وفي ضاحية مصر الجديدة لفت نظري "زينات" صاخبة ومثيرة وأصوات فرح كبير في قصر مهيب اصطفت حوله عربات كل المسؤولين في مصر، وأجهزة الأمن من كل نوع، تحرس هذه العربات، سألت من صاحب الفرح، إيه الأبهة دي كلها، ده ليلة من ألف ليلة وليلة، قالوا ده واحد كبير قوي "بيجوز" بنته. سمعت قصصـــًا غريبة وعجيبة عن صاحب هذا القصر وبطانته، كلها تثير الريبة، والشك، ومن يومها عشش هذا الاسم في ذهني ومرت الأيام حتي قابلت بالصدفة مصريـــًا يعيش في الخارج لا أعرفه من قبل، قدم لي هذا الرجل هذه الوثائق جميعـــًا، ليكشف اللغز الذي استفزني وحيرني كثيرًاـــ لغز الفرح. بدأت أراجع الوثائق والأوراق.. يا للعجب، إنها مضبطة إحدى جلسات محكمة الجنايات في أميركا تحاكم مصريـــًا في القضية رقم 147 لسنة 1983، صاحب هذا الاسم الكبير صديق للمسؤولين المصريين. الشخصية المصرية الغامضة التي تجئ إلى مصر بين حين وآخر بطائرة خاصة حتى زيارات متقطعة ومنحت أخيرًا آلاف الأفدنة في سيناء وأقامت عليها قرية سياحية، وأقامت فيها لأول مرة في سيناء أبراجـــــًا رغم أن التخطيط العمراني والسياحي يُلزم الذين يقتنون أراضي في سيناء للسياحة، أنهم ميبنوش غير دور أو دورين بالكثير. التهمة الموجهة إلى هذا الرجل أمام المحكمة الأميركية هي خيانة الأمانة، انتهاك المادة 18 من الدستور

الأميركي، والمتهم يعترف اعترافـــًا كاملاً أمام المحكمة بعد أن نصحه محاموه بالاستفادة من قاعدة قانونية في القانون الأميركي تعفي المتهم من السجن إذا اعترف أمام المحكمة وأعاد المسروق. اعترف خائن الأمانة المصري أنه تقدم بفواتير شحن مزورة لوزارة الدفاع بالولايات المتحدة الأميركية، ودفع المبلغ المسروق لخزينة المحكمة وهو 3 ملايين و20 ألف دولار وهي قيمة الزيادة التي تقاضاها دون وجه حق في 8 شحنات من 34 شحنة قام بها اللص باعتباره رئيســـًا لشركة وهمية تسمي "اتسكو" يشاركه فيها بعض كبار المسؤولين في مصر وعناصر ملوثة مشبوهة من عملاء الـــ"سي آي إيه" الأميركي[59].

وأضاف النائب المعارض قائلاً: وكانت المفاجأة عندما وقف ممثل النيابة فجاة أمام هذه المحكمة في أميركا، وقال للمحكمة: أنا عندي مظروف أصفر مغلق بالشمع الأحمر، وتقدمه الحكومة الأميركية لهيئة المحكمة ليُفتح سرًا، فهناك متهمون مصريون آخرون رأت النيابة عدم إذاعة أسمائهم في الجلسة نظرًا لحساسية أسمائهم ومواقعهم في حُكم بلادهم.

كشف علوي حافظ عن أكبر فضيحة للتلاعب في القروض الأميركية، وأماط اللثام عن تورط شخصيات مرموقة وشركات وهمية أسسها عدد من "الكبار"، في مقدمتهم حسين سالم، لنهب ثروات مصر، الذي وصفه علوي حافظ بـــ"اللص المصري، صاحب القصر

---

59 علوي حافظ للشباب: إما التغيير أو الضياع، جريدة "الوفد"، القاهرة، 11 فبراير 2011.

وصاحب الفرح الكبير، والذي قام بعد ذلك بتشييد أبراج في شرم الشيخ تحت سمع وبصر المسؤولين".

وقال علوي حافظ إن الفضيحة التي فجرها محكمة فرجينيا رفعت القناع تمامـــًا عن مأساة كبر ى، تتعلق بالقروض العسكرية والتلاعب فيها بواسطة هذه العصابة التي احتواها المظروف الأصفر الذي قدمته النيابة للمحكمة. وأضاف أنه كان يجب أن تتحرك الحكومة المصرية للتحقيق فورًا بعد أن دخلت ملايين الجنيهات من دم شعب مصر جيب هذه العصابة، فالمتهم وشركاؤه في المظروف الأصفر نهبوا مصر بالتحايل والتزوير، 73 مليون دولار في المحاكمة دفع منها اللص لخزينة المحكمة 3 ملايين لينجو من السجن، أما الباقي فقد وزعه على الشركاء الكبار المصريين والأميركيين.

ويؤكد علوي حافظ أن هذه القضية أرسِلَت بالكامل مع المظروف الأصفر إلى وزارة العدل المصرية، واختفت من يوم وصولها؛ لأنها تمس الكبار، ووضعت في أدراج المسؤولين وفي مكتب رئيس الوزراء شخصيـــًا[60].

وفي إحدى الإشارات الواضحة إلى حسين سالم، قال حافظ: إن رئيس العصابة المصرية أعطته الحكومة أخيرًا أغلى وأغنى وأجمل أرض في سيناء.. في شرم الشيخ ليقيم عليها فندقـــًا عالميـــًا بدأ بمليار و500 ألف دولار.

---

60 محمد المصري، خواطر محرر برلماني 31: استجواب كشف المستور في صفقات السلاح!، مجلة "أكتوبر"، القاهرة، 13 نوفمبر 2011.

وتحدث عن وجود شركات متخصصة تنظم وتخطط مشتريات السلاح حتى للبنتاغون نفسه، وهذه أسلم طريقة لشراء السلاح، لكن عصابة الـــFour Wings التي يتزعمها رئيس وزراء أسبق في مصر رفضت هذا الأسلوب وأمرت بالشراء بواسطة "لجان الشنطة".. اللجان اللي بتروح تعاين. تذهب وتتعاقد وتتفق على السمسرة، وتحول العمولة الأول وبعدين تشحن البضاعة، ليحدث أكبر حجم من التلاعب في الأسعار والعمولات"61.

وتعرض النائب الوفدي للمفاوض المصري الذي كان يشغل في ذلك الوقت رئيس وزراء مصر بأنه أصر على أن تقدم المساعدات الأميركية في شكل قروض والتي كان يمكن أن نحصل عليها في شكل منح لا تُرد.. وأن ذلك كان مثار دهشة من الجانب الأميركي؛ لأن المنح لن تعطيه فرصة للتلاعب والنهب. وأضاف أن رئيس الوزراء الأسبق كان أحد الثلاثة الذين ذكرت أسماءهم النيابة العسكرية الأميركية وقدمتهم للمحكمة.. وقال إن العمولة التي فرضتها شركاته المشبوهة TER و AET وشركة Four Wings، وهي (10.25%) من قيمة المنقول، وليس بالوزن أو بالحجم.. وهو ما يعد مخالفة لكل قواعد العرف البحرية لصالح هذه العصابة، أي أن الدبابة التي ثمنها 2 مليون دولار تُنقل بـــ250 ألف دولار على عاتق الشعب المصري62.

---

61 علوي حافظ للتسباب: إما التغيير أو الضياع، مصدر سابق.

62 صديق الفساد، جريدة "صوت الأمة"، القاهرة، 26 مايو 2014.

انتهت الجلسة الماراثونية التي استمرت 220 دقيقة من دون الاستجابة إلى طلبات المستجوب بتشكيل لجنة تقصي حقائق وبالكشف عن أسماء سلمتها وزارة العدل الأميركية في مظروف أصفر مغلق لنظيرتها في مصر. إلا أن أوراق المضبطة تتضمن أرقامـــاً وتواريخ لوثائق في الكونغرس الأميركي (التقرير رقم 144 للمناقشات بشأن دعم مصر في 25 إبريل 1979. وقرارات الكونغرس في المسألة ذاتها برقم 86 في 15 مايو 1979). وهناك أيضـــاً إشارة في مضبطة الاستجواب إلى تحقيقات للنيابة في مصر بين عامي 1982 و1985 انتهت إلى الحفظ في سرية تامة.

المدهش أيضـــاً أن الوثائق التي لوَّح بها علوي حافظ خلال الاستجواب اختفت. فلا هي في البرلمان ولا هي عند أرملته انشراح أو عند النائب السابق محمد مصطفى شردي، الذي ساعد حافظ قبل وفاته بأشهر معدودة على وضع كتابه "الفساد" الصادر في العام التالي مباشرة للاستجواب. وبعدما سجل شردي 40 شريطـــاً كاملاً بصوت علوي حافظ ونشر الكتاب عن دار يملكها بالقاهرة. المدهش أكثر أن صفحات الكتاب نفسها وعدت بإضافة ملحق ببعض مستندات ووثائق الاستجواب، لكن الكتاب جاء خاليـــاً تمامـــاً من أي منها. ومع ذلك يكشف كتاب "الفساد" –وفق رواية مؤلفه– عن أن د. المحجوب تولى بنفسه وبقلمه العمل على المضبطة وقام بتنقيحها وبحذف عبارات ومقاطع كاملة.

لم يكن كتاب "الفساد" أفضل حظـــاً من استجواب صاحبه. وكما قال ناشره شردي: "طبعت 10 آلاف نسخة. وكلفت إحدى

الدور الصحفية الكبرى بتوزيعها، لكن ألاعيب التوزيع وقبضة مباحث أمن الدولة كانت كفيلة بألا يصل الكتاب إلى القراء"63.

في كتابه "الفساد"، يقول حافظ إن رئيس مجلس النواب الأميركي الأسبق جيم رايت وعضو الكونغرس لستروولف ورجل الأعمال الأميركي وليم فورليتو أرسلوا له خطابـاً بعد إثارة الاستجواب يقولون له فيه: إذا كلفت مصر هيئة تحقيق برلمانية للتحقيق في هذه القضية، فإنهم مستعدون للحضور إلى مصر ليشهدوا أمام لجنة التحقيق البرلمانية64.

تسجل مضبطة استجواب علوي حافظ في مجلس الشعب 5 مارس 1990 في الصفحة 16 قول المستجوب بالنص "أنا أكرر وأصر على الربط بين صفقات الأسلحة المريبة وبين مصرع صديقي ودفعتي (المقصود 1948 كلية حربية) وأخي وزميلي في السلاح أحمد بدوي، وأرجو من الحكومة المصرية أن تعيد التحقيق في مقتل أحمد بدوي وزملائه 14 لواءً".

اللافت أن رد رئيس مجلس الوزراء عاطف صدقي على الاستجواب لم يتطرق مطلقـاً إلى ما زعمه علوي حافظ بشأن حادث المشير أحمد بدوي، كما لم نعثر في الصحف المصرية حينها على أي أثر لأقوال علوي حافظ هذه أو محاولة لتكذيبها.

وإذا كان المشير أبو غزالة قد نفى بشكل قاطع ما ورد في كتاب بوب ودوارد65 بشأن شركة "الأجنحة البيضاء" التي شارك فيها أبو

---

63 كارم يحيى، مرجع سابق.

64 محمد المصري، خواطر محرر برلماني 32: أسرار اغتيال بدوي، مجلة "أكتوبر"، القاهرة، 20 نوفمبر 2011.

65 Bob Woodward, Op. cit.

غزالة ومبارك ومنير ثابت مع حسين سالم لتمرير صفقات السلاح، حتى أن أبو غزالة وصف الحكاية بأنها محض اختلاق، فإن هذه الحكاية ودور رجل الظل حسين سالم فيها وردت بشكل متكرر في كتب أميركية أخرى، منها على سبيل المثال كتاب بيتر ماس66، وكتاب جوزيف جاي. ترينتو67، اذ ي تضمن عدة فصول حول قضية فساد سالم وشركائه، التي تؤكد أن الفساد في عهد مبارك بدأ في وقت مبكر للغاية من حقبة حُكمه، وكان فسادًا منظمـــاً يصل إلى أعلى المناصب في الحُكم. تردد اسم حسين سالم في كتب اقتصادية مهمة68، وحتى في روايات ذات طابع عسكري مثل رواية ليتزي ماكينا "امرأة محترمة"69. ورد اسم الرجلين -أبو غزالة وسالم- في الفصل الأول من الرواية المستوحاة من كتاب بيتر ماس الذي سبقت الإشارة إليه.

إلا أن القاهرة بقيت صامتة، ونافية، ومُكذبة، لكل هذه التفاصيل.

وفي ملاعب الخفاء، تبقى الحقيقة ضائعة أكثر من اللازم.

---

66 Peter Maas, Manhunt: The Incredible Pursuit of a CIA Agent Turned Terrorist, New York: I Books, 2002, p 139; p. 224.

67 Joseph J. Trento, Op. cit.

68 Stephen Pizzo, Mary Fricker, Paul Muolo, Inside job: the looting of America's savings and loans, New York: Mcgraw-Hill, p. 341.

69 Lindsay Mckenna, An Honorable Woman (Morgan's Mercenaries), New York: Silhouette, 2001.

2

سالم ومبارك:
صعود "الأب الروحي"

قبل أن يستقر في مصر محاطـًا برعاية شركائه الكبار في السلطة والبيزنس، فعل سالم ذات ما قام به عندما غادر الإمارات؛ توجه بأمواله إلى سويسرا، لكنه هذه المرة بدلاً من الاستثمار في "الموتيلات" السياحية كما كان في عقد السبعينيات، أسس شركة للصفقات والوساطات التجارية اسمها "ماساكا". ولا أدل على طابعها العائلي من أن الاسم مكون من الأحرف اللاتينية الأولى للابنة ماجدة، والجد سالم، والابن خالد. وعنوانها 49 شارع رون بجنيف.

أول نشاط لافت قام به رجل الأعمال العائد إلى مصر هذه المرة وخلفه ماضيه في واشنطن كان مقاولة بناء عمارات "ميلسا" بمصر الجديدة عام 1987 لحساب القوات المسلحة، وقتما كان صديقه أبو غزالة وزيرًا للدفاع. حصل الرجل على المقاولة من دون أن يكون لديه أية سابقة خبرة في مجال الإنشاءات والمقاولات.

في وقت لاحق، قال حسين سالم في حديث صحفي نادر إنه "خسر الجلد والسقط" في هذا المشروع. وزعم أنه أنفق على المتر الواحد 500 جنيه فيما تعاقد على 100 جنيه فقط، لكنه في الحديث نفسه اعترف بفضل المشروع؛ لأنه أدخل من الخارج معدات إنشاء عملاقة على ذمته، نقلها لاحقـًا إلى سيناء كي يؤسس امبراطوريته في السياحة والفنادق70.

في كنف محمية الظل، تعاظم نفوذ حسين سالم؛ ليصبح قائد بناة شرم الشيخ. بناها بشكل حقيقي وبشعور المحتكر الأول حتى اتسعت وفكت الدولة وظلها في البيزنس قبضتها قليلاً لتسمح بدخول آخرين. واضطر حسين سالم للقبول بمشاركة الآخرين "دولته" التي بناها بثقة الجهات العليا. الثقة الممنوحة لحسين سالم جعلته يعمل في الملفات السرية لدولة مبارك.

في شرم الشيخ كانت دولتهم الخلفية، وقانونها خارج القوانين السارية في مصر.

تحولت المدينة إلى مراعي الثروة الجديدة ومستوطنة المحميات السياسية. اتسمت محمية حسين سالم هناك بطابع الكتمان والسرية. أخرجت أسرارها أحيانـًا محاطة بهيبة ورعب، قبل أن تتعدد المحميات ومن يحموها في شرم الشيخ71.

---

70 جريدة "العالم اليوم"، القاهرة، 17 سبتمبر 2007.

71 وائل عبدالفتاح، مصدر سابق.

يقول العقيد طارق مرزوق، المسؤول إدارة مكافحة جرائم الاختلاس والإضرار بالمال العام بالإدارة العامة لمباحث الأموال العامة، إن مبارك استغل نفوذه وسلطاته كرئيس جمهورية على جميع الوزراء والمحافظين، ورؤساء الهيئات من أجل تربيح صديقه سالم، وأصدر تعليمات مباشرة لمحافظ جنوب سيناء، بتخصيص ملايين الأمتار لسالم بمبالغ تراوحت بين 5 جنيهات و20 جنيهاً للمتر في المناطق المتميزة بمدينة شرم الشيخ72.

في فترة زمنية وجيزة، تم تخصيص ما يزيد على 30 مليون متر مربع في محافظة جنوب سيناء لرجل الأعمال حسين سالم بمبالغ زهيدة. وخلال عام 2000 وحده، تم تخصيص قطعة أرض تقدر مساحتها بحوالي مليوني متر مربع لرجل الأعمال سالم بالمخالفة للإجراءات القانونية المتبعة في هذا الشأن.

بنى سالم 250 فيلا على الأرض بمحاذاة خليج السويس، بالمخالفة للقانون وصدر لها عدة قرارات إزالة لم يتم تنفيذها بسبب صلة رجل الأعمال بمبارك. وباع سالم أربع فيلات لكل من جمال وعلاء مبارك بثمن لا يتجاوز 500 ألف جنيه للفيلا الواحدة، أما باقي الفيلات فباعها بسعر يصل إلى 11 مليون جنيه للواحدة73.

---

72 عمر حسانين، "المصري اليوم" تنشر تحريات الأموال العامة حول علاقة "مبارك" بـ"حسين سالم"، جريدة "المصري اليوم"، القاهرة، 25 سبتمبر 2011.

73 فاروق الدسوقي، التحقيق مع مسؤولي "جنوب سيناء" في مخالفات تخصيص 2 مليون متر مربع لـ"حسين سالم"، جريدة "المصري اليوم"، القاهرة، 4 مارس 2011.

نجح سالم في الحصول على موافقة وزارة الاستثمار في مصر على بناء فندق في منتجع شرم الشيخ، وخُصص لذلك المشروع موقع متميز على خليج نعمة دفع سالم في مقابله ثمنـــًا زهيدًا للغاية، واستخدم جزءًا من الأموال التي استولى عليها من الولايات المتحدة في بناء ذلك الفندق الذي أ طى إدارته للشركة السويسرية الشهيرة "موفنبيك".

ولا يستبعد د. محمود شريف بسيوني أستاذ القانون الجنائي الدولي بجامعة ديبول، بشيكاغو، أن يكون سالم أعطى 19% من أسهم تلك الشركة لعلاء مبارك، خصوصـــًا أن سالم دأب في مشروعاته المختلفة على اختيار شركاء له من الشخصيات النافذة في الدولة المعنية للتمتع بأكبر قدر ممكن من الحماية فيها74.

في الوقت نفسه طلبت هيئة الاستثمار من محافظة جنوب سيناء توصيل المياه والكهرباء والطرق للمشروع، وإضافة إلى ذلك حصل على إعفاء ضريبي لسنوات طويلة. بعدها استعان حسين سالم ببيت خبرة قيّم المشروع بأضعاف الأموال المستثمرة فيه. يضاف إلى ذلك أنه عندما يقرر الاقتراض من البنك سيعلن أن قيمة المشروع 40 مليون جنيه مثلاً، وسيطلب قرضـــًا بنصف القيمة، ولأنه مقرب من الرئاسة، حصل على القرض بقيمة المبلغ الحقيقي المستثمر في المشروع75.

---

74 رانيا بدوي، شريف بسيوني: انحراف حسين سالم بدأ منذ 32 سنة في أمريكا، جريدة "المصري اليوم"، القاهرة، 20 أكتوبر 2011.

75 سمر الجمل، شريف بسيوني: الأموال المهربة خضعت لعملية "لف وارجع" واستعادتها أمل ضعيف، جريدة "الشروق"، القاهرة، 24 أكتوبر 2012.

في شرم الشيخ أطلق على سالم لقب "الملك"، و"أبو شرم الشيخ"، خاصة بعد امتلاكه خليج نعمة -الذي يتهادى فوقه يخته الخاص الذي اشتراه منذ سنوات طويلة بنحو مليون جنيه إسترليني[76]- بالإضافة إلى أكبر المنتجعات السياحية مثل "موفنبيك جولي فيل"، الذي كان الرئيس الأسبق حسني مبارك يقضي فيه عادة عطلته الصيفية[77].

وعلى الجانب الآخر من الفندق، أقام سالم مسجده الغارق في الأبهة وسط الخلاء والفراغ. افتتحه عام 2008 ليكون على بعد دقائق من إقامة مبارك وأسرته. اللافت أن مساحة أرض كبيرة تقدر بنحو فدانين كاملين تتقدم المسجد حتى الطريق، يحيطها سور يفيد بأنها أيضـــًا ملك "الأب الروحي" لشرم الشيخ.

بدأ مبارك في استخدام ذلك الفندق لعقد جميع اللقاءات والمؤتمرات الدولية بشرم الشيخ، ويمكن لأي سائح الآن أن يرى على الأجنحة المختلفة للفندق لافتات بأسماء رؤساء الدول والشخصيات الكبرى التي استضافها، وهو الأمر الذي زاد من أرباح الفندق وشهرته الدولية وكذلك من أرباح علاء مبارك.

شيد سالم قصرًا فخمـــًا لمبارك على ربوة عالية، ويطل على البحر مباشرة وله مدخل خاص بطول كيلو متر تقريبـــًا وممنوع الاقتراب أو التصوير في هذا المدخل، فالحرس في كل مكان وعلى مسافات متقاربة ولا يدخل سوى شخصيات معينة.

---

76 مها البهنساوي ودارين فرغلي، يخت "حسين سالم": اشتراه بمليون جنيه إسترليني.. وقبطانه إيطالي.. وخصص يختـًا آخر لطاقم حراسته، جريدة "المصري اليوم"، القاهرة، 13 إبريل 2011.

77 حسين سالم.. رجل "دبلوماسية الظل"، موقع "اليوم السابع" الإلكتروني، 16 أكتوبر 2008.

قصر مبارك يقع في منتجع أرض الجولف وهو أضخم وأغلى فنادق شرم الشيخ، وقد تم إقامة قاعة المؤتمرات العالمية الشهيرة والتي تسمى "الكونغرس" على مدخل أرض الجولف على مساحة تقترب من 200 ألف متر مربع خصيصًا لتكون قريبة من استراحة مبارك ومؤمّنة جيدًا78.

بعد ثورة 25 يناير، انتقل مبارك إلى هذا القصر الفخم ليقيم به، ويصبح قصرًا رئاسيًا بديلاً، قبل أن توجه اتهامات رسميًا إلى مبارك ويجبر على مغادرة القصر.

كان حسين سالم قد انتظر حتى عام 1998 لكي يبدأ في شراء الأراضي باسمه بعدما ظل لنحو عشر سنوات متخفيًا خلف اسم الابن "خالد". وقد تبين أن سالم يمتلك أربعة فنادق فئة خمس نجوم في مدينة شرم الشيخ باسم نجله خالد، وتضم الفنادق نحو 2400 غرفة، وعددًا من المطاعم، والبازارات، وملاعب الجولف، وقاعات المؤتمرات، وتقع على مساحة نحو 2.5 مليون متر مربع، وتحمل علامة "ماريتيم جولي فيل". بل إن سالم شريك بنسب مختلفة في فنادق "جولي فيل" الأقصر، والإسكندرية، ويمتلك محطة لتوليد الكهرباء في شرم الشيخ لتغذية الفنادق بالتيار79.

---

78 حمادة الشوادفي، شرم الشيخ.. الجمهورية الأخيرة التي يحكمها مبارك، موقع "بوابة الشروق" الإلكتروني، 19 فبراير 2011.

79 يوسف العومي، لجنة ثلاثية: حسين سالم يمتلك 4 فنادق "5 نجوم" على مساحة 2.5 مليون متر ومحطة كهرباء في شرم الشيخ ، جريدة "المصري اليوم"، القاهرة، 7 مارس 2011.

ومنذ 1998، أصبح حسين سالم هو الشخصية الأبرز في شرم الشيخ بفضل نفوذه وممتلكاته وشبكة علاقاته، وارتباط اسمه باسم مبارك[80].

مع توثيق حسين سالم علاقته بالرئيس مبارك، انهالت عليه فرص جني مزيد من الأموال والأراضي، ومن ذلك حصوله على جزيرة التمساح السياحية بالأقصر، بعد أن خالف رئيس الوزراء الأسبق عاطف عبيد القانون بأن أمر بتسجيلها لشركة الصديق الشخصي والتابع الأمين لمبارك.

كما نال سالم جزءًا كبيرًا من كعكة التعاون الاقتصادي مع إسرائيل، وشارك في أول مصفاة تكرير بترول قطاع خاص في مصر منذ تأميم الأصول الرأسمالية الأجنبية في منتصف الخمسينيات بعد ثورة يوليو. والمصفاة هي أول مشروع مصري إسرائيلي مشترك في مجال البترول والأكبر في التطبيع الاقتصادي بين البلدين، حيث وافقت الحكومة على المشروع بنهاية عام 1993. لاحقًا، عزز حسين سالم علاقته بالإسرائيليين، ليصبح لاعبًا رئيسيًا في مشروع نقل الغاز المصري لإسرائيل عبر شركة "شرق المتوسط"، بموجب عقد مدته 15 عامًا مبدئيًا، وبسعر 75 سنتًا للمتر المكعب، وبفارق أسعار يتجاوز العشرة مليارات دولار لصالح إسرائيل[81].

---

80 كارم يحيى، مرجع سابق.

81 جريدة "الفجر"، القاهرة، 24 مارس 2008.

جاء في أوراق تحقيقات إدارة مكافحة جرائم الاختلاس والإضرار بالمال العام بالإدارة العامة لمباحث الأموال العامة، أن مبارك أضر بالمال العام بما قيمته 714 مليون دولار، بسبب إصداره تعليمات لوزير البترول الأسبق سامح فهمي بالتعاقد بالأمر المباشر مع سالم على شراء الغاز المصري وتصديره إلى إسرائيل بسعر متدن. وحسب العقيد طارق مرزوق، فإن مبارك ربَّح سالم دون وجه حق ما يناهز ملياري دولار[82].

واعتبارًا من عام 1995، اتخذ النظام سلسلة إجراءات انتهت في العام التالي بنزع ملكية 650 ألف متر من الأرض على شاطئ منطقة طابا الملاصقة للحدود مع إسرائيل من مالكها وجيه إيلاي جورج سياج -صاحب فندق سياج بالهرم- إضافة إلى نزع ملكية أرض مجاورة يمتلكها خالد علي فودة (صاحب مشروع "نايل فالي")، وأعطيت هذه الأراضي -بأوامر مباشرة من مبارك[83]- إلى حسين سالم بثمن بخس.

أمضى سياج عشر سنوات في المحاكم المصرية وحصل على أحكام منها لتمكينه من أرضه، رفض النظام تنفيذها جميعًا ولجأ إلى أسلوبه الكيدي الذي اشتهر به، فقطع الخدمات عن فندق سياج بالهرم حتى ينهار وجيه سياج. لجأ سياج، الحاصل على الجنسية الإيطالية، مع والدته المستثمرة كلوريندا فيدتشي في 5 أغسطس 2005 إلى المحاكم

---

82 عمر حسانين، "المصري اليوم" تنشر تحريات الأموال العامة حول علاقة "مبارك" بـ"حسين سالم"، مصدر سابق.

83 عادل حمودة ومي سمير، أين اختفت أموال عائلة مبارك؟، جريدة "الفجر"، القاهرة، 6 مارس 2011.

الدولية، وفي يوليو 2009 أصدر مركز التحكيم التابع للبنك الدولي في واشنطن "أكسيد" حكمـــًا نهائيـــًا لصالحه بتغريم مصر بمبلغ 74 مليون دولار، إضافة إلى فوائده المتراكمة لمدة 11 عامـــًا، وهو ما يجعل مبلغ التعويض يصل -حسب تقدير الخبير القانوني د. أحمد كمال أبو المجد- إلى نحو 550 مليون دولار، أي ما يعادل 3 مليارات جنيه مصري. أما رقم التكلفة الإجمالية للقضية كلها فقد يصل في تقديره، كما يُفهم من الفقرة السابقة، إلى ملياري جنيه أي حوالي 11 مليار جنيه[84].

ولأن القضية تحولت إلى كعكة دون النظر إلى موقف مصر الفعلي، فقد خسرها النظام بجدارة.. ولنا فيما قاله مركز التحكيم التابع للبنك الدولي دليل؛ إذ قالت الهيئة الدولية نصـــًا: "إن مصر لم تتقدم بأي بيان من أي شاهد لمناهضة الأحداث التي سردها سياج وشهوده الخاصة بالملكية، وبناء على هذه الحقائق التي وضعها المدعي ولم يتم فيها المنازعة من جانب مصر، وبناء على وجهة نظر التحكيم والدلائل الشفهية والكتابية، تم التوصل إلى هذه الحقيقة"[85].

ذكرت المحكمة كلامـــًا يثير الحزن والألم في قلب أي مصري؛ إذ قالت إن "مصر لم تتقدم بدلائل كافية في المسائل التي أثارها التحكيم، خاصة ما يتعلق باتهامات لسياج بالتزوير والخداع"، ووصل الأمر إلى

84 د. حسن نافعة، فساد أفراد أم نظام حكم؟، جريدة "المصري اليوم"، القاهرة، 14 يناير 2014.

85 مجدي الجلاد، مجدي الجلاد يعقب على "أبو المجد": بيني وبينك مذكرة التحكيم.. والمواطن الذي سيتحمل قيمة التعويض، جريدة "المصري اليوم"، القاهرة، 24 يوليو 2009.

قول المحكمة: "إن دفوع مصر ضد سياج تضمنت إشارات بلاغية لا يمكن وصفها سوى أنها مبالغات واسعة النطاق".

هكذا طارت الطيور بأرزاقها، وكل من شارك في القضية كسب وربح.. إلا مصر، فقد دفعت من لحمها الحي.. والسبب، أنها بلا صاحب86.

اتهم وجه سياج –الذي اشترى الأرض في 14 يناير 1989– رئيس الوزراء الأسبق د. عاطف عبيد بأنه "أعطي لحسين سالم الأرض علي أساس أنه طلب لشركته 100 متر علي الساحل ليتوفر له منفذ علي البحر حتي يتاح له تصدير الغاز إلي إسرائيل والأردن، فهو يملك القطعة المجاورة لي 30 ألف متر مربع، اشتراها من مؤسسة "أخبار اليوم". ورغم أنه طلب من وزارة السياحة 100 متر فقط فقد منحه عبيد 1500 متر هي الواجهة البحرية لأرضي". ويقول إن ممدوح البلتاجي وزير السياحة الأسبق فسخ العقد معه ونزع ملكية الأرض، بدعوى أن سياج له تعاون مع إسرائيليين، وتحديدًا شركة "لومير هولدنغ"، ليمنحها لحسين سالم، وليس لاعتبارات تتعلق بالأمن القومي، كما قيل وقتها. وتساءل: "كم دفع حسين سالم في الأرض وكم دفعت أنا؟ أنتظر الإجابة عن هذا السؤال من الدولة"87.

---

86 مجدي الجلاد، ثم طارت الطيور بأرزاقها!، جريدة "المصري اليوم"، القاهرة، 22 يوليو 2009.

87 علاء الغطريفي، وجيه سياج بطل قضية أرض "طابا" لـ"المصري اليوم": مصالح حسين سالم وليس "الأمن القومي" وراء طردي من الأرض، جريدة "المصري اليوم"، القاهرة، 19 يونيو 2007.

بدا منطقيـــاً أن يقول سياج عقب صدور الحكم النهائي لصالحه إنه "من المفترض أن يدفع قيمة التعويض الشخص الذي استفاد بالأرض والمشروع، وهو رجل الأعمال حسين سالم"، متسائلاً: "كيف تقدم الدولة منحة مجانية بالأرض لحسين سالم ثم تدفع أيضـــاً ثمن قرار لم تستفد منه؟.. أعتقد أنها مهزلة"[88].

وهي بالفعل كذلك!

في التحقيقات التي أجراها مكتب النائب العام، في القضايا المتهم فيها مبارك، يروي اللواء ممدوح محمود حسن الزهيري، محافظ جنوب سيناء، تفاصيل مهمة عن العلاقة بين الرجلين. يقول الزهيري، الذي شغل من قبل منصب كبير الياوران وقائد الحرس الجمهوري، إن سالم كان يستقل السيارة مع مبارك أثناء زيارته إلى شرم الشيخ بالمخالفة للبروتوكول، وأن ذلك كان يتم بأمر شخصي من مبارك، وأن هذه الواقعة تكررت عند استقبال سالم للرئيس الأسبق في المطار بشرم الشيخ، وفيها توجه مبارك وسالم إلى مشروع الجولف المملوك إلى سالم والمقامة عليه الفيلا الخاصة بمبارك ودار بينهما حديث طويل لا يعرف مضمونه وأنه لم ينزل أحد من الموكب غير مبارك وسالم[89].

غير أن العلاقة بين حسين سالم ومبارك تأرجحت على ما يبدو، لأسباب غامضة، في فترة من الفترات.

---

88 علاء الغطريفي، وجيه سياج لـ"المصري اليوم": تعويض الـ700 مليون جنيه يجب أن يدفعه حسين سالم وليس الحكومة.. والقضية "مهزلة"، جريدة "المصري اليوم"، القاهرة، 16 يونيو 2009.

89 محمود مسلم ويسري البدري، "المصري اليوم" تنشر نص أقوال محافظ جنوب سيناء الأسبق حول علاقة مبارك بـ"حسين سالم"، موقع "بوابة المصري اليوم" الإلكتروني، 11 أكتوبر 2011.

بالحرف الواحد، قال اللواء الزهيري في التحقيقات: "أعلم أن هناك علاقة قوية وطيبة بين الرئيس حسني مبارك ورجل الأعمال حسين سالم وهذه العلاقة قبل تولي منصبي كمحافظ جنوب سيناء وكنت أشاهدهما في حالة ` لمي كبير الياوران. كنا نقيم في فندق موفنبيك الذي يملكه حسين سالم، وكانت هناك ظاهرة قوية تربط الرئيس به، وكان ذلك في غضون نهاية السبعينيات. وفي الفترة ما بين 1988 كانت العلاقة الظاهرة بين حسين سالم والرئيس علاقة قوية حسبما تراءى لي، وبمرور السنين اشتدت هذه العلاقة. ومعروف للجميع أن حسين سالم من المقربين للرئيس، ولكن تحضرني واقعة حالياً تذكرها كانت غريبة عليّ؛ في إحدى زيارات الرئيس إلى شرم الشيخ، ولا أتذكر التاريخ، ولكن بعد الزيارة التي تفقد فيها أرض مشروع الجولف، كان من المخطط في برنامج الزيارة تفقد محطة مياه جنوب سيناء التي يملكها حسين سالم، ثم حضور عرض يقوم المستثمرون بشرح مشروعاتهم التي تحت التنفيذ.

"وبوصول الرئيس للمطار، أبلغني الدكتور زكريا عزمي بإلغاء زيارة محطة المياه المملوكة لحسين سالم وطلب مني عدم اشتراك حسين سالم في شرح مشروعه المخطط مع باقي المستثمرين، وكان من السهل إلغاء زيارة المحطة التي كان يوجد بها حسين سالم في ذلك الوقت، وتمكنت من أن أبعد حسين سالم عن شرح مشروعه مع باقي المستثمرين. وأذكر أنه بعد انتهاء العرض اصطف المستثمرون لتحية ومصافحة الرئيس لهم، فاندس حسين سالم في وسطهم عنوة، وببراعة شديدة لاحظتها على الرئيس مبارك عندما شاهد حسين سالم في

انتظار مصافحته التفت الرئيس إليّ مرة أخرى، وتعمد تخطي مصافحة حسين سالم. وبعدها حسين سالم أغمي عليه وتوجه إلى مترله.

"وبعد الزيارة وعودة الرئيس إلى القاهرة، اتصل بي تليفونيـــاً الرئيس محمد حسني مبارك وسألني عن حسين سالم، وأخبرني بأنه علم أن حسين سالم أغمى عليه، وكلفني بالتوجه إلى مترل حسين سالم وإبلاغه بأن الرئيس يرسل له تحياته، وكانت صدمة لعدم فهمي معرفة مغزى ما حدث وسبب إبعاده في الزيارة ثم السؤال عنه وإرسال الرسالة التي تتضمن تحياته"[90].

وعندما سئل اللواء الزهيري: "وما تعليلك للتحول في المعاملة الخاصة برجل الأعمال حسين سالم في الواقعة المشار إليها على النحو السابق؟"، رد قائلاً: "في تقديري أن هناك خلافـــاً شخصيـــاً على شيء ما لا أعلمه وكان الرئيس يحاول إبلاغ رسالة بمضمون محدد لحسين سالم خلال فترة الزيارة"[91].

منذ عام 1981 يقيم حسين سالم بصفة رسمية في إسبانيا وتحصن بالجنسية الإسبانية ضمانـــاً لعدم تسليمه إلى الولايات المتحدة أو مصر في أي مطالبة مرتبطة باتهام أو حكم جنائي؛ إذ إن إسبانيا من بين الدول التي لا تسمح بتسليم مواطنيها.

وعكس ما يشاع، فإن عائلة حسين سالم حاليـــاً لا تملك غير الجنسية الإسبانية طبقـــاً للقانون الإسباني، ومنذ فبراير 2011 تنازل أفراد

---

90 المصدر نفسه.

91 المصدر نفسه.

العائلة بمن فيهم حسين سالم عن 5 جنسيات أجنبية مختلفة بينها المصرية وتم توثيق التنازل بالمحكمة الإسبانية، وهو السبب وراء إغلاق ملف ما سُمّي بقضية تسليم حسين سالم إلى مصر، خاصة أن البند السادس من ميثاق دستور الاتحاد الأوروبي، لا يسمح بتسليم أي مواطن أوروبي لأي سلطة أجنبية ولو كان متهمـــا في قضايا دولية وأن يحاكم في الدولة الأوروبية التي ينتمي إليها، وفي الحالة الإسبانية لا يمكن -طبقـــاً للدستور -تسليم أي مواطن إسباني لمصر أو لغيرها.

ويبدو أن سالم كان يضع في حساباته هذه اللحظة التي قد تجعله مطلوبـــاً على ذمة تحقيقات فساد وإهدار مال عام وتهريب أموال إلى الخارج. كان يعرف الثغرة التي تمكنه من العيش بسلام وينعم برغد الحياة بدون أن تتأثر حياته.

يمتلك حسين سالم رصيدًا كبيرًا من الحيل والألاعيب التي اكتسبها من المهام والأدوار المتعددة التي لعبها؛ لذا لم يكن مستغربـــاً أن يكون كاتم أسرار مبارك، أول الهاربين خارج مصر بعدما بدأ البساط ينسحب من تحت أقدام النظام ورجاله خلال ثورة 25 يناير، حيث غادر مصر مع ابنته ماجدة مساء 29 يناير 2011 على متن طائرته الخاصة التي أقلعت يومها من مطار شرم الشيخ الدولي لمطار بوخارست في رومانيا، طبقـــاً للمسجل رسميـــاً في بيانات وزارة الداخلية المصرية.

التقط في الهواء رائحة أخرى غير التي تعودها طوال 30 سنة، فحمل عائلته وحقائب (قيل في روايات خرافية وقتها إن فيها 1.5

مليار دولار)، وسافر بطائرته الخاصة إلى دبي، وقيل إنه شوهد في فندق كامبنسكي في سويسرا، لكنه عندما ظهر للعلن كان في إسبانيا حيث يحمل جنسيتها.

بعد ثلاث سنوات من التاريخ المذكور، نفى حسين سالم قصة هروبه خوفــًا من أن يكون مصيره السجن، قائلاً إن "هذا الكلام عار تمامــًا من الصحة، كان لديّ ميعاد مع الطبيب الخاص بي، بسبب أزمة في العمود الفقري، فذهبت إلى طبيبي في زيورخ بسويسرا لتلقي العلاج"92.

وحسب الكاتب الصحفي محمد حسنين هيكل، فقد "كان آخر مشهد ظهر فيه حسين سالم على الساحة المصرية هو ركوبه لطائرته الخاصة من مطار شرم الشيخ بعد أيام من قيام ثورة 25 يناير، ومعه مجموعة من صناديق تحتوي على 450 مليون يورو نقدًا وجديدة، ولا تزال بنفس التغليف الذي صُرفت به من البنك المركزي الأوروبي، وحطت طائرة حسين سالم في مطار أبوظبي، ولاحظ مأمور المطار هذه الصناديق، وأدرك على الفور أنها أوراق نقد، وأخطروا بالأمر السلطات المسؤولة في أبوظبي، وصدر قرار بالاتصال بالقاهرة لسؤالها في الموضوع، وكان مبارك شبه معتزل في شرم الشيخ، لكنه لم يكن قد تخلى عن السلطة بعد".

أضاف هيكل بالنص: "جرى الاتصال بنائب مبارك، عمر سليمان، الذي أشار بالإفراج عن الرجل، وعدم إثارة ضجة في الوقت الحاضر حول الموضوع؛ لأن الظرف حرج، وسأل بعض

---

92 محمد طلعت داوود وعمر خالد، مصدر سابق.

المسؤولين في الإمارات شخصيات مصرية، عما يمكن التصرف به حيال الموضوع، وكان بينهم رشيد محمد رشيد، وزير الصناعة والتجارة آنذاك، وكانت نصيحة رشيد، إيداع المبلغ مؤقتـاً في البنك المركزي للإمارات، والاتصال مع السلطات المصرية للبحث عن الأصل في هذا الموضوع، وكيفية التصرف حياله"93.

غير أن عادل حمودة يشكك في رواية هيكل، قائلاً:

"ورغم أن هيكل استشهد برشيد، فإنه عندما سأله فيما بعد وقت أن التقاه في عاصمة أوروبية عن صحة الرواية، استأذن الرجل حسب اعتراف هيكل نفسه بأن يبقيه خارج هذا الموضوع.. فالشاهد الذي استند إليه لم يتكلم.. لم يدل بشهادته.

"وقد سألت عمر سليمان قبل رحيله عن الواقعة، فنفاها قائلاً: "إن حسين سالم كان في الأقصر منذ ثلاثة شهور يشرف على توسعات فندق موفنبيك في جزيرة التمساح عندما قرر السفر خارج مصر.. وفور ركوبه الطائرة اتصل بعائلته في شرم الشيخ كي تذهب إلى المطار لتلحق به على متن الطائرة.. والطائرة من طراز "فالكون 2000" لا تسع أكثر من 13 راكبـاً ولا تحمل أكثر من سبع حقائب.. وقد طلب قائدها الإذن بالسفر فرجعت سلطات المطار إلى الرئاسة.. وبعد نصف ساعة تلقت سلطات المطار الإذن بالموافقة من سكرتير مبارك جمال عبدالعزيز".

"وبسبب ضيق الطائرة، فإن الزوج الثالث لماجدة ابنة حسين سالم لم يجد له مكانـاً بين من أقلعوا عليها.. كما أن مثل هذه الطائرات

---

93 محمد حسنين هيكل، مبارك وزمانه.. من المنصة إلى الميدان، دار الشروق، القاهرة، 2012.

مهما كان حجمها ليست مصممة لحمل صناديق بضائع سواء كانت نقودًا أو بصلاً.. وهيكل يعرف ذلك أكثر من غيره.

"وعرفت من مسؤول بنكي مخضرم: أن حمل هذا المبلغ مستحيل على طائرة صغيرة.. فوزن تلك الملايين لن يقل عن ثلاثة أطنان من الكيلوغرامات.. بل ربما تزيد إذا ما تذكرنا عملية شهيرة جرى فيها تهريب 210 ملايين دولار من المكسيك.. ونشر وقتها أن وزن الشحنة المالية كان أربعة أطنان"94.

في 24 إبريل 2011، تحفظت سلطات مطار القاهرة على نحو 100 طرد، تبين لاحقــًا أن 17 منها تخص رجل الأعمال الهارب حسين سالم، الذي حاول تهريبها تحت غطاء من لمياء، ابنة رئيس جهاز الاستخبارات العامة السعودية، الأمير مقرن بن عبدالعزيز آل سعود95.

ورغم عدم ورود اسم سالم في أي من أوراق الشحن، التي وقعها وسيط فلسطيني، يُدعى محمود خليل أبو فول، فإن الجمارك اكتشفت أن بعض محتويات الطرود مملوكة لسالم96.

تضمنت طرود سالم بطاقات ائتمان "فيزا كارد"، وعدد من بطاقات عضوية أسرته في نادي الجزيرة الرياضي، وملابس، وساعات، وتماثيل وتحف و20 قرنــًا من العاج الطبيعي ومجموعة من

---

94 عادل حمودة، خريف هيكل، موقع "بوابة الفجر" الإلكتروني، 10 فبراير 2014.

95 يوسف العومي، التحفظ على 17 طردًا لحسين سالم.. والإفراج عن شحنة الأمير السعودي، جريدة "المصري اليوم"، القاهرة، 12 مايو 2011.

96 يوسف العومي ومحسن عبدالرازق، حسين سالم يحاول تهريب 100 طرد بمعاونة ابنة رئيس المخابرات السعودية ووسيط فلسطيني، جريدة "المصري اليوم"، القاهرة، 25 إبريل 2011.

الأسطوانات المدمجة. كما ضمت سجادة دُوِّن عليها اسم "سالم"، وأخرى عليها اسم زوجته، وصفيحة مملوءة بأدوات المائدة المطلية بماء الذهب، ومجموعة كبيرة من الصور الخاصة بسالم مع مبارك، ورؤساء وملوك عرب، وبعض المسؤولين السابقين. وشملت نوعـــاً من الفرو هو لنوعية من الثعالب المهدده بالانقراض عالميـــاً والممنوع صيدها.

لم تستطع لجنة الحياة البرية بمطار القاهرة الجوي، المكلفة بمعايرة التماثيل وأنياب الفيلة، تحديد قيمة مادية لهذه التماثيل، إلا أنها وصفتها بأنها ثروة لا تقدر بثمن97.

وفي 12 مايو 2011، وضع الموقع الإلكتروني للشرطة الدولية "إنتربول" صورة حسين سالم ضمن صور المطلوبين للعدالة، ونشر الموقع الدولي معلومات شخصية عنه98. والحقيقة أن أحدًا لم يعرف لشهور مكان حسين سالم بعد هروبه من مصر، إلى أن ظهر في إسبانيا. وربما لم يكن أحد ليعرف بوجوده في إسبانيا لولا أن السلطات هناك اعتقلته بتهمة الفساد وغسل الأموال.

فقد وُجِدَ في حسابه بالفرع الرئيسي لبنك "بانكتيير" بمدريد 29 مليون يورو. وكشفت القضية لحظة أن ذهب ابنه خالد إلى البنك يسأل عنها. ألقي القبض على حسين سالم وخالد وماجدة. لم تجد السلطات الإسبانية في بيته سوى 127 ألف يورو لم تكف لسداد

---

97 يوسف العومي ومتولي سالم، طرود حسين سالم في المطار تتضمن تماثيل لـ"بوذا" و"عاج" و"فرو" لا تقدر بثمن، جريدة "المصري اليوم"، القاهرة، 28 إبريل 2011.

98 محمد مصري، حسين سالم.. صفقة لكل نظام، موقع "بوابة الوطن" الإلكتروني، 10 يناير 2014.

الكفالة المطلوبة (10 ملايين يورو). وبعد أن خُفِّضت إلى النصف دفعها له صديق تركي. وبعد ثلاثة شهور في السجن أخلي سبيل عن ماجدة وخالد بكفالة مليون يورو لكل منهما.

وأرسلت السلطات القضائية المصرية المستشار أحمد سعد (هيئة قضايا الدولة) إلى إسبانيا لتعقب أموال حسين سالم، لكن بعد ثلاثة شهور لم يتوصل الرجل-هو وزميل له جاء يسانده- إلى شيء[99].

نشرة الإنتربول الحمراء التي تطالب بتسليمه وأبنائه لمصر ظلت سارية إلى حين موافقته على الشروط الإسبانية التي تطالبه بالتنازل عن مبلغ 29 مليون يورو موجودة في حسابه، في إطار صفقة مصادرة قانونية أنهت قضية غسيل الأموال المرفوعة ضده أمام القضاء الإسباني.

في قضية أرض البياضية، التي بدأت جلسات المحاكمة فيها بتاريخ 16 أكتوبر 2011، اتهمت النيابة عاطف عبيد، رئيس الوزراء الأسبق، ويوسف والي، وزير الزراعة واستصلاح الأراضي الأسبق، وغيرهما، بتقنين أوضاع رجل الأعمال الهارب حسين سالم وبيعهم الأرض له بمبلغ 8 ملايين جنيه، رغم أن الأرض تتعدى قيمتها الـــ200 مليون جنيه، بل إن حسين سالم باع جزءًا منها إلى رجل أعمال بمبلغ 1.5 مليار جنيه[100].

---

99 عادل حمودة، خريف هيكل، مصدر سابق.

100 شيماء القرنشاوي، ظهور "عبيد" و"والي" في قفص الاتهام لأول مرة في قضية "البياضية"، جريدة "المصري اليوم"، القاهرة، 17 أكتوبر 2011.

وعلى مدار 17 جلسة استمعت المحكمة برئاسة المستشار فهمي درويش لأطراف القضية، وأصدرت حكمها في مطلع مارس 2012 بمعاقبة كل المتهمين بالسجن لمددٍ تتراوح بين 10 و15 سنة بعد إدانتهم بالتربح واستغلال النفوذ والاستيلاء وتسهيل الاستيلاء على المال العام من خلال بيع ارض جزيرة البياضية، التي تعد محمية طبيعية، بأسعار تقل عن سعرها الحقيقي101.

وعاقبت محكمة جنايات الجيزة كلاً من عاطف عبيد، رئيس الوزراء الأسبق، ويوسف والي، نائب رئيس الوزراء، وزير الزراعة الأسبق، بالسجن المشدد 10 سنوات، وسعيد عبدالفتاح، مدير الإدارة العامة لأملاك الدولة بالسجن 3 سنوات وكلاً من رجل الأعمال الهارب حسين سالم ونجله خالد "غيابيـــاً" وأحمد عبدالفتاح، مستشار وزير الزراعة الأسبق، بالسجن 15 سنة، وإلزامهم متضامنين بدفع مبلغ 769 مليونـــاً و86 ألف وتغريمهم مبلغـــاً مساويـــاً وعزلهم من وظائفهم.

وفي حيثيات حكمها في القضية، ذكرت المحكمة أن مصر كان يحكمها عصابة مجرمة يتزعمها رئيس الدولة ورئيس ديوانه اللذان كانا يتابعان عمليات نهب مصر وإتمام الصفقات المشبوهة. وأضافت المحكمة أن "هؤلاء الأشرار استباحوا الوطن بأسوأ مما يفعل الغزاة، فاغتصبوا الموارد والثروات وتصرفوا في البلاد كصاحب "العزبة"

101 أحمد شلبي، "والي وعبيد" يرتديان الملابس الزرقاء في "طرة" بعد إدانتهما في قضية "البياضية"، جريدة "المصري اليوم"، القاهرة، 3 مارس 2012.

العابث، وباعوا أصول مصر بأبخس الأثمان لعدد من المفسدين بزعم تشجيع السياحة والاستثمار. وأشارت المحكمة إلى أن هذه القضية كشفت عن كم هائل من وقائع الفساد وتخصيص أراض لأناس مازالوا حتى الآن خارج قفص الاتهام".

وأوضحت المحكمة أن المتهمين داسوا حرمة الملكية العامة بأقدامهم لرغبتهم في توزيعها على المحاسيب والمقربين لأركان الحكم، وأنه استقر في يقين المحكمة أن المتهم عاطف عبيد أساء استغلال وظيفته ووافق على بيع إحدى ثروات مصر القومية وهي أرض جزيرة البياضية التي تعد محمية طبيعية للمتهمين حسين سالم ونجله، وفضَّل مصلحته على مصلحة البلاد بعد أن أوكلته أمانة المحافظة على مقدراتها. ورضخ المتهم يوسف والي لطلبات عاطف عبيد وحسين سالم الذي استغل علاقته المقربة برئيس الدولة وحصل على أراضيها بأسعار بخسة[102].

غير أن سالم له دائمـــًا حيله ومناوراته، مثل أي لاعب شطرنج ماكر على رقعة بلدٍ بحجم مصر.

فقد تقدمت شركة التمساح للمشروعات السياحية المملوكة لرجل الأعمال الهارب بطلب لوزارة الزراعة، يتضمن موافقة سالم على التصالح ورد أرض البياضية بالكامل، البالغة مساحتها ٣٦ فدانـــًا و١٨ قيراطـــًا و٢٠ سهمـــًا، والكائنة بمحافظة الأقصر، والتي

102 شيماء القرنشاوي، حيثيات حكم "البياضية": مصر كان يحكمها "عصابة مجرمة" يتزعمها رئيس الدولة، جريدة "المصري اليوم"، القاهرة، 12 مارس 2012.

استولى عليها المتهم على الرغم من كونها محمية طبيعية. وعرض سالم التنازل عن عقد البيع الصادر للشركة، وطلب رفع الحظر على الأسهم المملوكة للمساهمين في رأس المال، وانقضاء الدعوى الجنائية المترتبة عليها ضده ونجله خالد[103].

وفي قضية تصدير الغاز لإسرائيل، تضمنت قائمة المحكوم عليهم رجل الأعمال حسين سالم الذي صدر عليه حُكم غيابي بالسجن المشدد 15 سنة.

وقررت المحكمة في 28 يونيو 2012 تغريم المتهمين جميعًا متضامنين مبلغ 2 مليار و3 ملايين و319 ألفًا و675 دولارًا أميركيًا مقدرة بالعملة المصرية، وإلزامهم متضامنين برد مبلغ 499 مليونًا و862 ألفًا و998 دولارًا أميركيًا و50 سنتًا مقدرة بالعملة المصرية وعدم قبول الدعاوى المدنية.

مناورات حسين سالم لا تقف عند حد.

ففي عام 2013، جدد محامي حسين سالم عرض مبادرة موكله بالتنازل عن 50% من ثروته الداخلية والخارجية مقابل إسقاط الأحكام ضده[104].

وأوضح طارق عبدالعزيز أنه سبق له أن قدم لجميع الجهات المسؤولة في مصر طلبات تثبت وتؤكد رغبة موكله ونجليه ماجدة

103 حسين سالم يتنازل عن "أرض البياضية"، جريدة "المصري اليوم"، القاهرة، 5 سبتمبر 2014.

104 محمد عبدالعاطي، رموز نظام مبارك يجمّدون "المصالحات"، جريدة "المصري اليوم"، القاهرة، 3 فبراير 2013.

وخالد في التصالح، وقدم جميع المستندات التي تدل على رغبتهم في ذلك. وتابع قائلاً إن "هناك مفاوضات حدثت مع مصر، وفوجئت باتصالات من جهات وأحزاب، وأن د. علي المري، النائب العام القطري، حضر إلى مصر، واصطحبني إلى مدريد، وعقدنا عدة جلسات مع (سالم)، واتفقنا على مبالغ للتصالح، وتوقفت المفاوضات، وأنا مندهش من إجراء النائب العام القطري مفاوضات عن مصر في تسليم حسين سالم"105.

وبعد جلسة مفاوضات استمرت نحو 5 ساعات، تم الاتفاق بين نيابة الأموال العامة العليا، ومحامي رجل الأعمال حسين سالم، على أن يتنازل سالم عن 75% من كافة ممتلكاته وأمواله داخل مصر و55% من تلك الممتلكات بالخارج لصالح الدولة، هو وزوجته ونجلاه خالد وماجدة وأزواجهم وأولادهم البالغون والقصر، في مقابل تسوية موقفه المالي والتوقف عن ملاحقته قضائيـــاً.

كما نص الاتفاق على حق الحكومة المصرية في أن تقتطع نسبتها من أموال حسين سالم وممتلكاته الموجودة بالخارج، من الأموال والممتلكات الموجودة بالداخل، حال تعذر نقلها إلى مصر أو رفض بعض الدول قيام سالم بتحويل قيمة تلك الأموال106.

105 يسري البدري، "الدستورية العليا" في إسبانيا تلغي قرارات تسليم حسين سالم، جريدة "المصري اليوم"، القاهرة، 25 ديسمبر 2012.

106 أحمد شلبي وحسين ياسر، حسين سالم يعرض التنازل عن 75% من ممتلكاته داخل مصر و55% خارجها، جريدة "المصري اليوم"، القاهرة، 3 مايو 2013.

كان المستشار مصطفى حسيني، المحامي العام الأول لنيابة الأموال العامة العليا، أعلن في وقت سابق أن "النيابة تدرس حاليـــا طلبـــاً تقدم به دفاع رجال الأعمال الهارب حسين سالم، لتسوية كافة منازعاته القضائية داخل مصر بأي صورة تراها النيابة ملائمة لإجراء تلك التسويات، سواء المنظوره أمام المحاكم أو تلك التي ما زالت قيد التحقيق بالنيابات المختلفة"، حيث أبدى سالم استعداده لسداد مستحقات الدولة التي ستقدرها النيابة107.

إلا أن محامي حسين سالم عاد في يناير 2014 ليعلن توقف مبادرة التصالح التي تقدم بها موكله قبل 30 يونيو مباشرة، بسبب انتهاء المهلة التي حددها سالم لحكومة ونظام الإخوان والنائب العام وقتها بالبت في العرض108.

فجأة، عاد حسين سالم وظهر في الوقت الذي تكلمت فيه صحف القاهرة عن فتح التحقيق في ظهور الأطباق الطائرة في الغردقة.

ظهر خارجـــاً من وسط الخرافات بصوته مصحوبـــاً بصورة تمنحه بعدًا خرافيـــاً لا يحتاج إلى ماكياج ليبدو معه خارجـــاً من بحيرة مقدسة أو قادمـــاً من العالم الغامض المثير والمرعب في منطقة خارج إدراكنا المحدود.

---

107 النيابة تدرس طلبـــاً لـــ"سالم" لتسوية منازعاته المالية نظير سداد مستحقات الدولة، موقع "بوابة الشروق" الإلكتروني، 24 يناير 2013.

108 محمد عبدالعاطي، محامي حسين سالم: عرض موكلي التنازل عن نصف ثروته "انتهى"، جريدة "المصري اليوم"، القاهرة، 9 يناير 2014.

عاد حسين سالم من عالمه القديم الغامض في حركة ضد الزمن كما نتخيله أحيانـــاً يتقدم، ومع زمن دائري، يصنع من الحركات متاهة، تلقي مع كل دورة كائنـــاً من كائناتها يتسلى به المتصارعون على أي رعب أكثر رعبـــاً من المرعوب أكثر، من الذي يحق له باسم رعبه أن يسود اللحظة ويسيطر.

مثل الساحرات الشريرات اللاتي يظهرن ليتعلم الأطفال الفضيلة، بدا ظهور حسين سالم نذير عودة ميت؛ مستحيلة، لكنها تبدو درســـاً في تربية الشعوب، وأن هناك شخصيات أقوى من التغيير، يمكنها أن تظهر وتحول جريمتها إلى "فعل وطني".

في مداخلة هاتفية مع برنامج "بث مباشر" على قناة "سي بي سي"، قال حسين سالم إن مبادرة التنازل عن نصف ثروته مقابل إسقاط التهم عنه، عرضها محاموه على الحكومة في عهد الرئيس المعزول محمد مرسي، أما الآن ونحن أمام العدالة هناك قانون وبالتأكيد المبادرة ستختلف.

سالم، الذي استنكر وضع اسمه على قوائم الترقب، مطالبـــاً الحكومة المصرية برفع اسمه، كبادرة حسن نية[109]، عرض ملامح مبادرة جديدة، بهدف ما سماه "الصلح مع الدولة"، من خلال التبرع لإصلاح المساجد والكنائس التي تعرضت لاعتداءات، مقابل عودته إلى البلاد. وقال سالم إن مبادرته الجديدة تتضمن تبرعه لدعم صندوق

---

109 سهيلة حامد، "سالم": عرضت التنازل عن نصف ثروتي أيام "مرسي".. الآن الوضع مختلف و"احنا ندي عنينا للبلد"، موقع "بوابة الوطن" الإلكتروني، 9 يناير 2014.

مواجهة البطالة، وتنشيط السياحة المصرية، حال رفع اسمه من قوائم ترقب الوصول، والإفراج عن أمواله، وعودته إلى البلاد110.

سالم قال في حديث صحفي لاحق "لم أتقدم بأي مبادرات على الإطلاق في الوقت الراهن". و"أؤكد أن مبادرة التنازل عن 50% من الثروة، التي تم عرضها قبل 30 يونيو، ألغيت بسبب انتهاء المهلة التي تم تحديدها للإخوان للنظر فيها"، قبل أن يُلقي بجزرة جديدة عنوانها الأبرز "العودة مرة أخرى إلى البلاد للعمل والتنمية وتقديم المساعدات وتنفيذ العديد من الاستثمارات، إلى جانب تقديم التبرعات، فعلى سبيل المثال، صندوق تنمية العاملين يتم تحت إشراف وزارة التضامن ومصر تحتاج إلى التنمية والعمل والبناء وتقديم يد العون خاصة في الوقت الحالي"111.

في المداخلة الهاتفية المشتركة مع السفير هاني صلاح، المُتحدث باسم رئاسة الوزراء، عبر قناة "سي بي سي"، قال رجال الأعمال الهارب: "يأشروا بس"، في إشارة منه بقبول كامل للتسوية التي تُعفيه من المسؤولية القضائية، وحينها رد المتحدث باسم الحكومة مخاطبـاً ربيب مبارك الهارب من القانون في الخارج، واصفـاً إياه بـ"البك" ومُرحبًا بعودته؛ إذ إن مصر بعد 30 يونيو مفتوحة على المبادرات لإعادة الأمور إلى نصابها، في إشارة إلى نفس صفقة العفو مقابل ما

110 منصور كامل ومحمد عبدالعاطي، حسين سالم يطرح مبادرة جديدة لـ"الصلح".. ويشترط إسقاط جميع الاتهامات، جريدة "المصري اليوم"، القاهرة، 9 يناير 2014.

111 محمد طلعت داوود وعمر خالد، مصدر سابق.

يقال إنه نصف ثروته المنهوبة منا التي كان الاخوان يصكوها بقدر أكبر من التكتم حين كانوا في الحُكم.

بعد انقطاع الخط، أتاحت القناة خطوطــاً للحديث عن موقف رجل الأعمال الهارب ورد الحكومة عليه، فخرجت تعليقات تستنكر ما جاء في رد الفعل الرسمي الذي بدا مُرَحبــاً بمبادرة سالم، فاضطر السفير هاني صلاح مُجددًا، إلى إجراء مداخلة هاتفية ثانية للقناة، أوضح فيها أنه لم يكن يقصد من تصريحاته سوى أن مصر بعد 30 يونيو تُرحب بالاستثمارات.

صلاح أضاف: "كنت أقصد أن أي رجل أعمال، لم يُدَن في أي قضية، سنرحب به في دولة جديدة منفتحة"، لافتــاً إلى أن الحكومة لم تتلق أي طلب للتصالح بشكل رسمي، وأنه في حالة تقديم أي عرض فهو متروك للجهات القضائية.

إلا أنه في مُداخلة هاتفية ثانية عبر فضائية "التحرير"، تحدث رجل الأعمال الهارب حسين سالم بنبرة مختلفة، قائلاً: "معرفش المليار كام صفر.. وهقدّم تبرّعات تُقدّر بـــ25- 30 مليون"، وبدا الحديث مُختلفــاً بشكل أو بآخر، والذي تم عبر فضائية "سي بي سي"، مشيرًا إلى أنه "قبل ساعات كانت أول مرّة يتحدث فيها مع الجهات الرسمية، وأنكر ذهاب رجل الأعمال الإخواني حسن مالك إليه، أو ما تم تداوله حول تدخل جهات قطرية في القضية"، قائلاً: "ما قابلتش حد أنا قاعد في حالي في بيتي مع ولادي وبس".

ولفت حسين سالم إلى أنه لم يتلقَ أي عروض تفاوضية، أو حتى محاولة للتفاوض في عهد الإخوان، قائلاً: "لو كانوا عرضوا أي

تفاوض -يقصد الإخوان- ما كُنتش هرجع.. كانوا عايزينها هيبة.. هياخدوا الفلوس في جيبهم".

وبدا رجل الأعمال الهارب متراجعــاً عن كلمتيه السابقتين "يأشروا بس"، لينفي عن نفسه مبادرة منح نصف أمواله للحكومة المصرية، ليقول إنه سيدعم الاقتصاد بتبرّعات من خلال "صندوق دعم البطالة" وتبرعات للكنائس والمساجد التي تم حرقها، وترميم أقسام الشرطة، وعند سؤاله عن المال المُخصص لذلك، رد: "25-30 مليون".

أما عن حجم أمواله وتقديرها بمليارات الدولارات، فقال: "خُزعبلات.. ومعرفش المليار كام صفر"112.

جاء الحوار الصحفي مع يوسف عثمان، رئيس جهاز الكسب غير المشروع، كاشفــاً بالنسبة لأحدث المستجدات في ملف حسين سالم؛ إذ جاء فيه:

• فيما يتعلق برجل الأعمال الهارب إلى إسبانيا حسين سالم.. ما حقيقة العروض التي قدمها إلى الجهاز؟

- ما علمته أن حسين سالم قدم عروضــاً للتصالح مع الحكومة المصرية، بحيث يرد بضعة مليارات إلى الدولة مقابل التنازل عن القضايا التي تم اتهامه فيها بتضخم الثروة وإهدار المال العام، لكن جميع عروضه شفهية، ومعظمها جاء في عهد الرئيس المؤقت المستشار

---

112 آلاء سعد، مصدر سابق.

عدلي منصور، وكانت عبر فريق محاميه، حيث كان يحضر أحدهم كل فترة إلى جهاز الكسب غير المشروع ويقدم عرضـًا شفهيـًا بالتصالح.

• هل هناك عروض جديدة مقدمة من حسين سالم؟

– بالفعل هناك عرض مقدم بمعرفة الدكتور محمود كبيش، عميد كلية الحقوق بجامعة القاهرة، بصفته محاميه للتصرف في طائرة حسين سالم الخاصة، والمتحفظ عليها دون دفع أي أموال، بحجة توفير النفقات التي تتقاضاها إحدى شركات الطيران المصرية لصيانة الطائرة بشكل دوري، ونظرًا لأن كبيش لم يقدم توكيلاً من سالم، فطلبنا منه التوكيل.

• هل سيوافق الجهاز على طلب رفع التحفظ عن طائرة حسين سالم؟

لا بدَّ أن يقدم سالم عرضـًا متكاملاً وحقيقيـًا، ولا يكون مقتصرًا على الطائرة فقط بل يمتد أيضـًا إلى التفاوض حول أمواله السائلة والمنقولة والعقارية، وفي النهاية نبحث مدى جدية تلك العروض واتخاذ قرار بشأنها سواء بالموافقة أو الرفض.

• ما قيمة الأموال التي تم التحفظ عليها لحسين سالم سواء داخل مصر أو خارجها؟

– كل ما يملكه حسين سالم داخل مصر قيمته 3 مليارات جنيه وطائرة خاصة، وهذه الأموال تحفظ جهاز الكسب غير المشروع

عليها بعد ثورة يناير، أما على المستوى الخارجي، فلم تتوصل السلطات المصرية إلى قيمة محددة لأمواله113.

مجلة "فورين بوليسي" كتبت تقريرًا ضافيـــًا تحت عنوان "المحتالون يعودون إلى القاهرة"114، ذ ت فيه إنه بعد ثلاث سنوات من ثورة يناير ضد هذا النوع من رجال الأعمال الذين التهموا اقتصاد مصر، فإن البلاد تعود لنفس المحتالين الذين سرقوها بسبب الحاجة إلى الدعم المالي. وتضيف أن المصالحة مع رجال أعمال عهد مبارك من شأنها أن تسمح بإعادة بناء نفس الشبكات القوية من رجال الأعمال الموالين للسلطة.

في التقرير المذكور، قالت غادة علي موسى، مدير مركز الحوكمة، المعني بمنع الفساد وتعزيز الشفافية، إن عملية المصالحة ستفتح الباب أمام مزيد من الفساد والهروب من العدالة، فاحتمالات المصالحة مع سالم ستكون نموذجـــًا لغيره من رجال الأعمال الفاسدين.

وتنقل المجلة الأميركية عن إبراهيم الهنيدي، نائب وزير العدل ورئيس الهيئة العامة للكسب غير المشروع -حينذاك- قوله: "سيكون هناك مناخ لتحقيق مثل هذه المصالحة.. إن كل شيء يتلخص في العرض المقدم للمصالحة، ويبقى السؤال: أيهما أفضل لمصر أن تتصالح

---

113 مصطفى عيد، رئيس الكسب غير المشروع لـ"الشروق": لا نعرف قيمة الأموال المهربة ولم نسترد مليمـــًا منها، موقع "بوابة الشروق" الإلكتروني، 25 أغسطس 2014.

114 Bel Trew and Osama Diab, The Crooks Return to Cairo, Foreign Policy, February 7, 2014

http://www.foreignpolicy.com/articles/2014/02/07/the_crooks_return_to_cairo_hussein_salem_egypt

أم لا؟". وأضاف أنه على الرغم من أن سالم من أسوأ رجال الأعمال الفاسدين، وتم إصدار قرار بدفعه أكبر الغرامات، فإن الحكومة لا تزال مهتمة بالتوصل إلى اتفاق مصالحة معه".

وبينما نفى محامي سالم وجود علاقات تجارية بين موكله ومبارك، وقال إن الاتهامات الموجهة ضده ذات دوافع سياسية، فإن المجلة الأميركية تشير إلى وثيقة مسربة من هيئة الكسب غير المشروع تدل على أن سالم ومبارك، بالإضافة إلى عدد من رجال أعمال النظام، استثمروا معــاً في صندوق مسجل في جزر كايمان، وهي ملاذ ضريبي في الكاريبي.

الصندوق المذكور، الذي حمل اسم صندوق مصر Egypt Fund استثمر في 18 شركة مصرية، في قطاعات الأسمنت، والبنوك، والعقارات، والحديد، والزيت، والغذاء، والصناعات الزراعية. وكتبت هانزاده نسيم مديرة إدارة الإستراتيجيات وعلاقات المستثمرين في المجموعة المالية "هيرميس اي اف جي"، رسالة إلكترونية قالت فيها إن المجموعة المالية أنشأ الصندوق المذكور عام 1997. وحين سئلت عما إذا كان "هيرميس اي اف جي" كانت على علم بالمستثمرين الذين يقفون وراء هذا الصندوق، ردت كتابيــاً قائلة إن مجموعتها المالية تم إبلاغها بالكامل بهوية المستثمرين وإنه لا توجد أي مزاعم تتعلق بممارسات خاطئة ضدهم في ذلك الوقت.

وبينما لم يكن مبارك وسالم مسجلين بشكل شخصي، فإن الصندوق شمل شركات يمتلكها أبناؤهم؛ فقد استثمرت شركة سليليا

أسيتس كوربوريشن Clelia Assets Corporation، التي يمتلكها خالد وماجدة حسين سالم، مبلغ 3 ملايين دولار؛ واستثمرت بان وورلد إنفستمنتس كوربوريشن Pan World Investments Corporation التي يمتلكها جمال وعلاء مبارك مبلغ 250 ألف دولار. أتاح "صندوق مصر" المذكور لهؤلاء المستثمرين فرصة مهمة للتهرب الضريبي، كما سمح لهم لإخفاء استثماراقم عن أعين "الحاسدين".

وأشارت المجلة إلى أنه إذا ما رفضت مصر عقد صفقة تصالح مع رجل الأعمال الهارب، وتفاوضت مع إسبانيا على ترحيله، فقد يمكنها الحصول على أصوله المجمدة في سويسرا وهونغ كونغ وإسبانيا. كما أن تسليمه لمصر يعني إلزامه بدفع أكثر من 4 مليارات دولار غرامات وتعويضات، علاوة على قضائه 22 عامـــاً في السجن، بناء على الأحكام الصادرة ضده من قبل القضاء المصري.

وترى "فورين بوليسي"، أن صفقة المصالحة، لن تعيد سالم فقط إلى النعم التي كان يتمتع بها، ولكن من شأها أن تنهي التحقيقات الأجنبية في مصادر ثروته.. وأوضح أوليفر لونغشام، مسؤول العلاقات المالية الدولية لدى منظمة "بيرن ديكلاريشن" السويسرية، أنه "سيكون من الصعب جدًا على السلطات السويسرية مواصلة الادعاء ضد حسين سالم إذا أسقطت السلطات المصرية الاقامات الموجهة إليه"115.

Ibid. 115

من هنا بدأت مرحلة جس النبض، حيث أعلن محامي حسين سالم أن موكله سيقدم طلب تسوية ومصالحة جديدة إلى المستشار هشام بركات، النائب العام، تتضمن بنودًا جديدة غير التي طرحت خلال تولي جماعة الإخوان الحُكم.

وقال طارق عبدالعزيز إن الطلب يحمل فكرة جديدة تستند إلى تحديد مبلغ دون الرجوع لأسلوب النسب المقترح سدادها من إجمالي ثروة سالم، لتجنب فشل المصالحة. وأضاف أن تحديد مبلغ يتم سداده للدولة، مقابل إسقاط الأحكام والاتهامات الموجهة لموكله، يعد أفضل الأساليب التي قرر سالم التفاوض عليها مع النيابة العامة، وتجنب وجود أي تقييمات غير دقيقة لثروته في الخارج والداخل. وأكد أن الطلب الجديد للمصالحة يأتي ضمن تسوية بنودها أكثر إيجابية من نظيرتها أيام الإخوان.

وتابع أنه اتفق مع موكله بمقر إقامته بإسبانيا على تسوية مشرفة، بعيدًا عن أي مقابلات مع مسؤولين عن ملفه؛ لأن المصالحة ستقدم على الورق لتكون محل دراسة النيابة، مشددًا على أن المبلغ المقرر تسجيله في المصالحة يتخطى القيمة المتوقعة وقت العرض السابق، وفق ما اتفق عليه مع موكله. وأكد أن سالم حدد موقفه النهائي باللجوء إلى المصالحة عن طريق الاتفاق على مبلغ يتم سداده، والابتعاد عن مبادرات التبرع أو تقييم الثروات116.

---

116 محمد عبدالعاطي، حسين سالم يقدم مصالحة جديدة إلى النائب العام خلال أيام، جريدة "المصري اليوم"، القاهرة، 10 فبراير 2014.

مرت ثلاثة شهور، قبل أن يطل علينا محامي حسين سالم ليقول في تصريحات لبرنامج "سيادة المواطن"، على قناة "المحور 2"، إن أزمة موكله مع الدولة ستنتهي خلال شهرين (أي بحلول يوليو 2014)، حيث سيتم إتمام إجراءات ا' تصالح مع رجل الأعمال لتسوية الأزمة، مؤكدًا جدية موكله في السعي نحو التصالح مع النظام الحالي، على حد قوله.

ثم تحدث محامي حسين سالم في أكتوبر 2014 عما وصفه بأنه "صيغة تصالح نهائية مع الحكومة"، من خلال تقييم يقدمه إلى جهاز الكسب غير المشروع، متوقعـًا أن يتضمن أصولاً بقيمة ٧ مليارات دولار، تمهيدًا للاتفاق على آلية التصالح ورد الأموال للدولة، بعد طلب الجهاز الرجوع إلى نقطة الصفر، وعدم الارتكان إلى ما سبق من مفاوضات كان جزءًا منها خلال حكم الإخوان المسلمين.

وأوضح أن موكله انتهى من تقييم أصوله في مصر، ويتصدرها فندق موفنبيك جولي فيل، وقاعة المؤتمرات العالمية، التي استضافت مؤتمر دافوس العالمي، وأن التقييم نُفذ عبر بيوت خبرة عالمية، لافتـًا إلى أن التقييم الخاص بموكله "تضمن قيمة ملعب الجولف (جزء من فندق شرم الشيخ) بقيمة ٣ مليارات دولار"117.

رمى حمدي رزق الكرة في ملعب الحكومة بعد العرض الأخير، قائلاً: "بقي أن تتحرك الأجهزة المعنية لاستعادة حق الدولة في ثروة

117 محمد عبدالعاطي، حسين سالم يعرض التفاوض على أصول بقيمة ٧ مليارات دولار للتصالح، جريدة "المصري اليوم"، القاهرة، 17 أكتوبر 2014.

سالم، الصمت على استعادة مليارات سالم يبدو مريبـــاً، حكومة تترجى المتبرعين بالملايين لا تلقي بالاً إلى مليارات متاحة، من له مصلحة في تطنيش مليارات سالم؟... ليس لدينا رفاهية ترك مليارات حسين سالم هباءً في انتظار عودته مخفورًا من إسبانيا، حسين سالم يحمل الجنسية الإسبانية، ولن يعود، لماذا نتقاعس في ملف بين أيدينا وصاحبه يعرض علينا تسوية، يجب أن تكون عادلة ولصالحنا؟"[118].

جاءت رياح نوفمبر 2014 لتكشف أن نيابة الأموال العامة العليا عقدت 3 جلسات، مع دفاع رجل الأعمال حسين سالم لمباشرة إجراءات تسوية جديدة عرضها على النيابة. وكشف مصدر قضائي أن قيمة التسوية تبلغ 70% من ثروته داخل مصر وخارجها، مقابل تنازل مصر عن طلب مقاضاته محليــاً ودوليــاً وإسقاط القضايا المقامة ضده والمتداولة سواء في مرحلة التحقيقات أمام النيابة أو التي أحيلت للقضاء.

وأضاف المصدر أن النيابة طلبت رفع قيمة العرض إلى 80%، وهو ما وعد دفاع سالم بدراسته والرد عليه خلال جلسة لاحقة، مشيرًا إلى أن هناك بعض المشكلات التي مازالت تقف حجر عثرة أمام إجراء التسوية، من بينها عدم إدراج سالم جميع ممتلكاته في الكشوف المقدمة إلى النيابة، وعدم انتهاء اللجنة المعينة من النيابة لتقييم ممتلكاته من عملها، وعدم وجود معلومات كاملة عن ممتلكاته خارج مصر.

---

118 حمدي رزق، الثعلب فات فات وفي ديله سبع مليارات!، جريدة "المصري اليوم"، القاهرة، 23 أكتوبر 2014.

ورجح المصدر أن ترفض النيابة طلب التسوية؛ لأن التقرير المقدم من قبل سالم، بتقييم ممتلكاته ذكر أنها تعادل 4 مليارات دولار، في حين تزيد مديونياته وقيمة وقائع الاتهام الموجهة إليه عن هذه القيمة. وطبقـــا لتقرير سالم فإن المبلغ الذي يعرض التنازل عنه يقدر بنحو 22.5 مليار جنيه119.

غير أن رئيس جهاز الكسب المستشار يوسف عثمان، مساعد وزير العدل لشؤون الكسب غير المشروع، رأى أن "عروض سالم غير مناسبة؛ لأن معظمها يتركز على التنازل عن الطائرة التي يملكها وتتحفظ عليها مصر حاليـــا، بالإضافة إلى عروض مالية ضعيفة للغاية".

وأضاف أن "جهاز الكسب اشترط على الممثل القانوني لرجل الأعمال الهارب إلى إسبانيا حسين سالم، تقديم توكيل رسمي حديث موثق من وزارة الخارجية وغير قابل للإلغاء، لبدء التفاوض حول التصالح المالي مع سالم، مقابل حفظ قضايا الفساد المتهم فيها".

وأشار إلى أن "عروض سالم من الناحية القانونية غير سليمة؛ لأنها قُدِّمت عن طريق محامين لا يملكون توكيلات رسمية منه، وحتى من معه توكيل رسمي فهو قديم وغير مطابق للوضع الحالي"120.

119 أحمد الشرقاوي، حسين سالم يعرض 22.5 مليار جنيه مقابل التصالح، موقع "بوابة الشروق" الإلكتروني، 5 نوفمبر 2014.

120 مصطفى عيد، رئيس "الكسب": عروض حسين سالم للتصالح "ضعيفة".. ولا ذنب لنا في تأخر التحقيقات مع مرسي، موقع "بوابة الشروق" الإلكتروني، 22 نوفمبر 2014.

في المسافة بين هذه التواريخ، أحرز حسين سالم بعض النقاط، بعد أن قررت المحكمة العليا في إسبانيا رفع اسمه من على قوائم تجميد الأموال، في جريمة غسيل الأموال المتهم فيها في إسبانيا، بقيمة 300 مليون جنيه، ورفض الطلب المصري، بتسليمه المبالغ لتمتعه بالجنسية الإسبانية وقت ارتكاب الجريمة[121].

كما رفضت المحكمة دفوع المحامي البريطاني الممثل لحكومة مصر، بأن هذه الأموال منهوبة من مصر، حيث أكدت المحكمة في حيثياتها، أن الجريمة وقعت على الأراضي الإسبانية والمواطن إسباني. وأضافت المحكمة، أن هناك شبهة غسيل أموال، بحق حسين سالم بقيمة 29 مليون يورو، ويتم التحقيق فيها بمعرفة السلطات المركزية بمدريد.

في مخبئه الإسباني، ظل حسين سالم محط اهتمام وسائل الإعلام.

فقد أذاعت قناة "الجزيرة" في 10 يونيو 2014 مقطع فيديو يظهر فيه رجل الأعمال حسين سالم الموجود في مدريد ويحاول مراسل الجزيرة كلايتون سويتشر إجراء حوار معه حول الغاز المصري المسلوب لصالح إسرائيل، إلا أن سالم امتنع عن إجابة أي من الأسئلة الموجهة له واكتفى بعدم التعليق.

وحاول مراسل الجزيرة مطاردة حسين سالم أثناء تجوله في أحد شوارع إسبانيا، موجهـــاً له العديد من الأسئلة، مثل: "هل سرقت

---

121 ابراهيم قاسم، المحكمة العليا بإسبانيا ترفع اسم حسين سالم من قوائم تجميد الأموال.. والخارجية المصرية تقترح إقامة دعوى لإسقاط جنسيته الإسبانية.. ورجل الأعمال يرسل خطاباً لـ"الكسب" للتنازل عن ممتلكاته بمصر لغلق القضايا، موقع "اليوم السابع" الإلكتروني، 11 مايو 2014.

الموارد الطبيعية ببلدك؟.. لماذا لا تعود إلى مصر وتواجه نظام العدالة هناك؟.. ماذا سيفعل المصريون عندما يتجمعون حول الشموع وسط الظلام؟.. هل تشعر بالسوء لأنهم لا يملكون الطاقة هناك بينما أنت تمتلكها في إسبانيا؟.. هل تشعر أنك فوق القانون وأنك لست مديناً للمصريين بتفسير ما حدث؟.. ما هي رسالتك للشعب المصري؟".

وامتنع سالم عن الإجابة، وهدد بطلب الشرطة في حالة استمر المراسل في مطاردته وطرح الأسئلة، مشيرًا إلى أنه مواطن إسباني ولا يقبل اقتحام خصوصياته.

جاء ذلك في وقت سرَّبت فيه تقارير صحفية أنباء عن تلقي جهاز الكسب غير المشروع، عرضاً شفوياً من محامي حسين سالم، مصحوباً بخطاب بخط يد حسين سالم يفيد تقدمه بعرض جديد، لتسوية أمورها المالية بالتنازل عن كل ممتلكاته في مصر، مقابل إغلاق كافة الملفات الجنائية المتهم فيها، والتي تقدر وفقاً للخبراء بنحو 17 مليار جنيه، أغلبها في شرم الشيخ وعبارة عن منشآت سياحية.

كما تسربت أنباء عن مفاوضات مع حسين سالم بشأن عرضه التنازل عن ثلاث قطع أراض بمنتجع شرم الشيخ بمساحات مختلفة بإجمالي ٢٠٠ ألف متر مربع، تتجاوز قيمتها ملياري جنيه بالنسبة للسعر السوقي الحالي.

النائب العام هشام بركات أرسل خطاباً لمحافظة جنوب سيناء للاستفسار عن هذه الأراضي –التي تقع يمين ويسار وخلف قاعة المؤتمرات الكبرى القريبة من مطار شرم الشيخ الدولي– وطريقة تخصيصها وتحديد سعرها السوقي تمهيدًا لإجراء صفقة تصالح مع

رجل الأعمال الهارب، الذي سبق له أن سدد قيمة هذه الأرض كاملة إلى محافظة جنوب سيناء وسجلها في الشهر العقاري122.

كانت المفاوضات مع رجل الأعمال الهارب قد وصلت إلى طريق مسدود، حيث تمسكت الحكومة بتنازل سالم وشركائه في شركة غاز شرق المتوسط عن دعوى التحكيم الدولي التي أقامتها الشركة ضد مصر، في الوقت الذي أصر فيه سالم على تركه الشركة وانتفاء علاقته بها. إلا أن مصادر حكومية رأت أن سالم ترك الشركة في العلن، ولكنه شريك من الباطن123.

لم يعبأ سالم كثيرًا بملاحقة القضاء له، ولم يهتز لصدور حكم جنائي أصدرته جنايات الإسكندرية غيابيًا بحبسه -بصفته رئيس مجلس إدارة شركة ميدور للكهرباء- ونجله خالد ونجلته ماجدة -عضوي مجلس إدارة الشركة- بالسجن المشدد لمدة 10 سنوات لكل منهم، وإلزامهم برد مبلغ 11 مليونًا و125 ألف جنيه، في قضية فساد تتعلق ببيع الكهرباء بالأمر المباشر لشركتين حكوميتين تعملان في قطاع البترول124.

بدا حسين سالم بعيدًا عن يد القانون في مصر.

---

122 محمد جمال الدين، مصادر: حسين سالم يتنازل عن أراضٍ بشرم الشيخ بمليارى جنيه للتصالح مع الدولة، جريدة "التحرير"، القاهرة، 30 نوفمبر 2014.

123 أحمد شلبي ومحمد عبدالعاطي، المصالحة بين حسين سالم والحكومة تصل إلى طريق مسدود، جريدة "المصري اليوم"، القاهرة، 23 يناير 2014.

124 هناء أبو العز، الجنايات تقرر سجن حسين سالم وأولاده 10 سنوات وإلزامهم برد 11مليون جنيه، موقع "اليوم السابع" الإلكتروني، 2 سبتمبر 2014.

مع استمرار سياسة المماطلة ومناورات التلكؤ، انتقدته أقلامٌ في الصحف، ومن هؤلاء حمدي رزق الذي كتب قائلاً: "إيه يا عم حسين، هو كان كلام يناير على الــ CBC بزبدة طلعت عليه شمس يوليو يسيح، بح خلاص، لا ربع ثروة، ولا نص ثروة؟! الله يرحم مرسي القرداتي، أيامها كنت عامل فيها عجين الفلاحة، كان محسوب أفندي كعب الغزال مبهدلك وأولادك في المحاكم الإسبانية، فاكر حقي برقبتي، خدوا نص ثروتي وسيبوني أعيش. من يوم ما مرسي غار في ستين داهية وإنت مطنش ع الآخر، حكومة محلب نسيتك، والله ناس ٣٠ يونيو طيبين، يا عينك يا جبايرك، حصوة ملح في عينك السليمة، تبرع مجاني، صندوق "تحيا مصر" يعاني، الغلابة يتبرعوا والأثرياء يتفرجوا، إخزي العين يا حسين، بالحسنى وزيادة، العين عليك بتدور يا حسين، خلاص القانون ياخد مجراه، واللي أكلته في شرم الشيخ بط بط.. يطلع على عينيك وز وز"125.

تمايل رجل الأعمال الهارب خلف كل حكومة تدير البلاد. تلاعب بمهارة وحرفية أتقنها طوال حياته، وعرف جيدًا متى يحارب الحكومات ومتى يدللها. وجدناه يتحدث تارة عن حكومة هشام قنديل واصفــًا إياها بــ"الممتازة"، ويتغزل في النظام الإخواني باعتباره "نظامــًا عادلاً"، و"أفضل من سابقه"، ويزين كلماته بدعوات خاصة يرددها كل صلاة لشخص الرئيس المعزول محمد مرسي لما فيه من "رحمة غير معهودة"، سرعان ما تنقلب الدعوات وتتبدل وجهة نظره في جماعة الإخوان وحكمها حين سقط نظامها

125 حمدي رزق، كده برده يا سونة يا خاين؟!، جريدة "المصري اليوم"، القاهرة، 24 يوليو 2014.

بخروج الملايين في 30 يونيو ليكشف عن وجهه الآخر برأي مخالف في جماعة الإخوان التي كان يمجدها فيقول إنها "انتهازية شوهت صورته أمام الرأي العام، وإن ثورة 30 يونيو جاءت لتصحح المسار"126.

وفي رأي سالم، فإن "ما حدث في 25 يناير هو أن جماعة الإخوان اتخذت ما حدث في الشارع المصري ذريعة للقفز على السلطة ومقاليد الحُكم في البلاد، وذلك معروف لدى الجميع الآن، والحقائق هي التي كشفتها، ولكن الدولة المصرية في تلك الفترة كانت تحتاج بالفعل إلى عملية تنظيف وتهذيب. أما ثورة 30 يونيو فهي ثورة الخلاص التي أخرجت مصر من الظلمات إلى النور"127.

هكذا حرم حسين سالم 25 يناير من وصف "ثورة"، وكال المديح لتاريخ 30 يونيو، باعتباره "ثورة الخلاص".

الزلزال الكبير وقع حين قضت محكمة جنايات القاهرة في 29 نوفمبر 2014 بانقضاء الدعوى الجنائية رقم 3642 لسنة 2011، بمضي المدة، ضد مبارك ونجلَيه وحسين سالم، بشأن تقديم الأخير خمس فيلات كعطية لمبارك كرئيس للجمهورية استعمالاً لنفوذه لدى محافظة جنوب سيناء، وجنحة قبول نجلَي مبارك (علاء وجمال) لها مع علمهم بسببها الأول. وقال تبيان الحُكم إن الفيلات الخمس سُجلت في الشهر العقاري لجنوب سيناء في 14 أكتوبر 2000 فانقضت الدعوى الجنائية في 15 أكتوبر 2010 بمضي عشر سنوات128.

---

126 مروى ياسين، العراب، موقع "بوابة الوطن" الإلكتروني، 12 يناير 2014.

127 محمد طلعت داوود وعمر خالد، مصدر سابق.

128 تبيان بموجبات القضاء الصادر في الجنايتين رقمي 1227، 3642 لسنة 2011 قصر النيل، القاهرة، 29 نوفمبر 2014، ص 252–257.

وأشار تبيان الحُكم ببراءة مبارك بشأن تهمتَي الاشتراك بطريقي الاتفاق والمساعدة مع وزير البترول الأسبق سامح فهمي في تربيح حسين سالم دون وجه حق والإضرار العمدي بالمال العام (والمعروفة إعلاميـــًا بقضية "تصدير الغاز الطبيعي المصري لإسرائيل، إلى أن أيـــًا من الشهود قوام أدلة الثبوت فى الجناية رقم ٣٦٤٢ لسنة ٢٠١١ قصر النيل، محل المحاكمة -والمارة شهاداتهم، وهم اللواء ممدوح محمود حسن الزهيري، واللواء عمر سليمان، وإبراهيم كامل، وعبدالخالق عياد، وعبدالعليم عبدالكريم، "لم يقطع أو يُشر أو يحدد أيٌّ منهم ولو في ضعيف القول إلى أنه تناهى لسمعه عن أن المتهم محمد حسني السيد مبارك رئيس الجمهورية الأسبق قد شارك سواء باتفاق أو مساعدة مع وزير البترول الأسبق (أمين سامح سمير أمين فهمي) على إسناد أمر بيع وتصدير الغاز المصري لإسرائيل عبر شركة EMG والتي يمثلها ويستحوذ على أغلبية أسهمها رجل المخابرات السابق حسين سالم، أو في النزر القليل أن المتهم رئيس الجمهورية الأسبق قد أبان في أية صورة كتابة أو شفاهة أو بتلميحات أو إيماءات لأحد بوجوب التعاقد مع شركة ذلك الرجل من خلال الأمر المباشر أو خلافه صافعـــًا الإجرءات القانونية الصحيحة، أو على الأقل محددًا سعرًا متدنيـــًا للتعاقد لا يتفق والأسعار العالمية السائدة وصولاً ليجني مؤسس تلك الشركة أموالاً أو منفعة دون وجه حق من خلال عمل من أعمال وظيفة رئيس الجمهورية"129.

129 المصدر نفسه، ص 258–278.

ورأت المحكمة أن "تقرير إدانة مبارك وسامح فهمي وحسين سالم في قضية الغاز حمل بداخله أدلة هدمه.. ولم نجد دليلًا واحدًا على الفساد"، و"لم تهتد المحكمة لكلمة واحدة تثبت تربيح حسين سالم أو أي شبهة فساد أخرى".

غير أن ما يلفت الانتباه هو الإلزام الوارد في الحُكم لرئيس الوزراء باسترداد مبلغ 174 مليون و 825 ألفـــا و612 دولارًا أميركيـــًا، بخلاف الفوائد الواجبة اعتبارًا من تاريخ استحقاقها وحتى تمام السداد، والتي تُمثل المتبقي من ثمن إجمالي الكميات التي تم دفعها من الغاز للشركة خلال الفترة من يناير 2008 حتى إبريل 2012 من شركة شرق البحر الأبيض المتوسط للغاز EMG، المملوكة لحسين سالم. ومن الواضح أن المحكمة أعملت سلطتها في هذا الشأن وخاطبت الحكومة لاتخاذ قراراتها التفاوضية بشأن عودة تلك الأموال، كما أحالت الشق المدني في القضية إلى المحكمة المدنية المختصة لتُقدّر قيمة التعويض الذي ستصدر بشأنه حكمـــًا ضد حسين سالم.

في أول تعليق له بعد تبرئته من تهمة الاستيلاء على المال العام، هدج صوت حسين سالم وهو يهتف "تحيا مصر".

قالها ثلاثـــًا -خلال مداخلة هاتفية لبرنامج "القاهرة اليوم" على فضائية "أوربت"- احتفالاً ببراءة حصل عليها غيابيـــًا.

تحدث ككاهن يدافع عن محميته التي حرمته منها ثورة يناير. والآن هو بريء كما يليق بكاهن ما زالت أسرار معبده سارية. بدا أن سالم يمثل أحد وجوه عودة مبارك "حتى وهو "شبه جثة" ليطمئن الرعايا

بأن كهنوته ما زال فاعلًا ومؤسساته ما زالت تحمي القاتل والفاسد، وتعتبر أن هذه الجرائم أعمالاً وطنية"130.

في المداخلة الهاتفية، قال سالم إنه سيعود قريبًا إلى القاهرة؛ لبحث سبل التعاون مع الدولة وتسوية الديون المقررة عليه. وفي تصريحات صحفية منفصلة، أكد سالم أنه سيعود إلى مصر في أقرب فرصة، ولكن عندما يتم السماح له بذلك، مشيرًا إلى أنه لا يوجد أغلى من كلمة "تحيا مصر"، والتي تسيطر عليه في الفترة الحالية، واصفًا الحُكم ببراءته بأنه "عادل وعظيم جدًا"، ويرد على كل المشككين.

وتابع قائلاً إنه عندما يعود إلى مصر سيشارك في المشروعات القومية، وأيضًا المساهمة في مشروع قناة السويس الجديدة، ورد على سؤال بشأن التسوية المالية مع الحكومة المصرية قائلاً: "اسألوا القائمين على الأمور"131.

غير أنه في اليوم التالي، واصل حسين سالم هوايته المفضلة، حين قال إن ما ذكرته بعض وكالات الأنباء، بشأن تنازله عن نصف ثروته في مصر، التي تقدر بنحو ٨ مليارات جنيه، كلام عارٍ عن الصحة، وإنه لم يُدل بأي تصريحات لوسائل الإعلام حول هذا الأمر.

وأضاف سالم: "ما نشرته وكالة أنباء الأناضول كذب، واسألوا الجهات المعنية عن هذا الأمر، أنا لم أدل بأي تصريحات". وقال، ردًا على سؤال حول أن محاميه الخاص، د. محمود كُبيش، عميد كلية

---

130 وائل عبدالفتاح، هيا احتفلوا بعودة حسين سالم، جريدة "التحرير"، القاهرة ، 1 ديسمبر 2014.

131 عمر خالد، سالم: سأعود لأشارك في المشروعات القومية، جريدة "المصري اليوم"، القاهرة، 30 نوفمبر 2014.

الحقوق بجامعة القاهرة، قدم طلبـــاً بذلك: "أنا ماعرفش حاجة عن الكلام ده، والمحامي حُر في كلامه".

من جانبه، قال كبيش: "قدمت بالفعل طلبـــاً إلى النائب العام، بأن سالم قدم تنازلاً عن نحو ٥٦٠ مليون دولار، ما يعادل نصف ثروته، وفندق بمدينة شرم الشيخ، ومحطة للمياه والصرف الصحي، وأرض البياضية بمحافظة الأقصر، دون التقيد بتسوية قضائية للقضايا التي يحاكم فيها، وقرر التنازل حتى لو حصل على حكم بالبراءة، ولن يتراجع عنه، ومازلنا في انتظار رد النائب العام على الطلب، ولا أعلم لماذا نفى سالم هذا الكلام، لكن ما أؤكده هو أنني بالفعل قدمت طلب التنازل بعد التشاور معه"[132].

في حلقات المسلسل ما يشير إلى تقدم سالم عبر محاميه بتسوية إلى جهاز الكسب غير المشروع، للتصالح في القضايا المنظورة أمام الجهاز. دارت المفاوضات وسط تكتم شديد حول المبلغ المطلوب لإجراء الصلح وإسقاط جميع القضايا، في حين تسربت معلومات بأن سالم تقدم بطلب تصالح للتنازل عن ٤ مليارات جنيه، خاصة بعد أن حصل على البراءة في قضية الغاز الشهيرة. جاء العرض بعد إقرار مجلس الوزراء تعديلاً في قانون الكسب غير المشروع تضمن إمكانية أن تقبل الجهات القضائية المختصة عرض المتهم التصالح عن جريمته شريطة أن يرد فعليـــاً كل ما تكسبه من أموال غير مشروعة، فضلاً عن نصف أو مثل أو مثلي قيمتها، حسب الأحوال[133].

---

132 أحمد شلبي وعمر خالد، حسين سالم: تصريحات التنازل عن نصف ثروتي لمصر "كلام فارغ".. واسألوا الجهات المعنية، جريدة "المصري اليوم"، القاهرة، 1 ديسمبر 2014.

133 محمد عبدالعاطي، حسين سالم يعرض ٤ مليارات جنيه للتصالح مع "الكسب"، جريدة "المصري اليوم"، القاهرة، 10 ديسمبر 2014.

بقيت مواقف سالم غامضة مثل غموض علاقته بمبارك وصفقات السلاح.

يروي محمد حسنين هيكل تفاصيل حديث مطول دار بينه وبين حسين سالم، في إحدى السفريات[134]. التقيا على متن طائرة "سويس اير" المتجهة إلى جنيف ذات يوم من عام 1988. كانت بصحبة حسين سالم زوجته الثانية الشابة.. زوجة "السفر والسياحة".

نفتح هنا قوسًا لنوضح أن حسين سالم في حياته أكثر من زوجة؛ نظيمة أم ابنه خالد وابنته ماجدة.. وهالة وكانت سكرتيرته.. أغلب الظن أنها هي التي كانت معه على تلك الرحلة.. وقد عاشت معه ثماني سنوات ثم ارتدت النقاب.. ولوسي وهي مصرية من جذور أرمينية.. وأخيرًا هيرمينا، وهي مغنية رومانية، عملت في ملهى فندقه "موفنبيك" على خليج نعمة في شرم الشيخ عام 1997 وتزوجها عام 2002 وشيّد لها مركزًا تجاريًا في بوخارست تكلف نحو 200 مليون دولار.

جلس سالم إلى جوار هيكل طوال الرحلة، وتحدثا معًا عن مبارك، وزوجته سوزان ثابت، ثم امتد حديثهما لاحقًا ليصل إلى مسألة علاقة مبارك بتجارة السلاح، وكان ذلك في حفل عشاء أقامه حسين سالم لهيكل في العاصمة السويسرية جنيف.

في مسألة تجارة مبارك في السلاح، قال سالم لهيكل: "ليس عيبًا أن الرجل –ويقصد مبارك– اقترب بوظائفه في لحظة من اللحظات من

134 محمد حسنين هيكل، مبارك وزمانه: من المنصة إلى الميدان، دار الشروق، القاهرة، 2011، ص 209 -223.

موضوع السلاح، وربما تصور أنه كان على وشك انتهاء خدمته في سلاح الطيران، ولم يكن يعرف أن الرئيس السادات سوف يختاره نائباً له، ومن الطبيعي أن يفكر الرجل في مستقبله ومستقبل أولاده، وأن يبحث في الخيارات المتاحة له؛ لأنه سيخرج وهو بالكاد في الخمسين من عمره".

أما فيما يتعلق ببيع الغاز لإسرائيل، فقد اعترف سالم بذلك قائلاً: "نعم عقدت صفقات غاز لإسرائيل.. الغاز يظهر في مصر بغزارة، ونستطيع أن نصدره، وعقدت صفقة مع إسرائيل لها دواعيها السياسية، وهي أكبر مني، وأما الغاز لإسبانيا؛ لأني مدين للإسبان، فقد أعطوني الجنسية الإسبانية، ورحبوا بي وبعائلتي هناك، وأكرمونا في الحقيقة، وكان لا بدَّ أن أرد لهم الجميل".

وحين واجه هيكل أثناء حفل العشاء -حسين سالم بحقيبة مستندات، تثبت أن سالم متورط في قضايا عدة، لها علاقة بتجارة السلاح، وأنه صدر ضده حكم من الولايات المتحدة، بمنعه من دخول بلادها، وأنه مطلوب القبض عليه، ومشاركة منير ثابت شقيق سوزان مبارك في هذه الصفقات، كان رد حسين سالم: "الأمريكان ولاد الـــ(...) هدفهم بالدرجة الأولى ابتزاز السياسة المصرية، وتصوير الأمور بما يوهم الناس بأن لديهم وسائل للسيطرة على مسؤولين مصريين.. لكن معظم صفقات السلاح التي جرت كانت موجهة لصالح المجاهدين في أفغانستان".

وبعدما قال هيكل لحسين سالم إنه يمتلك معلومات تفيد بأنه المسؤول عن اختيار هدايا أمراء الخليج إلى سوزان مبارك، رد سالم

قائلاً: "سوزي سيدة ممتازة، ولها ذوق رفيع، وهي على علاقة صداقة بأسر عدد من الحكام في الخليج، وهي تزورهم وهم يزورونها، وبالطبع فإنهم كرماء في هداياهم، وهي أيضـًا ترد لهم الهدايا، لكن المشكلة التي ظهرت أنهم يختا.ون لها الهدايا قبل مجيئهم أو قبل ذهابها هي، وفي كثير من الأحيان تجيء الهدايا مكررة، وتتلقى قرينة الرئيس -نفس الشيء- ونفس الطقم مرتين وثلاثـًا وأحيانـًا أربع مرات، وبالطبع فإن التنويع مطلوب، وكذلك طلبوا مني أن أرى الهدايا حتى لا تتكرر الأطقم"135.

من جهته، دافع حسين سالم عن نفسه وقصة لقائه مع هيكل قائلاً: "إنه لو كان يعلم أن هيكل على متن تلك الطائرة السويسرية لأخذ غيرها". وأضاف: "إن هيكل يكره مبارك ونظر إليه على أنه فلاح سقط من السماء على عرش مصر".. واستطرد: "ومن جانبه شعر هيكل بالخطر من مبارك ومبارك نفسه كان يسعده أن يشعر هيكل بالتهديد طوال الوقت حتى لا يفكر في الكتابة عنه أو عن عائلته.. ونجح مبارك في ذلك طيلة ثلاثين عامـًا.. ويرجع خوف هيكل من مبارك إلى علمه أن مبارك قد يصل في غضبه إلى حد الهمجية".

وتوقع حسين سالم أن يكتب هيكل عنه "أقوى من ذلك".. و"لكنني فوجئت به يتحدث عن النبيذ والأزياء".. "مما يعني أنه ليس لديه معلومات ثقيلة عني"136.

---

135 المرجع نفسه، ص 214.

136 عادل حمودة، خريف هيكل، مصدر سابق.

وربما كانت أثقل الصفحات وأخطرها في ملف حسين سالم هي تلك التي تتعلق بشركة شرق المتوسط وصفقة بيع الغاز لإسرائيل.

فقد توسع حسين سالم في أعماله التجارية واستثماراته في مصر، إلى أن اختاره الرئيس الأسبق حسني مبارك ليتولى تأسيس شركة لبيع الغاز المصري لإسرائيل. وكان دعم مبارك لحسين سالم وراء تبسيط كل الإجراءات الأمنية والإدارية اللازمة لتسهيل أنشطته. ضمت تلك الشركة شركاء مصريين وإسرائيليين وأميركيين، وأحيطت صفقة بيع الغاز المصري بالكثير من التعتيم، خاصة بشأن السعر الحقيقي لبيع الغاز لإسرائيل، علمـًا بأن السعر المعلن كان طوال مدة التعاقد أقل بكثير من الأسعار العالمية، فإذا كانت إسرائيل تدفع ذلك السعر المعلن بالفعل فلا يُفهم معنى هذه المعونة المصرية لإسرائيل، إلا إذا كانت مصر تحصل على مقابل سياسي لا يعلمه أحد يحقق لها مصلحة تفوق الدخل المفقود، أما لو صح الاحتمال الآخر فمؤداه أنه كان هناك مبلغ خارج النطاق التعاقدي الذي كانت تدفعه إسرائيل لحسين سالم يتم توزيعه على أطراف سياسية عليا.

وينقل السفير إبراهيم يسري عن جهة أمنية قولها إن "العمولة اليومية لصفقة الغاز كانت 3 ملايين دولار كان يأخذها حسين سالم ويوزعها على المشاركين والمستفيدين، بدءًا من رئاسة الجمهورية ووزير البترول سامح فهمي وبقية الفاسدين معه. كنا نخسر كل يوم يصل فيه الغاز لإسرائيل 13 مليون دولار، أي ما يعادل 100 مليون جنيه"[137].

---

137 نشوى الحوفي، إبراهيم يسرى: 3 ملايين دولار من "عمولة" تصدير الغاز لإسرائيل كانت توزع يوميـًا على "الرئاسة"، جريدة "المصري اليوم"، القاهرة، 29 مارس 2011.

أما "ميدور" لتكرير البترول، فهي لعبة أخرى من ألاعيب الفساد ونهب الوطن في عهد مبارك.

تأسست هذه الشركة كنواة للتطبيع الاقتصادي بين مصر وإسرائيل برأسمال قدره مل ِ و300 ألف دولار، نصفه للجانب المصري ويمتلكه رجل الأعمال حسين سالم، والنصف الآخر للجانب الإسرائيلي وتمثله شركة "ميرهاف".

تم تمويل المشروع من بعض البنوك المصرية والأجنبية؛ ثم على غير العادة اشترت الهيئة المصرية للبترول نسبة 20% من رأسمال "ميدور" بسعر السهم 1200 دولار، ثم تقرر زيادة رأسمال هيئة البترول إلى 60% مرة واحدة، وخفضت حصة حسين سالم والجانب الإسرائيلي "ميرهاف" إلى 40% مناصفة فيما بينهما.

وفي سرية تامة بدأ التلاعب الكبير، وأخذت تتكشف خطوط المؤامرة وأبعاد الفضيحة؛ إذ "تم بيع نسبة 18% من حصة رجل الأعمال حسين سالم إلى البنك الأهلي المصري بسعر السهم 4300 دولار، في حين أن قيمته الحقيقية هي 1200 دولار فقط، أي أن السهم الواحد ارتفع بنسبة 360% خلال ثلاثة أيام فقط.

"وبعد إتمام الصفقة –الجريمة– انخفض سهم "ميدور" مرة ثانية، وعاد إلى سعره الحقيقي وهو 1200 دولار"[138].

بذلك أصبحت هيئة البترول مالكة لنسبة 60% والبنك الأهلي 18% ورجل الأعمال حسين سالم 2% والجانب الإسرائيلي 20%.

---

138 مجدي مهنا. جريدة "الوفد"، القاهرة، 7 يونيو 2001.

ثم اكتملت تفاصيل الجريمة بتحويل نسبة الـــ20% التي يملكها الجانب الإسرائيلي إلى قضية وطنية من الدرجة الأولى، بدعوى طرد الإسرائيليين من شركة "ميدور"، وتم بيع حصة إسرائيل (20%) إلى البنك الأهلي وبسعر السهم 4300 دولار، وهو نفس السعر الذي باع به حسين سالم إلى البنك الأهلي أيضـــاً.

وأصبحت الدولة بذلك مالكة لنسبة 98% من رأسمال شركة "ميدور" وحسين سالم يمتلك نسبة 2% فقط، وبذلك اكتملت فصول المسرحية الهزلية.

وحدها حكمة بارون البترول الأرمني كالوست غولبنكيان، والمسمى "رجل الخمسة في المائة" تفسر السلوك المتكرر لرجل الأعمال حسين سالم القائم (البيع والاحتفاظ بحصة محدودة) من "ميدور" عام 2000 إلى شركة شرق المتوسط للغاز عام 2007 وحتى قبل تشغيل المشروع الأخير بنحو عام واحد. والحكمة مفادها أن يلعب رجل الأعمال الشاطر على ترويج مشروعات تزداد قيمتها، ثم يبيع ويربح على أن يحتفظ بحصة محدودة. وبذلك يقوم بتوسيع نطاق مشروعاته ويقلل من احتمالات الخسارة والمخاطرة. وفي حالة "رأسمالية المحاسيب" فإن رجل الأعمال (المروج للمشروع) يستفيد من ارتباطاته بجهاز الدولة وبمراكز السلطة السياسية في تسهيل إقامة المشروعات والحصول على امتيازات واستثناءات، وهو ما يؤدي لاحقـــاً إلى زيادة ثمن أسهمه لحظة البيع[139].

---

139 كارم يحيى. مرجع سابق.

ويحكي رئيس الوزراء الأسبق كمال الجنزوري عن كواليس مشروع "ميدور" لتكرير البترول، وهو مشروع مصري- إسرائيلي مشترك، وكانت نسبة المشاركة المصرية في البداية 60% و40% للجانب الإسرائيلي.

يقول الجنزوري:

تلقيت اتصالاً من اللواء عمر سليمان رئيس المخابرات العامة، وذلك في أوائل شهر يوليو 1997، يطلب التوصية لدى البنك المركزي بضمان قرض أجنبي، لاستكمال تمويل المشروع المصري- الإسرائيلي، "ميدور" لتكرير البترول.

اتصلت بإسماعيل حسن محافظ البنك المركزي، الذي أخبرني أن المطلوب ليس ضمان نصيب الجانب المصري في القرض فقط، لكن ضمان القرض كله بما فيه حصة الجانب الإسرائيلي!

أي أنه كان المطلوب أن يضمن البنك المركزي سداد القرض كله شاملاً حصة الجانب الإسرائيلي، وهو ما رفضته ورفضه معي إسماعيل حسن، وقد أكدت عليه ألا يعطي ضماناً إلا لحصة مصر مهما كان الضغط عليه.

إزاء هذا الموقف الحاسم، فوجئت بزيادة حصة الجانب المصري في المشروع إلى 80%، وحصة الجانب الإسرائيلي انخفضت إلى 20%، ومع ذلك استمر إصراري وإصرار رئيس البنك المركزي على رفض ضمان الـ20% الخاصة بالجانب الإسرائيلي، وهذا ما تم فعلاً، ومن العجيب أن نصيب الجانب المصري البالغ 80% تبين أن فيه 20% نصيب رجل الأعمال حسين سالم، وعند إعادة هيكلة الملكية تم تقييم قيمة السهم بألف دولار.

جاءني بعد بضعة أشهر حسين سالم ليطلب الموافقة على بيع 20% من الأسهم، فقلت:

- هذا أمر لا يخصني، بيعــًا أو شراءً، اذهب إلى المالكين والمختصين بهذا الموضوع.

وأسقط الأمر في يده، ولم يجد الإجابة التي تريحه.

وعند انصرافه سألته من قِبل العلم بالشيء:

إن شاء الله ناويين تبيعوا السهم بكام؟!

فقال:

- بـــ4 آلاف دولار!

صدمني الرقم، فقلت: ازاي؟! السهم من شهور أربعة كان بألف دولار، وبعد شهور قليلة يقفز إلى 4 آلاف دولار! إيه اللي حصل، المشروع لم يأت بجديد ليتغير السعر ويتضاعف أربع مرات، فهل التقييم الأول كان أقل من الواقع أم أن التقييم الأخير أكثر من الواقع؟ ولكن أحسست أن الأمر فيه شيء!

وسكت عندما لاحظ الضيق على وجهي.

وبعد قليل اتصلت باللواء عمر سليمان وأخبرته بما جرى.

فقال: (تعقيبــًا على سعر البيع)

أهي تجارة بأه!140

هي بالتأكيد التجارة، التي تبور.

---

140 د. كمال الجنزوري، طريقي.. سنوات الحلم والصدام والعزلة.. من القرية إلى رئاسة مجلس الوزراء، دار الشروق، القاهرة، 2013.

3

سالم ومبارك:
شجرة العائلة

إذا كان حسين سالم غائبـــاً عن مصر أو بالأحرى هاربـــاً منها -فإن أمواله وممتلكاته حاضرة فيها.

حجم ثروته لغز عصيّ، علمـــاً أن التقدير النهائي الذي وضعه خبراء جهاز الكسب غير المشروع يكشف أن حسين سالم يمتلك داخل مصر ثروة تقدر بـــ3 مليارات و771 مليونـــاً و778 ألف جنيه141.

أما المستشار عاصم الجوهري، مساعد وزير العدل، رئيس اللجنة القضائية المشكلة لاسترداد الأموال المنهوبة، فقد قال إن اللجنة القضائية التي يرأسها وضعت يدها على وثائق مهمة تؤكد امتلاك رجل الأعمال الهارب حسين سالم ونجليه خالد وماجدة ثروة طائلة

---

141 مريم جبل، لأول مرة بالمستندات.. ثروة حسين سالم في مصر 3 مليارات و771 مليون جنيه، جريدة "الفجر"، القاهرة، 12 يونيو 2014.

تجاوزت 24 مليار جنيه، تم التوصل إليها من خلال التحويلات البنكية العديدة التي أجروها في عدة بنوك بالخارج"[142].

ويضع طارق عبدالعزيز، محامي حسين سالم، حجم ثروة الأخير داخل مصر عند حدود 11.2 مليار جنيه[143]، وفي قول آخر 1.6 مليار دولار؛ إذ امتلك الكثير من الأملاك العقارية والسياحية والبترولية، بينها حصة تقدر بـــ28% من شركة شرق المتوسط للغاز "إي إم جي"، التي تأسست في 19 يناير 2000[144]، وتولت تصدير الغاز إلى إسرائيل[145]. إلا أن محامي سالم رفض تقدير حجم ثروة موكله في الخارج، وقال إن "هناك مصالح عقارية تقيّم أسعار الشقق والفيلات والمباني وفقا لأسعار السوق، وهي تقييمات متغيرة بحسب واقع السوق"[146].

ثقل استثمارات الرجل تركز في قطاعي البترول والسياحة بالأساس. ويمكن أن ندلل بمثال على تشعب الأذرع الاستثمارية للرجل. فقائمة أدلة الثبوت في قضية بيع الغاز المصري لإسرائيل (رقم

---

142 يسري البدري وأحمد عبداللطيف، "الكسب": 2 مليار جنيه لنجليّ مبارك في سويسرا.. و"سالم" حوّل 24 مليارًا بعد الثورة، جريدة "المصري اليوم"، القاهرة، 18 أكتوبر 2011.

143 ناجي عبدالعزيز ومحمد عبدالعاطي وحسين ياسر وحازم يوسف، محامي حسين سالم: ثروة موكلي 11 مليار جنيه والنائب العام يحدد "التصالح" خلال ساعات، جريدة "المصري اليوم"، القاهرة، 5 مايو 2013.

144 لبنى صلاح الدين، تصدير الغاز المصري لإسرائيل.. القصة الكاملة، جريدة "المصري اليوم"، القاهرة، 26 إبريل 2012.

145 عبدالرحمن شلبي وعلي زلط، "المصري اليوم" تكشف في تحقيق استقصائي: حسين سالم مازال يمتلك 28% من شركة تصدير الغاز إلى إسرائيل.. (الحلقة الأولى)، جريدة "المصري اليوم"، القاهرة، 19 يوليو 2011.

146 وكالة الأناضول، محامي حسين سالم: موكّلي ينوي التقدم بعرض جديد للتصالح مع السلطات المصرية، موقع "بوابة المصري اليوم" الإلكتروني، 9 يناير 2014.

1061 جنايات القاهرة الجديدة أول) تفيد بأن آل سالم كانوا يمتلكون أسهمـــًا في "فورداس" و"كولتيكس" و"ميديترانيان غاز بايب لاين"، وكلها شركات مساهمة في شركة "شرق المتوسط للغاز" المصرية – الإسرائيلية.

الشاهد أن سالم تفرغ في عام 2011 للتخلص من أغلب استثماراته في الخارج لصالحٍ آخرين على علاقة به، لمحو أي صلة له بهذه الشركات، مستخدمـــا محاميه الخبير القانوني السويسري أندريه جوليز، ذراعه اليمنى، في إنهاء كافة الإجراءات، حيث تمكّن خلال العام المذكور من نقل ملكيّة 4 شركات في دول وجزر مختلفة، بينها بنما وفيرجن أيلاند ورومانيا، بينما صفى شركة "ماسكا" السويسرية، التي كانت تُعد إحدى أكبر أذرعه الاستثمارية، فيما تبقت شركة فنادق صغيرة تحت يده في سويسرا، وهي "جلاكسي هوتيل"[147].

حسين سالم أعلن أنه اعتزل العمل نهائيـــًا في مايو 2011، لكن هناك قرائن على أنه لا يزال يدير حساباته وشركاته مع نجله خالد ونجلته ماجدة وحفيدته البالغة دنيا، في ظل أنه لا يوجد على أرصدة وأعمال ومشروعات الأسرة أي حظر دولي في أي مكان من العالم غير مصر.

أسهم سالم المالية ليست سرًا، بل إن أعماله زادت في أوروبا بنسبة 23 % منذ أن ترك مصر، وإن يكن قد تم إخفاء ما يدل على ملكيته لها أو صلته بها، على نحوٍ بارع.

147 عبدالرحمن شلبي ومحمد علي زيدان، "الوطن" تكشف في تحقيق استقصائي: حسين سالم يتخلص من 4 قلاع استثمارية يملكها بالخارج خلال 2011 رغم التحفظ على أمواله، موقع "بوابة الوطن" الإلكتروني، 13 يناير 2013.

وفي صباح الخميس 8 ديسمبر 2011 أيد القضاء المصري قرار جهاز الكسب غير المشروع بمنع التصرف في كل أرصدة وممتلكات رجل الأعمال الهارب حسين كمال الدين إبراهيم سالم وزوجته نظيمة عبدالحميد إسماعيل محمد، ونجله خالد وزوجته عين الحياة عباس مسعد الحمامي، وأولادها بالترتيب دنيا ونورا وحسين، وكذلك نجلته ماجدة وطفليها من زواج سابق، وهما عمر ونور حاتم حسن إبراهيم أحمد الشيخ.

ولعل في تقرير الرقابة الإدارية148، ما يكفي للإشارة إلى جانب من الثروة الطائلة لرجل الأعمال الغامض.

حسب التقرير المذكور، فإنه بالتحري عن عناصر الذمة المالية لرجل الأعمال حسين سالم وزوجته وأولاده، تبين امتلاكهم الآتي:

1- شركة نعمة للجولف والاستثمار السياحي، شركة مساهمة خاضعة لقانون الاستثمار رقم 230 لسنة 1989، مقيدة بالسجل التجاري برقم 1195 الطور، مقرها مدينة شرم الشيخ بمحافظة جنوب سيناء، يتمثل نشاطها في إقامة قرى سياحية مكونة من فنادق وملاعب غولف وملاعب رياضية ومطاعم وأسواق تجارية وكافيتريات و300 فيلا، يرأس مجلس إدارتها حسين سالم، ويساهم فيها بمبلغ 63 مليون جنيه، وعضوية نجله خالد حسين سالم، ويساهم فيها بمبلغ 118 مليون جنيه، وتساهم فيها نجلته ماجدة حسين سالم بمبلغ 71 مليون جنيه، وآخرين، ويمتلك ويدير الشركة فندق جولي

---

148 "الشعب" تنشر نص تقرير الرقابة الإدارية حول ممتلكات الجاسوس الإسرائيلي حسين سالم، مصدر سابق.

فيل موفنبيك الجولف، ومارتيم موفنبيك، بطاقة نحو 900 غرفة فندقية. وقد اشترت الشركة قطعة الأرض رقم 84 بمنطقة شمال خليج نعمة بالتخصيص من محافظة جنوب سيناء، ومساحتها نحو مليون متر مربع خلال الفترة من عام 1995 حتى عام 2006 بقيمة نحو 32 مليون جنيه لبناء مشروعات الشركة عليها. وقد تبين من الإقرارات الضريبية المقدمة من الشركة أن صافي ربحها خلال الفترة من عام 2005 إلى 2008 بلغ نحو 162 مليون جنيه.

2- شركة فيكتوريا المتحدة للفنادق، شركة مساهمة مقيدة بالسجل التجاري برقم 278 الطور، يرأس مجلس إدارتها العضو المنتدب حسين كمال الدين سالم، ويساهم فيها بمبلغ 89 مليون جنيه، وعضوية كل من نجله خالد حسين سالم، ويساهم بمبلغ 25 مليون جنيه، ونجلته ماجدة حسين سالم، وتساهم فيها بمبلغ 4 ملايين جنيه. وقد اشترت الشركة قطع أرض بخليج نعمة بالتخصيص من محافظة جنوب سيناء مساحتها 208 آلاف و388 مترًا مربعـــًا خلال الفترة من عام 1988 حتى عام 2010 بقيمة نحو 6.8 مليون جنيه؛ إذ بنت الشركة الفندق السياحي موفنبيك جولي فيل شرم الشيخ بعدد 340 غرفة فندقية وناد صحي وقاعة مؤتمرات و22 محلاً تجاريـــًا. وقد تبين من الإقرارات الضريبية أن صافي ربح الشركة خلال الفترة من عام 2005 حتى عام 2009 بلغ نحو 149 مليون جنيه.

3- شركة مياه جنوب سيناء، شركة مساهمة خاضعة لقانون الاستثمار رقم 230 لسنة 1989، مقيدة بالسجل التجاري برقم 977 الطور، مقرها في 26 شارع رشدي القاهرة. ويتمثل نشاط الشركة

في إقامة محطة مياه لتحلية مياه البحر والآبار، ومصنع لتعبئة المياه في زجاجات ووحدة معالجة الصرف الصحي لاستخدامها في الزراعة. ويرأس مجلس إدارتها حسين كمال الدين سالم، ويساهم بمبلغ 1.313 مليون جنيه، وعضوية كل من خالد حسين سالم ويساهم فيها بمبلغ 12 مليون جنيه، وماجدة حسين سالم وتساهم فيها بمبلغ 18 مليون جنيه. وقد اشترت الشركة خلال الفترة من عام 1995 وحتى عام 2003 قطع أراض بالطريق الدائري وخليج نعمة والهضبة بمدينة شرم الشيخ بالتخصيص من محافظة جنوب سيناء، مساحتها 79 ألفا و805 أمتار مربعة بقيمة نحو 1.944 مليون. وقد تبين أن صافي أرباح الشركة عن السنة 2006 2007 بلغ 23459 مليون جنيه.

4 -شركة فيكتوريا للسياحة والنقل السياحي، شركة مساهمة مصرية خاضعة لقانون الاستثمار رقم 230 لسنة 1989، مقيدة بالسجل التجاري رقم 981 الطور، ويتمثل نشاطها في النقل السياحي، ويرأس مجلس إدارتها حسين كمال الدين سالم، ويساهم فيها بقيمة 1.76 مليون جنيه، وعضوية نجله خالد حسين سالم ويساهم فيها بقيمة 762 ألف جنيه.

5 -شركة شرم الشيخ للفنادق ومراكز المؤتمرات، شركة مساهمة، ويساهم فيها كل من حسين سالم بـ20 مليون جنيه، ونجله خالد بـ15 مليون جنيه، ونجلته ماجدة حسين سالم بـ15 مليون جنيه.

6 -شركة فندق الأقصر جراند أوتيل، ويساهم فيها نجله خالد بـ14 مليون جنيه ونجلته ماجدة بـ5.720 مليون جنيه.

7- شركة جنوب سيناء للتنمية البيئية، شركة مساهمة، ويساهم فيها حسين سالم بـــ5.5 مليون جنيه، ونجله خالد بـــ3.5 مليون جنيه.

8- الشركة العربية للاستثمارات البترولية والطاقة، شركة مساهمة، ويساهم فيها كل من، حسين سالم بـــ2.6 مليون جنيه ونجله بـــ1.5 مليون جنيه ونجلته ماجدة بـــ900 ألف جنيه.

9- شركة بذور للزراعة والصناعة والتجارة، شركة مساهمة، يساهم فيها نجله بـــ499 ألف جنيه.

10- شركة شرم الشيخ للأسواق الحرة، شركة مساهمة، يساهم فيها كل من حسين سالم بـــ90 ألف جنيه، ونجله خالد بـــ80 ألف جنيه، ونجلته ماجدة بـــ80 ألف جنيه.

11- شركة التمساح للمشروعات السياحية، شركة مساهمة، ويساهم فيها كل من حسين سالم بـــ14.995 مليون جنيه، ونجله خالد بـــ112.5 مليون جنيه، وحفيدته نور خالد حسين سالم بـــ7.5 مليون جنيه، ونجلته ماجدة حسين سالم بـــ5 آلاف جنيه. والشركة تمتلك فندق موفنبيك جولي فيل الكائن بجزيرة التمساح بالأقصر، وهو عدة مبان وشاليهات وملاعب وحمامات سباحة ومطاعم على مساحة 131 فدانـــاً و22 قيراطـــاً و20 سهمـــاً. وتلك المساحة مشترى جزء منها من المواطنين، والجزء الآخر بالتخصيص من محافظة قنا والهيئة العامة لمشروعات التعمير والتنمية الزراعية. وقد تبين من الإقرارات الضريبية أن صافي أرباح الشركة على الفترة من عام 2000 وحتى 2008 نحو 48.032 مليون جنيه.

12- شركة ميدور للكهرباء (ميدالك)، شركة مساهمة مصرية بنظام المناطق الحرة العاملة بالإسكندرية، وفقـًا لأحكام القانون رقم 8 لسنة 1997 برأسمال مرخص به قدره 75 مليون دولار، ورأسمال مصدر قدره 27 مليون دولار. وتختص الشركة بإنشاء وتمليك وتشغيل وإدارة شركة للكهرباء لتوفير الطاقة الكهربائية اللازمة لشركتي ميدور وميد تاب. ويساهم في الشركة حسين سالم بـ94.5 ألف سهم بقيمة 9.45 مليون دولار، ونجله خالد بـ54 ألف سهم بقيمة 5.45 مليون دولار، ونجلته ماجدة بـ135 ألف سهم بمقدار 1.35 مليون دولار، وشركة كولتكس الأيرلندية (مملوكة لحسين سالم) بمقدار 108 آلاف سهم بقيمة 10.8 مليون دولار. وخلال الفترة من عام 1998 حتى عام 2009، زاد رأسمال الشركة عدة مرات، وتم تعديل هيكل المساهمين ونسبة المساهمة؛ إذ أصبح هيكل المساهمين من شركات مصرية وبنوك وطنية، وانحسرت مساهمة حسين سالم وأسرته كالآتي:

أ- 57 سهمـًا بقيمة 5.7 ألف دولار باسم حسين كمال الدين سالم.

ب- 4.9 آلاف سهم بقيمة 1.49 مليون دولار باسم خالد حسين سالم.

ج- 9 آلاف سهم بقيمة 900 ألف دولار باسم ماجدة حسين سالم.

د- 3 آلاف سهم بقيمة 300 ألف دولار باسم الآنسة نيللي محمد إيهاب فتوح. وأكدت المصادر أنها حفيدة حسين سالم من ابنته ماجدة.

مما سبق يتضح أن نسبة مساهمة حسين سالم وأسرته حسب تقرير الرقابة الإدارية -بشركة ميدور للكهرباء وميدالك، تبلغ نحو 3% فقط، ولم تتوصل التحريات إلى تحديد ربحية حسين سالم وأسرته؛ لسرقة الحسابات بالبورصة.

1 -الفيلا رقم 38 نموذج 5 باسم حسين سالم، الكائنة بقرية مينا جاردن سيتي بمحافظة 6 أكتوبر.

2 -الفيلا رقم 29 باسم حسين سالم بمنطقة الجولف بمدينة شرم الشيخ بمساحة ألفين و584 مترًا مربعـــًا، مخصصة له من قبل شركة نعمة للجولف والاستثمار .

3 -عقار مكون من 4 أدوار كائن في 96 شارع النزهة بألماظة، مصر الجديدة، القاهرة باسم نجليه خالد حسين سالم وماجدة حسين سالم وحرمه نظيمة عبدالحميد إسماعيل.

4 -عقار مكون من بدروم ودور أرضي و3 أدوار كائن في 28 شارع رشدي، ألماظة، القاهرة باسم نجليه خالد حسين سالم وماجدة حسين سالم، وتشغله شركة فيكتوريا المتحدة للفنادق المملوكة لكل من حسين سالم ونجله خالد.

5 -قطعة أرض مستصلحة باسم نجله خالد حسين سالم تبلغ مساحتها 61 فدانـــًا وقيراطين و192 سهمـــًا، كائنة بالحوض رقم 2 بناحية البساتين.

6 -قطعة أرض بمركز أبو المطامير محافظة البحيرة، تم شراؤها في 1 إبريل 2006 من سعيد هلال عبدالله الظاهري، الإماراتي الجنسية.

7- قطعتا أرض رقما 6 و7 بمنطقة القصر بشمال المشتل بالأصول المقامة عليها، بالقاهرة الجديدة لنجله خالد حسين سالم.

8- شركة إكزابنيتر وينغز أفييشن، وهي شركة مساهمة مصرية خاضعة للقانون رقم 8 لسنة 1997 لضمانات وحوافز الاستثمار، وتختص بنشأة النقل الجوي، وخاصة التاكسي الجوي حتى 27 راكبـًا، ويمتلك نجله خالد حسين سالم حصة قدرها 16 ألف سهم بقيمة 1.600 جنيه ومقرها 208 و209 مبنى التصدير الدولي بجوار مطار القاهرة الجوي.

9- 5 فيلات باسم نجله خالد حسين سالم بمشروع الجولف شمال خليج نعمة أرقام 223 و225 و226 و222 و13244 وبمساحات مختلفة.

10- قطعتا أرض رقما 55 مميز و56 مميز، بمساحة 1540 مترًا مربعـًا و1582 مترًا مربعـًا باسم نجله خالد حسين سالم، تم شراؤها من جمعية الإسكان التعاوني لأعضاء نادي الرياضات البحرية بشرم الشيخ عام 2004، ومثبت بالعقد أن قيمة القطعة 55 مبلغ 2517 جنيهـًا والقطعة رقم 56 بمبلغ 71190 جنيهـًا.

11- 2 فيلا باسم نجلته ماجدة حسين سالم تحملان رقمي 228 و227 بمنطقة الجولف شمال خليج نعمة.

12- امتلاك نجلته ماجدة حسين سالم قطع أراض أرقام 6153 و6154 و6155 و6156 و6157 و6158 تقسيم بلوك 15 المنطقة ج المقطم؛ حيث باعت تلك الأراضي وكذا حصة قدرها 8 قراريط في

العقار 18 شارع النزهة مصر الجديدة بإجمالي مبلغ 19.9 مليون جنيه، وتم سداد ضريبة التصرفات العقارية عن واقعة البيع.

13- امتلاك زوجته، نظيمة عبدالحميد إسماعيل محمد، حصة على المشاع إرثـًا من زينب م طفى طرقان خميس بحي المناخ بمدينة بورسعيد، تبلغ مساحتها 72 مترًا مربعـًا.

14- بالرجوع إلى سلطة الطيران المدني المصري، أفادت بأن المتحرى عنه يستخدم طائرة خاصة تحمل تسجيلاً، حروف GEDHY طراز F2000، وجنسيتها إنجليزية ومقرها بروكسل ببلجيكا، وتقوم على خدمتها بجمهورية مصر العربية شركة تأجير لخدمات الطيران، ولا يمكن معرفة مالك الطائرة الرئيسي إلا بالرجوع إلى سجلات التسجيل بالدولة الخارجية التي تم التسجيل بها، وقد غادرت الطائرة شرم الشيخ يوم 29 يناير 2011 متجهة إلى رومانيا، كما تبين أن نجله خالد حسين سالم يمتلك ويستخدم لنشـًا بحريـًا يسمى "بلو لاغون" تم شراؤه بمبلغ 923 ألفـًا و175 جنيهـًا من والده.

15- بالرجوع إلى مصلحة الضرائب المصرية، تبين وجود الملفات الضريبية باسم المتحرى عنه وزوجته وأولاده؛ وذلك على النحو التالي:

أ- الملف رقم 5/6635/1/4/199 باسم المتحرى عنه حسين سالم عن نشاط تصرف عقاري ببيع شقة بالعقار 88 شارع النزهة الدور الثالث بقيمة 3 ملايين جنيه؛ حيث سدد الضرائب المستحقة عن واقعة البيع بمبلغ 75 ألف جنيه، وكذا الملف السابق باسم المتحرى

عنه عن نشاط تصرف عقاري ببيع شقة بالعقار 8 بشارع أفلاطون مصر الجديدة بقيمة 90 ألف جنيه؛ حيث سدد الضرائب المستحقة عن واقعة البيع بمبلغ 2250 جنيهـًـا.

ب -الملف رقم 57272/1/4/199 باسم نجلته ماجدة حسين سالم عن نشاط تصرف عقاري بيع العقار الكائن في 28 شارع فريد مصر الجديدة بقيمة 16 مليون جنيه لم تسدد، وكذا الملف رقم 5475/1/4/821 باسم المتحرى عنها سالفة الذكر عن نشاط إيرادات ثروة عقارية عن العقار 24 شارع رشدي؛ حيث سددت 20374 جنيهـًـا.

ج -ملف رقم 5474/1/41821 باسم نجله خالد حسين سالم عن نشاط ثروة عقارية عن العقار رقم 24 شارع رشدي مصر الجديدة؛ حيث تم سداد مبلغ 27095 جنيهـًـا.

د -تبين سابقة مساهمة حسين سالم في 4 شركات تعمل بقطاع البترول؛ وذلك على النحو التالي:

-سبق فحص موقف شركة شرق البحر الأبيض المتوسط للغاز وإرسال المذكرة برقم صادر 1297 بتاريخ 7 مارس 2011 إلى المحامي العام الأول لنيابات الأموال العامة العليا بشأن العريضة رقم 66 لسنة 2011 حصر أموال عامة عليا، كما تم إرسال المذكرة ذاتها برقم صادر 1298 بالتاريخ ذاته إلى المحامي العام لنيابة أمن الدولة العليا بشأن العريضة رقم 921 بلاغات النائب العام، إلا أنها لم تتضمن المكاسب التي تحصل عليها حسين سالم من مشاركته بها. وقد تبين من الفحص الآتي:

بتاريخ 29 يناير 2000 تأسست شركة البحر الأبيض المتوسط للغاز لنقل وبيع الغاز الطبيعي إلى تركيا ودول البحر المتوسط. ويرأس مجلس إدارتها حسين سالم بنسبة مساهمة 60% وهيئة البترول 10% والجانب الإسرائيلي بنسبة 20% وشركة بريطانية 10%. وبتاريخ 18 سبتمبر 2000 قرر مجلس الوزراء برئاسة د. عاطف عبيد قيام هيئة البترول ببيع كمية تقدر بنحو 7 ملايين متر مكعب من الغاز الطبيعي سنويـــًا لمدة 15 عامـــًا لشركة "إي إم جي" بهدف تصديره إلى دول شرق البحر الأبيض المتوسط بسعر ثابت يتراوح بين 0.75 – 1.25 دولار، وبتاريخ 19 مارس 2001 أرسل عاطف عبيد خطابـــًا إلى حسين سالم ببدء شركة "إي إم جي" في تنفيذ خط نقل الغاز، وقد أصدر سامح فهمي وزير البترول الأسبق قرارًا بتفويض محمد طويلة رئيس الشركة القابضة للغاز آنذاك، وإبراهيم صالح رئيس هيئة البترول آنذاك، وشريف إسماعيل وكيل وزارة البترول لشؤون الغاز، لإنهاء جميع إجراءات بيع الغاز بالأسعار ذاتها لشركة "إي إم جي" تمهيدًا لتصديره إلى شركة كهرباء إسرائيل. وبتاريخ 17 يوليو 2005 قبل تشغيل الخط وتصدير أى كمية، استقال حسين سالم من رئاسة مجلس إدارة الشركة، وبتاريخ 4 فبراير 2008 استقال من عضوية مجلس الإدارة؛ وذلك بعد بيع جميع أسهمه بالشركة، وأصبح الجانب المصري ممثلاً في هيئة البترول بنسبة 10% وباقي النسبة – وقدرها 90%– مملوكة لشركات أجنبية؛ منها 25% مملوكة لشركة مرصاف الإسرائيلية؛ الأمر الذي يعد مخالفـــًا لقرار رئيس هيئة الاستثمار بشان تأسيس شركة "إي إم جي" بحيث لا تزيد نسبة

مساهمة الجانب الأجنبي عن 70%. وبتاريخ 30 يونيو 2005، وقع سامح فهمي عن الحكومة المصرية وإيلي سوريا وزير الصناعة الإسرائيلي مذكرة اتفاق وتعاقدات أخرى لتصدير الغاز عبر شركة "إي إم جي" لشركة كهرباء إسرائيل بالأسعار ذاتها، وقد أبرمت شركة البحر المتوسط 14 تعاقدًا لتوريد الغاز إلى شركات إسرائيلية نفذ منها عقدان أحدهما لشركة كهرباء إسرائيل بسعر 4.25 دولار.

تضمن تقرير الرقابة الإدارية نتائج أخرى للتحريات وما أمكن التوصل إليه نظرًا إلى سرية الحسابات -تحدثت عن أن حركة التداول لأسهم حسين سالم وأسهم الشركات التابعة له لشركة شرق الأبيض المتوسط للغاز؛ هي كالآتي:

* بتاريخ 13 سبتمبر 2001 تم تعديل جدول المساهمين بالشركة وتم تخفيض رأسمالها المصدر من 150 مليون دولار إلى 100 مليون دولار. وبتاريخ 11 نوفمبر 2005 تم تعديل جدول المساهمين بالشركة وتم تخفيض رأسمالها المصدر من 100 مليون دولار إلى 60 مليون دولار. وبتاريخ 15 نوفمبر 2006 تم زيادة رأسمال الشركة من 60 مليون دولار إلى 147 مليون دولار.

* باع سالم 39% من أسهمه بشركة البحر الأبيض المتوسط داخل البورصة المصرية بإجمالي 6 مليارات و319 مليون دولار، بربح قدره 536 مليون دولار؛ هذا بخلاف ربحه من بيع باقي الأسهم خارج مصر، التي تمثل نحو 28% من أسهمه بشركة شرق البحر المتوسط.

وتشير التحريات عن حركة بيع جميع أسهم شركة ماسكا السويسرية المملوكة لحسين سالم، لشركة الشرق الأوسط لتكرير البترول؛ عن تحقيقه أرباحـًا قدرها نحو 49.6 مليون دولار نتيجة بيع الأسهم لعدد من البنوك الوطـنية بأسعار مغالى فيها كالآتي:

بتاريخ 19 فبراير 1998 تم بيع 7200 سهم لبنك قناة السويس؛ منها 1800 سهم بسعر 1400 دولار للسهم بزيادة قدرها 400 دولار للسهم عن قيمته الاسمية البالغة 100 دولار للسهم، وباقي الأسهم بيعت بذات القيمة الاسمية للسهم.

أسفرت التحريات وما أمكن التوصل إليه من المصادر بالبنوك الوطنية والأجنبية -نظرًا إلى سرية الحسابات- عن امتلاك حسين سالم وزوجته وأولاده الآتي:

1- يحتفظ حسين كمال إبراهيم سالم بـ509 آلاف و914 سهمـًا بشركة التمساح للمشروعات السياحية، و106 آلاف و350 سهمـًا بشركة فيكتوريا المتحدة للفنادق، و13 ألفـًا و138 سهمـًا بشركة مياه جنوب سيناء، و574 ألفـًا و983 سهمـًا، و566 ألفـًا و775 سهمـًا مرهونـًا بشركة نعمة للجولف والاستثمار السياحي، و172 ألفـًا و500 سهم ببنك قناة السويس.

2- يحتفظ خالد حسين سالم بمليون و125 ألف سهم بشركة التمساح للمشروعات السياحية، و517 ألفـًا و384 سهمـًا بشركة فيكتوريا للفنادق و129 ألفـًا و62 سهمـًا بشركة مياه جنوب سيناء.

3- وجود أرصدة لنجلته ماجدة حسين سالم ببنك كريدي أغريكول.

4- تبين أن جميع ممتلكات أسرة حسين سالم وزوجته وأولاده وأحفاده السائلة والمنقولة والعقارية، قد آلت إليهم من خلال المشكو في حقه.

كما أن قائمة ممتلكات حسين سالم المجمدة داخل أوروبا وأميركا جاء فيها خطاب تضمن أن سالم كان مجرد واجهة للرئيس حسني مبارك، وتحصل على جميع الثروة التي لديه بطريقة غير مشروعة بسبب علاقاته بالرئيس المخلوع.

حياة آل سالم في الخارج تجسد نمطــاً لحياة كبار الأثرياء، حتى وإن كان كبير العائلة مطلوبــاً في بلده بتهمة الفساد والتربح.

في إسبانيا، يعيش أفراد الأسرة في فيلتين يمتلكهما متجاورتين بحي موراليغا ألكوبينداس الثري التاريخي وسط مدريد، حيث تجمعوا عقب إفراج السلطات القضائية الإسبانية عن سالم وعن نجله خالد ونجلته ماجدة في شهر سبتمبر 2011 بعد دفعهم كفالات قضائية بلغ مجموعها 13 مليون يورو.

بحثــاً في سيرة حسين سالم الذاتية والتعرف على أفراد أسرته، سنجد مفاجآت ومفارقات.

نبدأ بعين الحياة عباس أو "يت يت" كما يناديها أصدقاؤها المقربون، وهي زوجة خالد حسين سالم، وهي سيدة مصرية محافظة مثقفة من عائلة ثرية تناصر المرأة المصرية وكانت تشرف على إدارة

مشروع كبير لتنظيف مصر الجديدة وشرم الشيخ. تفضل العمل في منزلها، تعشق المشويات الشرقية والتسوق في "مولات" مصر الجديدة الشهيرة.

في حواراتها مع صديقاتها قالت لهن بوضوح: "إنها حزينة على فراق مصر"، بل كتبت لإحدى الصديقات تقول: "أنا زعلانة عليكي قوي يا مصر"، وفي نفس الوقت قالت: "الشعب المصري لا يعرف معنى الديمقراطية أو ثقافة الحوار".

تحب "يت يت" كاريكاتير الفنان وليد طاهر وتقرأ لماجدة الصاوي وتستمع لأغاني عمرو دياب، وهي مدمنة لألعاب الأطفال والتسوق في وقت فراغها، وتعتقد أن حكومة د. عصام شرف فشلت في إدارة المرحلة الانتقالية، وهي عكس زوجها خالد سالم، حادة الطباع تتحكم في الأسرة بالكامل وربما أخذت منها ابنتها الكبيرة تلك الصفة.

لعين الحياة أو "يت يت" في مصر شقيقان لا علاقة لهما بالسياسة هما علاء الحمامي وحاتم الحمامي، ويدير الاثنان مشروعات حسين سالم بموافقة القضاء المصري، وقد درست معهما منذ الحضانة في مدارس "آمون" الخاصة بالزمالك.

أخوها علاء الحمامي متزوج من الكندية شانون روز، ولديه منها طفل يُدعى حسام، في حين أن حاتم الحمامي، الأخ الثاني، لديه ابنة تُدعى دانا، وهو متزوج من سيدة تدعي بشرى.

نأتي لولية عهد حسين سالم "دوندون" كما يناديها زوجها وأصدقاؤها والعائلة وهي دنيا خالد حسين سالم، (مواليد 1989) خريجة المدرسة الدولية التي درس بها كل أبناء العائلة، وهي موجودة في 3 كال فيريدا نورت بمدريد بإسبانيا.

دنيا أو "دوندون" هي فرحة الأسرة الأولى. تشبه والدها كثيرًا، بل إنها أقوى وأكثر حدة، وهي عقل حسين سالم الجد ومديرة أعماله، وقد نقل إليها والدها خالد حسين سالم يوم زواجها في صيف 2011 في إسبانيا أملاكـــًا خاصة بالأسرة في مصر وأوروبا قُدِّر ثمنها بأكثر من مليار دولار أميركي وذلك في وجود والدها وإخوها وجدها نظيمة التي تزوجت حسين سالم عام 1959.

"دوندون" تحب رسومات "التاتو"، وتدعو مثل أمها لحرية المرأة، وهي ليست قاصرًا كما كان موجودًا بقرار الكسب غير المشروع الأول بحق حسين سالم وعائلته، وهو السر في تحويل أملاك عديدة من جدها ووالدها باسمها حاليـــًا.

زوج دنيا هو عمر رفعت؛ شاب مصري من أسرة ثرية درس المرحلة الابتدائية في مدارس "نفرتيتي الدولية" ثم مدرسة "مودرن سكول"، وهو دفعة عام 2005 وقد تخرج في الجامعة البريطانية في مصر عام 2010. درس اللغتين الإسبانية والألمانية، ويعشق تسلق الجبال، ويستمع لأحمد الحجار ويعشق "دوندون" ويغار عليها بشكل ملحوظ. منفي برغبته مع محبوبته في مدريد؛ لأنه يدير مع العائلة مشروعاتهم في الخارج.

ثاني ابنة لخالد حسين سالم هي نورا أو "نونا" كما ينادونها (مواليد 1994) تدرس في المرحلة الثانوية بالمدرسة الدولية في مدريد، تفضل ارتداء الملابس المغربية وتحلم بأن تكون نجمة سينمائية أو نجمة في عالم الأعمال مثل جدها، وهي المفضلة لدى والدها خالد حسين سالم. "نونا" فتاة عادية خجولة هادئة وذكية، تتحدث عدة لغات وتحب أن تكون نفسها وليس مثل أختها دنيا. تحب المطربة العالمية شاكيرا ومايكل جاكسون وتعشق قيادة السيارات والتزلج على الجليد وتريد أن تعيش الحياة كلها في إجازات، وهي حزينة للغاية على فراق صديقاتها في مصر.

الابن الأصغر لخالد حسين سالم هو حسين، الذي سُمِّي على اسم جده. من مواليد عام 1999، وهو عاشق لفريق ريال مدريد الإسباني. درس في نظام "آي سي إس" الدولي بالمدرسة الدولية بمدريد مع أخته نورا بعد أن تخرجت دنيا الكبيرة فيها، وهو عكس أختيه لا يتقن الإسبانية، لكنه يجيد الإنجليزية والفرنسية مع العربية. شهرته "روميو"؛ لأنه عاشق للفتيات، وهو ما يثير ضحك جده كثيرًا حيث يحرص على أن يطلب من حسين الصغير أن يحكي له عن مغامراته مع الفتيات من سنه.

نصل للابن خالد حسين سالم، وهو وريث حسين سالم الشرعي والمدير الحالي لإمبراطورية حسين سالم الدولية، وقد أسند إليه سالم كل المهام ليصبح خالد منذ مايو 2011 هو الرجل الأول. تختلف ملامحه تمامــًا عن فترة شبابه، والسر في عمليات التجميل المتعددة.

أما الابنة ماجدة حسين سالم فهي تعد مشكلة لأبويها اللذين يخافان عليها كثيرًا، فقد فشلت في زيجات عدة حتى أنها تزوجت سبع مرات، كان آخرها الزواج من رجل أعمال مصري يُدعى أحمد، وتعمدت الأسرة إخفاء أي بيانات عنه حتى لا تُسبب له مشكلات؛ ولأنه رسول الأعمال الغامض بين القاهرة ومدريد.

ماجدة تعشق السفر إلى دول جنوب شرق آسيا خاصة الفلبين وإندونيسيا، ولها ابنة هي نور حاتم حسن إبراهيم أحمد الشيخ، وابن هو عمر حاتم الشيخ، لكنهما يعيشان بالتبادل معها ومع والدها بين القاهرة ومدريد.

لماجدة في مصر صديقات كثيرات أقربهن إلى قلبها هايدي راسخ، زوجة علاء مبارك. وتعمل ماجدة في إدارة مشروعات وشركات الأسرة مع والدها وأخيها، غير أنها تقيم في المنزل بعدما طلب منها زوجها الأخير ذلك ليعمل هو بدلاً منها في أعمال الأسرة.

أحد أزواجها هو حاتم الشيخ، الذي تردد اسمه طويلاً في وسائل الإعلام بسبب ضم أبنائه من ماجدة بعد قرار منع التعامل على أرصدة حسين سالم الجد، وهو رجل أعمال لديه العديد من الأصدقاء والصديقات معظمهم من الفنانين مثل حسين فهمي ومحمد صبحي وليلى علوي وعمرو دياب وتامر حسني وشيريهان. لديه من رجال الأعمال أصدقاء مقربون مثل أحمد عز وشريف والي وطارق حجي وسمير فهمي وهاني عزيز وحسب الله الكفراوي، أما أصدقاؤه من

العاملين في مجال الإعلام فبينهم لميس الحديدي وهالة سرحان إضافة إلى سامح سيف اليزل.

يعشق حاتم التنقل بين الأملاك الجميلة التي كان آخرها قصره الذي انتقل للعيش فيه في نهاية عام 2011 بمدينة السادس من أكتوبر في مصر وهو قصر على مساحة نحو 4 أفدنة أنفق عليه الملايين من الجنيهات. لم يتبق من علاقته مع ماجدة حسين سالم أم أبنائه سوى مكالماتها بخصوص الأبناء[149].

149 توحيد مجدي، حياة الرفاهية لأسرة حسين سالم في إسبانيا، جريدة "روز اليوسف"، 1 يناير 2012.

1

عثمان والسادات: المقاول والرئيس

يقول عنه الشاعر نجيب سرور في أشهر قصائده الممنوعة:

"أشكول أحمد أشكول

عثمان أحمد عثمان

عثمان يعني التعبان

بالفصحى ومين ها يقول

والباطل فن وكار

وسياسة (...) أفكار"[150]

---

150 نجيب سرور، (..) أميات، بدون ناشر، 1974.

إنه باختصار، أشهر "عثمان" في تاريخ مصر الحديث، حتى أن البعض تحدث متندرًا عن "الدولة العثمانية" في عهد السادات.

لعب أدوارًا مختلفة، وحمل ألقابًا أكثر، وتنقل ما بين وظائف ومناصب أكثر وأكثر، ما بين المهندس، وصبي الميكانيكي، والمعلم، والمقاول، والوزير، والأب لروحي، ورئيس النادي الإسماعيلي.. وصهر الرئيس.

ومن حكايته مع السد العالي وحائط الصواريخ، ودوره في الانفتاح الاقتصادي، وعلاقته بعددٍ من رموز الانفتاح ممن هربوا بأموالهم إلى الخارج، مرورًا بمشروعات هضبة الأهرام وقبة مسجد الحسين والصالحية.. تبدو الشهية مفتوحة لمعرفة أسرار هذا الرجل.

بل إنه يكاد لا يوجد شخص وُضِعَت عنه كتبٌ ومؤلفات تتباين فيها الآراء بشأنه، مثل عثمان أحمد عثمان. فإذا كان قد أصدر في إبريل 1981 كتابًا يحمل عنوان "صفحات من تجربتي" يقع في 648 صفحة من الحجم المتوسط، فإن الكاتب الصحفي عبدالله إمام أصدر في المقابل كتابًا يحمل عنوان "تجربة عثمان: الرد على كتاب المهندس عثمان أحمد عثمان" وصدر عن دار الموقف العربي عام 1981 ويقع في 184 صفحة. وفي العام نفسه أصدر النائب المعروف د. محمود القاضي –الذي رحل عن دنيانا في 9 سبتمبر 1982– كتابه "البيوت الزجاجية: وجهًا لوجه مع عثمان أحمد عثمان" الصادر عن دار الموقف العربي. كما صدر كتابٌ آخر هو "عثمان.. اللغز والأسطورة" للكاتب الصحفي طلعت رميح عن دار سينا للنشر عام 1987.

والشاهد أن الفتى اليتيم عثمان أحمد عثمان قَطَعَ رحلةً مثيرة، من حارة عبدالعزيز المتفرعة من شارع مكة بحي العرب فـــي مدينة الإسماعيلية.. إلى أن وصل إلى ما وصل إليه فـــي قاهرة المعز.

يقول عثمان المولود فـــي 6 إبريل 1917 فـــي مذكراته: "رحل والدي وأنا فـــي الثالثة وتركني بلا موارد مع ثلاثة أشقاء وشقيقتين. أكبرنا لم يتجاوز الثانية عشرة وحسين الصغير لم يزل رضيعـــاً، وعندما حاولوا إقناع والدتي بالزواجٍ أجابت لن أسعد نفسي، وأشقي أولادي.. كان والدي يمتلك محلاً للبقالة وبعد وفاته ترك محمد المدرسة ليدير المحل.. كان عندنا عنزة ننظر إليها كأحد أفراد العائلة اسمها عيدة وكانت توفر لنا بعض مصادر غذائنا.. كانت أمي التي تقوم بتربية الطيور وبيعها لتغطي التزاماتنا لا تقرأ ولا تكتب لكنها علمتنا الكثير"151.

نشأ عثمان فـــي منزل مبني من الدبش والطين وسقفه "تعريشة" من الخشب وجريد النخيل.. ليس فيه دولاب أو سرير.. كان أفراد الأسرة يفترشون الأرض عندما يأكلون وعندما ينامون.

وفـــي عام 1935 التحق بكلية الهندسة في جامعة القاهرة بشهادة فقر؛ إذ لم يكن يملك قيمة المصروفات المقررة وكانت 40 جنيهـــاً. وأقام فـــي شقة شقيقته المتزوجة من الشيخ علي حسب الله، الأستاذ بجامعة الأزهر الشريف. والشقة تقع تحت الربع بباب الخلق، وكان شقيقه إبراهيم عثمان الطالب أيضـــاً بكلية الهندسة يقيم فـــي هذه الشقة. وشقيقته هذه هي والدة وزير الإسكان سابقـــاً صلاح حسب

151 عثمان أحمد عثمان، صفحات من تجربتي، المكتب المصري الحديث، القاهرة، 1981.

الله، والدكتور عبدالمنعم حسب الله، الذي شغل منصب المدير التخصصي لشركة المقاولون العرب.

قاوم عثمان الحقد على الأغنياء بترديده حكمة أمه بالعامية الدارجة: "غير.. ومتحسدشي ؛ إذ كان يمشي من مترل شقيقته في باب الخلق إلى كلية الهندسة بالجيزة، حتى استطاعت شقيقته تدبير مبلغ مئة وعشرين قرشاً كي يشترك في الترام لمدة ثلاثة أشهر. نظر عثمان إلى النقود وظل يفكر كيف يستفيد من هذا المبلغ لأكثر من ثلاثة أشهر حتى هداه تفكيره إلى شراء دراجة، فسأل عن ثمنها فوجده جنيهين، فعاد بالقطار إلى الإسماعيلية وقصد محل "عجلاني" وطلب من صاحبه شراء دراجة قديمة متهالكة، فاشترى واحدة ثم جمع القطع الناقصة وأعاد إصلاحها ولم تكلفه سوى ستين قرشاً فقط. وظلت الدراجة مع عثمان أحمد عثمان خمس سنوات كاملة هي مدة الدراسة في كلية الهندسة.

في عام 1948 قرر الزواج عندما رصد ثلاثين جنيهاً شهرياً للإنفاق على بيت جديد، وكانت العروس سامية هي الشقيقة الثالثة لزوجتَي شقيقيه إبراهيم وحسين، بنات إسماعيل وهبي المحامي. وفي "الصباحية" نهض من فراشه في الخامسة صباحاً ليذهب إلى عمله كالمعتاد.

بدأ حياته العملية في مجال المقاولات ببناء جراج لطبيب يوناني مستعيرًا أدوات البناء التي لا تخرج عن ستة عروق خشب ولوح وسقالة وكان مكسبه منها ستة جنيهات، ومنها بدأت العجلة في

الدوران. وكان أول تعامل له مع شركة عبود باشا عام 1947، وأدرج عبدالقوي باشا اسم عثمان أحمد عثمان ضمن أسماء المقاولين المقيدين فـــي مكتبه. وفـــي عام 1950 تولى عملية إنشاء مدرسة البنات الابتدائية بالإسماعيلية. وعندما أصبحت المدرسة جاهزة للتسليم قامت قوات الاحتلال البريطاني بالإسماعيلية بالسيطرة عليها عام 1951 بعد أن أعلنت حكومة مصطفى النحاس باشا إلغاء المعاهدة. امتد عمل عثمان خارج الإسماعيلية لبناء سور مصنع السماد بالسويس. جرَّب حظه عام 1951 فـــي السعودية ليرسو عليه عطاء تنفيذ الكلية الحربية بالرياض، وفيها عرف الملايين عبر مقاولة بلغت قيمتها 7.5 مليون ريال سعودي.

لقد هبط المال على عثمان أحمد عثمان فجأة -على حد قوله- وبأكثر مما كان يتوقع، ليوقع بعدها باسمه بالخرسانة المسلحة على الرخام والصخر والأسمنت فـــي الكويت والإمارات والعراق والأردن وليبيا ولبنان.

وفـــي مصر، كانت له بصمته فـــي بناء جسم السد العالي، وبناء قواعد للصواريخ فـــي جبهة قناة السويس أثناء حرب الاستنزاف، إضافة إلى تعمير مدن القناة بعد حرب أكتوبر 1973، وشق طرق وترع، وإقامة مطارات وتشييد جسور وكباري علوية وأنفاق ودشم الطائرات، ومصانع ومساجد ومستشفيات وبنوك ومؤسسات حكومية. وهو الذي أعاد بناء كفر عبده بالقرب من السويس فـــي شهرين، وشق فـــي الجبل نفق الشهيد أحمد حمدي الذي تصدع فجأة بعد فترة من بنائه وتم "إسعافه" بعمليات إصلاحٍ عاجلة.

ارتبط اسم عثمان بزراعة الجبل خضرة للنادي الإسماعيلي، وإقامة مستشفى المقاولين العرب فوق الجبل. وعملت شركاته على تشييد عددٍ كبير من المنشآت المهمة فـــي دولٍ مختلفة، مثل ستاد أكرا بغانا، مطار الناضور بالمغرب، كلية الهندسة باليمن، مبنى وزارة المالية بالجزائر، وغيرها الكثير.

لكن التحدي الأكبر الذي خاضه فـــي مصر كان عنوانه: السد العالي.

فقد أُعلِنَ عن فتح الباب للشركات للتقدم بعطاءاتها للمشروع.. ولما تقدم عثمان لها طلبت الدولة من المقاولين بتشكيل اتحادات فيما بينهم كشرط للدخول فـــي المناقصة، فتعاونت 11 شركة مقاولات مصرية فـــي تكوين اتحاد لتنفيذ بناء السد العالي، فـــي الوقت الذي تقدمت فيه شركة عثمان وحدها لتنفيذ العمل المطروح، بعد أن تحايل على الشرط بالتحالف مع شركات كرواتية على الورق.

وفـــي 12 يناير عام 1961 أشرف وزير الري والسد العالي المهندس موسى عرفة على جلسة فتح مظاريف العطاء، ليتبين أن عطاء اتحاد المقاولين يبلغ 27 مليونـــاً، فـــي حين كان عطاء عثمان أحمد عثمان 15 مليونـــاً فقط.

يومها قال عثمان إن الفارق غير موجود تقريبـــاً اللهم سوى أرباح كل شركة من الشركات الإحدى عشرة التي دخلت فـــي الاتحاد، بحيث حددت كل شركة لنفسها مليون جنيه أرباحـــاً.. فإذا حذفت الأرباح تبين أن العطاء واحدٌ بينه وبينهم.

لم يصدق المسؤولون أن هذا المقاول يمكن أن يقوم بالعمل وحده وبمبلغ يقل بمقدار 12 مليونـــًا عن منافسيه، فقرروا أن تشترك معه شركة قطاع عام هي شركة مصر للأسمنت المسلح بنسبة 30%. رفض عثمان المبدأ وقرر بدلاً من أن تشترك معه شركة لا يعرف عنها شيئًا أن يتنازل عن 50% من شركته للدولة، لكن الدولة رفضت هذا العرض، فرضخ فـــي نهاية الأمر.

وفـــي حين يقدم عثمان شركته على أنها الشركة التي تقف وراء بناء السد العالي، يؤكد سامي شرف سكرتير الرئيس عبدالناصر للمعلومات أن "حجم الأعمال التي أوكلت لشركة "المقاولون العرب" فـــي بناء السد العالي لم تتعد نسبة 12% بميزانية لم تتعد 40 مليون جنيه من جملة التكاليف التي بلغت 330 مليون جنيه. و"المقاولون العرب" قامت بأعمال حفر وهدم. ولم يشرف عثمان أحمد عثمان على أي عملية بل كان المشرفون هم أمين عمر وأحمد عوض.

"مصر للأسمنت المسلح" كان حجم أعمالها 60 مليون جنيه بنسبة 18% وهو يعادل مرة ونصف حجم الأعمال الذي أنجزته "المقاولون العرب". وأهم الأعمال كالتبطين للأنفاق وبناء محطات الكهرباء والستارة الرئيسية للحقن قامت بها شركة مصر للأسمنت المسلح والهيئة العامة للسد العالي152.

---

152 سامي شرف، سنوات وأيام مع جمال عبدالناصر: شهادة سامي شرف، مكتبة مدبولي، القاهرة، 2006، ص 109.

على أنه بعد ستة أشهر من توليه بناء السد صدر قرار بتأميم الشركة بعد أن بلغت قيمتها الدفترية أربعة ملايين ونصف المليون جنيه. وهكذا، وبحلول عام 1961 تم تأميم شركته تأميمـــاً نصفيـــاً وأصبح هو رئيســـاً لمجلس إدارتها، ثم ما لبث أن أصبح التأميم كليـــاً فـــي عام 1964، كما تغير اسمها من "الشركة الهندسية للصناعات والمقاولات العمومية" إلى "المقاولون العرب" – عثمان أحمد عثمان وشركاه.. وتمكن عثمان من أن يحتفظ بمنصبه فيها أيضـــاً كرئيس مجلس الإدارة، وتم تجديد رئاسته لمجلس الإدارة مرة أخرى فـــي يوليو 1968.

وبذكائه الفطري، حافظ عثمان على توازنه وواصل أداء دوره، رافضـــاً عرض الملك خالد بن عبدالعزيز آل سعود الحصول على الجنسية السعودية وأخذ ما يريد من أموال، وتحمل نفقات معيشته مع أسرته فـــي أي مكان فـــي العالم.

وكان عثمان قد ذهب إلى صديقه السادات قبل التأميم بأيام فلم يشأ الأخير أن يفاتحه بما سوف يصيبه باعتبار ذلك سرًا ملكـــاً لعبدالناصر وحده.. ويسأله عثمان بعدها: لماذا أممونى؟ وأنا لست من النوعيات التي ينطبق عليها مثل هذا القرار، فلا أنا إقطاعي ولا رأسمالي ولا مستغل ولا محتكر ولا ذنب للاستعمار وما لديَّ من أموال كوَّنت بها الشركة وحصلت عليها بعرقي من خارج مصر، وأتيت بها لتستثمر لصالحها فيها، ويجيبه السادات: هذه أشياء سوف تنتهي وعليك بالصبر.

وإذا ما كان عثمان قد نفذ حلم عبدالناصر فـــي بناء السد وظل حتى النهاية مؤيدًا له ومتعاونـــاً معه، فإنه من بعد رحيله أظهر نفوره من سياسته، حتى أخذ يشير إليه فـــي كتابه "صفحات من تجربتي" بتعبير نظام الحُكم بدلاً من ذكر اسمه الحقيقي. أثار الكتاب زوبعة إثر صدوره فـــي إبريل 1981، لما جاء فيه من انتقاد لعبدالناصر، ما اضطر السادات إلى إصدار أوامر بتشكيل لجنة تقصيٍ حقائق لما ورد فـــي الكتاب الذي نوقش فـــي مجلس الشعب.

وفـــي 12 مايو 1981 صدر النص الكامل للتحقيق فـــي وقائع الكتاب. وجاء فـــي النص أن "الكتاب لم يقصد التعريض بذمة عبدالناصر أو النيل من ثورة يوليو".. لكن عثمان يعترف بأنه غضب لتأميم عبدالناصر شركة "المقاولون العرب"، وقال فـــي حديث صحفـــي له "بأنني زعلت من عبدالناصر شوية بسبب حكايةً التأميم".

غير أن الحقائق تشير إلى أن الاعتماد كان متبادلاً بين عثمان والسلطة فـــي عهدي عبدالناصر والسادات.

فقد استفاد الاثنان من جهده وشركاته وعلاقاته، وكان هو يحفظ عن ظهر قلب وصية أمه فـــي الصغر.. "اللي مالوش كبير يشتري له كبير"!

وجد عثمان فـــي كلٍ من الكبيرين هدفه وطريقه إلى مزيد من النجاح.

ويمكن القول تجاوزًا إن جمال عبدالناصر هو الذي وضع حجر الأساس لدولة "المقاولون العرب" عندما أعطى الشركة امتيازات عدة وسمح لعثمان بممارسة نشاطه داخل مصر وخارجها من دون قيود. أما السادات فهو الذي أسبغ على هذه "الدولة" صفتها السياسية.. وربما يعود ذلك إلى "الخلطة السرية" التي يمتلكها عثمان وجمعت بين ثقافة المهندس وشطارة المقاول.

ولذا فسر البعض موقف عثمان بأنه لم يكن كراهية لعبدالناصر، بقدر ما كان ثمنـــًا لموقعه المقرب من السادات.

ويروي نائب رئيس تحرير جريدة "الجمهورية" عبدالوهاب عدس فـــي مقال له تفاصيل مهمة حول علاقة عثمان أحمد عثمان بالرئيس عبدالناصر، فيقول: "قلت له (يقصد عثمان) كيف كانت علاقتك بالرئيس الراحل جمال عبدالناصر فـــي ذلك الوقت.. فقال لي عثمان أحمد عثمان: فـــي أول زيارة لعبدالناصر للسد العالي وبعد انتهاء جولته.. وقف عبدالناصر يسأل: أين عثمان أحمد عثمان؟.. وكنت بجواره.. فقلت أنا يا ريس.. فاندهش عبدالناصر.. ورد عليّ قائلاً: أنت عثمان.. اللي لابس أفرول.. وبتلف معانا طول النهار أنا كنت فاكر عثمان بكاتينه دهب وجالس فـــي مكتبه فـــي القاهرة.. وأضاف عثمان: أنا هنا يا ريس مقيم فـــي هذه الخيمة إقامة كاملة وسط أبنائي العاملين، فقال عبدالناصر وهو يبتسم برافو عثمان.. وقبل أن يغادر عبدالناصر موقع السد العالي.. التفت لعثمان وقال له: مش عاوز حاجة يا عثمان.. فرد عثمان قبل أن يترك يد الرئيس..

أيوه يا ريس.. الجماعة اللي بيقيموا أصول المقاولون العرب تعبونا يا ريس.. فاتجه الرئيس عبدالناصر إلى المشير عبدالحكيم عامر وزير الحربية فـــي ذلك الوقت والذي كان يرافقه وقال: ريحوا عثمان.. يا عبدالحكيم.. الراجل بيبني لنا السد العالي".

ويقول عثمان إنه بعد أن بنى فيلا لكل من كريمتي عبدالناصر بالأمر على قطعة أرض بمصر الجديدة، استدعته رئاسة الجمهورية وسألته عن التكاليف فرفض تقاضي أجر ورد أنها لم تتكلف شيئـــًا، فنهره ضابط الرئاسة ووبخه وقال له إنهم لا يريدون هدية من أحد ولا بدَّ من دفع ثمن بناء المترلين.

أصيب عثمان بحرجٍ بالغ وتضايق من هذا التقريع وتلك الإهانة، وقال إن البناء تكلف خمسة آلاف جنيه، بواقع 2500 للفيلا، وهو مبلغ رمزي فقط حتى يتحاشى تطاول لسان ضابط الرئاسة بالرغم من أن الفاتورة الحقيقية هي 100 ألف جنيه، أي بواقع 50 ألفـــًا لكل فيلا.

ويضيف عثمان قائلاً إنه مع ذلك، فقد فاصل ضابط الرئاسة؛ لأنه استكثر الثمن الرمزي هذا، وطلب منه خفض المبلغ إلى 1500 جنيه لكل فيلا، فوافق على الفور وتم تسليمه شيكـــًا من الرئاسة بمبلغ ثلاثة آلاف جنيه.

غير أن هذا الكلام أثار ردود فعلٍ واسعة، وانتقاداتٍ حادة لرواية عثمان.

وفـــي كتابه "سنوات وأيام مع جمال عبدالناصر: شهادة سامي شرف"، يقول المؤلف: "وعندما أصدر عثمان أحمد عثمان كتابه

"تجربتي" وادعى فيه أن منزلَي السيدتين هدى ومنى جمال عبدالناصر لم تُدفَع تكلفتهما الكاملة؛ لأنهما بُنيا لابنتي رئيس الجمهورية السابق.. سارع الرئيس السادات بالتنصل مما جاء فـــي كتاب صهره ورفيق مجلسه الدائم اتقاءً لرد الفعل الشعبي الذي كان قد بدأ يفصح عن نفسه فـــي ذلك الوقت"[153]

وبين زعيم رحل.. ورئيس وصل، كان عثمان قادرًا على أن يصطاد العصافير التي يريد على شجرة الحُكم.

---

153 المرجع نفسه.

2

عثمان والسادات:
"ساكن قصادي"

من الفوز بمناقصة بناء جسم السد العالي عام 1957 إلى انتخابه عضوًا فـــي مجلس الأمة عن دائرة أبو المطامير فـــي محافظة البحيرة فـــي 9 يناير 1969، وقعت أحداث ومحطات كثيرة فـــي حياة عثمان أحمد عثمان.

بعض هذه المحطات طريف، مثل عضويته الشرفية فـــي النادي الأهلي فـــي 8 يناير 1966، ورئاسته لمجلس إدارة النادي الإسماعيلي -الذي قدم له خدمات لا تُحصى- فـــي 2 يوليو 1966، ثم رئاسته لنادي "المقاولون العرب" فـــي أول ديسمبر 1968 -وفـــي أغسطس 1977 أصبح رئيســـًا فخريـــًا للمقاولون العرب لمدى الحياة- كما أصبح رئيســـًا شرفيـــًا لنادي الاتحاد الليبي فـــي 26 فبراير 1970.

لكن كل هذا يبدو عادياً فـي حياة ومسيرة رجل مثل عثمان أحمد عثمان.

وما يهمنا هنا هو علاقة الصداقة المتينة التي جمعت بينه وبين الرئيس المصري أنور السادات.

وحكاية عثمان مع السادات تبدأ عندما كان الاثنان يسكنان متجاورين فـي منطقة الهرم قبل ثورة يوليو 1952، ومن ثم تعارفا وتوطدت العلاقة بينهما لتصبح فـي فترة من الفترات أشبه بالتوأمة. ويؤكد عثمان أنه كان بينه وبين السادات نوع من "التوافق النفسي"، فقد كانا جارين وبينهما "عِشرة عمر".

يقول عثمان: "عندما أُعلنَت أسماء وأعضاء مجلس قيادة الثورة لم أجد فـي الأسماء من أعرفَه إلا محمد أنور السادات الذي عاش خلال مراحله الأولى فترة فـي الإسماعيلية، ثم رأيته فـي بورسعيد عقب العدوان الثلاثي عام 1956. وكنت قد حضرت من السعودية خصيصاً لكي تشارك شركتي فـي تعمير بورسعيد، وذهبت أزوره فـي بيته وفتح لي باب منزله بنفسه وهو يرتدي الجلباب. وكلفني ذات يومٍ بإدخال بعض التعديلات على منزله، وطلب أن نبني فيلا لابنته، ثم طلب بناء فيلا لكريمته الثانية. وتكررت الزيارات العائلية".

وعندما استدعاه السادات لكي يشغل منصب وزير التعمير، قال له: "عثمان أنا عاوزك وزير تعمير عشان أضمن إن كل حاجة تمشي مضبوط".

وهكذا اختير عثمان وزيرًا للتعمير فـي حكومة د. عبدالقادر حاتم فـي 28 أكتوبر 1973، ليظل فـي الوزارة لمدة ثلاث سنوات

عاصر أثناءها ثلاث حكومات متعاقبة. فقد اختير وزيرًا للإسكان والتعمير فـــي حكومة د. عبدالعزيز حجازي فـــي 26 سبتمبر 1974، ثم احتفظ بالحقيبة الوزارية نفسها فـــي حكومة ممدوح سالم فـــي 16 إبريل 1975، إلى أن خرج من الوزارة فـــي نوفمبر 1976.

واللافت للانتباه أن عثمان كان ينتقد جميع أعضاء الحكومات الثلاث التي شارك فيها، حيث قال عنهم: إن عقولهم لم تستطع أن تطوع نفسها لكي تتعلم منه (ويقصد السادات)، سياسة الخط المستقيم التي بح صوته وهو يتحدث عنها. شتان ما بين هذا العملاق الذي لا يخاف إلا ربه ويثق فـــي قدراته وبين هؤلاء الأقزام الذين يخافون من كل رجلٍ ناجح (يقصد نفسه) حتى ولو كانوا هم الذين سيجنون ثمار نجاحه.

والسادات عند عثمان كان "حاجة ثانية"، فقد كان يقول عنه: "هو الإنسان الوحيد الذي عندما يرى أمرًا لا أراه.. لا أملك إلا أن أسلم برأيه"!

وبدا طبيعيـــًا أن يرافق عثمان الرئيس السادات فـــي زيارته الشهيرة للقدس فـــي 19 نوفمبر 1977، والتي يؤكد عثمان أنها وراء استرداد مصر لسيناء. يقول عثمان: "وتحدد موعد زيارته لإسرائيل فـــي نوفمبر عام 1977. وقلتُ له بتلقائية سأذهب معك يا سيادة الرئيس". ويؤيد ذلك ما قالته جيهان السادات قرينة الرئيس المصري لمحاورها أحمد منصور فـــي حلقة برنامج "شاهد على العصر" التي عرضتها قناة الجزيرة الفضائية فـــي 5 مارس 2001: "والله هأقول

لحضرتك، عثمان أحمد عثمان هو اللي قال له عايز آجي معاك، وكان قدامي الحديث".

أما اتفاقيات كامب ديفيد التي وقعها السادات مع رئيس الوزراء الإسرائيلي مناحم بيغن فـ 17 سبتمبر 1978، فهي في نظر "المعلم" عثمان حركة سياسية كبيرة وحركة بارعة من سياسي بارع.

ولا بدَّ من القول إنه عندما دخل عثمان الوزارة، تحول إلى رفيق السادات وشريكٍ له في عددٍ من القرارات الاقتصادية، حتى أن الكاتب الصحفي موسى صبري -رجل السادات المخلص- قال إن الموافقة على أي مشروعٍ اقتصادي كانت تمر من بين أصابع عثمان أحمد عثمان.

وحين كان عثمان بعيدًا عن الوزارة، لم يخل من مناصب أخرى؛ إذ شغل منصب أمين الحزب الوطني بالإسماعيلية في نوفمبر 1978، كما كان رئيسًا للمجموعة البرلمانية بالإسماعيلية عام 1976.

وفي مارس 1979 أصبح عثمان نقيب المهندسين.

وقيل إن الدولة ساندت عثمان في دخول نقابة المهندسين لإجهاض الصوت المعارض للسادات داخلها. وهكذا ظل عثمان نقيبًا للمهندسين لسنوات، وانتخب نقيبًا لفترة ثانية عام 1983.

ولعب عثمان دورًا في التقريب بين السادات و"الإخوان المسلمون" بحكم صداقة عثمان لهم.

ويتعين أن نشير هنا إلى أن "المعلم" أفرد في سيرته الذاتية مكانًا لتفاصيل كثيرة عن علاقته بالإخوان المسلمين، حيث كان

حسن البنا مؤسس الجماعة ومرشدها الأول هو فـــي الوقت نفسه مدرس اللغة العربية والدين فـــي مدرسة عثمان الإسماعيلية الابتدائية، وكان البنا وقتها لم يزل فـــي العشرينيات. هكذا تفتحت عيناه على الرجل الذي قُدِرَ له أن يؤسس جماعة الإخوان المسلمين.

ولعل هذه الصلة بين مدرس وتلميذه تركت أثرها فـــي نفس الصبي، وآتت ثمارها فيما بعد ليرتبط بجماعة الإخوان المسلمين. كان البنا مدرســاً للغة العربية والدين فـــي مدرسة الإسماعيلية الإبتدائية، وكان خال عثمان هو الشيخ محمود حسين من علماء الدين فـــي الإسماعيلية. وقدم شقيقه الشيخ محمد حسين إلى حسن البنا، وتأكدت أواصر الصداقة بين الشيخ حسن البنا وبين الشيخ محمد حسين خال عثمان. وكان حسن البنا يذهب كل يوم بعد صلاة العشاء إلى "مندرة" الشيخ محمد حسين ليبحثا فـــي أمور الدين. وأصبحت الجلسة دائرة المنتدى الديني وحسن البنا يتصدر ذلك المنتدى. وتطورت جلسات المنتدى من "المندرة" لتصبح الإسماعيلية كلها منتدى.

والثابت أن الجماعات الإسلامية فـــي مصر بدأت تظهر بشكل فعال فـــي عام 1972 بعد أن أفرج السادات عن قيادات الإخوان المسلمين بالمعتقلات، وقرر التحول عن التوجه الاشتراكي للدولة. وفـــي حوار أُجري معه بعنوان "النبوي إسماعيل وزير الداخلية الأسبق يكشف لأول مرة: اعتقالات سبتمبر ناقشتها لجنة رباعية.. "أنا والسادات ومبارك وأبو غزالة".. والسادات صاحب القرار"، سئل النبوي إسماعيل: "من أشار على السادات بخروج الجماعات من

السجون؟" فرد قائلاً: "عثمان أحمد عثمان ومحمد عثمان إسماعيل الذي تولى محافظ أسيوط"154.

ويتوقف كثيرون عند اجتماعٍ شارك فيه رؤساء اللجان الدائمة بمجلس الشعب، فـــي أعقاب المظاهرات التي اندلعت بالجامعات احتجاجـــاً على سياسة حكومة د. عزيز صدقي، وكان يتزعم الطلاب قوى اليسار والناصريين؛ إذ كانت تسيطر على اتحاد الطلاب واللجنة الوطنية العليا بجامعة القاهرة.

فـــي هذا الاجتماع اقترح بعض الأعضاء، مثل عثمان أحمد عثمان ويوسف مكاوي ومحمد عثمان إسماعيل، إنشاء تنظيم للجماعات الإسلامية فـــي الجامعات بهدف الرد على جماعات اليسار والاشتراكيين، وبادر بعض أعضاء اللجنة بالتبرع بالأموال اللازمة لإنشاء هذا التنظيم. وتم إنشاء تنظيم شباب الإسلام بجامعة القاهرة وجامعات أخرى، وحظي هذا التنظيم بمساندة صريحة من الأمن واستُخدِمَ لمواجهة وتصفية قوى اليسار.

بدأ تنظيم شباب الإسلام بالقيام بالعديد من الأنشطة داخل الجامعة من معسكرات صيفية وتنظيم لرحلات الحج والعمرة وذلك بتمويل مباشر من الدولة.

وعملت جماعة شباب الإسلام على تغيير بعض أنماط وأشكال الحياة الجامعية، مثل تغيير البرنامج الدراسي ودعوة الطلاب إلى الاشتراك فـــي الأنشطة ودروس القرآن والحديث وفرضت وقف

154 د. ياسر ثابت، فيلم مصري طويل، مركز الحضارة العربية، القاهرة، 2010، ص 154.

المحاضرات والأنشطة الأخرى في أوقات الصلاة، والفصل بين الجنسين في قاعات المحاضرات ومنعت إقامة الحفلات الموسيقية والراقصة وأي صور أخرى للهو داخل الجامعات.

ومن هنا يمكن فهم دور عثمان في التقريب بين جماعة الإخوان المسلمين والسادات.

يقول المرشد العام للإخوان المسلمين عمر التلمساني: "وفي مرة أخرى طلب منا السيد "عثمان أحمد عثمان" وقد كان وزيرًا للإسكان حينذاك أن تلقاه مجموعة منا، فذهبت مع الدكتور أحمد الملط والحاج حسني عبدالباقي والأستاذ صالح أبو رقيق وقابلناه، فرأى أنه من الخير أن نقدم للسادات وجهة نظرنا في الإصلاح كتابة حتى يدرس الأمر في روية وعلى مهل فكتبنا له وجهة نظرنا في تسع صفحات فلوسكاب حملها إليه السيد "عثمان أحمد عثمان". ثم كانت لي مقابلات مع السيد محمد حسني مبارك، وكان نائبًا لرئيس الجمهورية في ذلك الحين. التقيت به في منزله في مصر الجديدة منفردًا مرارًا. ومعي الأستاذ مصطفى مشهور مرات أخرى لبعض استفسارات عن بعض ما جاء بتلك الصفحات التسع"155.

الرئيس السادات قال من جهته في تصريحات مسجلة: "جمعية الإخوان المسلمين غير شرعية زي ما قلت للتلمساني لكن بروح العائلة قلت له روح سجل وخذ الإذن لكن من هنا لهناك خلي الدعوة ماشية بس لا سياسة في الدين ولا دين في السياسة".

---

155 عمر التلمساني، ذكريات لا مذكرات، دار الاعتصام، القاهرة، 1985، ص 61.

وعلى الرغم من أن هذا الظهور بدأ باتفاق الضوء الأخضر الشهير بين الإخوان المسلمين والرئيس السادات الذي حاول الاستفادة منهم فـــي ضرب اليسار، وبالرغم من أن العثمَانيَن اللذين توسطا بالاتفاق -عثمان أحمد عثمان ومحمد عثمان إسماعيل- أبلغا الإخوان بأنه لا موافقة قانونية ولكن سماح بالعمل دون عقبات، فإن الحركة الإسلامية الشابة التي كانت بدأت تموج بها جامعات ومساجد مصر وقتها هي التي جعلت من هذا الضوء الأخضر جماعة حقيقية من لحم ودم، بعد أن كانت الجماعة القديمة قد اختفت أو أوشكت على الاختفاء.

وأفرزت الجامعات المصرية فـــي فترة الاحتضان الرسمي تلك، رموز الجيل الوسيط مثل عبدالمنعم أبو الفتوح وعصام العريان وإبراهيم الزعفراني وحلمي الجزار، خاصة أبو الفتوح الذي يُنسب إليه الفضل فـــي ضم القسم الأكبر من هذه الحركة إلى الإخوان المسلمين التي ضخت الدماء فـــي شرايين وعروق كانت قد جفت تمامــاً. ومع تقدم العمر وحكم الموت كان الوافدون الجدد قد أصبحوا كل جسم الحركة تقريبـــاً.

وحتى عام 1977 كانت الجماعات الإسلامية التي تساندها الدولة ماليـــاً وأمنيـــاً هي الطرف المسيطر على الجامعات المصرية، بعد أن تمكنت هذه الجماعات بمساعدة الأمن من منع أي نشاط للجماعات اليسارية داخل الجامعات، وجرى منع واستبعاد أعضاء تيار اليسار من الانضمام إلى اتحادات الطلاب، وذلك إما بالشطب أو الاعتقال أو التصادم المباشر.

غير أن الطلاق وقع بين الدولة والجماعات الإسلامية فـــي نهاية عام 1977 وتحديدًا بعد زيارة الرئيس السادات للقدس ومحادثات السلام مع إسرائيل، لتبدأ تلك الجماعات رحلة المواجهة مع نظام الحُكم، وعقد مؤتمرات وتوزيع نشرات ضد الحكومة والمطالبة بتطبيق الشريعة الإسلامية.

وبعد اختطاف وزير الأوقاف السابق د. حسين الذهبي من منزله الكائن فـــي منطقة حدائق حلوان جنوب القاهرة، صباح يوم الأحد الثالث من يوليو عام 1977، أصدرت جماعة المسلمين المعروفة إعلاميـــاً باسم التكفير والهجرة بيانـــاً تعلن فيه مسؤوليتها عن الحادث، وحددت مطالب عدة لكي تفرج عن الشيخ المختطف، وهي الإفراج فورًا عن أعضاء الجماعة المقبوض عليهم وكذلك المحكوم عليهم فـــي قضايا سابقة، دفع 200 ألف جنيه مصري كفدية، وأن تعتذر الصحافة المصرية عما نشرته من إساءات فـــي حق الجماعة، وكذلك نشر كتاب شكري مصطفى "الخلافة" على حلقات فـــي الصحف اليومية.ويقول د. محمد الذهبي نجل وزير الأوقاف السابق ما يلي: "فـــي بعض أصدقاء الوالد وزملاؤه يعني أفتكر منهم دكتور اسمه دكتور إبراهيم الخولي وكان فـــي دكتور إبراهيم نجدة كان نائب رئيس جامعة الأزهر وأعتقد يمكن شيخ الأزهر نفسه فـــي ذلك الوقت أعتقد كان الدكتور بيصار (ملاحظة: الإمام عبدالحليم محمود كان شيخـــاً للأزهر آنذاك، وخَلَفه فـــي المنصب وزير الأوقاف الشيخ محمد عبدالرحمن بيصار فـــي عام 1979) أن هما راحوا يعني حسب ما أنا عرفت أن هما راحوا لعثمان أحمد عثمان؛ لأنه كان برضه علاقته بالوالد كويسة أن هما عرضوا أن عثمان أحمد عثمان عرضوا أنه يدفع المبلغ المطلوب. فاللي فهمته أن

رئيس الوزراء في ذلك الوقت قال لهم لا يعني دول شوية عيال وكده وإحنا كله ساعة ولا اثنين وهنمسكهم يعني"[156]!

وهذا يعني ببساطة أن البعض رأى في عثمان بنكًا يمكن أن يدفع فدية مالية لجماعة إسلامية اختطفت وزير الأوقاف السابق.

من هنا، يرى من رصدوا تلك الفترة من عمر مصر أن عثمان ورفاقه أطلقوا قوى إسلامية لمواجهة تيار اليسار، فإذا بالوحش الذي صنعوه يخرج عن السيطرة.

ولعل هذا الأمر يثير في الأذهان سؤالاً له وجاهته ومشروعيته: هل يصلح المقاول في عالم السياسة؟

دعونا نشير هنا إلى واقعة ذات دلالة.

في شتاء عام 1961، كانت شركة عثمان أحمد عثمان تقوم بالأعمال الإنشائية الخاصة ببناء جسم السد العالي، حين بدأت بعض الدسائس الصغيرة تُحاك ضده، ووصلت تلك الدسائس إلى الرئيس جمال عبدالناصر الذي كلّف بدوره المشير عبدالحكيم عامر –الذي كان الإشراف على تنفيذ المشروع ضمن مهامه السياسية الكثيرة آنذاك– بأن يجمع التحريات اللازمة عن سير العمل في السد العالي.

وكتب عثمان أحمد عثمان في مذكراته: "أرسل المشير عامر العديد من رجال المخابرات لاستيضاح الموقف سرًا دون علمٍ مني،

---

156 برنامج "الجريمة السياسية: اغتيال الشيخ الذهبي جـ 1"، قناة الجزيرة الفضائية، الدوحة، 10 مايو 2007.

واذكر أن تقاريرهم كانت أمينةً جدًا ولم تعبر إلا عن الحقيقة وحدها، واستدعاني المشير عبدالحكيم عامر بعد ذلك، ليسألني عن انتظام العمل والمتاعب التي تعترضُ التنفيذ".

انتهز عثمان الفرصة ليشكو للمشير متاعبه مع شركة مصر للأسمنت التي فُرِضَت عليه كشريكٍ -طبقـًا لأقواله- دون أن يكون لها أدنى دور فـي العمل، "وانتهت مقابلتي مع المشير عامر الذي طلب من المهندس علي السيد أن يذهب ليتحقق من الموقف، وكان يشغل منصب مدير الأشغال العسكرية فـي ذلك الوقت، وتولى منصب وزير الإسكان فيما بعد، وتأكد المشير من سلامة موقفـي وأصدر تعليماته بأن ترفع شركة مصر للأسمنت المسلح يدها تمامـًا عن العمل فـي المشروع".

وكانت المشكلة الثانية التي تواجه عثمان أحمد عثمان ولم يحسمها غير تدخل المشير عامر شخصيـًا تتعلق باقتراح من الخبراء الروس وافق عليه وزير السد العالي موسى عرفة بتأجيل موعد تنفيذ المرحلة الأولى من السد العالي لمدة عامين!

ذهب عثمان لمقابلة الرئيس عبدالناصر الذي كان مشغولاً باستقبال الرئيس اليوغوسلافـي يوسيب بروز تيتو، وأشار عليه محمد أحمد السكرتير الخاص لعبدالناصر بأن يذهب إلى المشير عامر. وما جرى بعد ذلك يرويه عثمان أحمد عثمان على النحو التالي:

"وذهبت إلى مكتب المشير عبدالحكيم عامر وطلب مني أن أتوجه أولاً لمقابلة صلاح نصر مدير المخابرات العامة، لكي أضع أمامه

صورةً كاملةً عن الموقف، واتجهت إلى صلاح نصر فـــي مكتبه، وطلبت مقابلته، وكانت أول مرة أطلب فيها مقابلة صلاح نصر، وأسجل بصدق أنني لمست فيه لأول وهلة الصدق والرجولة، ورويت له القصة من أولها إلى آخرها. وكان أن اتسع صدر الرجل، وسمع كل كلمة باهتمام شديد عندما رددت على مسامعه ما قلته لـــ "محمد أحمد": أريد أن أعرف منكم عما إذا كان المقصود من السد العالي الطنطنة أم تحقيق إنجاز جماهيري حقيقي لصالح الشعب".

وكان تعليق صلاح نصر لعثمان أحمد عثمان: إن لم نكن نريد الانتهاء من السد العالي فماذا نريد؟!

وطلب صلاح نصر من عثمان أن يتركه لبعض الوقت حتى يتمكن من أن يبحث عن حل لذلك الموضوع. وبعد أسبوع بالضبط استدعى عبدالحكيم عامر المهندس عثمان، وكانت المرة الثانية التي يلتقي فيها عثمان المشير.

وعما جرى فـــي هذه المقابلة، يقول عثمان أحمد عثمان: "رويت له قصتي مع السد العالي، والروس من الألف إلى الياء، وأكدت له عدم وجود أي مبرر لتأجيل موعد الانتهاء من السد العالي فـــي عامين، وطلبت منه نصف مليون جنيه عملة أجنبية لكي أشتري بها بعض المعدات اللازمة للعمل فـــي المشروع، لضمان التنفيذ فـــي الموعد المحدد دون تأجيل، وقلت له:

– ألا تريد الدولة أن توفر مئتين واثني عشر مليون جنيه مقابل دفع مليون جنيه؟!

وضحك المشير وداعبني قائلاً:

وإذا لم تنته فـي الموعد المحدد.. ما العمل فيك؟!

قلت: لن تجدوا أنفسكم أمام ذلك السؤال فـي يومٍ من الأيام!

ونظر إليّ الرجل نظرةً ذات معنى، وكأنه أراد أن يقول لي شيئـًا، ولكن قبل أن يقول بادرت قائلاً:

– إذا كان هناك "سد عالي" آخر مطلوب الانتهاء منه فـي نفس الموعد فأنا ملتزم ومستعد"!

ويتابع عثمان سرد ما جرى فيقول: "وجدت أسارير المشير تنفرج وبدت عليه سعادة غير عادية، وكانت سعادة المشير سببـًا فـي أن يعرض عليَ أن أتولى منصب وزير السد العالي. وعرفت من المشير أن ذلك العرض لم يكن وليد المقابلة السريعة ولكن كان بعد أن بعث إلى موقع العمل بعد مقابلتي لـ"صلاح نصر" برجال المخابرات من مختلف الأجهزة وكتبوا تقاريرهم، وكانت مطابقة للحقيقة تمامـًا. وكان أن احترمت صلاح نصر من ذلك الوقت وعرفت أنه رجلٌ له مواقف.

"وأذكر أنني قلتُ للمشير ردًا على عرضه وقتها إن الوزارة ليست هدفـي، ولا أسعى إليها، وكلفوني على قدر ما تستطيعون بتنفيذ مشروعات، وستجدونني على مستوى ما يُطلبُ مني دائمـًا. أنا أنفعكم كمقاول، ولا أنفع مصر إلا كذلك يا سيادة المشير".

اقتنع المشير عامر برأي عثمان، واتصل بوزير الاقتصاد الدكتور عبدالمنعم القيسوني وطلب منه أن يصرف له العملات الصعبة التي يحتاجها لشراء ما يلزم من معدات. وبالفعل انتهى العمل في المرحلة الأولى من السد العالي قبل الموعد الذي كان محددًا.

ويقول الكاتب الصحفي صلاح عيسى إنه "من سوء الحظ أن عثمان أحمد عثمان عدل عن هذا التقييم المنصف لنفسه، وللآخرين فيما تلا ذلك من سنوات، ولو أنه تمسك به، لما ترك ما يتقنه، إلى ما لا يعرف فيه، ولما خاض عباب السياسة، وزيرًا ونائبًا لرئيس الوزراء وقطبًا من أقطاب الحزب الحاكم، ليصبح في السنوات الأخيرة من حُكم الرئيس السادات -أقرب الناس إلى قلبه، وأكثرهم تأثيرًا فيه، وأقواهم نفوذًا في بلاطه، على نحو استثار ضيق كثيرين ممن كانوا يحيطون بالرئيس، كانوا يعتقدون عن حق -أن تأثيره كان سلبيًا، وإن ما كان يقنعه به من آراء في السياسة العامة، كان يفتقد للحصافة، أو على الأقل يصدر عن رجل لا خبرة له بهذه الأمور، ولا علم له بها، فهو قد يكون مقاولاً عظيمًا، لكن تفكيره السياسي لم يكن يزيد على تفكير عوام الناس، فضلاً عن هذا فقد كان نفوذ عثمان الكبير في بلاط السادات من الأمور التي أثارت الريب حول نزاهة الحكم، حتى شاع مصطلح الدولة العثمانية على ألسنة الناس في تلك السنوات تعبيرًا عن الشك في أن الصلة القوية بين الرجلين، تخفي في ثناياها نوعًا من التربح من المال العام، وهي كلها أقاويل، لم تثبت بعد ذلك صحتها"157.

157 صلاح عيسى، كلٌ مُيسر لما خلق له، مجلة "الأهرام العربي"، القاهرة، 29 سبتمبر 2007.

وبعد السد العالي، دخل عثمان مرحلة حائط الصواريخ بتكليف مباشر من الرئيس السادات.

يقول عثمان "إن ميزانية المشروع كانت أربعين مليونـًا.. وعندما كلفني بها الرئيس طلب مني إنجازها في شهرين فقط وحذرني من أن يضرب اليأس نفسي؛ لأن الإسرائيليين لن يتركوني أنهي عملي.. ومع ذلك انتهى العمل في أقل من الزمن الذي كان محددًا سلفـًا.. ورغم كل الصعوبات التي واجهتنا التي كان أقلها ضربات الجيش الإسرائيلي التي أسقطت من كتيبة المقاولون العرب ما يقرب من خمسمائة شهيد".

وكانت إسرائيل تقصف هذا المشروع الضخم بإصرار، حتى أنها هدمت القواعد أكثر من خمس مرات بعد بنائها، وفي كل مرة تعجن مواد البناء بدم القتلى، إلى أن بنيت دشم الطائرات وقواعد الصواريخ على امتداد الجبهة كلها.

شهادة الكاتب الكبير أحمد بهاء الدين تلقي مزيدًا من الضوء على صداقة الرجلين:

"كنتُ قد كتبتُ خطاب السادات الذي كان سيلقي في السويس وقتها وبعد أن عدت من الإسماعيلية استمعت إلى السادات وهو يلقي خطابه ولم يغير حرفـًا واحدًا فيه ولم يقدم كلمة ولم يؤخر أخرى، ولكنه غيَّر شيئًا واحدًا فقط، ففي الحديث عن مشاركة كل العمال من خلال كل شركات المقاولات في بناء حائط الصواريخ

غيَّر الرئيس هذه الجملة وقصر الفضل فيها على ذكر شركة المقاولون العرب وعمال المقاولون العرب عثمان أحمد عثمان"158.

فــي تلك الفترة، احتاج السادات جهود عثمان كي يتخلص من رجال ونفوذ عبدالناصر، وقرّبه إليه كي يساعده فــي تعمير مدنه المهجرة وبناء مدن جديدة، مثل مدينة العاشر من رمضان، ومدينة السادات، ومدينة الملك خالد، ومدينة العبور، ومدينة 15 مايو. كما كان السادات فــي حاجة لعثمان كي يتولى توسعة قناة السويس بعد تطهيرها من الألغام، بهدف استثمارها كممر رئيسي للملاحة الدولية

والعلاقة بين السادات وعثمان أحمد عثمان -نجم الانفتاح الكبير- يطول شرحها، لكنها وصلت فــي مرحلة من المراحل إلى علاقة مصاهرة، بعد أن تزوج نجله محمود عثمان من جيهان ابنة السادات فــي 2 يناير 1977.

واستقر فــي ذهن الجميع أن عثمان هو رفيق السادات فــي رياضة المشي اليومية -كان السادات يمشي لمدة ساعتين يوميــاً- ومستشاره وصهره، وصديقه الذي لا يطيق فراقه، فإذا اختفى من مجلسه سأل عنه بإلحاح وقلق، شأن من يشعر بأن شيئًا منه ينقصه.

ويرى الكاتب الصحفــي محمد حسنين هيكل "إن أكبر إنجاز لعثمان كان فــي الطريقة التي وثّق بها علاقته وصداقته بالسادات، حتى أصبح كل شيء فــي حياته الشخصية والسياسية". أما موسى صبري فيذهب إلى القول بأن عثمان وصل إلى قلب الرئيس؛ لأنه ابن

158 أحمد بهاء الدين، محاوراتي مع السادات، دار الهلال، القاهرة، 1987.

بلد لا يتكلف الكلام المنمق، بل يتحدث بتلقائية وبساطة ويبدي للرئيس آراءه بلا تكلف، ومعنى ذلك أن عثمان كان يخاطب الجانب السطحي فـي شخصية السادات الذي لم تكن له طاقة على دراسة الأمور، أو التعمق فـي التفاصيل.

فـي هذه الأثناء، كبرت شركة "المقاولون العرب" وتضخمت، وتحولت إلى ما وصفه ديفيد هيرست مراسل صحيفة "غارديان" البريطانية إلى "شركة الوزراء"؛ إذ كان يعمل لدى عثمان فـي وقت من الأوقات –حسب قول الجريدة البريطانية– 30 وزيرًا ومستشارًا ومحافظـًا ومسؤولاً، شغلوا مواقع حساسة.

جاء ذلك فـي وقتٍ جمع فيه عثمان بين منصب عضو البرلمان ونائب رئيس الوزراء، وأصبح "إكسلانس"، كما سماه ذات مرةٍ توفيق عبدالحي، الذي اتهم بالتربح من بيع طيور جارحة ودواجنَ منتهية الصلاحية لمعدة المصريين.

من جهته، رأى عثمان أنه يستفيد من خبراتٍ وكفاءات معينة ليس ذنبها أن أصحابها كانوا وزراء ومحافظين. والشيء المؤكد أن "المقاولون العرب" مع مجيء السادات للحكم وصدور القانون رقم 43 لسنة 1974، تحولت إلى شركة متغلغلة فـي مختلف المجالات الاقتصادية، من المقاولات إلى الاستثمارات والمنتجات الخشبية والعمل المصرفـي والمواد الغذائية.. إلخ.

لقد خرج المارد من القمقم.. ولم يعد بمقدور أحدٍ إعادة عقارب الساعة إلى الوراء.

3

عثمان والسادات:

"اضربهم بالجزمة يا ريس"

بدهاء يُحسدُ عليه، تحرك عثمان فـــي المساحات الفارغة، حتى تمكن من تحريك بيادقه إلى الأمام على رقعة شطرنج الوطن.

وبسلاسة، استيقظ المصريون على حقيقة أن "المهندس عثمان" أصبح أحد أفراد الدائرة الضيقة لصنع القرار، فـــي بلد كانت تتبدل فيه الخرائط الاجتماعية والاقتصادية والسياسية وتنقلب رأســـًا على عقب، لتقود طبقة المُلاك ورجال المال والأعمال الجدد أغرب عملية استيلاء على مقدرات الدولة والمجتمع.

وفـــي سبعينيات القرن العشرين، التي شهدت سطوع دور عثمان السياسي ونفوذه، بدا أن مصر تنتقل من موقعٍ إلى موقع ومن بنية اقتصادية واجتماعية إلى بنية اقتصادية واجتماعية أخرى، عبر علاقة محرمة شرعـــًا وقانونـــًا بين رجال المال الجدد ورموز الحكم والإدارة.

كان حِلفُ الدولة ورجال المال يعلن كل يومٍ عن مجدٍ جديد، والناس يرزحون تحت وطأة أزمةٍ جديدة.

أبواق الإعلام التي تدور في فلك النظام تتحدث عن أخبارٍ ترفع الرأس.. والشعب يعاني من أوضاعٍ ترفع الضغط.

ومع رياح التغيير.. تغير موقع عثمان أحمد عثمان.

يقول د. جلال أمين إن "من أبرز الأمثلة على الفارق بين نظام الحكم في السبعينيات ونظام الستينيات ما طرأ على مركز عثمان أحمد عثمان وشركته "المقاولون العرب" في الاقتصاد المصري وعلى علاقته بالدولة، كان عثمان أحمد عثمان في ظل عبدالناصر يبدو مع كل قوته وثرائه، كالموظف الذي يتلقى الأوامر من رئيس الدولة، ويخشى أن يفقد رضا الدولة عنه، فأصبح في ظل أنور السادات، وكأنه شريكٌ أساسي في الحُكم، يوجه النظام ويعطي النصائح التي يستمع إليها الرئيس، ويستجيب لها برضا كامل إلى درجة التزاوج من الأسرتين"159.

وعثمان في رأي فريقٍ من معاصريه، رجلٌ مثير غامض، يبتسم في وجهك مؤكدًا أنه مجرد "رجل بسيط مؤمن بالله والوطن"؛ ثم يخشع ويحرك حبات مسبحته حين يتحدث عن رسالته التي هي رسالة كل مخلوقٍ على وجه الأرض: عمارة الكون، أي تعميره.

159 د. جلال أمين، كيف نشأت وتطورت الدولة الرخوة في مصر؟ (2-4) رخاوة السبعينيات، جريدة "المصري اليوم"، القاهرة، 8 مايو 2007.

وفـــي ظل ما أطلق عليه أحمد بهاء الدين وصف "انفتاح السداح مداح"، وقعت ثلاث ظواهر مهمة، فقد انتشرت الرأسمالية العائلية، واختلطت السياسة بدوائر المال والأعمال، وبالتالي تطورت أشكال الفساد وآلياته.

وربما كانت مجموعة (عثمان أحمد عثمان) هي الأكثر تعبيرًا عن هذا التغيير، فقد انتقلت المجموعة (وليست الشركة) من قطاع المقاولات والتشييد إلى قطاعات متعددة أخرى، بينها قطاع المصارف، حيث دفع المهندس عثمان أحمد عثمان لإنشاء سلسلة البنوك الوطنية وبنك المهندس وبنك قناة السويس، وكلها ظهرت أسماؤها في قضية نواب القروض.

منتقدو عثمان تحدثوا أيضـــًا عن رأسمالية العائلة، فقد أشار د. محمود القاضي إلى أن الشركات التي كوَّنها عثمان ذات سمة عائلية فضلاً عن عدم قانونية تشكيل مجلس الإدارة في شركة "المقاولون العرب"، حيث قال: "إن شركة المقاولون العرب تعتبر شركة عائلية حيث إن رئيس الشركة حسين عثمان شقيق الوزير، وصلاح حسب الله ابن شقيقته، وعباس صفي الدين زوج ابنة أخيه محمد عثمان، ويحيى أبو الغيط زوج ابنة الوزير، ومحمد رفعت زوج ابنة أخيه محمد عثمان..."[160].

ونضيف فنقول إنه وفقـــًا لسجلات عام 1980 كان مجلس إدارة "المقاولون العرب" يضم أيضـــًا: محسن أبو جبة (زوج ابنة شقيقة

---

160 د. محمود القاضي، البيوت الزجاجية، دار الموقف العربي، القاهرة، 1981، ص 229.

عثمان)، وحسن ناصف (ابن خالة عثمان)، وأدهم زاهر (زوج ابنة شقيقته)، وسامح حسب الله (ابن شقيقة عثمان)، وعادل أيوب (ابن شقيقة عثمان)، إضافة إلى صديقين مقربين لعثمان هما محمد حلمي عبدالمجيد ومحمد محمود[161].

مجلة "فورتشن" الأميركية وضعت عثمان أحمد عثمان في الترتيب رقم (65 مكرر) ضمن قائمة عام 1988 لأغنى أغنياء العالم، بثروةٍ قدرها 1.5 مليار دولار، ووصفته بأنه "أكبر البنائين في مصر منذ عصر الفراعنة"[162].

ولعل عثمان أحمد عثمان هو أول ملياردير في مصر، على الأقل وفق الأرقام الرسمية المعلنة والموثقة في مجلات مالية متخصصة. وربما لم ينافسه على أسبقية اللقب سوى مصريين جمعوا ثروتهم في الخارج، أشهرهم محمد عبدالمنعم فايد -المعروف باسم محمد الفايد- مالك متجر "هارودز" سابقاً ونادي فولام لكرة القدم في بريطانيا، والمولود في 27 يناير 1933.

وأنشأ المهندس عثمان أحمد عثمان -الذي كانت مجلة "فوربس" تورد اسمه طوال فترة رئاسة السادات ضمن قائمة أغنى أثرياء العالم- شركاتٍ خاصة ملحقة بالمقاولين العرب، وتحتل بعض مواقع ومكاتب الشركة الأم وتنقل ثمرات "المقاولون العرب" لجيوب غير حكومية.

---

161 محمد حسنين هيكل، خريف الغضب، ص 336.

Fortune, The 1988 Billionaires Ranked by Assets, 12 September 1988. 162

هنا يقول الكاتب الصحفي محمود المراغي في مقال نشره الموقع الإلكتروني لجريدة "الشعب" في أكتوبر 2002: "وبنفوذٍ خاص جرى احتلال المناصب والمواقع المختلفة، ثم حدث الصدام المكتوم بين المجموعة وجهاز الرقابة الإدارية الذي تم إنشاؤه في الستينيات وجرى تجميده (أو إلغاؤه) بقرار من الرئيس السادات عام 1980، واستمر التجميد لمدة عامين حين أعاد الرئيس مبارك الجهاز للحياة، وإن كان السؤال ظل معلقاً: أين ذهبت أوراق الرقابة الإدارية؟".

وفي كل الأحوال، فقد حرص عثمان حتى قبل توليه الوزارة على تعزيز علاقاته مع الوزراء وكبار المسؤولين. ومن ذلك أنه طرح في مطلع السبعينيات مشروعاً في ميدان الحجاز بحي مصر الجديدة لبناء عماراتٍ من ثلاثة أدوار ببدروم خاص، ثمن كل منها عشرين ألفا بالتقسيط المريح، فكان للوزراءِ -باستثناء قلة بينهم وزير الأوقاف عبدالحليم محمود- نصيبُ الأسد من هذا المشروع.

ويتحدث د. جلال أمين عن عثمان أحمد عثمان، المقاول الذي بدأ مسيرة صعوده في عهد عبدالناصر، وواصل تألقه في عهد السادات. وينال عثمان بعضاً من سهام المؤلف، الذي يرى أن فهمه لمعاني الوطنية والانتماء والإيمان والعمل والإخلاص والثروة، كان أقرب إلى فهم السادات منه إلى عبدالناصر، وقد كان الأخير يفهم هذه المعاني في أبعادها وأطرها الاجتماعية، أما السادات فقد فهمها بمنطق فردي، بما تضيف إليه شخصياً وما تحققه له من منفعةٍ ذاتية163.

163 د. جلال أمين، شخصيات لها تاريخ، دار الشروق، القاهرة، 2008.

على أن هناك من يرى أن أحد أبرز أسباب التحول الاقتصادي فـــي عهد السادات هو ذلك الاقتراب بين الرئيس وأصهار ينتمون للطريق الرأسمالي ولقطاع الأعمال، مثل عثمان أحمد عثمان وسيد مرعي وأحمد عبدالغفار.

ويلاحظ أحمد بهاء الدين أن السادات كان ينظر إلى عثمان كأنه عثر على توأمه وشقيق روحه. ومن بعد نسب الأرواح، تم نسب وشائج الدماء ليتزوج محمود ابن عثمان الأكبر بجيهان صغرى بنات أنور السادات.

وإذا كانت اختيارات الرجلين -اللذين كانا ينتميان للجيل نفسه وللطبقة نفسها- قد اختلفت فـــي مرحلة البداية، فاتجه عثمان إلى عالم المقاولات، واتجه السادات نحو العمل الوطني، فإن السادات وعثمان بلغا طوال عقد السبعينيات نقطة الوفاق والاتفاق. وهنا يطرح صلاح عيسى تساؤلاً مشروعـــًا؛ إذ يقول: "فهل اكتشف السادات فـــي كهولته أنه أخطأ حين أصبح ثائرًا ولم يواصل السير فـــي طريق المقاولات، وآمن بأن المقاولين ينفذون ما يعجز الثوار عن تنفيذه من أحلامهم؟ وهل اكتشف عثمان أنه أخطأ حين لم يسع هو وأمثاله من المقاولين للحكم مع أنهم ينفذون أكثر مما يتكلمون بل دون أن يتكلموا؟! الغالب أن ذلك هو ما حدث"164.

لم تكن تلك المرة الوحيدة التي يتحدث فيها أحد عن تبادل الأدوار بين عثمان والسادات.. أو بين المقاول والرئيس.

---

164 صلاح عيسى، مصدر سابق.

ففــي حوار صحفي، يقول نقيب الصحفيين المصريين سابقــاً كامل زهيري: "وقد رفضت طلبــاً بتأييد السادات حرصــاً على استقلال النقابة وتخوفــاً من نكوصه، ورغم ذلك فقد بلغني أنه فــي زيارته لإحدى مدن القناة فــي أحد مؤتمرات الحزب سألوه عن النقابة فقال: آه ما أنا قلت نحولها لناد. ومثلما كان للسادات عيون علي فقد كانت لي عيون عليه أيضــاً، وكان لي زملاء صحفيون فــي الرئاسة كان منهم فتحي رزق، وطلبت منه أن يصف لي ما دار هناك فقال لي إنه ظل يمشي مع عثمان أحمد عثمان؛ ثم دخلا غرفة للاستراحة فطلبت وصف الغرفة، فقال لي إن الغرفة كان بها سريران سفريان تمددا عليهما وتحدثا بعد فترة رياضة المشي.. فقلت: يعني هناك رئيس يريد أن يكون مقاولاً، ومقاول يريد أن يكون رئيســاً"165.

نموذجٌ يرشحه البعض لرصد إخفاق معادلة المقاول والرئيس، تمثلَّ فــي مشروع الصالحية.

فقد أقنع عثمان صديقه الرئيس بمشروع الصالحية لتعمير الصحراء. والصالحية الجديدة التي تقع فــي مركز الحسينية بمحافظة الشرقية، كانت نواة لمشروع استصلاح كان مخططــاً لها منذ أيام عبدالناصر، لكن المشروع ظل يحبو حتى انطلق فعليــاً فــي عام 1979. فقد اصطحب عثمان السادات والكاتب أحمد بهاء الدين فــي طائرة ليريهما الأرض على الطبيعة، وإن كان عثمان لم يذكر

165 ماهر حسن، نقيب النقباء كامل زهيري: حرية الصحافة هي الحل.. وهذه نصيحتي لمكرم، جريدة "العربي الناصري"، القاهرة، 3 ديسمبر 2007.

الكاتب الكبير بكلمة واحدة في حكاية الصالحية. وفي الطائرة ذهل السادات بما نهب من أموال الدولة على أرض الصالحية التي أُنفقَ عليها ما يقرب من 630 مليون جنيه ولم يُستصلَح منها سوى 1% فقط. هنا ردد السادات مقولته الشهيرة: "أخيرًا وجدنا نقطة البداية لحل مشكلاتنا وسنحصل على كفايتنا من الطعام عام 1985"، وافتتح مشروع "الثورة الخضراء"، وعيَّن حسين عثمان –شقيق المهندس عثمان– مشرفًا على المشروع بدرجة نائب رئيس وزراء.

وبينما يقول فريقٌ إن شركة "المقاولون العرب" تسلمت الأرض وحوَّلتها إلى أرضٍ مستصلحة زراعيًا وإنها نجحت في المشروع الزراعي وملحقاته من الإنتاج الحيواني ومحطات الألبان ومشروعاته ومحطات الدواجن الضخمة، إلى أن بدأ ضربها في 1988 بعد ضمِّها إلى وزارة الزراعة، حتى وصلت إلى مستوى يسمح ببيعها بثمن.. يصر فريقٌ آخر على أن المشروع لم يحقق النتائج التي كانت متوقعة، وأنه كبَّد الدولة خسائر مالية تقدر بملايين الجنيهات.

ومن هؤلاء المنتقدين وزير الإسكان والتعمير الشهير المهندس حسب الله الكفراوي، الذي قال في حديث صحفي إن "مشروعِ الصالحية فاشل ولم –ولن– ينفع حتى الآن"، وأضاف موضحًا "لأن رفع المياه فيها مكلف، والتربة ليست الأفضل وتوجد مناطق أفضل منها.. ولو كنت "مزنوق" وليس أمامي سوى هذا الموقع ربما كنتُ تقبلت الأمر، ولكن لو كان لديّ خيارات أخرى أفضل، إذًا هناك خطأ ما.. وهذا المشروع درسته شركة المقاولون العرب"[166].

166 رانيا بدوي، حسب الله الكفراوي وزير التعمير الأسبق "2–2": إذا أراد الله خيرًا ببلد.. هيأ له مجموعة خير حول الحاكم، جريدة "المصري اليوم"، القاهرة، 23 مارس 2008.

كان هذا طبعـــًا قبل أن يبيع هذه المشروعات لاحقـــًا وزير الزراعة د. يوسف والي، بأقل من 326 مليون جنيه، بالرغم من أنها تكلفت مليارًا و900 مليون جنيه.

ويردد البعض أنه بعد استيلاء الحكومة على المشروع جاء أحد الخبراء الأجانب لزيارة المشروع، فقال تعليقـــًا ظريفـــًا مفاده أنه "أثناء وجود "المقاولون العرب" كانت الأرض خضراء واللافتات صفراء، أما بعد ذلك أصبحت الأرض صفراء واللافتات خضراء". والأرض الخضراء تشير إلى الإنتاج والمحصول، أما اللافتات الصفراء فهي تشير إلى شعار "المقاولون العرب". ولاحقـــًا، فإن الأرض الصفراء تشير إلى الخراب مع اللافتات الخضراء التي ترمز إلى شعار وزارة الزراعة.

ولم تكن الصالحية المشروع الوحيد الذي تبناه عثمان وأثير حوله الجدل. القائمة تشمل أيضـــًا مشروع إنشاء مزرعةٍ سمكية فـــي مريوط، وغيرها من المشروعات الخاسرة.

وكان لعثمان رجاله فـــي عالم المال والأعمال والسياسة.

ومن هؤلاء توفيق عبدالحي –الهارب من مصر منذ اتهامه بأنه "تاجر الفراخ (الدجاج) الفاسدة"– والذي أجرت معه جريدة "الشرق الأوسط" حوارًا فـــي قصره فـــي مدينة أنتويرب البلجيكية.

جاء فـــي الحوار ما يلي:

"* كنت تُصنَفُ قبل خروجك من مصر باعتبار أنك من المقربين للمهندس عثمان أحمد عثمان أنك "فتى التنمية الشعبية المدلل"، ومن خلال ذلك حصلت على الكثير من التسهيلات؟

– كنت أمثل الجانب المعارض داخل الاتحاد القومي أو الاتحاد الاشتراكي، وكان هناك كثير من الاعتراضات على سياسة الحكومة كنا نبلغ بها "المعلم" عثمان، وبعد هزيمة 67، حدث تغير فـــي عمل "التنظيم الطليعي" التابع للاتحاد الاشتراكي، وكنت على رأس المظاهرات عام 1968 كما ذكرها محمد حسنين هيكل فـــي كتابه "خريف الغضب"، التي طالبت بمحاكمة المسؤولين العسكريين الذين تسببوا فـــي النكسة".

"* كيف كانت علاقتك بالمهندس عثمان أحمد عثمان وزير التنمية الشعبية وصهر السادات؟

– أنا الذي كنت أقوم بكل شيء، وكثيرًا ما كنت أبلغه عن اعتراضات الشباب عن سياسات معينة انتهجها السادات، ولكن افترقت مع عثمان بعد أن أشيع أنني ناصري حتى النخاع، ومن ضمن تلك الاعتراضات ما نشرناه أيام عبدالناصر فـــي "صوت الجماهير" مقال بعنوان "أهل الثقة أم أهل الخبرة"، وأيام السادات قدنا أول منبر ديمقراطي، ضد سياسات الاتحاد الاشتراكي، وضد رئيس الجمهورية، ولا أنكر أن عثمان كان يقلل كثيرًا من حدة المواجهات مع الحكومة"167.

167 توفيق عبدالحي المليونير المصري الهارب منذ 20 عامـــا لـــ"الشرق الأوسط": لم يمت أحد من أبناء المصريين من "الفراخ الفاسدة"، جريدة "الشرق الأوسط"، لندن، 3 مايو 2001.

امتدت علاقة عثمان مع السادات لتضع تحت مظلتها السلطة الرابعة: الصحافة.

فقد كان عثمان صديقـاً مقربـاً ومؤثرًا فـي عقل ومواقف رئيس مجلس إدارة "الاهرام" سابقـاً عبدالله عبدالباري، الذي لم ينس لعثمان أنه لم يتخل عن أسرة عبدالباري طوال فترة اعتقاله فـي السجن بعد إدانته بتهمة لقائه بأحمد أبو الفتح صاحب جريدة "المصري" فـي الخارج.

وتحكي الكاتبة الصحفية سناء البيسي كيف استقبلها السادات هي وعدد من الصحفيين ذات يومٍ فـي استراحته بالإسماعيلية. وتقول: "ويومها فـي تجوالنا وقعدتنا وطعامنا وشرابنا وضحكاتنا وإنصاتنا ظل علي يمينه عثمان.. عثمان أحمد عثمان.. مؤانسـاً موافقـاً مداعبـاً مقرظـاً مرابطـاً مستشارًا وخبيرًا.. ويومها تجول السادات بعينيه فينا يستشف جوهرنا نحن مجموعة الصحفيين والكتاب الذين وقع اختياره علينا لتحقيق حلمه فـي إصدار جريدة "مايو" التي أسند رئاسة تحريرها للكاتب الصحفـي القدير إبراهيم سعدة.. وبعدما اطمأن إلى حسن اختياره مال على عثمان ليقول له بصوتٍ مدو كان رَجعُه فـي آذاننا زغاريد موكبِ العروس القادم: أنا رأيي يا عثمان إنك تبني لكل واحد منهم فيلا بجنينة.. سامع يا عثمان.. وسمع عثمان ساعتها، لكنه لم يسمع بعدها، فهناك أوامر يصدرها الناس الكبار لها نفس وقع إمضاءاتهم على نوعية من الطلبات يذيلونها بعبارة للأهمية ليتعرف عليها طاقم التنفيذ كي تنام

فـــي عسل رفوف الأرشيف، والظاهر أن جملة سامع يا عثمان كانت من تلك الفصيلة"168!

وفـــي السياق نفسه، تأتي شهادة الكاتب محمود السعدني حول وساطة عثمان لدى السادات ليعفو عن السعدني ويسامحه بعد هجومه عليه من المنفى لسنوات عدة؛ إذ قال له السادات: "خلاص يا واد يا محمود والله ما فـــي حاجة فـــي نفسي من ناحيتك أبدًا.. ارجع يا وله وكل شيء ح ينحل ووعده بالعودة". وكانت المرة الوحيدة التي تدخل فيها عثمان بالحديث عندما قال الرئيس أنور السادات لمحمود السعدني: "بس أنت لسانك وسخ يا وله وعاوز قطعه".. فعقب عثمان قائلاً: "ده يستاهل قطع رقبته".. وضحك، فقال محمود له بحدة: أنت ما تشتمش خالص يا عم عثمان؛ اللي يشتم الرئيس وبس"!.. وضحك السادات وتم الصلح169.

حتى الفن، كان عثمان رسول السادات إلى أهله.

يحكي الفنان نور الشريف كيف علم بأن الرئيس السادات غضب منه ذات مرة، فيقول: "حدث ذلك بسبب مسرحية "بكالوريوس فـــي حُكم الشعوب" التي عرضت قبل إعلان عودة تعدد الأحزاب، فالمسرحية كانت ضد الحُكم العسكري فـــي دولة ما، وفوجئت بالراحل عثمان أحمد عثمان يقول لي "الرئيس السادات زعلان منك؛ لأنك تسخر منه فـــي مسرحيته"، وطلب مني عرض المسرحية فـــي قصر عابدين، فقلت له "لا المسرح صغير ولا يوجد به تكييف..

168 سناء البيسي، عثمان أحمد عثمان.. المعلم، جريدة "الأهرام"، القاهرة، 30 أغسطس 2008.

169 مجلة "المصور"، القاهرة، 7 مايو 1999.

ووقت ما يحب الرئيس هنعرض المسرحية في أي مسرح آخر تحت أمره".

"وبعد ساعة وجدت الوزير عثمان أحمد عثمان يقول لي إن مجلس الشعب كله سيحضر العرض اليوم في المسرح نفسه؟ وكان المجلس كله برئاسة صوفي أبو طالب في العرض يومها، وكان أول يوم أقابل فيه منصور حسن وزير الإعلام. ويومها سألني الممثلون في العرض "هنغيَّر حاجة في النص؟".. فقلت لهم "ولا كلمة؛ لأننا مش بنقول حاجة غلط"، وبعد العرض كنت أتصبب عرقًا وخائفًا جدًا، إلا أن الترحيب والتصفيق شجعاني"170.

دعونا لا ننسى أن "المعلم" الذي تمتع بعلاقات واسعة في صفوف أهل الفن، سمح لصديقه نور الشريف بتصوير فيلمه "قطة على نار" (بطولة بوسي ونور الشريف وفريد شوقي، إخراج سمير سيف، إنتاج عام 1977) في عزبته الخاصة.

ويذكر لنا التاريخ القريب التطور الدرامي لصعود المستشار أنور عبدالفتاح أبو سحلي (1919 - 11 يناير 2000)؛ إذ إنه حين توجه عثمان إلى القاهرة بعد حصوله على الابتدائية ليكمل دراسته، التحق بالقسم الداخلي بالمدرسة السعيدية، والتقى في هذه المدرسة زميله الصعيدي أنور عبدالفتاح أبو سحلي. وكان أبو سحلي ينتمي إلى عائلة إقطاعية تأثرت بالإصلاح الزراعي فأُبعدَ عن مناصب القضاء، وعمل لفترة مستشارًا قانونيًا لدى شركة "المقاولون العرب".

---

170 هدى رشوان، نور الشريف لـ"المصري اليوم": نحن في زمن خالٍ من الرموز وأرفض منصب وزير الثقافة، جريدة "المصري اليوم"، القاهرة، 24 سبتمبر 2008.

وبوساطة من عثمان أحمد عثمان أعيد إلى القضاء، ليصبح رئيس محكمتي شمال وجنوب القاهرة عام 1977 والنائب العام فـي عام 1978، ووزير العدل فـي العام التالي. وأثناء رئاسته محكمة جنوب القاهرة، تفرغت هذه المحكمة وهذا القاضي للإجهاز على جريدة "الأهالي" التي يصدرها حزب التجمع المعارض، ومصادرة أعدادها الواحد تلو الآخر.

ويأخذ كثيرون على عثمان أنه كان أحد الذين لا يكفون عن تحريض السادات ضد خصومه السياسيين فـي كل المناسبات؛ إذ تعود أن يقول له كلما تطرق الحديث إلى المعارضين، سواء كانوا أفرادًا أم أحزابـًا أم دولاً، "اضربهم كلهم بالجزمة يا ريس".. ويبدو أن تلك هي النصيحة التي استمع إليها السادات، حين أمر بشن حملة اعتقالات سبتمبر 1981 ضد خصومه من مختلف الأطياف والاتجاهات السياسية والفكرية والدينية.

يقول نقيب الصحفيين الأسبق مكرم محمد أحمد: "لي تصورٌ حول رجال السادات فـي هذه المرحلة.. وأعتبر هذا التصور مهمـًا لفهم تداعيات الأحداث فيما بعد. كان حول السادات فريقان، الأول عاقلٌ وناضج وهم: سيد مرعي ومنصور حسن وجيهان السادات، وفـي مرحلةٍ مبكرة كان هيكل "قبل الخصومة بين الاثنين". هؤلاء كانت لديهم القدرة على رؤية العلاقة الصحيحة بقوى المثقفين.. وكانت تعملُ على تهدئة ثورة الرئيس ضد البابا والأقباط والمثقفين، الفريق الثاني كان أبرز رموزه عثمان أحمد عثمان ومحمد عثمان إسماعيل". ثم يضيف قائلاً: "وأعتقد أن هذا الفريق الأخير هو.

المسؤول بشكل ما عن انتصار تيار توسيع الأزمة والفجوة بين السادات وتيارات المجتمع"171.

وقبل أيام من حادث المنصة، تجاهل السادات تحذيرات الأمن وذهب إلى المنصورة فـــي قطار خاص وسيارة مكشوفة وافتتح مشروعات استصلاح أراض فـــي الشرقية والبحيرة وشارك فـــي مؤتمر حزبي. وأثناء عودته من المنصورة وجد عثمان أحمد عثمان، فسأله: "أنت رايح فين يا عثمان"، فقال له "رايح مصر"، فقال له السادات "تعال معي فـــي الطائرة".

وحسب شهادة وزير الداخلية آنذاك النبوي إسماعيل، فإن السادات قال: "شفت يا عثمان الناس بتعمل إيه.. واقفة من الصبح بكل هذا العدد لتحييني"، فقال له: "عثمان هذا استفتاء لا يقبل الشك عليك يا ريس". فرد السادات بالقول: "انظر إلى شعور هؤلاء وشعور الآخرين الذين يريدون قتلي"، فاندهش عثمان وقال: "مين يا ريس اللي عايز يقتلك؟"، فقال السادات:

"النبوي كلمني هذا الصباح وأخبرني أنه تم اكتشاف تنظيم يسعى لاغتيالي"!

قال له عثمان: "خلاص يا ريس هدي شوية وبلاش تنقلات كثيرة حتي نترك الفرصة لـــ"النبوي"، حتى ينظف البلد من هذه الأشكال"، فرد السادات قائلاً: "أما أنت عبيط يا عثمان.. العمر لا يتقدم دقيقة ولا يتأخر دقيقة.. والبرنامج لازم يسير كما هو"172!

---

171 محمد السيد صالح، مكرم محمد أحمد: السادات طلب مني الهجوم على هيكل.. ورفضت، جريدة "المصري اليوم"، القاهرة، 10 سبتمبر 2006.

172 محمد أبو زيد، النبوي إسماعيل يكشف أسرار حادث المنصة لـــ"المصري اليوم" "1 -2"، جريدة "المصري اليوم"، القاهرة، 7 أكتوبر 2006.

أرسل السادات إلى عثمان يطلب منه الاستعداد لمصاحبته في رحلته إلى وادي الراحة في سيناء، التي كان يعتزم القيام بها في أعقاب العرض العسكري احتفالاً بعيد النصر في 6 أكتوبر 1981.. لكن السادات -الذي كان قد ضرب الجميع بجزمة عثمان القديمة، على حد قول صلاح عيسى- لم يعد من العرض؛ لأن بعضهم كان قد رد على ذلك باغتياله.

حُكم القدر، وضع حدًا لصداقة عثمان والسادات التي بدأت خيوطها تتجمع منذ أربعينيات القرن العشرين،حتى أنهتها الرصاصات التي دوَّت في حادث المنصة.. ليتوقف بشكل مبدئي الجدل حول "المعلم" عثمان، قبل أن يبدأ الحديث عن اتهامات وجهتها نقابة المهندسين إلى نقيبها السابق عثمان، ووصلت إلى الرقابة الإدارية، ومنها اتهامه في مشروعات "الوفاء والأمل" و"بنك المهندس" و"إسكان النقابات المهنية" الذي تأسس عام 1980.

بعد رحيل السادات، بدا أن نشاط ودور "المقاولون العرب" يتقلص، ربما نتيجة تضييق وحصار حكومي استهدف بنيتها ومشروعاتها التي ازدهرت وقت السادات مثل الصالحية وفوديكو وغيرهما. إلا أن العمل في "المقاولون العرب" استمر حتى بلغ حجم مشروعاتها في 1997- 1998 نحو 4.7 مليار جنيه مصري.

المقولة التي ترددت على ألسنة البعض وقتها أن العهد الجديد ينظر بعين الريبة إلى تعاظم نفوذ عثمان في عهد السادات، وأن مبارك لم يكن سعيدًا بالتقارب بين الرئيس السادات وصهره، الذي بدا في وقتٍ من الأوقات أكثر تأثيرًا على القرار السياسي من نائب الرئيس.

غير أن "شيخ القبيلة" -والد محمود وأحمد وإبراهيم ومحمد وهادية- فضَّل الهدوء ولزم الصمت في سنواته الأخيرة، ربما

لانشغاله بقضايا أخرى أكثر أهمية بالنسبة له، مثل خلافه مع نجله المهندس محمد، الذي كان يطالب بنصيبه في شركات والده حتى وصل الأمر إلى ساحة القضاء.. قبل أن يوافيه الأجل في 30 إبريل 1999 عن عمرٍ يناهز 82 عامًا في مستشفى المقاولون العرب، إثر أزمة قلبية بسبب وعكة صحية ألمت به نُقِلَ على إثرها إلى المستشفى قبل وفاته بعشرة أيام.

ومن جامع عمر مكرم شُيعت جنازة عثمان، الذي عاش حياته بالطول والعرض، قبل أن يُنقَل الجثمان إلى مدينة الإسماعيلية، حيث شُيع أيضا وسط حشد هائل من محبيه والعاملين في شركاته –الذين بلغ إجمالي عددهم آنذاك 70 ألف عامل– من جامع أبو بكر الصديق ومنه إلى مدفنه.

وعلى موقعٍ من امتداد جسر 6 أكتوبر في حي مدينة نصر، علَق العاملون في "المقاولون العرب" لافتة ضخمة مجللة بالسواد كُتبَ عليها "سنواصل العمل ونحن نبكي؛ لأن هذا ما تعلمناه منك". كان ذلك شعورًا بالوفاء لرجل بنى الشركة العملاقة، وصنع لنفسه شعبية كبيرة في صفوف أبناء شركاته.

ومع اكتمال الدائرة، طُويت صفحة لا تُنسى من دولة بناها المقاول.. واعترف بها الرئيس.

1

عامر وناصر:
الرجل الأول.. والأول مكرر

كانوا يطلقون عليه سرًا اسم الرجل الأول "مكرر".

ارتبط اسمه برتبته العسكرية: "المشير"، واختارت دائرته المقربة أن تناديه "يا ريس".. لكن نفوذه الأبرز ظل حتى النهاية مستوحى من صفته الأهم: صديق الرئيس.

وصداقة الرجل الأول فـــي بلادنا تعني الكثير.

كانا معـــًا فـــي كل مكان: الكلية الحربية فـــي القاهرة عام 1937، السودان عام 1941، حرب فلسطين 1948، إنشاء وتكوين تنظيم الضباط الأحرار الذي قاد ثورة 23 يوليو 1952.

مدنٌ وشوارع ومنازل لا تُنسى، التقت فيها مصائر الرجلين الأول و"الأول مكرر"، حتى انتهى الأمر بينهما بموتٍ مأساوي.

الفراق بين الصديقين حمل عنوانـــًا لافتـــًا: الحُبّ.. والحرب.

وما بين الحُبّ والحرب حرف واحد.. وعلاقة من أخطر ما يكون.

الحُبّ كان اسمه برلنتي.. والحرب كان قناعها حرب السويس 1956 وجوهرها حرب يونيو 1967.

والأكيد أن ما أقامته الصداقة بين جمال عبدالناصر وعبدالحكيم عامر فـــي سنوات، هدمته حرب يونيو 1967 فـــي ساعات.

لقد ابتلعت الهزيمة العسكرية كل ما أمامها، وتدحرجت رؤوس على مذبح السلطة.. وكانت رأس عبدالحكيم عامر أبرز تلك الرؤوس التي أسقطتها حرب 1967.

وتبقى قصة المشير عبدالحكيم عامر مأساةً تستحق أن تُروى، فالصداقة القوية بين عبدالناصر وعامر دفعت الأول للتراجع فـــي أكثر من مناسبة كلما احتدم الخلاف مع المشير لحرصه على العلاقة الشخصية بينهما، الأمر الذي أعطى عامر حقوقـــًا يرى كثيرون أنها أكثر مما يستحق.

وفـــي المقابل، يؤمن أنصار المشير عامر بأنه تحول إلى كبش فداء فـــي محرقة ما بعد حرب يونيو 1967، وأنه ليس المسؤول الأول أو الوحيد عن تلك الهزيمة العسكرية لمصر والعرب.

كان عامر يقولُ عن نفسه: "أنا لا أفهم فـــي السياسة.. أنا أفهم فقط أن الخط المستقيم أقصر مسافةٍ بين نقطتين".

وبالرغم من ذلك، فقد تنقل عامر بين أرفع المناصب السياسية، وقاد المؤسسة العسكرية لكي تكون درعـــًا للسلطة التنفيذية.

وإذا كان عامر قد نجح في أن يصبح السند الأساسي والأمين للنظام طيلة السنوات الأربع عشرة التي قاد خلالها القوات المسلحة، فإن الأكيد بالمقابل هو أن ثمن ذلك كان باهظًا على تركيبة النظام وسمعته وأدائه.

والشاهد أن عبدالناصر كرر خطأ الملك فاروق، وكأن الجمهورية في مصر تسير على خُطى الملكية.. حتى في أخطائها.

يقول الكاتب الصحفي محمد حسنين هيكل إن المشير عامر لبعض الفترات ونتيجة للظروف كان أحبَ أعضاءِ مجلس قيادة الثورة إلى جمال عبدالناصر. ويرى هيكل أن جزءًا من مأساة 1967 كان نتيجة حُبٍّ عبدالناصر لعامر، ذلك أن هذا الحُبّ حال دون أن يقتنع عبدالناصر بدرجةٍ كافية بأن عبدالحكيم عامر لا يصلح للقيادة.

وبكلماتٍ دالة، يقول هيكل: "إن عبدالحكيم عامر كان نصف فنان ونصفٌ بوهيمي، ولطيفًا جدًا، ولكنه عسكريًا توقف عند رتبة الصاغ، أي أنه يستطيع أن يقود كتيبة لكنه لا يستطيع أن يقود جيشًا"[173].

ويأخذ المؤرخون على الملك فاروق عجزه عن اختيار قائد محترف للجيش؛ إذ استند إلى حيدر باشا، الذي كان موضع ثقته ويدين بالولاء المطلق له، لكنه لم يكن يعرف كثيرًا عن الجيش ولا اهتم بتدريبه وتسليحه، كان في الأصل ضابط مطافئ ونجح مدير مكتبه

173 فؤاد مطر، بصراحة عن عبدالناصر، دار القضايا، بيروت، 1975.

أو سكرتيره صلاح سالم في أن يحجب عنه ما يريد من معلومات ووقائع، وكان أن ظهر ضعف الجيش في حرب 1948، والتي سميت النكبة.

ويبدو أن عبدالناصر وقع في الخطأ نفسه، فقد أسلم الجيش لموضع ثقته المطلقة المشير عبدالحكيم عامر، الذي توقفت معلوماته وتدريباته العسكرية عند رتبة "رائد"، وكان أن ترك الجيش لمدير مكتبه شمس بدران، وكانت النتيجة أن وقعت الهزيمة في 1967 وسميت هذه المرة "النكسة".

وحمّلَ اللواء فؤاد نصار مدير المخابرات الحربية أثناء حرب أكتوبر ومدير المخابرات العامة الأسبق، المشير عبدالحكيم عامر والرئيس جمال عبدالناصر مسؤولية الهزيمة، مؤكدًا أن تعيين عامر الذي كان مجرد رائد رئيساً للأركان رسَّخ عادة مصرية استمرت بعد ذلك وهي تعيين أهل الثقة وليس أهل الخبرة.

وبالحرف الواحد قال اللواء نصار عن النكسة: "نعم.. عامر هو المسؤول عنها. كيف يتحول رائد شاب إلى مشير بقرار واحد وليكون قائدًا للقوات المسلحة.. عملية الترقية هذه كانت ذات دوافع شخصية كاملة"174.

في هذا الصدد، يقول د. لويس عوض "إذا أردت أن تجرب تجربة محمد علي فلا بدَّ أن يكون لديك إبراهيم باشا والكولونيل سيف

---

174 محمد السيد صالح، اللواء فؤاد نصار يواصل حواره لـ"المصري اليوم": (2-4) أمريكا شاركت في القتال خلال حرب أكتوبر.. وأسقطت طائرة مصرية، جريدة "المصري اليوم"، القاهرة، 17 يوليو 2007.

(سليمان باشا الفرنساوي). أما أن تجرب تجربة محمد علي ومعك الصاغ عبدالحكيم عامر، الذي كان كلما خسر حرباً انتقل إلى رتبة أعلى، فهذا أقصر طريق إلى الكوارث القومية"175.

لم تصمد الصداقة أمام نيران القصف الخارجي، فتحولت إلى قصف داخلي.

الصداقة التي بدأت بالأحضان، انتهت بلعبة لي الذراع.

ومن صداقة أذهلت الجميع بقوتها ومتانتها، إلى نهاية غامضة قيل إن سببها سمٌ داخل علبة جوافة.

إنها صداقة عُمرٍ ولدت عام 1937 وماتت عام 1967.. 30 سنة هي عمر تلك الصداقة التي جمعت بين الرئيس جمال عبدالناصر والمشير محمد عبدالحكيم عامر.

لم يتجاوز فارق السن بينهما عامين؛ إذ ولد جمال عبدالناصر في 15 يناير 1918، في حين ولد عبدالحكيم عامر في 11 ديسمبر 1919.. غير أن شهر سبتمبر جمع بينهما عند الرحيل، فقد مات عبدالناصر في 28 سبتمبر 1970، فيما فارق عامر الحياة في 14 سبتمبر 1967.

كلاهما من أبناء الصعيد، الأول من بني مر، مركز الفتح بمحافظة أسيوط، والثاني من أسطال مركز سمالوط بمحافظة المنيا.. لكن القاهرة شهدت لقاءهما الأول، ومشهدهما الأخير.

---

175 د. لويس عوض، أقنعة الناصرية السبعة، دار الرقيّ، بيروت/ مكتبة مدبولي، القاهرة، 1987، ص 180.

صداقة ربما تكون ابنة واقع تكامل الشخصيتين: جمال الجاد القارئ والساحر بغموضه.. وعبدالحكيم المرح الدافئ والآسر للقلوب.

ويذكر أمين عام رئاسة الجمهورية عبدالمجيد فريد أن: "علاقته (أي عبدالناصر) مع المشير عامر علاقة خاصة وتحتاج إلى دراسة؛ لأنه هو الوحيد الذي كان تتميز علاقته مع الرئيس بحاجة خاصة، وقال لي مرة الرئيس فـــي جلسةٍ من الجلسات: "إحنا أصلاً صعايدة سوا، وطلعنا ضباط سوا.. وأخذنا شقة مع بعض فـــي القاهرة.. وهو اللي علمني السجاير.. ورحنا سوا مع بعض فـــي منقباد وجه قبلي، وعبدالحكيم أنا الوحيد اللي أدخل بيته، وأدخل أسرته حتى لو ما كانش موجود.. والعكس عندي بييجي ويدخل عندي وعند أسرتي دون إذني.. الوحيد".. فكانت علاقته مع عبدالحكيم علاقة خاصة جدًا".

والثابت أن ما غلب على عامر من شعور طوال نحو ثلاثة عقود من العلاقة مع عبدالناصر -بمدها وجزرها- هو خليطٌ من إعجاب وولاء ومحبة، متراكبة مع بعض من غيرة، ومن سعي حثيث للندية.

يقول عضو تنظيم الضباط الأحرار أحمد لطفـــي واكد: "قبل أن ألتقي بعبدالحكيم عامر لأول مرة فـــي أوائل عام 1951، كان عبدالناصر قد حدثني عنه بكثيرٍ من المحبة والثقة حتى تصورهما "توأمين"، ولما عرفت عبدالحكيم اكتشفت أن ما بينهما من علاقةٍ يتجاوز الالتقاء الفكري والوطني والسياسي إلى حُبٍّ أخوي صوفـــي".

وكان عبدالناصر يقول: "إذا أردت أن أفكر فـــي أي موضوعٍ أو أحل أية معضلة فإنني أتكلم بكل حريةٍ مع عبدالحكيم إلى أن تتبلور أفكاري".

صداقة تشبه اللغز!

الكاتب الصحفـــي أحمد بهاء الدين يقول: "فـــي تقديري أن فك لغز شخصية جمال عبدالناصر الشديدة التميز والتفرد فـــي التاريخ المصري، والعملاق الذي خرج من تراب مصر بعد قرونٍ من الرقاد كفرعون جديد جبار، لا يمكن أن يتم فهمه إلا إذا أمكن فك لغز علاقته بثلاث شخصياتٍ وصداقات كان لها أكبر الأثر فـــي حياته. علاقته بـــ"عبدالحكيم عامرٍ" الذي سلمه الجيش بكامله، وانشق عليه وصار ندًا له دون أي ند منذ الستينيات، ومع ذلك ترك له كل هيلمانه وتأثيره فـــي أهم أحداث حكمه حتى النهاية المُرة.

"وعلاقته بـــ"أنور السادات" الذي كان يبدو أنه يختلفُ عنه، فـــي كل شيء، ومع ذلك فقد اختاره لأن يكون خليفةً له. ولستُ من أنصار النظرية أو النظريات التي تعتبرُ هذا من باب الملابسات غير المقصودة، ولكن أعتقد أنه كان اختيارًا مدروســـًا ومقصودًا، رغم التشهير الذي لا مثيل له الذي قاده السادات بحنكةٍ ومهارةٍ وشراسة ضده بعد وفاته.

"وعلاقته بـــ"محمد حسنين هيكل" الصحفـــي الذي لم يكن من أقرب الناس إليه فـــي أول الثورة، ولكنه صار بعد ذلك أقرب الناس إليه على الإطلاق، فجعله شريكـــًا فـــي الحُكم على أعلى مستوى".

لقد لاحظ عبدالناصر بذكاء أن عامر يجيد مد جسور الصداقة بسرعة آسرة، وعززت ذلك قدرته الفذة على تجنيد أعضاء في تنظيم الضباط الأحرار. كل هذه العوامل المبدئية كونت له في نفس ناصر مساحة لم ينافسه فيها أحد. في المقابل، أيقن عامر منذ بدء تقاربه مع ناصر أنه وجد ضالته في عقل هادئ وقماشة قائد يضمه تحت مظلته ويعامله بتكامل لا تفاضل.

ويصف وزير الداخلية السابق عباس رضوان علاقة الرئيس والمشير منذ بداية التعارف بينه وبينهما في عام 1949 بأنها "صداقة ليس لها مثيل، ووصلت إلى حد الوفاء النادر الذي لا يشكك فيه أحد بأي شكلٍ من الأشكال، بل الذي يحاول أن يشكك فيه فهو الخاسر".

ويضيف عباس رضوان قائلاً: "قال لي جمال عبدالناصر أكثر من مرة إن الوحيد الذي يمكن أن يتقبل عني الرصاص هو عبدالحكيم عامر، الوحيد الذي يمكن أن يفديني بروحه هو عبدالحكيم عامر".

ويشير عباس رضوان إلى الخلافات في الرأي التي تزايدت بين الصديقين، قبل أن يقول: "ولكن للأسف أستطيع أن أقول إن هناك أناساً حاولوا بقدر المستطاع أن يزيدوا من سعة هذه الفجوة حتى لو عادت الأمور لوضعها الطبيعي ويترقبوا وينتهزوا فرصة أي خلاف ليزيدوا من اتساعه إلى أن وصلت الأمور إلى ما حدث بين الصديقين".

وفي حديث لمجلة "الوادي" في أغسطس 1982 سُئلَ الفريق أول متقاعد صدقي محمود قائد سلاح الطيران عن الصراع بين عامر وعبدالناصر، فقال: "هذا الصراع لم ألمسه إطلاقاً رغم صلتي

الشديدة بهما وبحكم العمل وبحكم الصداقة، ولكن حدث مرةً أو مرتين خلافٌ بين عبدالناصر والمشير، وأراد المشير أن يستقيل ولكنني تدخلت ومنعته من تقديم استقالته.

"وحتى آخر يوم لي في الخدمة كنتُ أعتبر عبدالناصر والمشير توأمين".

ويضيف صدقي محمود قائلاً: "أذكر أنه في حفل قران حسين عبدالناصر شقيق الرئيس جمال عبدالناصر على ابنة المشير، كنتُ أقف مع الرئيس ثم جاء حسين وسلم علينا ثم قلت لعبدالناصر: لو كان عندي 30% في القوات الجوية من الضباط الذين في رتبة حسين في كفاءته وأخلاقه لكنت سعيدًا جدًا، وهذا ليس لأنه شقيق سيادتك.

"فقال لي عبدالناصر:

فعلاً يا صدقي.. حسين هو الهدية الكبيرة التي أقدمها لعبدالحكيم عامر".

ويحكي الفريق أول متقاعد صدقي محمود قصة أخرى عن متانة الصداقة بين عامر وعبدالناصر، فيقول: "في زيارة لنا لموسكو كنت أنا والمشير والمرحوم الفريق أول سليمان عزت (قائد القوات البحرية) دعانا السفير مراد غالب على عشاءٍ خاص جدًا في منزله، وكان حاضرًا معنا المرحوم علي شفيق (مدير مكتب المشير أيامها وزوج الفنانة مها صبري) ثم تطرق الحديث عن الحُبّ، ثم قال المشير:

ما هي أسمى درجات الحُبّ؟

فقال كلٌ منا إجابته، فقال المشير:

لا.. إن أسمى درجات الحُبّ هو حُبّ الصديق للصديق!

فقلت له: تقصد علاقتك بالرئيس جمال عبدالناصر؟

فقال المشير عامر: بالضبط'.

واختتم الفريق أول صدقي محمود شهادته بقوله: "لذلك فأنا مندهش لأن يقال إنه كان هناك صراع على القمة بين عبدالناصر والمشير فذلك شيء لم أشعر به مطلقـاً".

ويؤكد الفريق عبدالمحسن مرتجي إن "عبدالحكيم عامر ده ظل لعبدالناصر".

هذا الظل لم يكن شبيهـاً فـي جوانب عدة من الأصل.

وإذا كان عامر شخصية وطنية تؤمن بالقومية العربية وتتسم بالأريحية ونزاهة اليد وتملك القدرة على كسب صداقة وولاء من حوله، فإن هناك من نظر إليه أيضـاً على أنه رجل ملذات، يخلط العام بالخاص، منساق وراء عاطفته أكثر من عقله، يحيط نفسه ببطانة سيئة الخلق والسيرة، وينشغل بالشللية على حساب كفاءة الجيش.

وفـي حديثه للكاتب الصحفـي عبدالله إمام، رسم سامي شرف مدير مكتب الرئيس عبدالناصر لشؤون المعلومات ملامح شخصية المشير عامر؛ إذ قال: "رؤيتي لشخصية المشير عامر أنه كان دمث الخلق، شهمـاً، لطيف المعشر، ضاحكـاً، حبوبـاً، لا يرفض طلبـاً لأحد. تلك هي الصورة التي كونتها عن عبدالحكيم عامر خلال ثمانية

عشر عامــًا كنت إلى جواره ومشاركــًا فــي جميع مهامه بالخارج كمستشارٍ له، ومتصلاً به كل يوم ربما أكثر من مرة، فقد كانت تعليمات الرئيس أن كل ورقةٍ تُعرَض عليه تُرسَل إلى المشير فــي نفس اللحظة دون استشارة، والقرارات التي تصدر دون أن يكون شريكــًا فيها يكون أول من يعرفها.

"كان عبدالحكيم هو الوحيد الذي يعرف تحركات الرئيس السرية.

"هذه مقدمة ضرورية حتى أوضح ما أطلق عليه اسم علاقة "التوأمة" التي كانت تربطهما، ولم يكن عبدالحكيم يقول إن صوته فــي جيب عبدالناصر؛ لأن عبدالناصر لم يكن يحتاج إلى من يضع صوته فــي جيبه".

ولكن ما الذي حدث بالضبط وأدى إلى إنجاح عملية فصل التوأمين السياميين: ناصر وعامر؟

كيف بدأت هذه الصداقة، وكيف استمرت، وكيف تحطمت، وما هي المطبات التي اعترضتها، والأحداث التي كانت تدور خلف الكواليس، وكيف تحدى عبدالناصر جميع رفاقه أعضاء مجلس الثورة بعامر، وانتصر له، وأيده، وفرضه قائدًا للجيش؟

للإجابة على ذلك، ربما يتعين أن نبدأ من داخل أسوار الكلية الحربية.

2

عامر وناصر:

جيمي.. وروبنسون كروزو

كان اللقاء الأول بين عبدالناصر وعامر فـــي الكلية الحربية عام 1937.

وقبل ذلك، انضم عبدالناصر إلى كلية الحقوق ودرس بها لمدة ستة شهور، ثم قرر الالتحاق بالكلية الحربية فـــي 17 مارس 1937.. وكذلك فعل عامر، الذي التحق بكلية الزراعة وظل بها ستة شهور، قبل أن يتركها للالتحاق بالكلية الحربية فـــي أكتوبر 1937.. وكان آخر يومٍ لتقديم الطلبات.

وفـــي تحقيقٍ صحفـــي أجرته إيزيس نظمي فـــي مجلة "آخر ساعة" فـــي 12 مايو 1954 تحت عنوان "مواقف من ليلة 23 يوليو"، يقول عبدالحكيم عامر إنه "نجح فـــي الكشف بطريق الصدفة البحتة".

وطوال فترة الدراسة فـــي الكلية الحربية، كان عبدالناصر مسؤولاً عن عامر.

عن بدايات هذه الصداقة، نقرأ تفاصيل مهمة أوردها المؤرخ السويسري جورج فوشيه فـــي كتابه "عبدالناصر وفريقه: بناء الجمهورية العربية المتحدة"176، الذي ظهر أيضـــاً مترجمـــاً إلى اللغة العربية177.

يقول فوشيه: "دخل جمال الكلية الحربية طالبـــاً لأول مرة فـــي 17 مارس 1937 مع الدفعة الثانية للضباط المستجدين، ومر بما يسمونه بـــ"فترة الاختبار"، وهي فترة لا تتجاوز خمسة أشهر، يُلَقن فيها الطالبُ مبادئ الحياة العسكرية، ويُراقَبُ سلوكه من الناحيتين الأخلاقية والرياضية.

"وفـــي نهاية فترة الاختبار هذه أصدرَ مجلسُ الكلية قرارًا بصلاحية الطالب جمال للحياة العسكرية وقيد اسمه بالقسم الإعدادي بالكلية ثم بالقسم المتوسط.

ثم يضيف فوشيه فـــي كتابه: "وعلى الرغم من التحاقه بالكلية الحربية بعد مرور ثلاثة أشهر على بدء الدراسة فيها، فإنه أظهر من الكفاية العسكرية ما أهلّه لأن يُنقل إلى القسم النهائي، ولأن يصبح

---

176 Georges Vaucher, Gamal Abdel Nasser et son Equipe, 2 vol.: L'Edification De La Republique Arabe Unie, Paris, Julliard, 1959.

177 جورج فوشيه، جمال عبدالناصر ورجاله: رفاق الكفاح في سنوات المواجهة، ترجمة: د. الحسيني الحسيني معدي، دار كنوز للنشر، القاهرة، 2008.

"رئيس فريق" وأُسنِدَت إليه منذ أوائل سنة 1938 مهمة تأهيل الطلبة المستجدين.

"ومن الطلبة الذين استجدوا عندما كان جمال عبدالناصر رئيس فريق فـــي الكلية، الطالبِ محمد عبدالحكيم عامر، القائد العام للقوات المسلحة للجمهورية العربية المتحدة.

"وكان جمال مسؤولاً عن تأهيله عسكريـــًا مع المستجدين الذين كان مكلفـــًا بإرشادهم إلى طريقة ارتداء الزي العسكري على الوجه الصحيح، وتحيةِ رؤسائهم والقيام بتدريباتهم العسكرية الأولى".

ويتابع جورج فوشيه قائلاً: "وتوثقت عُرى صداقةٍ حميمة بينهما، وكان الاثنان شغوفين بالمطالعة، وأطلق على عبدالحكيم اسم "روبنسون" لشغفه بقصص الأسفار وبالمغامرات الفذة كمغامرات روبنسون كروزو.

"كان عبدالحكيم عامر ورئيس فرقته جمال عبدالناصر من الطلبة المثاليين فـــي الجد والمثابرة، وفـــي احترام اللوائح والنظم العسكرية، وكانت الحياةُ العسكريةُ تروقُ لهما تمامـــًا.

"واشتهر فـــي الكلية باسم "الأومباشي جيمي" وكانت صداقته لـــ"روبنسون" معروفة، وكنتَ إذا رأيتَ "جيمي" فسرعان ما يظهر روبنسون" والعكس بالعكس، وكانت مكتبة الكلية المكان المفضَل للقائهما"178.

178 جورج فوشيه، مرجع سابق، ص 88 -89.

غير أن الوضع الاجتماعي لعبدالناصر وعائلته -كان والده موظفـًا فـي مصلحة البريد فـي قرية الخطاطبة، إحدى قرى دلتا مصر- ظل جدارًا قائمـًا بينه وبين آخرين، بمن فيهم عامر الذي ينتمي إلى عائلةٍ من أثرياء المنيا، وكان والده عمدة أسطال يمتلك نحو 500 فدان.

فـي موضعٍ آخر من كتابه، يقول جورج فوشيه: "ظل الطالب جمال عبدالناصر فـي الكلية الحربية بعيدًا عن زملاء دفعته. كان فقيرًا ووقف أصله المتواضع حجر عثرة فـي طريقه، فانكب على مطالعة المؤلفات التي كشفت له عالمـًا جديدًا بالنسبة إليه، عالم العلوم العسكرية، والسياسة الدولية، ولم يجد زميلاً يشاركه أحقاده وحماسته وعاطفته الوطنية إلا عندما أصبح "قائد جماعة" فـي الكلية وأصبح مسؤولاً عن تأهيل الطالب المستجد عبدالحكيم عامر عسكريـًا".

مزيدٌ من الضوء على تلك الفترة يلقيه وزير الدولة البريطاني للشؤون الخارجية أنتوني ناتنغ فـي كتابه "ناصر"179.

وهذا الكتاب توجد له أيضـًا ترجمة باللغة العربية180.

يقول ناتنغ: "وسرعان ما أثبت عبدالناصر إلى جانب سعة اطلاعه وعمق بحثه، أن لديه موهبةً طبيعية للزعامة، وفـي نهاية عامه الأول أصبح مسؤولاً عن مجموعة جديدة من المرشحين بينهم عبدالحكيم

179 Anthony Nutting, Nasser, London, Constable, 1972.

180 أنتوني ناتنغ، ناصر، ترجمة شاكر إبراهيم سعيد، مكتبة الهلال، القاهرة، 1985.

عامر. زهو شاب طويل نحيل، وكان خاله الفريق محمد حيدر آخر قائد عام للقوات المسلحة قبل ثورة 1952. وعلى الرغم من الفارق الكبير في خلفيتهما الاجتماعية، تطورت الصداقة بين عبدالحكيم عامر وعبدالناصر، تلك الصداقة التي دامت قرابة ثلاثين عامـًا".

ومن تعارف في القاهرة إلى صداقة في الإسكندرية، كما يقول الكاتب الصحفي الأميركي روبرت سانت جون في كتابه "الرئيس: قصة جمال عبدالناصر"181.

يقول سانت جون: "وفي الليلة التي وصل فيها جمال عبدالناصر إلى الإسكندرية رحب به ملازم آخر كان نوبتجيـًا في تلك الليلة ولديه علمٌ بوصوله، وأعد له شخصيـًا حجرةً له وقدم نفسه لجمال برشاقة قائلاً:

"الملازم عبدالحكيم عامر يا سيدي".

"وابتسم جمال.. كانت معرفتهما ببعضهما البعض سطحية في الكلية. ذلك أن عامر كان في الفرقة التالية مباشرة لفرقة جمال. وتذكر أن هذا الرجل الشاب الرقيق المتسرع كان يطلق عليه "روبنسون" نظرًا لإعجابه بالقصص التي من نوع قصة "روبنسون كروزو".

"ويمتد أصل عامر إلى جذورٍ أعمق من جذور ناصر في تربة الوجه القبلي ذلك لأنه وُلِدَ في قريةٍ في منتصف الطريق بين القاهرة وبني مر.. كانا مختلفين في كثيرٍ من النواحي، ومع ذلك

St. John, Robert, The Boss: The Story of Gamal Abdel Nasser, New York, McGraw-Hill, 1960. 181

أعجبا ببعضهما البعض بشكلٍ غريزي، وفـــي تلك الليلة بينما كانا يتحدثان بدأت صداقةٌ بينهما".

مكث عبدالحكيم عامر 18 شهرًا فـــي الكلية الحربية.

ثم أُعلِنت الحرب العالمية الثانية فـــي عام 1939، فتم تخريج الطلبة على عجل، وكان من نصيب عبدالحكيم عامر تعيينه فـــي باتانيا، على مقربةٍ من الإسكندرية.

وفـــي باتانيا كان اللقاء الأول بين عبدالحكيم عامر، وجمال عبدالناصر، الذي قال عنه أنور السادات: "هذا اللقاء لم يكن شيئًا، لم يكن اللقاء الحقيقي بين الصديقين اللذين لم يفترقا بعد ذلك كثيرًا فـــي حياتهما".

لكن عبدالحكيم عامر يتحدث عن هذا اللقاء باعتباره نقطة بداية فـــي تلك الصداقة. ويروي عامر لمجلة "آخر ساعة" ما جرى قائلاً: "كنتُ هناك فـــي باتانيا وذات ليلةٍ وأنا فـــي نوبتي الليلية، مر بنا عبدالناصر وقضى الليلة معنا. وتحادثنا مع بعضنا، وسرعان ما بدا لنا أن أفكارنا ووجهات نظرنا متشابهة وأصبحنا صديقين.

"ومضت شهور ونُقِلتُ إلى السودان فـــي يناير عام 1940، وهناك التقيتُ بجمال عبدالناصر ثانيةً، وكنا فـــي أورطة واحدة، وتوطدت أواصر الصداقة بيننا، وسارت أفكارنا فـــي طريقٍ واحد. ولم نكن مرتاحين للظروف والأحوال التي نعملُ فيها، وكنا نتألمُ للمعاملة التي يُعامِلُ بها كبارُ الضباط من هم أدنى منهم فـــي الرتبة من الضباط الآخرين. ولمسنا حاجة الجميع إلى مراعاةِ القيم الإنسانية

المقررة لجميع الآدميين وشعرنا بخيبة أملٍ مُرة لما نحن فيه من أوضاعٍ اجتماعية".

ويشير عبدالحكيم إلى واقعة تكررت معه ومنه لاحقـًا أكثر من مرة وتكشف جزءًا أصيلاً مر شخصيته: الغضب.. وقرار الاستقالة.

إذ يقول: "ووقع خلاف شديدٌ ذات يومٍ بيني وبين قائد الفرقة فـي الخرطوم، بسبب بعض الترتيبات الخاصة بزيارة للحاكم العام، وكان المسؤول عن هذه الإجراءات أربعة من الضباط، لم أكن أحدهم ولكن القائد أشركني فـي المسؤولية من غير مبررٍ لذلك، فقد كان يريد معاقبتي فحسب، ورفضت بعناد قبول ذلك، وحاول إرغامي على الخضوع بكل الوسائل بالنصيحة والوعيد، وبكل ما فـي وسعه من حيلة!

"وقدمت استقالتي من الجيش، وكان جمال عبدالناصر يرقب هذا الموقف بهدوئه المعروف، وكان شديد الاهتمام بأمر مستقبلي، ووافق على أن لي الحق فـي رفض العقاب، ولكنه أيضـًا كان قلقـًا لاستقالتي وامتناعي عن العمل.

"ومرت هذه العاصفة من تلقاء نفسها بعد أيامٍ قليلة، ولم يوقَع عليَّ عقاب، ولم يبرد القائد على كتاب استقالتي".

يقول رشاد كامل إن عامر طلب نقله من الخرطوم، وفـي عام 1941 نُقلَ إلى مركز التعليم فـي منقباد، وبقي هناك لمدة سنة ونصف السنة[182].

182 رشاد كامل، حياة المشير محمد عبدالحكيم عامر، دار الخيّال، القاهرة، 2002.

ومن الخرطوم انتقل عبدالناصر وعامر إلى جبل الأولياء على النيل الأزرق فـــي اتجاه الجنوب بمسافة خمسة وأربعين كيلومترًا، حيث أقامت مصر سدًا كانت تحرسه بقواتها.

وينتقل بنا روبرت سانت جون إلى تلك الفترة فيقول: "كان عامر وناصر الضابطين الوحيدين هناك، فكانت لهما حجرتان متجاورتان وكانا يأكلان معـــًا، ويصيدان الطيور البرية معـــًا وتشاركا فـــي كتبهما وصحفهما. ونمت الصداقة بين عامر المتسرع الذي لم يكن من الممكن التنبؤ بشيء عنه وناصر الذي كان يتسم بالهدوء بصورة أقوى".

ويؤكد الكاتب الأميركي أن ناصر وعامر خصا كثيرًا من وقتهما فـــي التحدث عن مستقبل مصر، واقترح عامر ضرورة محاولتهما التأثير على هذا المستقبل بالعمل بطريقة ما داخل نطاق الجيش.

"وحذر عامر ناصر بقوله: "ولكن فلنتذكر أننا لسنا سياسيين"!

فرد عليه وقال: "وأنا لستُ متأكدًا من أننا نريد ذلك".

وقال عامر: ولكن إذا استطعنا أن نجعل عددًا كافيـــًا من ضباط الجيش الشبان يفكرون كما نفكر، فقد نخرج من ذلك بشيء".

هذا التقارب الفكري والتنظيمي كان محور اهتمام الكاتب الصحفـــي الإنجليزي ويلتون واين فـــي كتابه "عبدالناصر.. قصة البحث عن الكرامة"183.

WYNN, WILTON, Nasser of Egypt: The Search for Dignity, USA, Arlington, 1959. 183

يقول واين: "ولعل أهم حادثة وقعت له (يقصد جمال عبدالناصر) خلال السنتين اللتين قضاهما فـــي السودان كانت اجتماعه بملازم شاب آخر ذي عقلية سياسية يدعى عبدالحكيم عامر الذي أصبح اليومَ مشيرًا وقائدًا عامـــًا للقوات المسلحة ونائب رئيس الجمهورية العربية المتحدة. لقد شكلت صداقة عبدالناصر لعبدالحكيم عامر "حجر الزاوية فـــي حركةٍ نُظمَت ببراعةٍ داخل الجيش المصري عُرِفَت بلجنة الضباط الأحرار".

وشغلت قصة لقاء عامر وناصر صفحات من كتاب أنور السادات "صفحات مجهولة"، الذي صدر لأولَ مرة ضمن سلسلة "كتب للجميع" فـــي نوفمبر 1954، ثم أعيد طبعه تحت عنوان "أسرار الثورة المصرية.. بواعثها الخفية وأسبابها السيكولوجية" ضمن سلسلة "كتاب الهلال" فـــي يوليو 1957.

وتحت عنوان "اللقاء الأول بين عبدالناصر وعامر"، يقول السادات فـــي كتابه الذي نُشر مسلسلاً فـــي جريدة "الجمهورية": "فـــي خلال الأعوام التي كنا فيها نظهر لنختفـــي ونختفـــي لنظهر.. كانت عينا جمال الفاحصتين تبحثان عن الرجال والأعوان، ولعل انتصاره الأول فـــي هذا الميدان كان لقاؤه بعبدالحكيم، وبقصة هذا اللقاء يبدأ هذا الطور من أطوار التمهيد للثورة"184.

ويشير السادات إلى أن اللقاء الحقيقي والتعارف الكامل بين عبدالناصر وعامر بدأ فـــي الخرطوم، موضحـــًا أن هذا التقارب استغرق بعض الوقت؛ لأنهما كانا نقيضين فـــي كل شيء؛ إذ يقول:

---

184 أنور السادات، صفحات مجهولة، سلسلة "كتب للجميع"، القاهرة، نوفمبر 1954.

"كان جمال شيد التحفظ

وكان عبدالحكيم شديد الاندفاع

وكان جمال هادئ الأعصاب دائمـــًا.. مهما حدث ومهما رأى.. وما أكثر ما كان يرى مما يشقي النفس الأبية

وكان عبدالحكيم سريع الانفعال، سريع الغضب تستفزه الصغيرة والكبيرة على حد سواء".

ونقرأ فــي كتاب السادات المذكور عن مرحلة تالية من صداقة عبدالناصر وعامر؛ إذ يقول: "وفــي جبل الأولياء زادت الصداقة عمقــًا بين الزميلين، واكتمل التفاهم بينهما فــي كل شيء.. كانا يقضيان معــًا سهراهما يلعبان الشطرنج وكان يقضيان معــًا أيا مهما فــي رحلات الصيد.

"وعندما يذكر أحدهما تلك الأيام وتلك الليالي، لا يكاد يذكر الشطرنج، ولا الصيد بقدر ما يذكر المشاجرات الكبيرة التي تقع بينهما.. فليس يسيرًا أن تقوم صداقةٌ حقيقية بين هذين الرجلين دون أن يسبقها عددٌ كبيرٌ من المشاجرات، ولم يكن فــي جبل الأولياء من الضباط سواهما.. فكان جمال هو القومندان، وكان عبدالحكيم ضابطه الوحيد!

"ولم يكن بُدٌّ إذا تشاجرا صباحــًا أن يصطلحا فــي المساء.. وإذا تشاجرا مساء أن يصطلحا فــي الصباح، ولكن هذه الفترة قد انتهت بالتفاهم التام بينهما وبالتفكير المتصل الموحد فــي حالة

الجيش، فقد اقتنعا تماماً أن المشكلة ليست مشكلة الكتيبة ولا القومندان ولا الرؤساء الإنجليز ولكنها مشكلة الجيش كله.. والبلد كله"185.

على المستوى الإنساني، ت تلك الصداقة أكثر حتى أنهما سكنا لفترةٍ معاً في شقةٍ واحدة قبل الزواج.

ويروي السفير عبدالعزيز جميل في مجلة "صباح الخير" 28 مايو 1983 ذكرياته أيام كان ضابطاً مع عبدالناصر وعامر، فيقول إنه حدث ذات مرة أن دخل مع عبدالناصر وعامر مكتبة ليجد ناصر فيها كتاباً كان يبحث عنه، لكنه فوجئ بأن سعر الكتاب 120 قرشاً في حين أنه لم يكن في جيبه سوى خمسين قرشاً. فإذا بعامر يتسلل خارجاً من المكتبة ليعود إليها بعد قليل طالباً شراء الكتاب بعد أن باع طربوشه "النسر" -وكان من أشهر ماركات الطرابيش -حتى لا يحرم صديقه ناصر من كتاب يريده.

وعندما قرر عبدالناصر الزواج من تحية كاظم في عام 1944، كان عامر أول من يعلم بأمر هذا الزواج، وما لبث الأخير أن تزوج بعد ذلك بشهور من زينب عبدالوهاب. وبعد أن نمت العائلتان وزاد عدد أفرادهما، تزوج حسين شقيق عبدالناصر من آمال ابنة عامر، كما أطلق عبدالناصر اسم عبدالحكيم على أحد أبنائه، في حين أطلق عامر اسم عبدالناصر على أكبر أنجاله.

وفي حوارٍ صحفي، قال جمال عبدالحكيم عامر: "حتى عام 1967 كانت العلاقة العائلية جيدة جدًا؛ لأن جمال عبدالناصر

185 المرجع نفسه.

وعبدالحكيم عامر لم يكونا يفترقان أبدًا، فمن الطبيعي أن تلتقي أسرتاهما باستمرار وخصوصـًا فـي إجازة فصل الصيف التي كنا نقضيها فـي المعمورة حيث كان لكلٍ من أسرتيّ الرئيس والمشير بيتان متجاوران ومتشابهان أيضـًا، وكان الرئيس جمال ووالدي يقضيان معنا إجازات الأسبوع وعندما يذهبان إلى القاهرة فـي بقية أيام الأسبوع كنا نحن وأسرة عبدالناصر نقضي هذه الأيام وكأننا أسرة واحدة".

ويتعين القول إن كلاً من جمال وعبدالحكيم وخالد محيي الدين بعد العودة من السودان وفـي أعقاب أزمة 4 فبراير 1942 جربوا مسار الإخوان المسلمين عبر صلتهم بالضابط الإخواني المتقاعد محمود لبيب الذي وصلهم بالمرشد العام لجماعة الإخوان المسلمين الشيخ حسن البنا والذي أقرّ لهم عضوية التنظيم السري الخاص فـي شعبة مستقلة للضباط. كان معهم فـي ذاك التنظيم عبدالمنعم عبدالرؤوف ومعروف الحضري وحسين حمودة وأبو المكارم عبدالحي وصلاح خليفة، وهم من بقوا فيه حتى بعد يوليو 1952، وكذلك كمال الدين حسين وحسين الشافعي وغيرهم ممن أوقف علاقته بالتنظيم عشية حرب فلسطين كما فعل عبدالناصر وصحبه.

ثم جاءت حرب فلسطين 1948، التي زادت من عمق الصداقة بين عبدالناصر وعامر.

وروى عبدالناصر بالتفصيل ذكرياته عما جرى على أرض فلسطين فـي كتابه "يوميات عبدالناصر عن حرب فلسطين" الذي نُشِرَ مسلسلاً على صفحات مجلة "آخر ساعة" شتاء 1955، وتولى إعداد اليوميات وكتابتها رئيس تحرير "آخر ساعة" آنذاك محمد حسنين هيكل.

وبعد الهزيمة فـــي حرب فلسطين، شعر عبدالناصر ورفاقه أن الثورة أصبحت ضرورة ملحة. ويروي عبدالناصر كيف أن قائد قوات الفدائيين فـــي حرب فلسطين المقدم أحمد عبدالعزيز همس له فـــي أذنه قبل أن يموت قائلاً:

"جمال. المعركة الحقيقية ليست هنا، إنها فـــي مصر".

لقد عاد هؤلاء الضباط من حرب فلسطين مهزومين مكلومين يغلي فـــي داخلهم غضبٌ ضد الملك ونظامه أكثر من العدو. بدا رفاق عبدالناصر مصممين على إنشاء تنظيم للضباط يحتفظ باستقلاله عن الأحزاب والقوى السياسية ومنها الإخوان المسلمون -ويجمع كل التنظيمات العديدة المتناثرة فـــي أوساط الضباط، وكلها تشترك فـــي معاداة الاحتلال البريطاني وفـــي النقمة على سلوك الملك فاروق، شخصـــاً كان أم حاكمـــاً، خصوصا فـــي حرب فلسطين.

فـــي تلك الفترة، بحث عبدالناصر عن حلفاء جدد وأفكار أخرى للمعركة، وهكذا أقام اتصالات مع الحركات الماركسية وبخاصة منظمة "حدتو" بواسطة أصدقائه التقدميين خالد محيي الدين ويوسف صديق. من جهة الوفد كان لناصر صديق عزيز هو أحمد أبو الفتح نقيب الصحفيين وصهر المخلص له ثروت عكاشة.

ويقول د. ثروت عكاشة "بعد عودتنا من حرب فلسطين عينت برئاسة هيئة أركان حرب الجيش، وعين جمال مدرســـاً بكلية أركان الحرب، وعبيد الحكيم عامر برئاسة سلاح المشاة، وبدأ كلاهما يدعو إلى تشكيل تنظيم الضباط الأحرار، وانضممت إليهما بصورةٍ تلقائية نظرًا للصلات القوية بيننا"186.

---

186 د. ثروت عكاشة، مذكراتي فـــي السياسة والثقافة (جزءان)، مكتبة مدبولي، القاهرة، 1988.

وظهرت اللجنة التأسيسية لتنظيم الضباط الأحرار التي انتُخِبَ عبدالناصر رئيسـاً لها.

لقد كان عامر أحد الذين وهبوا عبدالناصر كل اهتمامهم وصداقتهم، حتى يمكن القول بأنه ذاب فـي شخص عبدالناصر حقيقة وواقعـاً. وكان عبدالناصر يسند إلى عامر مهمة البحث عن ضباط يصلحون للانضمام إلى خلايا التنظيم السري للضباط الأحرار. ونجح عامر فـي تلك المهام لارتباطه بصداقات قوية مع زملاء الكلية الحربية وسلاح المشاة الذي انضم إليه وضباطٍ آخرين فـي أسلحة أخرى مختلفة، حملوا كل التقدير للصاغ عبدالحكيم عامر، ذلك الصعيدي الشهم المعروف عنه سخاؤه وكرمه، فضلاً عن مشاعره الريفية الصادقة وسلوكه الإنساني دائمـاً الذي يتسم بالفروسية والود.

فـي مذكراته، يقول صلاح نصر: "وللتاريخ فقد كان عبدالناصر هو العقل المدبر للتنظيم بينما كان عبدالحكيم عامر هو الدينامو أو المحرك لنشاطه، وبلا شك كان له الفضل فـي تجنيد أكبر عدد من الضباط الأحرار"187.

بل إن عامر وقف وراء تجنيد اللواء محمد نجيب نفسه، وكانت نقطة البداية أثناء حرب فلسطين.

يقول محمد نجيب: "ولم أترك يومـاً واحدًا يمضي دون الاتصال بمن أثق فـي رجولتهم من الضباط.. أحرضهم على إجادة القتال،

187 صلاح نصر، مذكرات صلاح نصر ، جـ 1: الصعود، دار الخيال، القاهرة، 1999.

واحرضهم فـي الوقت نفسه، على الاهتمام بما يدور فـي العاصمة. وكان الصاغ أ. ح. عبدالحكيم عامر قد عين أركان حرب للوائي، وقد وجدت فيه ضابطـاً ذكيـاً دقيقـاً.. وعندما سمعني أردد هذه الآراء ذهب إلى صديقه البكباشي أ. ح. جمال عبدالناصر وقال له - كما أخبرني فيما بعد- "لقد عثرت فـي اللواء محمد نجيب على كنزٍ عظيم".

وكان عبدالناصر قد أقنع رفاقه بضرورة اختيار شخصية عسكرية كبيرة تعلن الثورة باسمها حتى تبدو أكثر إقناعـاً للجماهير، وعندما بدأ اقتراح الأسماء كان محمد نجيب مرشحـاً من عبدالحكيم عامر، فيما رشح الباقون اللواء فؤاد صادق.

بدت الاعتبارات التي رجحت اختيار محمد نجيب موضوعية لاعتبارات عدة، لكن الفريق الآخر رأى فـي اختياره نصرًا شخصيـاً لعبدالحكيم عامر وهزيمة لهم، واعتبروا أن عبدالناصر مال إلى هذا الاختيار مجاملة لصديقه.. ثم لم يلبث هذا الإحساس أن تفاقم بعد الثورة.

وفـي 22 يوليو 1952 كان فاروق على شاطئ الإسكندرية برفقة حاشيته وحكومته كما هي عادته فـي كل عام، ولكن على بُعد أكثر من 200 كيلومتر، كانت ساعة الصفر قد حانت بالنسبة للضباط الأحرار.

وهكذا ولدت ثورة 23 يوليو.

3

عامر وناصر:
العُمدة يقود الجيش

تولى عبدالحكيم عامر منصب مدير مكتب القائد العام اللواء محمد نجيب، فـــي أعقاب نجاح ثورة 23 يوليو 1952، وجاء تعيينه لمتانة علاقته مع محمد نجيب، وليكون عينـــًا عليه فـــي الوقت نفسه.

ولعامٍ كامل، استمر عبدالحكيم عامر فـــي منصبه، إلى أن قرر مجلس قيادة الثورة إعلان الجمهورية وتعيين محمد نجيب كأول رئيس لها فـــي يونيو 1953.

فقد صدرت جريدة "الأهرام" صباح الخميس 18 يونيو 1953 وعلى صفحتها الأولى تصريح لجمال عبدالناصر يقول فيه: "الجمهورية آتية ولكن موعد إعلانها لم يتقرر بعد".

غير أن مساء اليوم نفسه قطع الشك باليقين.

وفـــي أعقاب اجتماع مجلس قيادة الثورة، عقد وزير الإرشاد صلاح سالم اجتماعـــًا مع مندوبي الصحف ووكالات الأنباء، أدلى

فيه ببيان قال فيه إنه سيتم في ذلك اليوم إلغاء النظام الملكي وإنهاء حكم أسرة محمد علي وإعلان الجمهورية وتولية اللواء محمد نجيب رئاسة الجمهورية. وأضاف قائلاً: "وقد قرر مجلس الثورة تعيين البكباشي جمال عبدالناصر نائباً لرئيس مجلس الوزراء ووزيرًا للداخلية، وتعيين قائد الجناح عبداللطيف البغدادي وزيرًا للحربية، والصاغ صلاح سالم وزيرًا للإرشاد ووزيرًا للدولة لشؤون السودان.

"كما تقرر تعيين الصاغ عبدالحكيم عامر قائدًا عامًا للقوات المسلحة".

وفي تلك الليلة أذاع محمد نجيب بيانًا إلى الشعب أعلن فيه إلغاء النظام الملكي وحُكم أسرة محمد علي مع إلغاء الألقاب من أفراد هذه الأسرة، وإعلان الجمهورية بتولي نجيب رئاسة البلاد.

وهكذا نجح عبدالناصر في ترفيع صديقه عامر لرتبة اللواء وتعيينه قائدًا عامًا للقوات المسلحة خلفًا لنجيب.

على مضض، وافق نجيب على هذه الخطوة بالرغم من عدم اقتناعه بصواب التعيين، وذلك لحرجه أمام صفيّه عامر، ولعدم قدرته – عند تقدير موازين القوى– على رده.

ويقول محمد نجيب في مذكراته: "ثُرتُ في المجلس ثورةً عنيفةً معارضًا ترقية عبدالحكيم عامر من رتبة الصاغ إلى رتبة اللواء دفعةً واحدة، وتعيينه قائدًا عامًا لكل القوات المسلحة، مبينًا أن ذلك سوف يخلق نقمةً عامة في الجيش قد تكون صامتةً ومطويةً في الصدر، ولكنها ستكون قابلةً للانفجار في أية لحظة.

"قلت لهم -أي لأعضاء مجلس قيادة الثورة- إني اعترضت على تعيين الفريق محمد حيدر رغم أقدميته لأنه كان بعيدًا عن صفوف الجيش، وأنا اليوم أعترض على ترقية عبدالحكيم عامر وتعيينه قائدًا عامـًا للجيش لأنه ليس مهيأً لذلك، ولم ييأس المجلس من الوصول إلى غرضه، تكرر عرض الموضوع أكثر من مرة، وفـي كل مرة كنت أرفض وأثور وحدي بلا نصير يقف معي، وهددت بالاستقالة فتأجل الموضوع ثلاثة أسابيع"188.

ويضيف محمد نجيب قائلاً: "لم أعترض فقط على ترقية عبدالحكيم عامر أربع رُتب مرة واحدة مما ليست له سابقة فـي الجيش المصري، ولكني اعترضت أيضـًا على إعلان النظام الجمهوري. لم أعترض لأني ضد النظام الجمهوري ومؤيدًا للنظام الملكي، ولكني اعترضتُ لإيماني بأن تحويل نظام البلد السياسي يجب أن ينص عليه فـي الدستور، وأن يكون ذلك موضع استفتاء شعبي عام.

"لم يُغرني ما عرضوه من تعييني رئيسـًا للجمهورية، وعبدالحكيم عامر "قائدًا عامـًا للقوات المسلحة"، فقد كنت أوثرُ أن يظل عامر فـي موقعه مديرًا لمكتبي لشؤون القوات المسلحة.

"ولاحظتُ أن العلاقة مع أعضاء المجلس فـي هذه الفترة بدأت تأخذُ طابع المجاملة والاحترام الشديد لي. وأذكرُ قبل ذلك بأسابيع أننا كنا فـي زيارةٍ لقرية جمال عبدالناصر (بني مُر) وأنه وقف يخطبُ قائلاً كلماتٍ أسجلها هنا للتاريخ وهو يوجهها لي:

188 محمد نجيب، كلمتي للتاريخ، دار الكتاب النموذجي، القاهرة، 1975.

"باسم أبناء هذا الإقليم أرحبُ بك من كل قلبي وأعلنُ باسم جميع الفلاحين أننا آمنا بك فقد حررتنا من الفزع والخوف وآمنا بك مصلحـــًا لمصر ونذيرًا لأعدائها".

"سيدي القائد.. باسم الفلاحين أقولُ سر ونحن معك جنودك، فقد حفظنا أول درسٍ لقنتنا إياه وهو أن تحرير مصر وخروج قوات الاحتلال عن بلادنا أمرٌ واجبٌ وأصبحت أملاً فـــي أن نحقق لمصر حريتها على يديك، إن مصر كلها تناصرك للقضاء على قوات الاحتلال".

ويضيف اللواء محمد نجيب قائلاً: "رنت هذه الكلمات فـــي أذني وأنا أجدُ نفسي محاصرًا ومُطَالبـــًا بإعلان النظام الجمهوري وتعيين عبدالحكيم عامر قائدًا عامـــًا للقوات المسلحة، وأشهدُ أني قبلتُ تحت ضغط وإلحاحٍ استمر ثلاثة أسابيع بعد أن فكرتُ كثيرًا فـــي الاستقالة، وأعترفُ الآن أن هذا كان خطئي الكبير الذي وقعتُ فيه، فقد شعرتُ بعد قليل أنني أصبحتُ فـــي مركزٍ أقل قوة بعد أن تركتُ قيادة الجيش".

وبدا أن هدف عبدالناصر هو إبعاد كل أعضاء مجلس الثورة – وليس فقط نجيب– عن القوات المسلحة وتسليم كل مقاليدها لعامر؛ ليكون القناة الوحيدة للاتصال بها. لم يكن هناك أجدر من عامر لتأمين القوات المسلحة سياسيـــًا، فهو الأقرب والأوثق إلى عبدالناصر وهو الأكثر شعبية بين الضباط وخصوصـــًا متوسطي وصغار الرُتب.

ولعل شهادة رئيس تحرير صحيفة "المصري" أحمد أبو الفتح تكتسبُ أهميتها من علاقته القوية بعبدالناصر ومعرفته بما كان يجري فـــي كواليس الثورة فـــي تلك الفترة. يقول أبو الفتح: "كما اقترح عبدالناصر أن يتولى عبدالحكيم عامر منصب القائد العام للقوات المسلحة، وقد أثار هذا القرار ضجة داخل مجلس القيادة؛ إذ إن عبدالحكيم كانت رتبته فـــي الجيش (صاغ)، فكيف يصبحُ قائدًا ورئيســـاً على كل الرتب الأعلى منه. عندئذ اقترح عبدالناصر أن تصبح رتبة عبدالحكيم (لواء) وبذلك يستطيع أن يرأس القوات المسلحة.

"ولكن هذه كانت خطة عبدالناصر؛ إذ يصبح هو نائب رئيس الوزراء، وعن طريق هذا المنصب يسلب من محمد نجيب تدريجيـــاً سلطاته ويصبح عبدالحكيم عامر صديقه الصدوق فـــي ذلك الوقت القائد العام للقوات المسلحة، وبهذا يضمن السيطرة على الجيش، وبتعيينه صلاح سالم وجمال سالم وعبداللطيف بغدادي وزراء يكون قد أرضى المناكفين الذين يثيرون نقاشـــاً داخل مجلس قيادة الثورة".

في تفسير اختيار ناصر لصديقه عامر على رأس المؤسسة العسكرية، يقول د. لويس عوض: "كان نظام عبدالناصر بحاجة إلى حراسة الجيش سياسيـــاً وعسكريـــاً؛ حراسته من الداخل حتى لا يتكرر مع عبدالناصر ما فعله هو بفاروق. وقد أدى عبدالحكيم عامر لعبدالناصر هذه المهمة بمنتهى الأمانة، فخدمه وخدم مصر جميعـــاً بأن وقاها شر الانقلابات العسكرية؛ ولذا لم يتخل عنه عبدالناصر أبدًا، متغاضيـــاً عن أخطائه الكثيرة"189.

---

189 د. لويس عوض، أقنعة الناصرية السبعة، مرجع سابق، ص 182 -183.

فـــي صباح يوم 19 يونيو 1953، ذهب اللواء أركان حرب عبدالحكيم عامر القائد العام للقوات المسلحة إلى مكتبه فـــي مقر القيادة بكوبري القبة. وحسب جريدة "المصري"، فقد كان فـــي استقباله كبار قادة مختلف الأسلحة وضباط الجيش الذين قدموا لتهنئة قائدهم العام بمنصبه الجديد. كما قدم رئيس هيئة أركان حرب الجيش لتهنئته على هذا المنصب.

وقالت جريدة "المصري": "والمعروف أن اللواء عبدالحكيم عامر كان عضو مجلس قيادة الثورة المختص بشؤون الجيش، وهو يمثل فـــي الوقت نفسه مركزًا ممتازًا فـــي قلوب إخوانه من مختلف ضباط الجيش.. هذا ولما كان بترقيته قد صدر فـــي ساعةٍ متأخرةٍ من الليل، فقد أهدى الرئيس اللواء أركان حرب محمد نجيب رئيس الجمهورية إلى عبدالحكيم عامر قبعته "الكاب" المُحلاة بالقصب المذهب والشريط الأحمر، والتي يلبسها لواءات الجيش، فضلاً عن علامة رتبة اللواء التي تُوضَع على الكتف، ليستطيع عبدالحكيم عامر لبسها عند حضوره أمس".

يضيف أبو الفتح أنه عندما تعالت أصواتُ معارضة داخل المجلس لتعيين عامر قائدًا عامـــًا للقوات المسلحة، رد عبدالناصر بالقول: "إننا لا نستطيع أن نترك الجيش دون رقابتنا وإن الخطر سيهددنا جميعـــًا إذا لم نشرف إشرافـــًا فعالاً على الجيش، وإنكم تلاحظون أن تذمرًا وراء تذمر بدأ يظهر، وإنه لا بدَّ من إحكام الرقابة على الوحدات وأنا لا أستبعد أن يقوم فريق من الجيش ذات ليلةٍ فيلقى

علينا القبض ونصبح نحن جميعـًا فـي السجون، والجيش كله يحبُ عبدالحكيم ولذلك أُصِرُ على تعيينه قائدًا عامـًا للجيش".

"وقال عبدالحكيم عامر إنه على استعداد للتفرغ لشؤون الجيش وإنه سيعمل على توطيد علاقته بجميع الوحدات ومراقبتها دون حاجة إلى تولي هذا المنصب، ولكن جمال أصر وعاد يهدد بالتخلي عن العمل، وتكاثر الضباط على عبدالحكيم؛ إذ كانوا قد اقتنعوا بما قاله جمال من ضرورة الإشراف على الجيش ومراقبة حركاته مراقبة دقيقة.

"وقف محمد نجيب وحيدًا فـي صفوف المعارضة، ولم يؤيده من أعضاء مجلس قيادة الثورة سوى خالد محيي الدين الذي كان يسعى إلى إعادة الحياة النيابية".

وفـي 18 يونيو 1953 أصبحت هذه القرارات أمرًا واقعـًا. وعند إعلان ترقية عبدالحكيم عامر إلى رتبة لواء وتوليه رئاسة القوات المسلحة، قدم قائد سلاح الطيران اللواء حسن محمود استقالته، ورفض كل المساعي لسحبها، وتم تعيين اللواء محمد صدقي محمود مكانه.

أما حلمي سلام –الذي كان يُنظرُ إليه على أنه رجل عبدالحكيم عامر فـي عالم الصحافة كما كان محمد حسنين هيكل رجل عبدالناصر– فيقدم شهادة على قدرٍ من الأهمية بشأن تعين عامر قائدًا عامـًا للجيش؛ إذ يقول:

"عندما رُقي عبدالحكيم عامر فـي يونيو 1953 من رتبة (الرائد) إلى رتبة (اللواء) وعين قائدًا عامـًا للقوات المسلحة، تملك كثيرين

الظن بأن هذا التعيين لم يتم إلا لأن عبدالحكيم هو أقوى زملائه أعضاء مجلس الثورة بعد عبدالناصر، وأن هذه الترقية إلى هذا المنصب الخطير جدًا، والحساس جدًا، لم تجئه إلا كإقرار من هؤلاء الزملاء بقوته. وليس هذا الظن الذي تملك كثيرين صحيحـًا، فلم يكن عبدالحكيم عامر هو أقوى الرفاق بعد عبدالناصر، وإنما المؤكد أنه – من وجهة نظر عبدالناصر الخاصة، وأيضـًا بمقاييسه الخاصة– كان أصلحهم لتولي هذا المنصب الخطير؛ إذ كان عامر بلا أدنى شك هو أشد الرفاق وفاءً لشpخص عبدالناصر، وأكثرهم بعثـًا للطمأنينة فـي نفسه بأن (خطرًا ما) من ناحية القوات المسلحة مستحيل أن يأتيه، ما دام بقي على رأسها هذا الصديق الذي عرفه يسري الوفاء بين أضلعه، مسرى الدماء فـي العروق".

ويضيف حلمي سلام قائلاً: "المسألة إذًا وبكل تأكيد كانت مسألة ثقة من جانب عبدالناصر فـي شخص عامر، ولم تكن مسألة قوة تميز بها عامر على بقية رفاقه، لكن اقتراح عبدالناصر بتعيين (صديق عمره) قائدًا عامـًا للقوات المسلحة لم يمر فـي مجلس الثورة بغير اعتراض، فلقد اعترض عليه عبداللطيف بغدادي الذي شعر بأن عبدالناصر إنما يهدف من وراء تعيين عامر فـي هذا المنصب الخطير إلى إحكام قبضته الشخصية من خلال صديق عمره على القوات المسلحة، فتصبح من بعد ذلك طوع أمره ورهن إشارته كأداة فـي (لعبة السياسة) التي كان من رأي البغدادي أنه يتحتم استبقاء القوات المسلحة بعيدًا عنها تمامـًا، ولم يتردد الرجل يومها فـي أن يقولها لزملائه صريحةً: "إننا إذا سمحنا بأن يتدخل الجيش فـي السياسة فسوف يفسد الجيش وتفسد السياسة".

"لكن عبدالناصر بقي متمسكـــاً باقتراحه، وبرر هذا التمسك بقوله: "مستحيل أن أسلم أمر الجيش لشخصٍ يكون غريبـــاً عنا؛ لأن هذا معناه أننا نسلم رقابنا لهذا الغريب".

"وانتصرت وجهة نظر عبدالناصر، وأصبح رفيق العمر قائدًا عامـــاً للقوات المسلحة، وبذلك اطمأن قلب عبدالناصر إلى أن (رياح الخطر) لن تهب عليه فـــي يومٍ من الأيام.

"إن وجود عامر على رأس هذه القوات سوف يشدد من قبضة عبدالناصر الشخصية عليها ويجعلها رهن إشارته وطوع يمينه".

ويروي عضو مجلس قيادة الثورة كمال الدين حسين ما جرى، فيقول: "عرض علينا عبدالناصر فـــي سنة 1953 أن يكون هناك قائدٌ عام للقوات المسلحة، يكون مسؤولاً أمام مجلس الثورة عن جميع الأسلحة، ويتفرغ كلٌ منا إلى ناحيةٍ أخرى من شؤون البلاد، ووافقنا على الاقتراح، وقدم لنا اقتراحه الثاني أن يتولى عبدالحكيم عامر هذه المسؤولية. ورغم أنه لم يكن هو المناسب لهذا المنصب إلا أننا وافقنا بالإجماع، فقد كان عبدالحكيم أقربنا إلى قلب عبدالناصر ومن أجل ذلك اختاره لثقته فيه، ومعارضتنا قد يفسرها تفسيراتٍ شتى نحن فـــي غنى عنها، منها مثلاً أن من سيعارض سيقال، إنه يريد المنصب لنفسه. وكنا جميعـــاً نعمل دون النظر إلى منصب معين، فوافقنا بالإجماع".

وفـــي مذكراته، يقول خالد محيي الدين إن محمد نجيب قاوم بشدة مسألة إعلان الجمهورية، خصوصـــاً أن المشروع الذي قدمه

عبدالناصر يقضي بأن يعين شخصٌ آخر قائدًا عامـًا للقوات المسلحة. وفـي المقابل، شعر عبدالناصر بالقلق من الجماهيرية الواسعة التي أخذ محمد نجيب فـي اكتسابها.

ويحكي خالد محيي الد ، عن اختيار عبدالحكيم عامر قائدًا للجيش، فيقول: "كان اختيار عبدالحكيم عامر قائدًا للجيش مثارًا لمعركة صامتة بين الزملاء فـي مجلس الثورة، فبغدادي اعتبرها مناورة من عبدالناصر لتعزيز نفوذه الشخصي فـي مواجهتنا جميعـًا، فعامر صديقه الحميم، ولا بدَّ أنهما معـًا يستقويان ببعضهما البعض ضد الجميع، وربما كان هذا هو ما حدث فعلاً فيما بعد"190.

ويتابع حديثه قائلاً: "كذلك أحدث تعيين عامر حالة من عدم الرضاء بين قادة القوات المسلحة فكيف لضابط أن يقفز من رتبة الصاغ إلى رتبة اللواء دفعةً واحدة ليقودهم جميعـًا؟!

"وبدأ الإعراب عن عدم الرضا هذا باستقالة حسن محمود قائد سلاح الطيران، الذي أكد لنا جميعـًا أنه يحترم عبدالحكيم عامر، لكنه يستقيل لأنه يعتبر أن رتبة اللواء رتبة محترمة وأنه لا يجوز التلاعب بالرتب العسكرية، والقفز عبرها بهذه السهولة. وحدثت استقالات مماثلة، وأدى ذلك إلى قلقٍ مضاعف لدى محمد نجيب فقد كان يعتمد فـي علاقاته بالجيش على هذه القيادات التقليدية، وخاصةً أن غيابها سيتيح لـ"جمال" و"عامر" أن يحلا رجالهما محل المستقيلين"!

---

190 خالد محي الدين، والآن أتكلم، مركز الأهرام للترجمة والنشر، القاهرة، 1992.

ويضيف خالد محيي الدين فـــي كلامه عن عامر: "صديق قديم وعزيز أيضـــًا، ولعل الخطأ الأول فـــي حق عامر هو أنه عُين قائدًا للجيش، لقد فعلها عبدالناصر لأنهما كانا صديقين حميمين، فأراد أن يضمن به (أي عامر) ولاء القوات المسلحة، لكن عامر لم يكن رجلاً من هذا النوع، فهو "عُمدة" طيب القلب يحبُ أن يقيم علاقات حسنة مع الناس، وأن يتباسط معهم، وهو لا يهتم كثيرًا بالضبط والربط، فحياته ذاتها لم تكن منظمة، فقد كان يسهر كثيرًا ويصحو متأخرًا.

"لقد ظلموه عندما عينوه قائدًا للجيش، فهو شخصٌ "جماهيري" ولو أنه كان قد عُينَ نائبـــًا لرئيس الجمهورية وتفرغ مثلاً لهيئة التحرير لكان قد حقق نجاحاتٍ مبهرة فهو شخصٌ مرحٌ وطيبٌ وقادرٌ على إقامة علاقاتٍ شخصية حميمية، وآخر ما كان يصلح له هو أن يتولى مسؤولية الضبط والربط، وأن يتابع عمليات قيادة القوات المسلحة البالغة التعقيد والحساسية، وأن يتابع معها التسليح وتطور الأسلحة والتدريب وما إلى ذلك.

"ولعله لم يهتم بهذا كثيرًا، بل غلبت عليه روحه الطيبة وشخصية العنيدة، فكان سخيـــًا على الضباط، وكسب حبهم إلى درجةٍ كبيرة، ولكن النتائج النهائية لم تكن مفيدة لأحد، لا لمصر، ولا للجيش، ولا له هو شخصيـــًا".

أما عضو مجلس قيادة الثورة عبداللطيف البغدادي، الذي اعترض فـــي البداية على اقتراح عبدالناصر بشأن تعيين عبدالحكيم عامر

قائدًا للجيش، فإنه يقول: "وكان من نتائج تعيين عبدالحكيم عامر قائدًا للجيش أن أبعد باقي أعضاء المجلس عن وحداتهم العسكرية تدريجيــًا بحجة أن نترك حرية العمل لعبدالحكيم عامر حتى لا نتسبب فـــي سوء تفاهمٍ بيننا لو ١٠ تمرت علاقتنا بزملائنا الضباط، وعمل على إبعاد زملائنا عنا بواسطة ضباط مكتب عبدالحكيم، وكان ذلك يجري بتهديدهم أو بحجة ابتعادهم عن حتى لا يُضاروا. وكان يعمل فـــي الوقت نفسه على تقربهم من عبدالحكيم بخدماتٍ تُقدم إليهم حتى أصبح لا هم للكثير من الضباط إلا التقرب من عبدالحكيم وجمال عبدالناصر، أو إلى من هم قريبين منهما طمعـًا فـــي منصب أفضل أو خدمة تؤدي لهم. وأصبح الجيش بذلك مع مرور الوقت أداة فـــي يد جمال وعبدالحكيم، وانعزلنا نحن نهائيــًا عنه، ونتج عن هذه السياسة فساد الجيش مما ترتب عليه نتائج وخيمة عسكرية وسياسية"191.

وبعد عشرة أيام، زار وزير الإرشاد الصاغ صلاح سالم المحلة الكبرى، وخرجت صحيفة "الأهرام" بمانشيتات بينها ما يلي:

"خطاب خطير لوزير الإرشاد فـــي المحلة يشرح فيه أسباب إعلان الجمهورية واشتراك رجال الثورة فـــي الوزارة"

"اللواء عبدالحكيم عامر كان القائد الحقيقي للجيش منذ سنة"

وأخذ صلاح سالم يشرح حكاية ترقية عبدالحكيم عامر.

---

191 عبداللطيف البغدادي، مذكرات عبداللطيف بغدادي، (جزءان)، المكتب المصري الحديث، القاهرة، 1977.

وكان بين ما قاله: "لقد كان محمد نجيب منذ اليوم قائدًا عامــًا، وكل منكم يشعر أنه يقود هذه الأمة ويشرف على مجلس الوزراء، ومجلس الثورة، ويزوركم فـــي كل منطقة، فلم يكن محمد نجيب يستطيع أن يتفرغ لقيادة الجيش وهو القوة التي تسند هذا العهد، وقد فطنا إلى هذا الوضع منذ اليوم الأول واتفقنا على أن يشرف أحدنا فعلاً على قيادة هذا الجيش، فكان عبدالحكيم عامر يذهب إلى مكتب القائد من اليوم الأول يصدر الأوامر للوحدات، ويشرف على نهضة الجيش وتدريبه وتسليحه. لأن الجيش لا يمكن أن يسير بدون قيادة يومــًا واحدًا، ولا يمكن لمحمد نجيب الذي يعمل 17 ساعة يوميــًا أن ينتقل من مكانٍ إلى مكان يؤدي واجبه الشعبي والرسمي، ثم يقود الجيش أيضــًا ويسخر وقته لهذا الجيش، وكلنا نشعر أن الجيش يجب أن ينهض لأن الأمة لا تساوي شيئــًا بدونه.

"يجب أن يكون هناك قائد، وكلنا يعرف أن محمد نجيب لم يستطع أن يترك البلاد ويدير الجيش فكان عبدالحكيم عامر من أول يوم يدير دفة هذا الجيش".

ويتساءل صلاح سالم أمام الجماهير قائلاً: "ومن هو عبدالحكيم عامر؟!"

ويقول صلاح سالم فـــي معرض إجابته على هذا السؤال: "إنه الشاب الذي لا يطمع فـــي مئة جنيه مرتب اللواء، وتحت يده الآلاف والملايين لو أنه خرب الذمة لاستطاع أن يستولي عليها ويأخذها كما كان يفعل اللواءات الذين تعرفون عنهم الكثير.

"لقد كان عامر يصدر الأوامر للجيش ويشترك فـي نهضته فقررنا وضع كل شخص فـي مكانه حتى نظهر أمام الشعب بالوضع الطبيعي والنهائي فقلنا إن محمد نجيب رئيس هذه الدولة فهو رئيس للجمهورية، كما أننا مفروض فينا أن نتحمل التبعات.. وإذا كان عبدالحكيم عامر يقود الجيش فعلاً طوال هذه الفترة، فلا يكون الوضع طبيعيـاً إذا ما أعلن برتبة الصاغ قائدًا للجيش، ويشرف على رتب قائمقام وأميرالاي ولواء، ولو أنه كان يتولى ذلك طوال السنة، إذًا، يجب أن يأخذ عبدالحكيم عامر الوضع الطبيعي والشكل الرسمي ويحمل هذه الرتبة التي لا تشرفه وإنما يشرفه العمل على رفعة شأن الجيش إلى الوضع الذي ستفخرون به".

ويروي محمد حسنين هيكل وقائع الحوار الذي دار بينه وبين القائد العسكري الإنجليزي الأشهر برنارد مونتغمري حين زار مصر في الأسبوع الأول من مايو 1967، في ذكرى مرور ربع قرن على معركة العلمين الشهيرة، والتقى هيكل به يومها ودار بينهما حوار طويل أبدى فيه مونتغمري، الذي كان يحمل رتبة الفيلد ماريشال (ما يعادل المشير) استغرابه من كون عبدالحكيم عامر "ماريشالاً سياسيـاً".

في حواره مع هيكل، قرر مونتغمري أن يخوض في قلب ما رآه مشكلة تعاني منها مصر، هي مشكلة العلاقة بين العسكريين والمدنيين، وقد بدأ حديثه بتذكر خلاف حدث بينه وبين ونستون تشرشل رئيس الوزراء البريطاني إبان الحرب العالمية الثانية وأحد أشهر الساسة

البريطانيين على مر العصور، قبل أن يقول لهيكل "إنني لا أحب الساسة حين يتحولون إلى جنرالات، وأيضـــاً لا أحب الجنرالات حين يتحولون إلى ساسة"،

وهنا يروي هيكل "وعلى غير انتظار -وحواسي كلها معه- اندفع مونتغمري في عملية اختراق مفاجئة لخطوطي - سألني:

"لماذا يتحول الجنرالات عندكم إلى ساسة؟"

وحاولت أن أكسب وقتـــاً فسألته:

"أي جنرالات؟".

قال بسرعة:

"ناصر وزملاؤه".

قلت: "إن ناصر ليس جنرالاً وآخر رتبة وصل إليها في الجيش هي رتبة الكولونيل فقط".

قال مشددًا الهجوم:

"حسنـــاً، سوف أعدّل سؤالي: لماذا يتحول الكولونيلات إلى ساسة".

قلت:

"حلمك.. دعني أشرح لك القصة بالتفصيل".

"ورحت أحدثه عن ظروف مصر ومراحل تطورها، والظروف التي أحاطت بالثورة، وكيف أن الذين قاموا بها مجموعة من شبان

الجيش، قاموا بها بوصفهم شباباً وطنيين لا ضباطاً في الجيش، بل وكانت مهمتهم الأولى في الثورة هي الاستيلاء على مقاليد الأمور في الجيش لكي يمنعوا الملك من استخدامه ضد ثورة الشعب، ثم يضعونه هم تحت تصرف الثورة الشعبية لتأمين أهدافها، ثم استعرضت ظروف العالم الثالث كله ودور الجيوش فيه باعتبارها المؤسسات الوحيدة القادرة على كفالة الاستمرار في أوقات الأزمات الكبرى".

لم يجد مونتغمري تفسير هيكل مقنعاً فقال له: "إنك لن تستطيع أن تقنعني"، وهنا جاء رد هيكل مفاجئاً؛ حيث قال له :

"إنني لا أحاول إقناعك، وكيف أستطيع أن أقنعك بشيء أنا نفسي غير مقتنع به، إنني كنت أشرح لك ملابسات حالة، ولم أكن أقنن قاعدة. على وجه اليقين أنا لست من أنصار تدخل العسكريين في السياسة. لا أريد للجنرالات أن يصبحوا ساسة بنفس المقدار الذي لم ترد فيه أنت للساسة أن يصبحوا جنرالات. لكن أمامنا في مصر – وفي العالم الثالث كله تقريباً– ظاهرة لا بدَّ لها من تفسير، وحين أفسر فإنني لا أبرر".

"وقلت:

على أي حال إنك سوف تقابل الرئيس ناصر، وأقترح أن توجه إليه نفس السؤال.

"وقال مونتغمري:

"ألا يغضبه السؤال؟".

قلت:

"لا أظن".

"قال بعد تردد:

"إنني قد أكون على استعداد لفهم موقف "ناصر"، لكن هناك ضمن المجموعة ضابط آخر أصبح "ماريشالاً سياسيــًا (يقصد المشير عبدالحكيم عامر). ليست هناك حاجة على الإطلاق لــ"ماريشال سياسي"، الماريشالية لا تكون إلا بقيادة الجيوش في الميدان، وليس من أي سبب آخر".

يقول هيكل: "قلت مقاطعــًا:

"قد لا أختلف معك كثيرًا، ومع ذلك فلماذا لا تسأله هو الآخر حين تلقاه".

"وقال:

"هل أستطيع أن أسأله هذا السؤال فعلاً إذا لقيته، وهل يغضبه السؤال؟".

"وقلت ضاحكــًا:

"لا أعرف"[192].

لم يذكر هيكل بعدها هل سأل مونتغمري المشير عامر ذلك السؤال الشائك أم لا.

---

192 محمد حسنين هيكل، زيارة جديدة للتاريخ، دار الشروق، القاهرة، 2010، ص 176– 178.

كانت ترقية عامر زلزالاً سياسيــاً وعسكريــاً له توابعه.

ولا شك أن الوضع الذي آل إليه الجيش والمصير الذي لقيه بعد نحو شهر من زيارة مونتغمري للقاهرة، أي فـــي حرب يونيو 1967، يكشف بوضوح ما قام به عامر كقائد للمؤسسة العسكرية المصرية.

4

عامر وناصر:

عامر 56

شهدت حياة عبدالحكيم عامر بعد نجاح الثورة تغييراتٍ جوهرية وسريعة.

فقد تمت ترقيته وهو لم يزل فـي سن الرابعة والثلاثين من العمر إلى رتبة لواء، وأوكلت إليه مهمة قيادة القوات المسلحة، وأصبح فـي عام 1953 مسماه الجديد القائد العام للقوات المسلحة المصرية. وبعد عامٍ واحدٍ أيضـًا عُيِنَ وزيرًا للحربية مع احتفاظه بمنصبه فـي القيادة العامة للقوات المسلحة، ثم رُقي إلى رتبة فريق عام 1958.

وبعد قيام الوحدة مع سوريا تحت اسم الجمهورية العربية المتحدة، مُنِحَ عبدالحكيم عامر رتبة مشير، فـي 23 فبراير 1958.

وكانت الترقية الأخرى رفعته إلى مرتبة نائب رئيس جمهورية فـي 6 مارس 1958، واستمر فـي هذا المنصب حتى أغسطس 1961، حيث أضيفت إليه مهمة رئاسة اللجنة العليا للسد العالي، ثم رئاسة

المجلس الأعلى للمؤسسات العامة ذات الطابع الاقتصادي في إبريل من العام نفسه.

وبعد قيام ثورة اليمن في 30 سبتمبر 1962 واعتراف مصر بها ورغبة منها في تدعيم الثوار الجدد، أرسلت جزءاً كبيرًا من قواتها المسلحة إلى هناك، وأسندت مهمة الإشراف عليها إلى المشير عبدالحكيم عامر بصفته قائدًا عامـًا للقوات المسلحة. وفي مارس 1964، أصبح نائبـًا أول للرئيس عبدالناصر، يتمتع بصلاحيات كبيرة، فضلاً عن منصب نائب رئيس المجلس الأعلى للقوات المسلحة193.

امتدت أذرع عبدالحكيم عامر في مختلف نواحي الحياة المدنية.

وأصبح رئيسـًا لاتحاد كرة القدم، ورئيسـًا للطرق الصوفية، واهتم بمباريات كرة القدم -وخصوصـًا نادي الزمالك- وكتابات الناقد الرياضي نجيب المستكاوي، في الوقت الذي شغل فيه منصب رئيس اللجنة العليا لتصفية الإقطاع اعتبارًا من مايو 1966. وفي أكتوبر من العام نفسه، عهد إلى وزير الحربية شمس بدران ببعض اختصاصات القائد العام للقوات المسلحة وأصبح مسؤولاً أمام عبدالحكيم عامر عن كل ما يكلفه به من أعمال عسكرية وإدارية.

غير أن عامر جمع بين السياسي والعسكري بأسلوب يشوبه الارتباك والاندفاع، ما أدى إلى انحراف الجيش عن مهمته الأصلية

193 W. Andrew Terrill, Amer, Abdel Hakim; In: Spencer C. Tucker (Ed.), Priscilla Roberts (Ed.), The Encyclopedia of the Arab-Israeli Conflict: A Political, Social and Military History, Santa Barbara: ABC-CLIO, 2008. pp. 99-100.

فـــي حماية الوطن وحماية النظام. لنتأمل مثلاً حكاية إشراف عامر على النقل العام بالقاهرة عبر أحد ضباطه عبدالعزيز الجمل.. وهو أسلوبٌ بدا لكثيرين مخافيـــاً للمنطق.

يقول الرئيس أنور السادات فـــي كتابه "البحث عن الذات": "كان لعبدالحكيم عامر أخطاؤه بطبيعة الحال، ولكن الأهم من ذلك أنه كان يسيء اختيار معاونيه بشكل فاضح، وكان من أبرز ملامح شخصيته روح القبيلة، فهو يساند معاونيه بالحق أو الباطل"[194].

ومنذ أواخر خمسينيات القرن العشرين، حرص عامر قادرًا على إبراز معاونيه وتوليتهم أخطر المناصب وأهمها. وهكذا أصبح معاونه الرئيس صلاح نصر مديرًا للمخابرات العامة فـــي مايو 1957 مصحوبـــاً بنائبه عباس رضوان وهو التالي له فـــي القرب. ثم نجده يقف وراء اختيار عباس رضوان وزيرًا للداخلية. ثم نراه يستوزر معاونه الثالث توفيق عبدالفتاح وزيرًا للعمل والشؤون الاجتماعية.

والأكيد أن ذلك تم بموافقة عبدالناصر، الذي تصور أن عامر هو الأوثق والأقدر على إدارة الأمور بالحزم العسكري المطلوب وبإشارة للجميع إلى أن الجيش قلعة النظام وهراوته الجاهزة.

كان اختبار مارس 1954 شبه ناجح لقيادة عامر للقوات المسلحة؛ إذ كان واسطة العقد بين سلاحي المدفعية والطيران فـــي تصديهما لسلاح المدرعات وإجهاض محاولته التمرد على مجلس القيادة لصالح "الصاغ الأحمر" خالد محيي الدين وحليفه محمد نجيب.

---

194 أنور السادات، البحث عن الذات، المكتب المصري الحديث، القاهرة، 1978، ص 305.

وفــي 14 نوفمبر عام 1954 لم يؤد الحرس الجمهوري التحية العسكرية للرئيس محمد نجيب وهو يدخل قصر عابدين.. وفوجئ بالصاغ حسين عرفة ومعه ضابطان وعشرة جنود يحاصرونه وهم يشهرون السلاح، فصرخ فيهم ليبتعدوا عنه. وبمجرد دخوله مكتبه اتصل بجمال عبدالناصر قائلا: "إيه لعب العيال ده يا جمال".. فرد عليه: "سوف أرسل لك عبدالحكيم عامر".

وبعد دقائق جاء عبدالحكيم عامر ومعه حسن إبراهيم ليقولا له فــي خجل: "إن مجلس قيادة الثورة قرر إعفاءكم من منصب رئيس الجمهورية"، فغادر مكتبه دون أن يحمل معه إلا المصحف.

ما إن مرت أعوام ثلاثة على توليه القيادة حتى كان عامر قد اكتسب شعبية طاغية بين الضباط أوصلته إلى أن يقف فــي احتفال إهداء أعضاء مجلس القيادة قلادة النيل -يونيو 1956- ويتوجه بالقلادة نحو جموع الضباط الحاضرين، فــي إشارةٍ واضحة إلى أنها باسمهم ولهم عبره.

وحين نتأمل شخصية عامر، سيتبين لنا أنه كان مختلفــًا فــي طباعه عن باقي زملائه فــي مجلس قيادة الثورة.

وفــي هذا يقول حلمي سلام: "لم يكن عبدالحكيم عامر حذرًا كعبدالناصر، ولا فوارًا كصلاح سالم، ولا غامضــًا كزكريا محيي الدين، ولا ماكرًا كالسادات".

كان عامر ببساطة صورة من العمدة الذي يحرص على أن يكون محبوبــًا وذا شعبية وأنصار، بفضل بساطته وشهامته.. وسخائه.

وفــي كتابه "حياة المشير محمد عبدالحكيم عامر" ينقلُ رشاد كامل عن عضو تنظيم الضباط الأحرار لطفــي واكد حكاية لها دلالتها؛ إذ يقول: "فــي أحد الأيام من عام 1954، بعد حادث الاعتداء على الرئيس جمال عبدالناصر فــي المنشية، واعتقال الإخوان المسلمين، وكان لي رفاق سلاحٍ منهم فــي المقاومة ضد قوات الاحتلال البريطاني. ذهبت لزيارة مجاملة للمرحوم بيوسف طلعت، وبعد انتهاء الزيارة تعمد قائد السجن الحربي حمزة البسيوني بأن يعطلني حتى طابور التمام كي أشاهد مسرحيةً سمجة حيث يقف الهضيبي فــي الأمام ووراؤه طابور من مكتب الإرشاد ثم باقي المعتقلين وكل واحد منهم وراؤه سجان فــي يده عصا، ثم يُذاع من الميكروفون تسجيل لعبدالناصر وهو يتكلم فــي المنشية، ثم طلقات الرصاص ثم يتوقف الشريط ويذاع صوت أم كلثوم تغني "يا جمال يا مثال الوطنية"، ويجبر الجميع تحت التهديد بالضرب على ترديد الأغنية والهتاف لجمال لعبدالناصر.

"شاهدتُ هذه المسرحية السمجة وخرجتُ منقبضـــاً إلى منزل الرئيس، ورويتُ له ما رأيت فأصيب بالذهول، وقال:

"هل رأيت بنفسك أم سمعت هذه الرواية من أحد؟".

فقلت له: أنا قادم من هناك فورًا".

فقال: "أنا أشعر بالخزي من حدوث هذا الشيء فــي عهدي".

ثم قال عبدالناصر: العنف يقابَلُ بالعنف لا أعترض، لكنِ السجين أمانة فــي عنق الدولة، وإهانة المساجين وتعذيبهم معنويــاً شيء لا أقبله أبدًا، ويجب نقل حمزة البسيوني فورًا ومحاكمته!

ثم طلب عبدالحكيم عامر عدة مرات ولم يجده ولم يكلمه أمامي، ولكنه فـــي ثورته قال: عبدالحكيم بيتستر على سفاحين!

وفـــي أثناء جلوسي معه كان يتكلم فـــي التليفون، ودق تليفون آخر فطلب مني الرد، وكانت المتكلمة السيدة أم كلثوم فقال لي: احك لها ما رأيته فـــي السجن الحربي.. وبعد فترة تكلم صلاح سالم فروى له ما حدث وكرر عبارة "عبدالحكيم بيتستر على سفاحين"، وخرجت من مترله وأنا متأكد من أن دور حمزة البسيوني، وأمثاله قد انتهى، لكنه بقي بعد ذلك 13 عامـــاً"!

ويعلق لطفـــي واكد قائلاً:

"وهنا بدأت أكتشف أن عبدالحكيم لم يعد بالضبط ظلاً لعبدالناصر".

وما لم يقله لطفـــي واكد أن العلاقة والصداقة بين هذين الرجلين زادت وكبرت ولم تهتز آنذاك ولو بشرخٍ واحد.

يقول محمود الجيار، مدير مكتب جمال عبدالناصر، إن "المكانة الخاصة لعبدالحكيم عامر فـــي قلب عبدالناصر كانت سبباً فـــي كثيرٍ من المتاعب مع بعض أعضاء مجلس الثورة الآخرين، وأدت إلى تنميةِ العداوة بينهم وبين عبدالحكيم، وبسببها تفاقمت مشكلات وخلافات لا حصر لها.

"وبعض هذه المشكلات والخلافات كان يمكن أن يتجنبها عبدالناصر لو أنه جعل العلاقة بين عبدالحكيم فـــي مستوى علاقته بكمال الدين حسين أو البغدادي، أو زكريا محيي الدين"[195].

---

195 عزازي علي عزازي، ظل الرئيس.. مذكرات محمود الجيار مدير مكتب ناصر، مركز الحضارة العربية، القاهرة، 2006.

تدريجيـــا، شهدت العلاقة بين الصديقين ناصر وعامر نوعـــا من الحساسية، أخذت تزداد على مر الأيام حتى تحولت إلى مواجهة، خصوصـــا بعد أن سعى عبدالناصر إلى إعداد جيل من طلبة الكلية الحربية يدين له بالولاء الشخصي، كي يعتمد عليه بعد تخرج هؤلاء الطلبة. أوكل عبدالناصر هذه المهمة إلى الصاغ إبراهيم الطحاوي من الضباط الأحرار الذي شغل موقع السكرتير العام المساعد لهيئة التحرير.

بدأ الطحاوي مهمته سرًا عام 1955، لكن عمره كان قصيرًا؛ إذ يقول صلاح نصر: "استمر تنظيم طلبة الكلية الحربية يعمل فـــي الخفاء، حتى تم اكتشافه عام 1956، وعلم به عبدالحكيم عامر قائد القوات المسلحة، وتفجر الموقف بمجابهة بين عبدالناصر وعبدالحكيم عامر".

تجاوز الرجلان بسرعة هذه الأزمة العابرة.

ثم جاءت حرب السويس عام 1956 لتصنع شرخـــا فـــي العلاقة بين الرجلين.

فقد أبدى عبدالناصر ملاحظات قاسية ومؤلمة بشأن الأداء العسكري للقوات المسلحة برئاسة المشير عامر.

يقول صلاح نصر فـــي مذكراته: "..وبعد أن بدا لـــ"عبدالناصر" أن اشتراك فرنسا وانجلترا فـــي الحرب أمرٌ مؤكد.. برز التساؤل: هل نستمر فـــي الحرب مهما كانت التضحيات، أم نجنب البلاد ويلاتِ الحرب بالاستسلام وبدء عمليات المقاومة الشعبية؟

"كان من رأي عبدالناصر الاستمرار فـــي القتال. وقال: إننا لو لم نقاتل اليوم فلن نقاتل أبدًا.. لا بدَّ لنا من القتال حتى لو أجبرنا على الانسحاب إلى الوجه القبلي واللجوء إلى حرب العصابات.. أما عبدالحكيم عامر فقد ذكَّر عبدالناصر بتحذيره له من مواجهة دولتين كبيرتين، وقال لـــ"عبدالناصر" إن القوات المسلحة ليست فـــي وضع استعدادٍ لمواجهة غزوٍ كبير، وإن معنى ذلك انتحار القوات المسلحة وتخريب اقتصاد مصر"196.

وحين أيد صلاح سالم موقف عامر ازداد الموقف سوءًا؛ إذ انفجر عبدالناصر فـــي وجه صلاح سالم ونعته بالجبن وقال له إنه داعية استسلام، ما أثار حفيظة صلاح سالم. واتهم عبدالناصر صديقه عامر بأنه واقعٌ تحت تأثير صلاح سالم، فرد عليه عامر بالقول: "أنت عارف أن لي شخصيتي المستقلة، ولا يمكن أن يؤثر عليّ صلاح سالم أو غيره".

كان عبدالناصر فـــي حالة أشبه بالهستيريا، لدرجة أنه اقترح على أعضاء مجلس الثورة الانتحار كبديل للاستسلام. وبالفعل كلف عبدالناصر زكريا محيي الدين كي يعد كميةً كافية من عبوات سيانيد البوتاسيوم تكفـــي أعضاء مجلس الثورة لاستخدامها لو لزم الأمر.

ويتابع صلاح نصر حديثه بالقول: "وبدت فـــي الأفق بداية لتدهور العلاقات بين صديقي العمر جمال عبدالناصر وعبدالحكيم عامر إذ بدأ جمال يشكو لكل من يقابله من عبدالحكيم عامر قائلاً إن

---

196 صلاح نصر، مرجع سابق.

عبدالحكيم عزله عن القيادة العسكرية، وإنه لا يضعه فـــي الصورة عما يجري من أمور الحرب، بالرغم من أنه المسؤول الأول عن حماية البلاد وأمنها".

"والواقع أن هذه الشكوى تجنٍ كبير، فـ"عبدالناصر" كان موجودًا دائمـــًا منذ بداية عدوان إسرائيل فـــي القيادة العامة، وهو الذي ابتعد بعد ذلك عن القيادة بعد أن تبين خطورة الموقف".

وكان عامر قد بادر مع هيئة أركانه بإعادة توزيع القوات لتعزيز محور الإسكندرية- القاهرة اعتقادًا أن اتجاه الغزو قادم من هناك، لكنه فوجئ بأن قواتٍ إسرائيلية انطلقت عبر سيناء فـــي اليوم التالي مع إنزال مظلي على خط الدفاع الثالث- مضيق متلا. ارتبك عامر وهو الذي لم يتوقع هجوم إسرائيل على سيناء وإنما على الضفة الغربية.

وهكذا قرر الدفع بقوات كبيرة إلى سيناء: أولاً بهدف تدمير اللواء المظلي فـــي متلا.. وثانيـــًا بهدف الاشتباك وسط صحن سيناء مع قوات الهجوم الإسرائيلية كانت أيام 29 و 30 و 31 أكتوبر أيام اشتباك بري وجوي شامل بين قوات مصر وإسرائيل.

كانت هناك مظلة جوية فرنسية فوق إسرائيل وحماية بحرية فرنسية لسواحل إسرائيل. تكفل هذان العاملان فـــي إفشال أي اختراق جوي أو بحري مصري ذي قيمة لحدود إسرائيل. من هنا سقطت المدمرة إبراهيم -فخر البحرية المصرية- فـــي الأسر أمام ميناء يافا أثناء محاولتها الاقتراب منه تمهيدًا لقصفه.

لم تستطع القوات المصرية زحزحة لواء شارون المظلي عن ممر متلا ولا الوصول إلى قلب سيناء بحجمٍ كافٍ لإدارة معركة للمواجهة والتصدي.

ثم ما إن بدت ملامح بعد من حشد مع نهاية اليوم الثاني للحرب حتى داهم القيادة المصرية خبر الإنذار البريطاني -الفرنسي المشترك مساء 30 أكتوبر عند ذاك المنعطف الخطير للحوادث أصاب الشلل تفكير عامر بدرجة كبيرة.

كان قرار عبدالناصر في ضوء الإنذار هو انسحاب كامل القوات من سيناء في غضون يوم وتجمعها في منطقة القنال لتقاتل معركة تعويق ضد الإنزال البريطاني -الفرنسي المرتقب فيها.

عاند عامر في رفضه هذا الانسحاب وفي تصميمه على الاستمرار في قتال إسرائيل داخل سيناء، مبددًا ساعات ثمينة كان يمكنها أن تيسر انسحابًا عاجلاً قبل نفاذ موعد الإنذار وبدء القصف الجوي المعادي.

فرض عبدالناصر الانسحاب على عامر وهيئة أركانه ولكن بثمنٍ باهظ بعض الشيء؛ إذ تعرضت الفرقة المدرعة الرابعة جوهرة العسكرية -إلى قصف جوي مركز وهي تعبر ممر الجفجافة ومن ثم كوبري الفردان عائدة لمنطقة القنال. ما انتهى إليه الحال هو وحدات مشتتة وممزقة ترتع خسائرها على طرق سيناء، وكذلك طريق الإسماعيلية -القاهرة، بما دفع عبدالناصر يوم 2 نوفمبر على القول وهو يعاينها في طريقه من القاهرة للإسماعيلية: "لقد هزمني جيشي"!

والقاطع أن إدارة عبدالحكيم عامر للمعركة كانت على درجة من الهزال لم تكن خافيةً على أحد من أعضاء مجلس القيادة القديم الذين تجمعوا فـــي مقر القيادة العسكرية بين الفينة والأخرى.

ويرى البعض أنه من دلائل سوء قيادة عبدالحكيم هو أنه توفر للطيران المصري مدة 24 ساعة إنذار ليقوم بعملية إخلاء سريعة للقواعد الجوية ناجيـــًا بنفسه إلى السودان والسعودية وأعماق الصعيد.. . لكن ما حدث هو أنه ربض فـــي قواعده بأمر قيادته – صدقي محمود– المحسوبة على عبدالحكيم عامر، مكشوفـــًا فـــي العراء وعرضة للتدمير الساحق، وهو فعلاً ما جرى منذ غروب 31 أكتوبر.

أسفرت حرب السويس عن شرخ صامت فـــي العلاقة بين "الأخوين" ناصر وعامر سرعان ما تبدى فـــي طلب الأول تبديل القيادات العسكرية الكبيرة، وليس فقط قيادة بور سعيد الفاشلة.

انتفض عامر معارضـــًا وبحزم لهذا الطلب بحجة أن هذه القيادات ما كان فـــي مقدورها أن تؤدي بأفضل فـــي وجه حملة ثلاثية عاتية، وأن الإنصاف يقضي بإعطائها فرصة أخرى لتستوعب السلاح والعقيدة السوفيتية فتتفادى فـــي مواجهات المستقبل أخطاء الماضي.

ويقول عضو مجلس قيادة الثورة عبداللطيف البغدادي فـــي مذكراته: "الحقيقة أن مستوى قادة القوات المسلحة جميعـــًا لم يكن فوق مستوى النقد، بل إنه تقرر فـــي هذه الفترة إخراج صدقي محمود قائد القوات الجوية، ولكن عبدالحكيم عامر قاوم ذلك بحجة اعتماده عليه، وأنه إذا كان قد أخطأ فهو كذلك قد أخطأ معه".

ويؤكد الأمر نفسه عضو مجلس الرئاسة كمال رفعت؛ إذ يقول: "أراد جمال عبدالناصر إخراج الفريق صدقي محمود قائد القوات الجوية بعد تدمير الطائرات المصرية على أرض المطارات، ولكن عبدالحكيم عامر تشبث به وقاوم فكرة إخراجه.

"الواقع أن النصر الذي حققته مصر عام 1956 كان سياسيًا وشعبيًا أكثر منه عسكريًا، فإن القوات المسلحة لم تؤدِ واجبها كما تقضي الأصول والتقاليد العسكرية".

خضع عبدالناصر لضغط عامر بل ورفعه لرتبة الفريق عام 1958 رمزًا للتوافق وطي الصفحة. وبالفعل قُسّم مكتب القائد العام إلى قسمين: الأول للشؤون العسكرية على رأسه ضابط قدير هو العميد حافظ إسماعيل، والثاني للشؤون العامة (التأمين السياسي) على رأسه عباس رضوان (بعد خروج صلاح نصر منه إلى المخابرات العامة) ومعه توفيق عبدالفتاح وشمس بدران.

يقول السادات في كتابه "البحث عن الذات": "عقب الانفصال قلنا لعبدالناصر: إن عزل عبدالحكيم عامر كان يجب أن يتم سنة 1956، لا في 1961 فقط؛ لأنه لا يصلح من ناحية العمل العسكري"[197].

إلا أن جمال عبدالناصر داوى جراح خلافاته مع صديقه عبدالحكيم عامر، لتتوالى فصول أخرى أكثر مأساوية في تاريخ مصر.

---

197 أنور السادات، البحث عن الذات، مرجع سابق، ص 307.

5

عامر وناصر:
صدمة دمشق وصدفة القاهرة

لم يجن عبدالحكيم عامر بلح الشام أو عنب اليمن!

ونحن نعني هذه العبارة حرفيـــاً.

فقد أخفق عبدالحكيم عامر -الذي تمت ترقيته إلى رتبة فريق عام 1958، وبعد الوحدة مع سوريا وفـــي العام نفسه جرت ترقيته إلى رتبة مشير- فـــي إدارة حرب اليمن، مثلما تحمل جانبـــاً من المسؤولية عن فشل مشروع الوحدة.

وأخذ البعض على عبدالحكيم عامر الطريقة السيئة التي أدار بها عملية الحرب هناك.

فقد خاضت القوات المصرية المتزايدة الحجم عمليات هجومية واسعة النطاق عبر كل الأراضي اليمنية وصولاً إلى الحدود مع السعودية وجنوب اليمن فـــي يناير 1963 سميت "عمليات الجوف".

كان الهدف غير المنطقي هو تأمين كل أراضي الجمهورية وعلى الفور أعاد عبدالحكيم الكرة في العامين التاليين. وفي كل مرة كانت النتيجة خسائر فادحة ونتائج سياسية مركبة. ولم يتدارك الخطأ إلا في ربيع 1966، عندما وافق على خفض حجم القوات إلى فرقتين مكلفتين بتأمين مثلث صنعاء - الحديدة - تعز فقط لا غير. هذا المثلث هو قلب اليمن الحيوي وهو المهم في الأساس لإرساء دعائم النظام الجمهوري، ومن ثم بناء الجيش اليمني الوطني القادر لاحقاً على تطهير الأطراف.

لقد أنفق عبدالحكيم عامر مالاً كثيرًا وذهبًا وفيرًا على رشوة قبائل الحدود، ليُفاجأ في كل مرة أنه لا يستطيع منافسة السعودية في سباق شراء الولاء.

ورأى البعض أنه كان الأجدر به أن يحدد هدفه منذ البداية - أي أكتوبر 1962 - في أن تأمين المثلث المحوري هو المراد، وبعده بناء الجيش الجمهوري ومن ثم تحرير كامل المساحة. ولو فعل ذلك لكان الاستنزاف الذي تعرض له الجيش المصري أقل بكثير مما جرى، ولكانت النتائج السياسية أيسر منالاً.

وفي ظل قيادته المرتبكة لحرب اليمن، وقعت أخطاء. ويروي الفريق أول محمد فوزي تفاصيل مروعة لما ارتكبه جنود مصريون في حرب اليمن من استهلاك وفساد.

المحطة الأهم في سجل إخفاقات عبدالحكيم عامر على الصعيد السياسي هي الفشل في حُكم سوريا أثناء مشروع الوحدة، ما أدى إلى وقوع للانفصال.

ففـــي فجر يوم 28 سبتمبر 1961 استيقظ عبدالناصر على أسوأ خبر يتعلق بالمشروع القومي العربي منذ ثورة 23 يوليو 1952.

والحق أن خلفية قرار تعيين عبدالحكيم حاكمـــاً مطلق الصلاحيات لسوريا هي المتاعب الكبيرة التي نالها عبدالناصر من فئات البعث المنحل، سواء بالصراع الصامت بين أنصار ميشيل عفلق وأكرم الحوراني، أو بشكوى الطرفين المبالغ بها من وزير الداخلية عبدالحميد السراج، أو بمحاولة وزرائهم إضفاء صبغة البعث على العديد من أجهزة الدولة بما أوصل شرائح كبيرة من النخبة السورية إلى مرحلة الجأر بالشكوى منهم ومن تحزبهم.

وحين أعيد تنظيم الحُكم فـــي الجمهورية العربية المتحدة، برز على القمة رجلان هما نور الدين كحالة الذي تولى منصب نائب رئيس الجمهورية لشؤون الإنتاج وعبدالحميد السراج الذي أصبح نائب الرئيس للشؤون الداخلية. وساد إحساس عام فـــي دمشق بأن السراج أصبح عمليـــاً حاكم سوريا. ولعل عبدالناصر أراد تدارك الوضع فقرر تعيين عبدالحكيم عامر ممثلاً له فـــي دمشق.

دام بقاء عامر فـــي دمشق من أكتوبر 1959 وحتى أغسطس 1960.

وأثناء تلك الفترة، كان الصراع على أشده بين عامر والسراج؛ إذ حاول كلٌّ منهما تقليم أظفار الآخر. ومع تقدم شهور إقامة عامر فـــي دمشق بدأت الاحتكاكات والحساسيات بين رجاله ورجال السراج.

وفـــي هذا يقول محمد حسنين هيكل: "فـ"عبدالحكيم عامر" الذي كان نصف مكسور ونصف منكسر فـــي القاهرة بعد أزمته فـــي السويس وجد فـــي دمشق أجواء أخرى تتعامل معه وكأنه "نائب الملك" فـــي دمشق، ومن سوء الحظ أنه راح يتصرف على هذا الأساس، فإذا بمحيطه فـــي دمشق يتحول إلى شبه بلاط تزدحم فيه شبه حاشية، وفـــي مثل هذه الأجواء فإن المقاييس تترهل والقيم تنفك يومـــاً بعد يوم، وكان البعد عن مركز السلطة فـــي القاهرة يشجع من حيث أنه يداري فما يصل إلى المركز يصبح مجرد أصداء يسهل الرد عليها بإرجاعها إلى الدس أو الافتراء (وكانت تلك كلها أوضاعـــاً تداعت عنها فيما بعد عواقب سوف يبدو أثرها على مجرى الحوادث).

"ومن ناحية أخرى فإن عبدالحميد السراج الذي كان قد تخلص من ضغوط حزب البعث التي ركزت عليه لم يكن راغبـــاً فـــي أن يجد نفسه تحت رقابة عبدالحكيم عامر، خصوصـــاً وأن السراج كان فـــي وضعٍ يسمح له برؤية تصرفات عامر عن قرب. بل لعل ما كان يراه شجعه أكثر بدعاوى الأمن على تشديد قبضة الأجهزة البوليسية على أهم المواقع فـــي دمشق. ولما كان التنظيم النقابي، والتنظيم السياسي (الاتحاد الاشتراكي) كلاهما بقرب اختصاص السراج فإن التداخل بين مقتضيات ومجالات العمل السياسي خلق حالة من التشابك زادت وطأتها"198.

198 محمد حسنين هيكل، حرب الثلاثين سنة (جـ 1): سنوات الغليان، مؤسسة الأهرام، القاهرة، 1988، ص 564.

بلغت الأمور بين الرجلين حالة مهينة ليس لكرامة كليهما فقط، ولكن للدولة التي يمكن أن تحسب عليها في النهاية تصرفاتهما معاً.

تصاعد الخلاف بين الرجلين مع صيف 1960، لكنه أخمد وجُمّد عندما انتصر عبدالناصر للسراج في أغسطس من ذلك العام.

سُحِبَ عامر من دمشق، ورُفّع السراج لمرتبة رئيس وزراء مع احتفاظه بوزارة الداخلية، فانفرد لشهور ستة في حكم سوريا دون منازع.

إلا أن البعث واصل تحركاته وضغوطه كجبهة معارضة، فرأى عبدالناصر أنه ومن باب أن حارسين أفضل من حارس واحد، أن يعود عامر للإقامة في سوريا مشرفاً عاماً، مع الاحتفاظ بالسراج في مناصبه، ليعود الاحتكاك من جديد ويعود معه التجاذب.

وفي صيف 1961 -وبالأخص بعد صدور قرارات التأميم في القطاع الاقتصادي التي أثارت نقمة طبقة التجار- برزت تحركات محمومة للتآمر على الوحدة، لدرجة أن هاني الهندي قطب حركة القوميين العرب أتى للسراج بقائمة من 37 ضابطاً يتآمرون للانقلاب وعلى رأسهم المقدم عبدالكريم النحلاوي. كان عامر قد عينّ النحلاوي نائباً لمدير إدارة شؤون الضباط في الجيش الأول (والتي يرئسها أحد أصفياء المشير: العميد أحمد علوي) وهو المنصب الحساس الذي يسمح للنحلاوي بالتحكم بتنقلات الضباط طالما كسب ثقة المشير.

أرسل السراج القائمة لعبدالناصر، الذي سارع لسؤال عامر عن كاتم أسراره السوري - النحلاوي- فما كان من عامر إلا أن دافع عنه بشدة. متهمـــاً السراج بأنه يستهدف رجاله وأنها دسيسة لا تستحق مجرد الالتفات إليها.

فـــي أغسطس 1961 ارتكب عبدالناصر خطيئة أخرى، وهي الاكتفاء بحكومة واحدة للوحدة مركزها القاهرة. لقد أدى نقل مركز الحكم إلى القاهرة إلى حالة من الفراغ فـــي دمشق، ولم تكن دمشق معتادة على هذا الفراغ، الذي أخذ يمتلئ بأصداء مشوشة عما يجري فـــي القاهرة.

ويقول هيكل: "ووصلت الأمور إلى نقطة الخطر فـــي أوائل سبتمبر 1961 فقد بدأ عبدالحكيم عامر يقول إن رجال عبدالحميد السراج فـــي الداخلية، وفـــي الاتحاد القومي يهاجمونه علنـــاً، ثم هدد عبدالحميد السراج بالاستقالة حين أصدر المشير أمرًا بنقل عدد من ضباطه إلى القاهرة، وأضاف إلى تهديده بالاستقالة عبارة سرى رنينها فـــي محافل دمشق، فقد قال "إنه يستطيع إخراج عبدالحكيم عامر من دمشق مضروبـــاً بالبندورة (الطماطم)"[199]!

وكان هناك فـــي دمشق من يراقب الصراع بين عامر والسراج ويرتب للنفاذ من الثغرة التي راحت تتسع بينهما يومـــاً بعد يوم.

---

199 المرجع نفسه.

وبلغ الأمر حد قول السراج صراحةً إنه إما أن يكون هو في دمشق، أو يكون المشير عامر، ثم أتبع ذلك ببرقيةٍ منه إلى جمال عبدالناصر.

صباح يوم 20 سبتمبر 1961 يقول نصها بالحرف الواحد: "إنك سلمتني إلى من أهانني، فأرجو إعفائي.

إمضاء: عبدالحميد السراج".

استدعى عبدالناصر السراج إلى القاهرة لاحتواء الخلاف، لكن السراج أصر على أنه لم يعد هناك مجال للتعاون بينه وبين المشير، في حين كان عامر يضغط من دمشق لقبول استقالة السراج ويشكو لعبدالناصر من السراج، مرددًا اتهامات الأحزاب السورية له بالاستبداد والقمع المفارقة أن رجال الانقلاب كانوا يحتشدون ويرصون صفوفهم في دمشق، في الوقت الذي كان الرجلان المسؤولان عن حمايتها يتصارعان على مساحات القوة وحجم النفوذ.

وهكذا وقع الانقلاب في دمشق، وكاد عامر يلقى حتفه هناك، حين تعرض منزله للقصف من جانب قوات تابعة للعقيد حيدر الكزبري قائد لواء البادية.. ثم قام حُكم الانفصال في دمشق وتشكلت حكومة برئاسة مأمون الكزبري الذي كان من قبل ضالعًا في مخططات أميركية للانقلاب في سوريا، وفق ما أثبتته المحاكمات والوثائق في "قضية الدندشي".

أما المشير عامر فقد خرج من سوريا وهو أكثر ارتباكًا وانكسارًا من أي وقتٍ مضى.

المضحك المبكي هو أن انقلاب الانفصال تم على يد 37 ضابطـًا فقط، ما يبين هزال الأوضاع فـي الإقليم عشيته وهشاشتها الصارخة.

وبنظرة واحدة على قائد، المشاركين فـي الانقلاب، سنجد أن معظمهم كانوا من أفراد مكتب المشير عامر فـي دمشق، وأن العقل المدبر للانقلاب هو المقدم عبدالكريم النحلاوي، مدير مكتب المشير. وهذا يعني ببساطة أن الانقلاب تم تدبيره ورسم خطوطه داخل مكتب المشير عامر.

والحق أن إدارة عبدالحكيم عامر لأزمة انقلاب الانفصال يوم 28 سبتمبر تشي بمحدودية قدراته على السيطرة والقيادة. فقد ارتبك عامر واكتفى بالجلوس فـي الأركان مفاوضـًا، دون قوة مادية مباشرة يستند إليها، وبالتالي ليس من خلفه إلا قوة معنوية يبددها كل ساعة فـي ضوء تخوفات وخطط الانقلابيين.

ويمكن القول باطمئنان إن عبدالحكيم عامر كان وبالاً على الوحدة فـي المرحلتين اللتين قضاهما حاكمـًا لسوريا، بفاصل ابتعاد دام ستة شهور.

وفـي القاهرة، التي عاد إليها عامر مساء 28 سبتمبر 1961 كسير الخاطر من "الإقليم الشمالي"، أصيب المشير بأزمة نفسية.

والشاهد أن أشياء كثيرة تغيرت فـي المشير عامر الذي ظل حتى عام 1961 مثالاً للالتزام العائلي وحسن السيرة والسلوك، صدق فيه حينها وصف عبدالناصر له أنه "كان قطة مغمضة". ففـي تجربة

دمشق وفي ظل وجود علي شفيق مدير مكتب المشير، أصبحت السهرات الخاصة ولوازمها أمرًا مألوفًا بالنسبة للمشير، وقيل الكثير حول ما جرى في تلك الفترة بما في ذلك عن استلطاف عامر للمطربة الصاعدة آنذاك وردة الجزائرية والتسري بمنادمته.

وكان الرأي الغالب في أعقاب مأساة الانفصال أن يبعد عبدالحكيم عامر عن قيادة القوات المسلحة وقد طلب هو ذلك بعد ما تعرض له من إهانة في سوريا ووافقه عبدالناصر على ذلك، ولكن سرعان ما عاد وتمسك بمنصبه. وعندما أصر عبدالناصر على استبعاد بعض القادة الذين ثبت عدم صلاحيتهم للقيادة وافق عبدالحكيم، غير أنه طلب مهلة شهر للتنفيذ.

واتضح فيما بعد أنه تخلى عما سبق الاتفاق عليه وأنه متمسك بأعوانه وقادته المرؤوسين مهما كانت أخطاؤهم، مغلبًا في ذلك الدوافع العاطفية على دواعي المصلحة الوطنية، وخلق من هذه المجموعة التي كان على رأسها شمس بدران مركز قوة ضخم يدين بولائه للمشير عامر شخصيًا، دون الاكتراث بعبدالناصر ريس الجمهورية والقائد الأعلى للقوات المسلحة.

حاول عبدالناصر احتواء الموقف بإنشاء مجلس الرئاسة في مارس عام 1962 على أساس أن يتولى هذا المجلس كقيادة جماعية الإشراف على جميع شؤون الحكم والسيطرة على جميع الأجهزة بما فيها القوات المسلحة. إلا أن عام 1962 شهد صراعًا عنيفًا على السلطة بين عبدالناصر الذي كان يؤيده ستة من أعضاء مجلس قيادة الثورة القدامى،وهم زكريا محيي الدين وحسين الشافعي وعبداللطيف

البغدادي وأنور السادات وكمال الدين حسين وحسن إبراهيم.. وبين المشير عبدالحكيم عامر وأعوانه الذين كانوا على ثقة من أن إنشاء مجلس الرئاسة يهدف إلى إبعاد المشير عامر عن القوات المسلحة.

فـــي مذكراته، يقول السادات: ".. ولذلك نجد أن عبدالحكيم عامر بدأ منذ ذلك الوقت –أي أول سنة 1962– يأخذ احتياطه من عبدالناصر كما بدأ عبدالناصر يأخذ احتياطه من عبدالحكيم بدلاً من أن يحسم الأمور كرئيس جمهورية؛ وهكذا نشأ أول مركز قوة فـــي مصر يباشر عمله بصراحة.. فقد أصبح هَمُّ عامر الأول أن يؤمّن نفسه ضد عبدالناصر بعدما تأكد لديه المعني الذي كان دائم الإحساس به وهو أن هناك صراعـــاً وعدم ثقة وفجوة بينه وعبدالناصر وبينه والباقين من مجلس قيادة الثورة. لذا نجد أن الصراع الذي بدأ فـــي أول الستينيات قد ازداد اتساعـــاً وازداد معه التمزق؛ لأن الحقد أصبح دفينـــاً بين عبدالناصر وعامر، وعامر وحده والباقين، وعبدالناصر وحده والباقين وأنا واقف أتأمل موكب الصراع هذا وقلبي يتمزق ألمـــاً".

ويتابع السادات قائلاً: "كان هذا الموقف هو المقدمة الأولى لهزيمة 1967.. فقد انصرف عبدالحكيم عامر إلى تثبيت مركزه ليس فقط داخل القوات المسلحة بل فـــي البلد كلها.. وهكذا دخلت مصر أسوأ دوامة يمكن أن تدخلها.. فالقوات المسلحة التي فاجأها الانفصال وهي فـــي حالة عدم استعداد زاد فيها الإهمال؛ ثم جاءت

حرب اليمن فبدلاً من أن تكون مجال تدريب وتجهيز لقواتنا المسلحة أصبحت عملية انتفاع واستغلال"[200].

تحدى عامر إذًا إرادة عبدالناصر وسلطات مجلس الرئاسة وأصر على البقاء على رأس القوات المسلحة بجميع سلطاته وصلاحياته، ما أدى إلى أزمتي سبتمبر ونوفمبر عام 1962 اللتين نشبتا على أثر تقديم المشير عامر استقالته في المرتين، واضطر عبدالناصر إلى استرضاء المشير في الأزمتين خشية تمرد القوات المسلحة ضده وانقلابها عليه. وعدل المشير عن استقالته في المرتين استجابة لرجاء وإلحاح عبدالناصر، لكنه عاد أكثر قوةً وأوسع نفوذًا، وكان التغيير الوحيد الذي جرى هو أن لقبه أصبح نائب القائد الأعلى للقوات المسلحة وتبدل اسم القيادة العامة ليصبح القيادة العليا للقوات المسلحة.

وكان لخروج المشير عامر ظافرًا من كل الأزمات التي وقعت بينه وبين عبدالناصر أثره الفعال في ازدياد ثقة أفراد المجموعة الملتفة حوله في قوهم وفي استفحال نفوذهم وسطوهم لا في داخل القوات المسلحة فحسب؛ ولكن في جميع هيئات ومرافق الدولة حتى أصبحوا يشكلون أخطر مركز قوة في تلك الفترة. وقد عبّر عبدالناصر لزملائه أعضاء مجلس قيادة الثورة القدامى عما بات يشعر به من عجز وضعف إزاء قوة المشير عامر وازدياد نفوذه بهذا الشكل الخطير، فقال لهم في مرارة أثناء الأزمة العنيفة التي نشبت بينهما عام 1962 ما يلي:

---

200 أنور السادات. البحث عن الذات. مرجع سابق.

"هل يعتقد عبدالحكيم أنه هو الذي بنى بنفسه هذه القوة السياسية التي يتمتع بها الآن؟! إنني أنا الذي عملت على بنائها لاعتقادي أننا شخص واحد وكل هذا على حساب كل فردٍ منكم وعلى حساب المصلحة العامة في بعض الأحيان. ولم يكن يخطر في ذهني أن يصل عبدالحكيم إلى ما وصل إليه اليوم"[201].

أفلت عبدالناصر الفرصة تلو الأخرى لاستبعاد صديقه عبدالحكيم عامر، لكن أمورًا كثيرة بدأت تتخمر تحت السطح.

ويروي منير حافظ الرجل الثاني في مكتب معلومات جمال عبدالناصر واقعتين لهما دلالتهما؛ إذ يقول إنه أثناء مباحثات الوحدة الثلاثية بين مصر وسوريا والعراق التي عُقِدَت في مارس 1963، جرى ما يلي:

"كان تسجيل المباحثات يجري في غرفة بمكتب المعلومات بقصر القبة وفي حضور سامي شرف ومحمد حسنين هيكل والموظف القائم بعملية التسجيل. أثناء الاستراحة دق في الغرفة جرس التليفون الخاص بالزعيم الراحل الذي طلب هيكل ليكلمه، ولم أسمع طبعًا ما كان يقوله عبدالناصر، ولكن سمعت هيكل يرد:

– المناقشة كويسة جدًا.. جدًا، بس لو تعرف تسكت الـ"..." اللي جنبك؟

201 جمال حماد، الحكومة الخفية في عهد عبدالناصر وأسرار مصرع المشير عامر، الطبعة الخامسة، دار العلوم للنشر والتوزيع، القاهرة، 2008، ص 13.

"وكان المقصود بهذا الوصف المشير عامر الذي كان مشتركًا في الجلسة، وكان قد استفاض في مناقشة أمورٍ فرعية حرفت المناقشة بعيدًا عن المسار الذي يريده عبدالناصر. ولأن هيكل لم ينطق بشيء أمام عبدالناصر إلا إذا كان محسوبًا بدقة، فقد فوجئت بهذا الوصف الذي أطلقه على المشير.

"ولكنني فوجئت أكثر بأن هذه الجرأة من جانب هيكل لم تكن على غير هوى عبدالناصر، بدليل أنه أجاب عليها بتعليق جعل هيكل يطلق ضحكة طويلة مستمتعة".

وفي واقعةٍ ثانية، بقول منير حافظ: "جرت القصة في سهرةٍ جمعت المشير ببعض أصفيائه وتساءل أحدهم عن رد فعل عبدالناصر لو أنه حضر ورآهم في هذه السهرة، وعلق واحدٌ من أتباع المشير قائلاً:

"ما تشوف لنا طريقة بقى "يا ريس"، وتخلصنا من الرعب اللي على دماغنا ده؟"

فزجره المشير قائلاً: بس يا ولد.. ما لكش دعوة بالكلام ده خالص!

ولكنه –أي المشير– قبل أن يقول هذا أطلق ضحكة طويلة جدًا تدل على أن "الكلام ده لم يكن على غير هواه!"

ويخلص منير حافظ إلى أن" العلاقة بين الرجلين إذًا قد تحولت من الصداقة الخالصة إلى المناورة والمداورة".

أما السادات فيقول: "انتهت سنة 66 والصراع بين عبدالناصر وعامر على أشده فكلٌ منهما متربص بالآخر وخاصة أن عامر كان كل يومٍ يوسع رقعة سلطاته. فعن طريق لجنة الإقطاع والتعلل بالثورة المضادة استطاع أن يضرب من يشاء وأن يعزل أو يبقي من يشاء فـي مؤسسات الدولة وجميع مناصبها بما فـي ذلك النوادي الرياضية، بل إن شكاوى الهيئات العامة أو الأفراد كانت تُحالُ إلى القوات المسلحة للنظر فيها وحلها حسب ما يتراءى لها.. .وهكذا تراكمت السلطات فـي يد عامر حتى أصبح الآمر الناهي والمتحكم فـي مصير الناس وفـي كل ما يتعلق بالبلد من أحداث".

ثم يروي السادات كيف أنه ذهب لزيارة جمال عبدالناصر يوم جمعة فـي فبراير 1967، وكان عبدالناصر حزينـًا مهمومـًا وسأله السادات:

"مالك شايل الدنيا على دماغك ليه يا جمال؟ واضح أنك شايل الدنيا على دماغك!

قال: أيوه.. فعلاً أنا شايل الدنيا على دماغي.. يا أنور البلد بتحكمها عصابة وأنا مستحيل أكمل بهذا الشكل.. أني أبقى الرئيس المسؤول واللي بيحكم هو عبدالحكيم وينفذ اللي عاوزه.. طيب أخرج أنا أحسن وأروح أقعد فـي الاتحاد الاشتراكي.. ويتولى هو رياسة الجمهورية وأنا مستعد لأن أُسأل عن الفترة اللي قعدتها لغاية ما حأخرج.. أجاوب عن أي شيء.

"قلت له: مش معقول يا جمال تسيب رياسة الجمهورية وتقعد فـــي الاتحاد الاشتراكي عشان عبدالحكيم عامر وأعوانه يحكموا مصر.. أنت عارف أن عبدالحكيم أسوأ من يختار معاونيه. ولذلك أعتقد أنه أفضل شيء إنك تجيبه وتكلمه بينك وبينه وبالشكل ده ممكن توصلوا لحل مع بعض

"قال جمال: والله الصورة سيئة يا أنور وأنا حاسس أن إحنا داخلين على كارثة.

"بعد ذلك ببضعة أيام ذهبت لزيارة عبدالناصرK فقالوا لي إن عنده ضيفـــاًK وانتظرت فـــي حجرة مكتبه إلى أن يخرج الضيف.. وبعد فترة جاءني عبدالناصر وبادرني: يا سيدي الحكاية كملت.. شمس بدران جاي لي دلوقتي بيطلب رسمي إن المشير يأخذ رئاسة الوزراء.. وحجته إيه؟ إن البلد بتشتكي.. مش عارف أن معظم الحاجات اللي بتشتكي منها الناس هي من تصرفاته وتصرفات أتباعه؟

"قلت له: طيب أنت قلت إيه؟

"قال والله أنا خدت الموضوع ببساطة.. قلت له أنا ما عنديش مانع.. قل له أنا موافق بس يترك القوات المسلحة وياخد رياسة الوزراء – أنا حلاقي مين يمسك الوزارة أحسن من عبدالحكيم؟

"قلت له: أنا ما زلت عند رأيي إنك تقابله وتتكلموا مع بعض وأنت عارف طبعـــاً أنه بيقبل منك ما لا يقبله من أي شخصٍ آخر، بالشكل ده ممكن الموضوع يتلم والمسائل تنحل.

"عبدالناصر قال: لا يا أنور.. العملية ماشية فـــي اتجاه غلط.

"طبعــاً كان رد عامر على رسالة عبدالناصر بالنسبة لرئاسة الوزارة هو الصمت، فهو يعتبر القوات المسلحة مكانه الطبيعي ولا يمكن أن يتخلى عنها لأي سببٍ من الأسباب، فهي مركز القوة الأول".

وحين عاد المشير عبدالحكيم عامر من دمشق عقب فشل وانفصام دولة الوحدة فـــي نهاية عام 1961، ظهر فـــي مصر معسكران متناحران، الأول يقف على رأسه عبدالناصر، أما الثاني فيقوده عبدالحكيم عامر.

وزاد من حدة الأزمة فـــي السنوات اللاحقة زواج عبدالحكيم عامر عرفيـــاً من الممثلة برلنتي عبدالحميد. وفـــي هذا الملف، بدت صدفة اللقاء والحوار الثنائي مرتبةً من جانب مدير المخابرات صلاح نصر، لكنها نجحت فـــي نهاية الأمر فـــي اجتذاب المشير إلى برلنتي، التي يقول حلمي السعيد إنها تم تجنيدها للعمل لمصلحة المخابرات العامة بعد أن وقعت إقرارًا في عام 1960، ليتم تقديمها إلى السفارات لعمل صداقات مع رجال السلك الدبلوماسي، وكان جميع زملائها في الوسط الفني يعلمون بعلاقتها مع أحد قيادات المخابرات العامة202.

يقول أمين هويدي –الذي تولى منصبي وزير الحربية ورئيس الاستخبارات العامة– إن المشير عامر "اشترى منزلاً في "ايكنجي مريوط" مركز القسم الشرقي بالعامرية للصحراء الغربية، بحوض برنجي وايكنجي مريوط رقم 3 ضمن القطعة رقم 209، وهو المنزل

202 حمادة إمام، انقلاب الأصدقاء، مكتبة جزيرة الورد، القاهرة، 2011، ص 33.

الذي اشتراه من السيدة أنطوانيت جريك، واختار لنفسه اسمـــاً هو محمد عبدالحكيم علي بن علي حفيد عامر أثناء إتمام الإجراءات الرسمية. كان هذا المترل هو الأقرب إلى قلبه للاختلاء بزوجته وبعض الأصدقاء"203.

وفـــي شهادته التي تحمل عنوان "القصة الحقيقية: برلنتي والمشير" وسجلها بقلمه الكاتب الصحفـــي سيد زهران، يقول محمد متولي سكرتير المشير وكاتم أسراره: "وكان المشير عبدالحكيم عامر حريصـــاً على كتمان أمر علاقته مع السيدة برلنتي عبدالحميد وحين يزورها كان يُشار إليه -إمعانـــاً فـــي السرية والتخفي- بلقب الدكتور، وكان يُشار إليها بالاسم الكودي "أبلة بله".

"وفـــي بداية علاقة المشير مع برلنتي لم يكن يعلم بأمر هذه العلاقة سوى مجموعة قليلة موضع ثقة المشير وهم: صلاح نصر وعباس رضوان وعلي شفيق وعبدالمنعم أبو زيد ومع تعدد الزيارات اتسعت الدائرة لتشمل المهندس حسن عامر شقيق المشير، وأخاه مصطفى عامر الذي كنا ندعي أمام الجميع أنه زوج برلنتي إمعانـــاً فـــي السرية، وعبدالمنعم عامر ابن عم المشير والملحق الثقافـــي المصري فـــي بون وقتها، وأنور السادات".

ويضيف سكرتير المشير قائلاً: "لم يعرف الرئيس عبدالناصر شيئـــاً عن علاقة المشير عامر ببرلنتي إلا فـــي نهاية عام 1965،

---

203 أمين هويدي، 50 عامـــاً من العواصف.. ما رأيته قلته، ط 2، مركز الأهرام للترجمة والنشر، القاهرة، 2004، ص 258.

وكانت صدمة المفاجأة عنيفة ومؤلمة، ولم يستطع الرئيس عبدالناصر أن يصدق من هول المفاجأة.. وأمر الرئيس المشير بأن يقطع علاقته وصلته مع برلنتي نهائيـًا وفورًا.

"وطلب المشير من الرئيس أن يمهله بعض الوقت حتى يتوصل إلى طريقةٍ يتخلصُ بها من برلنتي، وبدأ المشير فعلاً الإقلال من زياراته إلى فيلا الهرم".

غير أن هذه الرواية تذهب إلى أن حمل برلنتي قلب المعادلة رأسـًا على عقب، خصوصـًا بعد أن قررت برلنتي كسر حاجز الصمت المفروض على هذا الزواج المهدد فـي أي لحظة، وذلك بطباعة منشور مكتوب على الآلة الكاتبة وتوزيعه على مجموعة منتقاة لإحداث ضجة.

وقد كان!

نقطة نظام نثيرها هنا، وهي أن أسرة المشير لم تعرف بأمر هذا الزواج إلا بعد حرب يونيو 1967 وتداعياتها، والتي كان على رأسها تحديد إقامة المشير نفسه.

ويقول جمال عبدالحكيم عامر أكبر أنجال المشير: "هزنا خبر زواج أبي وإنجابه عمرو، كما صُدمت أمي صدمة كبيرة؛ لأنها الزوجة والأم، ابنة العم، وقد راعينا شعورها".

رواية أخرى يطرحها محمد حسنين هيكل؛ إذ يقول: "فـي يوم 20 فبراير 1967 قرأ جمال عبدالناصر تقريرًا كان بمثابة صدمة بالنسبة له، كان التقرير من إدارة المباحث العامة وكان يتحدث عن إشاعات

تجري فـــي الأوساط الفنية عن زواج المشير عبدالحكيم عامر بالممثلة السيدة برلنتي عبدالحميد زواجـــا عرفيـــا وأن هذا الخبر تأكد بحقيقة أن السيدة برلنتي عبدالحميد تنتظر مولودًا نتيجة لهذا الزواج. وطلب جمال عبدالناصر مزيدًا من التفاصيل، واتصل بنفسه بوزير الداخلية يطلب أن تصله معلومات وافية فـــي هذا الموضوع على الفور، وأن تراعى أقصى درجات الحيطة والحذر فـــي تقصي المعلومات حتى لا تحدث إساءة لا لزوم لها لأي طرفٍ من الأطراف قبل الوثوق من الحقيقة.

"وتأكد الخبر، ورأى جمال عبدالناصر أن ينتظر أيامـــًا قبل أن يفاتح عبدالحكيم عامر فـــي هذا الموضوع حتى لا تملكه انفعالات الغضب وتصعب المناقشة الجادة فـــي تصرفٍ يصعب السكوت عليه"204.

استدعى عبدالناصر المشير عبدالحكيم عامر لمقابلته فـــي أول مارس 1967، ومفاتحته فـــي الأمر.

ويقول هيكل: "كان أسلوب عبدالحكيم عامر المعتاد عندما يوّجه إليه أي تساؤل عن تصرفٍ من تصرفاته أن يبدأ بإثارة زوابع صغيرة، ويتخذ مظهر الغاضب المجروح المعتدى عليه، وهكذا عندما سأله جمال عبدالناصر فـــي موضوع زواجه السري بدا غاضبـــًا ومتألمـــًا وقائلاً: إنه سئم من هذه الحملات الموجهة ضده والتي تثور من وقتٍ لآخر وإنه لم يعد يطلب غير أن يبتعد ويستريح، وإنه يفضل أن يعود

204 محمد حسنين هيكل، حرب الثلاثين سنة (جـ 3): الانفجار. مؤسسة الأهرام، القاهرة، 1990.

إلى قريته فـــي أسطال بالمنيا ويعيش هناك فلاحـــًا عاديـــًا، يزرع ويقلع، ولا يكون نائبـــًا لرئيس الجمهورية، أو نائبـــًا للقائد الأعلى للقوات المسلحة.

"وانتظره جمال عبدالناصر حتى أفرغ ما لديه؛ ثم كان تعليقه أن كل ما سمعه من المشير خارج الموضوع وأن سؤاله كان سؤالاً محددًا وليس هناك جدوى من تجنب الرد عليه مباشرة. وهكذا هبط عبدالحكيم عامر فورًا من الغضب أو التظاهر به دفاعـــًا عن النفس، واعترف بعلاقته مع السيدة برلنتي عبدالحميد ولم يجد ما يبرر به تصرفه سوى أنه وجد أخيرًا إنسانة تستطيع أن تفهمه، وكانت الدموع تلوح فـــي عينيه وهو يحاول أن يكتمها.. ثم لم يتمالك نفسه وراحت الدموع تجري على خديه فـــي صمت، وسأله جمال عبدالناصر عن الظروف التي تعرف فيها عليها.

"وكان رد عبدالحكيم عامر أنه تعرف بها عن طريق صلاح نصر".

"وحين حاول جمال عبدالناصر أن يسأله إذا لم يكن قد فكر فـــي الثورة وفـــي أسرته وفـــي أولاده وهو يسلم نفسه لعواطفه تتحكم فيه، قال عبدالحكيم عامر إنه تعذب فـــي الشهور السابقة بما فيه الكفاية، وإنه الآن على استعداد لأن يقبل بما يراه الرئيس بما فـــي ذلك أن يترك موقعه، وكان رأي جمال عبدالناصر أنه مع الأسف الشديد لا يجد سبيلاً آخر"205.

---

205 المرجع نفسه.

وتحت ضغط افتضاحٍ أمر الزواج العرفـــي، اضطر عامر لرفع الراية البيضاء، راضيـــا باقتراح عبدالناصر عليه بالابتعاد إلى يوغوسلافيا مدة تكفل معالجة أثر الحكاية تمهيدًا لقبول استقالته من الحكم دون ربطها بمسألة الزواج العرفـــي من برلنتي.

وبالفعل، صدر قرار عن رئاسة الجمهورية فـــي مارس 1967 يقضي بالموافقة على سفر عبدالحكيم عامر إلى الخارج للعلاج على نفقة الحكومة التي تغطي جميع مصاريف الإقامة والسفر لعامر وجميع مرافقيه.

على أن المسألة انتهت على نحو مغاير.. لم يسافر عامر إلى يوغوسلافيا، وإنما رحل إلى العالم الآخر.

6

عامر وناصر:
أسرار دولة.. على سرير المشير

فجأة، وجد عبدالناصر فـــي مواجهة مع صديق عمره الذي كان يصفه بأنه "قطة مغمضة"، فإذا بالقطة تفتح عينيها على اتساعهما.

فـــي عام 1962 شكل عبدالناصر مجلس الرئاسة ليكون القيادة الجماعية العليا والتي من شروط عضويتها الابتعاد من المناصب التنفيذية.

التزم كل رفاق ثورة يوليو بهذا الشرط إلا عامر، الذي أصر على الاحتفاظ بمنصب القائد العام، وإلا فهو لا يضمن الجيش. كان الحل الوسط هو تسمية القائد العام بنائب القائد الأعلى -الذي هو رئيس الجمهورية- كناية عن خضوع الأول للثاني.. على الأقل رمزيـــاً.

وفـــي أواخر نوفمبر 1962، أراد عبدالناصر أن ينتفع من جو القيادة الجماعية ممثلة فـــي مجلس الرئاسة لينتزع من "نائب القائد

الأعلى" صلاحياته في تعيين الضباط العظام وإحالتها على المجلس. هذه المرة اختلف رد فعل عامر عن أي وقت مضى: لقد اختفى في مرسى مطروح معتصمًا فيها عن الظهور، ومرسلاً بيان استقالة لعبدالناصر هو أقرب إلى بيان انشقاق كلي عن النظام، ثم مستحثًا قادة الفروع والأسلحة على إرسال العرائض لعبدالناصر معلنين أهم لا يعترفون بغير عامر قائدًا.

انتهت الحكاية بعدول عامر عن استقالته واعتزاله، وعدول عبدالناصر عن مشروع قانون الضباط، واتفاقهما على تأجيل المسألة إلى يوليو 1963.

في عام 1964 أصبح عبدالحكيم عامر نائبًا أول لرئيس الجمهورية.

لكن شيئًا لم يتغير في عامر: البشاشة والبساطة، والعصبية والفوضوية.

وتفاصيل الحكاية التالية ربما تكشف طبيعة شخصية المشير عامر.

وقائع الحكاية جرت في أوائل عام 1965 ويرويها أمين هويدي الذي شغل آنذاك منصب سفير مصر لدى العراق. يحكي هويدي عن زيارة المشير عامر على رأس وفد لبغداد، ردًا على زيارات متعددة قام بها الرئيس العراقي عبدالسلام عارف. وقبل الزيارة أرسل هويدي إلى عامر مذكرة مختصرة عن الوضع في العراق والقضايا والموضوعات المهمة التي يمكن أن تُثار ومعلومات عن الشخصيات التي سيقابلها عند وصوله إلى بغداد. وعندما وصل عامر سأله هويدي عما إذا كان

قد قرأ المذكرة التي أرسلها له، وهنا يقول هويدي: "فقال: مذكرة إيه! لم تصلني مذكرات!

واستدعى علي شفيق وسأله عن المذكرة فقال له:

آه دي وصلت من زمان

فرد عليه: طيب يا (.. .. ..) لِمَ لم تعرضها عليّ؟"!

ولا يحتاج الأمر إلى تعليق.

الأخطر من ذلك، ما يرويه أمين هويدي في السطور التالية:

"أقام المشير في قصر بغداد هو ومرافقوه، وفي الصباح الباكر لليوم الثاني من الزيارة اتصل بي تليفونيًا في منزلي عضو السفارة الذي خصصته للإقامة مع الوفد في قصر بغداد وطلب مني الحضور فورًا إلى القصر، ورفض الزميل أن يزيد حرفًا واحدًا على ذلك. وحينما وصلت إلى هناك كان أحد ضباط القصر في انتظاري على الباب ومعه عضو السفارة وسلمني مظروفًا ذكر أن به أوراقًا وجدوها متناثرة بالأمس على سرير المشير أثناء وجوده بالقصر الجمهوري، ورأوا من الأمانة أن يعيدوها داخل مظروف مغلق. وفتحت المظروف وكدت أصعق! كان بداخله عدة تقارير اصطحبها المشير معه من القاهرة ليقرأها وهو في بغداد وتسيء إلى العلاقة بين عبدالناصر وعارف وتتحدث عن عارف حديثًا شائنًا مشككًا".

كانت التقارير -كما يقول أمين هويدي- سرية للغاية، ومع ذلك فقد تُرِكت على سرير المشير، ليطلع عليها من يشاء.

بطبيعة الحال، فإن الرئيس العراقي آنذاك اطلع عليها أو على نسخة منها، قبل أن تُعاد إلى الجانب المصري.

يقول هويدي: "وذهبت إلى المشير لأقص عليه ما حدث. لم يتزعج الرجل بل قابل الموضوع بمنتهى السخرية والاستهزاء. ولم يكن في يدي أكثر من أن أُعَنفَ المسؤول عن جمع أوراق المشير. ولما ذهبنا للاجتماع مع الرئيس عارف كان الرجل بادي التأثر وأخذ في حديثه يرد على ما أثير في التقارير -مما يؤكد اطلاعه عليها- وأخذ يحذر بين وقتٍ وآخر ممن يحاولون الوقيعة بين بغداد والقاهرة".

ويورد الضابط أحمد حمروش مجموعة من الصفات الدقيقة لعبدالحكيم عامر فيقول: "أحاط المشير نفسه بحاشية سرعان ما عرفت فيه أسوأ الصفات، فتمادت في سلوكها اللا أخلاقي، واستغلت أموال الدولة أسوأ استغلال، وكان الذين يقتربون من رجال مكتبه - الذين يقودهم الصاغ علي شفيق- تأخذهم الدهشة من الجموح الكاشف، في مجال اللهو والبذخ المبالغ فيه، الأمر الذي أثر تأثيرًا شديدًا على قمة القيادة العسكرية، وانعكس على بقية مستويات الضباط".

ويستطرد حمروش قائلاً: "كانت المتعة الشخصية هي الفلك الذي يعيش فيه عامر، وأصبح ذلك معروفـًا ومتداولاً، وكانت هذه المتعة تشمل تدخين الحشيش، والاتصال ببعض الفنانات، والبذخ، الذي وصل إلى حد السفه، ونتيجة لعلاقة الضباط بالفنانات تزوج المشير من برلنتي عبدالحميد، وعلي شفيق من مها صبري، وعبدالمنعم أبو زيد من سهير فخري"206.

---

206 أحمد حمروش، مجتمع عبدالناصر، دار الموقف العربي للصحافة والنشر والتوزيع، القاهرة، 1982، ص 233.

بهذه الشخصية التي تستحق الدراسة، قاد عامر القوات المسلحة، وظل ندًا لعبدالناصر وصديقًا له في الوقت نفسه.

واصل عبدالحكيم عامر رحلة الصعود بالرغم من السقطات والعثرات المتلاحقة التي مرت به أو تسبب فيها، إلى أن وقع ما عطل رحلة صعوده هذه بل قوَّضها، ووضع نهاية لمستقبله وحياته: حرب يونيو 1967.

والشاهد أن وقائع الأسابيع الثلاثة التي سبقت نشوب حرب 1967 تدلُ على اضطرابٍ كبير في تفكير وتصرف عبدالحكيم عامر، وعلى انفراده بقرار السلطة العسكرية، وتأثره بأشباح الماضي.

فقد وصل عامر إلى سيناء في 20 مايو مع الحشد العسكري ليرى بنفسه ويحاسب، ووصل إلى قرار بتغيير معظم قادة الفرق المحتشدة محملاً إياهم وزر الحشد. تبنى عامر نظرية أهل الثقة، حيث حل محلهم قادة آخرون لم تعرف عنها الخبرة المشهودة ميدانيًا بل فقط الولاء السياسي. لم يكن هؤلاء القادة العسكريون يعلمون عن وحداتهم إلا القليل، ولم تكن أهميتهم نابعة إلا من كونهم "رجال المشير" أو اتباع شمس بدران.. ومن هؤلاء اللواء عثمان نصار الذي عُينَ قائدًا للفرقة الثالثة الآلية مكلفا بحماية خط الدفاع الثاني.

ثم ضاعف عبدالحكيم الفوضى بقراره يوم 20 مايو استدعاء الاحتياطي للخدمة، الأمر الذي يعني أن من لم يتدرب دوريًا على حمل السلاح أضيف في تلك المرحلة الحرجة وذلك التوقيت الدقيق إلى الجيش العامل مع عدم توفر عدد الضباط المناسب لقيادتهم، ما

أدى إلى قرار أشد سوءًا، وهو توسيع الوحدات العاملة بضم عناصر الاحتياط لها، والذي أضعف بنياها وذوَّب فاعليتها.

وسط هذه المعمعة، أضاف عبدالحكيم عاملاً جديدًا على المعادلة المستجدة، وهو الضغط لإغلاق خليج العقبة.

وعشية زيارته التفقدية لسيناء، قام عامر يوم 19 مايو بنقل كتائب مظلات -لا مشاة- على عَجَلٍ إلى شرم الشيخ استعدادًا لإقفال المضيق. وبعد عودته من سيناء حضر اجتماع القيادة السياسية العليا مساء 21 مايو في منزل عبدالناصر وأعلن فيه استعداد قواته التام لتأمين إغلاق الخليج حتى لو كلف ذلك حربًا مع إسرائيل، ثم كرر الإجابة نفسها عند سؤاله من عبدالناصر عن مدى الاستعداد للحرب.

أعلن الأخير إغلاق الخليج مساء 22 مايو من مطار أبو صوير، وبدأ سلسلة اجتماعات مع القيادة العسكرية أولها مساء 25 مايو وفيه حدد عبدالناصر رؤيته حول إدارة المواجهة، معلنًا أن الضربة الأولى متروكة لإسرائيل مع توقي نتائجها بالاستعداد لتلقيها وامتصاصها، وأن شرم الشيخ وقطاع غزة هما جزء من غطاء الدفاع المصري ما يستدعي تعديلاً على خطة قاهر للدفاع عن سيناء والتي جرى تبنيها في ديسمبر 1966.

لم يُخطِر عامر عبدالناصر بأنه كلّف أركانه وضع خطة هجوم جوي على مطارات النقب اسمها الكودي "أسد"، وخطة هجوم بري على إيلات اسمها الكودي "فهد".

عرف عبدالناصر من السوفيت في الثالثة من فجر 26 مايو أن الأمريكيين والإسرائيليين علما بالخطتين وينذران بإيقافهما، وإلا فإن الولايات المتحدة ستكون مضطرة للاشتراك المباشر في الحرب دفاعاً عن إسرائيل. وفي الحال أمر عبدالناصر عامر بإلغاء الخطتين.

والشاهد أن صورة حرب 1956 كانت مسيطرةً على عقل القائد العام للقوات المسلحة وكان تقديره أنها مقياسٌ لكل حرب. أراد عامر إزالة آثار تلك الحرب الانفصال وسوء إدارة حرب اليمن من سجله، ومن ثم تعزيز موقعه في النظام. لذلك فإن قرار الانسحاب كان شيئاً عادياً يصدره من دون ألم، أو دون أن يتحقق كقائد عام من أن التشكيلات أدت واجبها العسكري أولاً عاد عبدالناصر مساء 28 مايو للاجتماع بالقيادة العسكرية ليرى ما الذي تم بخصوص تأمين قطاع غزة إن نشبت الحرب، وليكرر التزامه بالضربة الثانية بعد استيعاب ضربة العدو الأولى.

ليلتها كان شمس بدران قد عاد من موسكو لينضم للاجتماع ناقلاً لعبدالناصر رسالة تفتقر إلى الدقة عن تأييد مطلق من القادة السوفيت لمصر، علماً بأن السوفيت نصحوا في المباحثات الرسمية مع شمس بدران بعدم الاستمرار في الأزمة.

ضاعف من سوء الموقف، غياب الديمقراطية على المستوى الاستراتيجي، حيث انفرد للمشير عامر برؤية عن اتجاه هجوم العدو المنتظر، مفادها أن محور الهجوم الرئيسي لن يكون المحور الأوسط: أبو عجيلة – الإسماعيلية ولا حتى الشمالي: العريش – رمانة بل الجنوبي:

الكونتيلا – متلا، ما دعاه لإعادة توزيع القوات فـي سيناء بما قضى على بقايا خطة قاهر الدفاعية فـي سيناء، وأرهق الوحدات المقاتلة فـي الذهاب والمجيء إلى مواقع جديدة تتغير بصفة شبه يومية، من دون الوصول إلى قرارٍ أو تصورٍ لشكل الحرب المقبلة.

عاد عبدالناصر مرة ثالثة للاجتماع بالقيادة العسكرية مساء 2 يونيو ليبلغهم أن معلوماته تؤكد قيام إسرائيل بشن هجوم جوي شامل على مصر إما الأحد 4 يونيو أو الاثنين 5 يونيو على أبعد تقدير. وفرت تلك المعلومات فرصة يومي 3 و 4 يونيو أمام قيادة الطيران لتقوم بإخلاء مطارات سيناء والقنال وإرسال القاذفات للسودان والمقاتلات للجنوب.. لكنها، وكما فعلت فـي السويس 1956، امتنعت عن ذلك بحجة أن خطوة كتلك ستفسد معنويات الطيارين.

والأكيد أن عامر وشلته فـي الطيران (صدقي محمود وجمال عفيفـي وغيره) مسؤولون عن فقر استعداده إذ إن عدد الطيارين لم يتجاوز 150 طيارًا وهو أقل بكثير من عدد الطائرات (ما فوق الـ 300)، وليس هناك دُشم للطائرات واقية، والتدريب قاصر عن تهيئة الطيارين لأكثر من طلعتين فـي اليوم. بل إن تقييد نيران الدفاع الجوي، ووجود قادة التشكيلات الميدانية بالكامل فـي أحد مطارات سيناء لاستقبال المشير ترتب عليه النجاح المطلق للضربة الجوية الإسرائيلية.

والثابت أن الإهمال كان سيد الموقف عبر أسلحة القوات المسلحة كلها. مثال ذلك ما حدث ذات يوم من ربيع 1965 عندما وقع

انفجارٌ على ظهر المدمرة "القاهرة" أثناء حضور عبدالناصر وعامر مناورات بحرية في المتوسط. طلب عبدالناصر إقالة سليمان عزت قائد البحرية ورفض عامر فكان للأخير ما أراد.

وفي أعقاب ضربة الطيران الإسرائيلية صباح 5 يونيو 1967 التي ألحقت بالقوات الجوية المصرية أفدح الخسائر، كان الموقف في مكتب المشير عامر بالقيادة العامة للقوات المسلحة في مدينة نصر يدعو إلى التشاؤم، فقد اهتزت أعصاب المشير بشدة نتيجة هذه الهجمات التي جعلت التشكيلات والوحدات البرية المصرية المنتشرة في أرجاء سيناء مكشوفة تماماً أمام الطيران الإسرائيلي.

ولم يتبع المشير عامر للأسف أثناء إدارته للحرب الأساليب السليمة للقيادة بأن تكون اتصالاته المباشرة مقتصرة على الفريق أول عبدالمحسن مرتجي قائد الجبهة أو الفريق صلاح محسن قائد الجيش الميداني أو يترك لهذين القائدين مسؤولية مواجهة الموقف وإدارة المعركة. فقد اتضح أن عامر أجرى اتصالات مباشرة مع قادة وضباط بعض الوحدات الفرعية دون إخطار قياداتها الأعلى.

وحضر عبدالناصر إلى مقر القيادة بعد ظهر يوم الاثنين 5 يونيو. لكن المشير كان يتهرب من الإجابة على استفسارات عبدالناصر بأن يشغل نفسه بالرد على المكالمات الهاتفية. وأخيرًا طلب منه الرئيس أن يتفرغ له ولو لمدة ربع ساعة ولكن دون فائدة، فقد كان مستمرًا في الانهماك في الرد على التليفونات، وكأن القائد العام ليس لديه مساعدون أو سكرتارية للقيام بهذه المهام.

وقد شكا عبدالناصر فيما بعد إلى صديقه ثروت عكاشة من سوء المعاملة التي لقيها فـــي ذلك اليوم لدى زيارته مقر القيادة العامة. فقال:

"أحب أن أشهدك على أنني عوملت أسوأ معاملة من عبدالحكيم وشمس بدران منذ صباح 5 يونيو. فبمجرد وصولي إلى القيادة العامة لأتبين حقيقة الموقف لم أجد من يلقي لي بالاً أو يعنى حتى بالرد عليّ فإذا ما تساءلت عن أمر من الأمور حملق فـــي عبدالحكيم مأخوذاً دون إجابة. ومما أثار دهشتي أني رأيت المشير يتصل تليفونيـــاً بالعريش يحاول تحريك أحد الألوية، فتساءلت أين قادة الفرق الخمس وأين قائد الجبهة وكيف يحرك المشير قوات خاضعة لقيادة الجبهة دون إذنها. حاولت مناقشته لكنه كان متوترًا للغاية فلم يرد عليّ، فـــي حين كان شمس بدران واقفـــاً فاغرًا فاه كالمذهول. لقد كان الشلل الفكري مسيطرًا على جهاز القيادة بأسره. وبعد قليل انبرى المشير يقول: لقد أسقطنا للعدو مئة طائرة، فقلت له: غير معقول. فقال: الأمريكان يحاربوننا، قلت: غير معقول. قال: لا بدَّ أن تعلن على الفور اشتراك الأمريكان فـــي القتال، قلت: أعطني الدليل. وهنا ثار المشير ثورة عنيفة"207.

لكن الطامة الكبرى فـــي سلوك عامر العسكري كانت فـــي قرار الانسحاب الشامل من سيناء فـــي اليوم الثاني للحرب 6 يونيو.

جاء ذلك إثر انهياره الصامت منذ ظهيرة الخامس من يونيو، أي بعدما عاد من سماء أبو صوير إلى مطار القاهرة الدولي أثناء الهجوم الجوي الإسرائيلي الشامل ليركب سيارة تاكسي مدنية مهرولاً إلى

---

207 جمال حماد، مرجع سابق.

مقر قيادته. وفـــي سحابة ذلك اليوم كان عامر يحاول شن هجوم مضاد على المحور الأوسط باستخدام الاحتياط الاستراتيجي، أي الفرقة المدرعة الرابعة الرابضة على خط الدفاع الثالث عند سفوح المضائق الشرقية، استنقاذاً للقسيمة التي وقعت بسرعة فـــي يد قوات شارون المهاجمة.

كان المشير بذلك يحاول تصحيح خطيئته فـــي التركيز على المحور الجنوبي بخطيئة أكثر إيلامـــاً.

مع بداية اليوم الثاني للحرب كلف عامر الفريق أول محمد فوزي رسم خطة انسحاب من سيناء.

ويقول الفريق أول محمد فوزي فـــي مذكراته: "طلبني المشير بعد ظهر يوم 6 -6-1967 قائلاً لي: "عاوزك تحط لي خطة سريعة لانسحاب القوات من سيناء إلى غرب قناة السويس".. ثم أضاف: "أمامك 20 دقيقة فقط".

تداعى فوزي مع الفريق أول أنور القاضي رئيس الهيئة واللواء ممدوح تهامي مساعد رئيس الهيئة للعمل، ووضع الثلاثة خطة تقضي بالانسحاب على مدى 4 أيام/3 ليالٍ تكفل الحفاظ على سلامة القوات المصرية.

فـــي الثالثة عصر يوم 6 يونيو توجهت المجموعة للقاء عامر وإبلاغه بنتيجة مداولاتها لتفاجأ بخبر وقع عليها كالصاعقة، وهو أنه قد قام منذ برهة بالاتصال بقائد الجيش الميداني الفريق صلاح الدين محسن وعدد من القادة المعنيين، آمرًا إياهم بالانسحاب العاجل والتام من سيناء فـــي غضون 24 ساعة تبدأ مع آخر ضوء من نفس اليوم وتنتهي مع منتصف ليل 8/7 يونيو.

ويقول الفريق أول محمد فوزي فـــي مذكراته: "وتوجهنا نحن الثلاثة إلى المشير وكان منتظرًا خارج مكتبه واضعـــاً إحدى ساقيه على كرسي المكتب ومرتكزًا بذقنه على ساقه الموضوعة فوق الكرسي، وقرأ التهامي الورقة ووصل إلى أن الانسحاب يتم فـــي أربعة أيام وثلاث ليال، ففوجئنا بصوت المشير يرتفع موجهـــاً الحديث إليّ: "يا فوزي.. أنا أعطيت أمر الانسحاب خلاص"، ثم دخل غرفة نومه التي تقع خلف المكتب مباشرة، بطريقةٍ هستيرية بعد أن ازداد وجهه احمرارًا أثناء توجيه الحديث، بينما انصرفنا نحن الثلاثة مندهشين من حالة المشير".

كان عامر قد أبلغ عبدالناصر بفكرة الانسحاب وبتكليفه مجموعة أركان بإعداد خطته. وافق عبدالناصر لعلمه أن الانسحاب المنظم والتدريجي وإلى خط المضائق واجب ومطلوب نظرا لسيادة العدو الجوية فوق سيناء. ما لم يخطر على باله أن يكون عامر مع تقدم ساعات النهار ومع وصول اضطرابه العصبي إلى الحضيض قد غيّر رأيه فـــي شكل ومدى وطريقة الانسحاب لتكون وفق الصيغة السالفة الذكر.

عندما علم عبدالناصر الأربعاء 7 يونيو بما فعله عامر مساء اليوم السابق عنّفه مؤنبـــاً، ومشيرًا إلى ضرورة الاحتفاظ بخط المضائق. ذلك التعنيف قاد عامر إلى إصدار أوامر إلى صدقي الغول قائد الفرقة المدرعة الرابعة – والذي كان الأسرع فـــي الانسحاب ليس فقط إلى الإسماعيلية بل وإلى الطريق بينها وبين القاهرة– بالعودة من حيث أتى طلبـــاً لتأمين خط المضائق.

كان الوقت قد فات إلا على تعرض هذه الفرقة للمزيد من التدمير من الجو بسبب خليطٍ من رعونة القائد العام وفرار القائد الميداني208.

أحس عامر منذ صباح اا من من يونيو أنه قد تسبب بكارثة محققة فبدأت تراوده نزعات الانتحار، لكن حضور عبدالناصر ذلك المساء للقائه – وبعد امتناع دام طيلة يومي 6 و 7 يونيو والنصف الأخير من يوم 5 يونيو– أثناه عن ذلك. وكان وزير الحربية شمس بدران هو الذي اتصل بالرئيس عبدالناصر مساء ذلك اليوم يناشده سرعة الحضور إلى مقر القيادة العامة؛ لأن المشير عامر مصمم على الانتحار.

هذا الانهيار يعزوه الفريق أول عبدالمحسن كامل مرتجي قائد القوات البرية سابقـًا إلى أن عامر كان في رتبة رائد ثم وجد نفسه برتبة لواء ثم مشير.. واستمر يقود القوات المسلحة.. وشيء طبيعي أن تهتز شخصية عامر بعد قفزته من رائد إلى مشير من دون أن تتهيأ الظروف المناسبة ليكون قائدًا يمارس القيادة فعلاً.. إلى جانب انشغاله بالنواحي السياسية عن القوات المسلحة، ما جعل معلوماته العسكرية لا تزيد عما كانت عليه أيام كان برتبة رائد أركان حرب كتيبة.. ولذا انهار المشير بسرعة في أعقاب بدء حرب يونيو 1967 وأصدر قرارًا بالانسحاب، فقلب الهزيمة إلى كارثة.

---

208 Michael B. Oren, Six Days of War: June 1967 and the Making of the Modern Middle East, Oxford: Oxford University Press, 2002.

يقول الفريق أول محمد فوزي رئيس أركان حرب القوات المسلحة سابقــاً فــي شهادته أمام لجنة تسجيل تاريخ الثورة إن عبدالناصر وعامر كانا متفقين عاطفيــاً ووطنيــاً.. اتفقا على تحقيق أهداف الثورة.. ولكنهما فــي الوقت نفسه كانا متصارعين على قيادة القوات المسلحة صاحبة الثورة وأداة التغيير فــي الدولة فــي ذلك الوقت. ويضيف الفريق أول محمد فوزي فــي شهادته أن الصراع بين الصديقين نشأ من تحميل عبدالناصر مسؤولية الانفصال الأدبية والعسكرية بين القيادة السياسية والقوات المسلحة للمشير عامر.. وتطور الصراع بعد هزيمة يونيو 1967 ليصل فــي نهايته بالتطورات التي أعقبت الهزيمة وصولاً إلى وفاة عامر[209].

لقد دخلت الشوكة فــي عيون الجميع.. بقي أن نعرف كيف جرت محاولة اقتلاع تلك الشوكة.. وماذا كان مصير العيون التي أدماها الحزن والانكسار!

---

209 سليمان مظهر، اعترافات قادة حرب يونيو، كتاب الحرية، القاهرة، 1990.

7

عامر وناصر:
الموت في عصير الجوافة

غرقت مصر فـــي ظلام هزيمة حرب يونيو 1967، وسط ضباب التساؤلات والشائعات والأسرار.

في الكواليس، بلغت العلاقة بين ناصر وعامر نقطة الانفجار.

يرى البعض أنه "بعد أن خسر عبدالحكيم عامر معركة الوحدة مع سوريا، كان ينبغي على عبدالناصر أن يقيله ويجرده من رتبته العسكرية، لا حرصـــاً على الوحدة، ولكن حرصـــاً على هيبة مصر التي أضاعها بغفلته. وبعد أن خسر عامر حرب اليمن، كان ينبغي أن يفعل فيه عبدالناصر أشياء كثيرة، ولكنه لم يفعل شيئـــاً من هذه الأشياء، حتى خسر عبدالحكيم عامر حرب 1967. عندئذ فقط تحرك عبدالناصر وطلب إليه أن يستقيل (بدلاً من أن يحيله إلى المحاكمة العسكرية)؛ لأن مسؤولية الهزيمة اقتربت من عبدالناصر شخصيـــاً"210.

---

210 د. لويس عوض، أقنعة الناصرية السبعة، مرجع سابق، ص 180 . 181.

وفــي مساء 8 يونيو تحدث عبدالناصر بعامر بصراحة فــي الغرفة الملحقة بمكتب الأخير فــي مقر القيادة العامة. سجل محمد حسنين هيكل فــي كتابه "الانفجار" ما دار فــي هذا الاجتماع. فقال:

"فــي هذا اللقاء المنفرد المتوتر قال الرئيس للمشير إنه أصبح مقتنعــاً بضرورة اعتزاله الحياة العامة فقد انتهى دوره وانتهت فــي رأيه ثورة 23 يوليو، ثم استدرك بملاحظة وهي مشاعر القوات العائدة من سيناء بعد توقف القتال واحتمال وقوع مشاكل بينها وبين جماهير الشعب وأنه سوف يقدم استقالته للأمة وسوف يقترح أن يكون شمس بدران رئيســاً مؤقتــاً للجمهورية ريثما يمكن ترتيب الأمور، وكان ظنه أن وجود شمس بدران على رأس الدولة وهو وزير الحربية قد يكون عاملاً قادرًا على تفادي احتمال الصدام بين الجيش والجماهير، وبدا عبدالحكيم عامر موافقــاً على هذا الاقتراح"211.

غير أن هيكل الذي أمضى ليلةً كاملةً فــي إعداد خطاب تنحي عبدالناصر، توجه إلى بيت الرئيس فــي منشية البكري فــي الساعة السادسة والنصف من صباح يوم 9 يونيو ومعه مشروع الخطاب، ثم تمكن من إقناع عبدالناصر بخطأ فكرة تعيين شمس بدران رئيســاً للجمهورية، نظرًا لكونه أحد أبرز المسؤولين عن الهزيمة بوصفه وزير الحربية، كما أن المجموعة العسكرية التي ينتمي إليها والملتفة حول عامر لم يعد لها أي رصيد من ثقة الشعب، وإزاء ذلك عدل الرئيس

---

211 محمد حسنين هيكل، حرب الثلاثين سنة (جـ 3): الانفجار، مرجع سابق، ص 386.

عن تعيين شمس بدران ووجد أن زكريا محيي الدين هو أفضل من يخلفه من زملائه فـــي رئاسة الجمهورية.

كان نقل السلطة إلى زكريا محيي الدين -وهو الذي تميّـــز بأكبر تعلق شخصي بعبدالناصر بين أعضاء مجلس قيادة الثورة- لا يعني نقل السلطة إلى طرف معادٍ للمجموعة الحاكمة، ناهيك عن النظام ككل. وأقصى ما يمكن أن يقال إن نقل السلطة كان يمكن أن يغيّر بعض التوازنات بين المجموعات والتيارات التي تشكّل منها النظام الحاكم212.

كان خبر الهزيمة، التي تأكدت بخطاب التنحي، ثقيلاً مذلاً مهينـــاً، خاصة في ضوء الدعاية التي روّجها النظام عن قدرته على سحق إسرائيل، والوصول إلى تل أبيب.

بعد دقائق من إذاعة عبدالناصر بيان التنحي أو الاستقالة مساء 9 يونيو، اتصل وزير الإرشاد محمد فائق بمحمد حسنين هيكل ليبلغه بأن المشير عامر اتصل به صاخبـــاً وغاضبـــاً ليقول إن لديه بيانـــاً يريد أن يذاع على الناس، وأنه -أي فائق- رد عليه بعدم استطاعته إذاعة أي شيء إلا بعد الاتفاق مع هيكل. وأضاف فائق قائلاً لهيكل إنه يُرجح أن المشير سوف يتصل به الآن.

ويروي هيكل ما جرى قائلاً: "صدق ما توقعه السيد محمد فائق، فلم أكد أضع سماعة التليفون بعد حديثي معه إلا والمشير عبدالحكيم

212 د. شريف يونس، الزحف المقدس، مظاهرات التنحي وتشكّل عبادة ناصر، دار التنوير، القاهرة، 2012، ص 15.

عامر على الخط مهتاجــًا بطريقة لا يبين منها كلامٌ مفهوم، وحاولت تهدئته قدر ما أستطيع بأن طلبت منه أن يبعث إليَّ بالبيان الذي يريد إذاعته مع رجائي له بأن يكون ما فيه مساويــًا لحرج الموقف كله.

".. ودق جرس التليفون ثانية وكان المتحدث هو المشير عبدالحكيم عامر مرة أخرى يقول إنه يفضل إملائي البيان بدلاً من إرساله اختصارًا للوقت، وكان البيان الذي يريد إذاعته هو إعلان بأنه قدم استقالته من جميع مناصبه ابتداءً من الساعة السابعة والنصف مساء وأن استقالته قُبِلَت، وسألته من قبلها؟! واستغرب السؤال وقلت له إن الرجل الذي كان فـــي اختصاصه قبول الاستقالة أعلن على الناس استقالته فـــي الساعة السابعة، ولم يعد فـــي إمكانه أن يقبل شيئــًا أو يرفضه.

"وفوجئ المشير، وقال إنه سوف يعود إلى الاتصال بي بعد دقائق، وعاد وكان اقتراحه أن يصدر إعلانٌ عنه بـــ"أنه ابتداءً من الساعة السابعة والنصف تخلى عن كل مسؤولياته". ورجوته فـــي صياغة ما يريده وإرساله مباشرةً إلى الإذاعة اختصارًا للوقت، وأنني سوف أتصل بالسيد محمد فائق، والواقع أن هدفـــي كله فـــي تلك الساعة كان كسب الوقت بأقل قدرٍ ممكن من دواعي التفجير، وكان غضبه قد بدا يتزايد، ولكني أشهدُ أن كلمةً خارجةً لم تصدر عنه".

كان الموقف مختلفــًا فـــي مكتب معلومات عبدالناصر، الذي كان تحت رئاسة سامي شرف.

ويقول سامي شرف فـــي شهادته: "بعد انتهاء الرئيس جمال عبدالناصر من إلقاء خطاب التنحي اتصل بي المشير عبدالحكيم عامر

فـــي مكتبي وقال لي: يا سامي حابعث لك بيان للإذاعة باستقالتي وكمان شمس بدران، وطلب مني تبليغ ذلك للرئيس، وكلمت الرئيس وأبلغته بهذه الرسالة، وفـــي نفس الوقت اتصلت بمحمد فائق وزير الإعلام وطلبت منه التزام اليقظة توقعـــاً لإرسال المشير عامر أو شمس بدران بيانـــاً أو يذهبا بنفسيهما أو أحدهما لإذاعة بيان استقالتهما وقلت له إن تعليمات الرئيس تقضي بعدم السماح لأي شخص أيـــاً كان بإذاعة بيانات لا بالتأييد ولا الاستقالة إلا بعد الاتصال بي شخصيـــاً، ورجوته ألا يترك مكتبه ويمنع دخول أي أشخاص لمبنى الإذاعة والتليفزيون. وبالطبع فقد أثارت هذه التعليمات مشكلاتٍ كثيرة وكبيرة بين محمد فائق وبين العديد من المسؤولين وغيرهم".

من جهته، يكمل منير حافظ الرجل الثاني فـــي المكتب تفاصيل ما جرى قائلاً: "دق التليفون ورد سامي (شرف) عليه، فإذا به عبدالحكيم عامر يصرخ ثائرًا:

بقى أنت يا بن (ال.. ..) على آخر الزمن تمنع إذاعة بيان لي؟!

"ويرد سامي: أنا يا أفندم! أنا يكون لي ميت سنة فـــي القبر لو أرفع عيني فـــي وش سيادتك.. ده أنا تلميذك يا فندم، ولو جيت ضربتني بمسدسك مش حارفع عيني فـــي وش سيادتك"!

ولم توقف هذه الاعتذارات سيل الشتائم المريرة التي تدفقت على أسماع سامي شرف والقريبين من مكتبه.

نفسياً كانت مصر غاضبة من الهزيمة. كانت تلك الفترة تشهد محاولات يبذلها الرئيس جمال عبدالناصر للصلح مع المشير عبدالحكيم عامر.

لعب دور الوساطة بين الرئيس والمشير أكثر من شخصية بارزة: صلاح نصر، عباس رضوان، أنور السادات، ثروت عكاشة، ومحمد حسنين هيكل.

وحاول شمس بدران التقدم بحلول وسط، لكن عبدالناصر أصر على عدم عودة المشير عامر إلى القوات المسلحة مرة أخرى، في حين أقدم المشير على بعض التصرفات التي زادت الأزمة اشتعالاً، ربما كان من أهمها توزيعه نص استقالة زعم أنه قدمها للرئيس عبدالناصر بعد النكسة، مع أنها كانت هي الاستقالة نفسها التي سبق أن تقدم بها عقب أزمة مجلس الرئاسة عام 1962.

وكانت شقيقة نفيسة عبدالحميد حواس -الشهيرة ببرلنتي عبدالحميد، زوجة المشير عامر بعقد عرفي- وتُدعى زهرة، هي التي أعادت طبع هذه الاستقالة في إحدى قرى مركز دكرنس بمحافظة الدقهلية.. وتولت توزيعها هي وزوجها، بهدف حشد رأي عام مؤيد للمشير، لكن جهاز المباحث العامة ضبطهما مع الآلة الكاتبة والمطبعة.

كان الغالب الأعم من رجال الثورة عقب حرب يونيو 1967 مقتنعين بأن عبدالناصر لن يتراجع عن إبعاد المشير عن القوات المسلحة كحد أدنى. فيما كان البعض الآخر يرى في قبول ذلك إقرارًا بإدانة عامر وتثبيت أنه المسؤول عن الهزيمة العسكرية.

يقول السادات فـي مذكراته إنه دعا المشير إلى العشاء فـي منزله واستقبله أحسن استقبال كأن شيئـا لم يكن. ثم يضيف قائلاً: "وفـي نهاية لقائنا رجوته أن يقبل منصب نائب رئيس الجمهورية الذي عرضه عليه عبدالناصر، ولكنه قال بجفوة: "لا.. طول ما جمال عبدالناصر بيشتغل رئيس جمهورية، أنا لازم أشتغل قائد على القوات المسلحة.. لا كده لا بلاش"213.

كان جوهر القضية –حسبما يشير سامي شرف في مذكراته– هو أن المشير "كان ينظر إلى الجيش على أنه إقطاعية تابعة له ولا يريد التنازل عنها تحت أية ظروف.. بل إنه كان يرى أيضـا في استرداده سلطاته في الجيش بمثابة رد اعتبار له في ضوء مسؤوليته الكبرى عن وقوع الهزيمة العسكرية"214.

وبعد نحو شهرين من الحرب، وتحديدًا فـي 3 أغسطس 1967، روى جمال عبدالناصر فـي اجتماع اللجنة التنفيذية العليا للاتحاد الاشتراكي (حسب ما جاء فـي محاضر اجتماعاته العربية والدولية، إعداد عبدالمجيد فريد) جانبـا من اتصالاته مع عامر بعد حرب يونيو؛ إذ قال: "حاولت شخصيـا إحضار المشير إلى مكتبي فـي المنزل لمحاولة إفهامه واستعنت بصلاح نصر لإحضاره ولكنه رفض الحضور، بعد ذلك قابلت عبدالحكيم وحاولت دون جدوى إقناعه بأنه ليس منطقيـا أن يبقى بعد الهزيمة العسكرية قائدًا عامـا، ويكتفـي بأن

213 أنور السادات، البحث عن الذات، مرجع سابق.

214 سامي شرف، مرجع سابق.

يكون نائبـــًا لرئيس الجمهورية. رفض المشير كلامي رفضـــًا باتـــًا وسافر غضبانـــًا إلى بلدته فـــي المنيا، ثم اتصل بهيكل من هناك وأبلغه استنكاره التام لجميع تصرفاتي! بعدها حضر شمس بدران إلى منزلي وأبلغني أن الموقف العام يزداد سوءًا يومـــًا بعد يوم وأن البلد كله ضدي وأن الجيش ضدي وأن الحل الوحيد هو إعادة عبدالحكيم عامر لمنصبه القديم من أجل استقرار الأوضاع"!

وعقب إعفاء عامر من جميع مناصبه وإحالته إلى التقاعد، دخلت مصر فـــي دواماتٍ لا تنتهي.

ففـــي حوالي العاشرة من صباح يوم 11 يونيو 1967 حضر إلى مبنى السكرتارية الخاصة لرئيس الجمهورية بمنشية البكري، بعض القادة العسكريين وطلبوا مقابلة الرئيس وحددوا مطالبهم فـــي بند واحد هو "عودة المشير عبدالحكيم عامر إلى قيادة القوات المسلحة". ورفض عبدالناصر مقابلتهم، ثم أصدر قرارًا باسم رئيس الجمهورية القائد الأعلى للقوات المسلحة بإحالتهم إلى المعاش. وهم اللواءات عبدالرحمن فهمي وعبدالحليم عبدالعال وحمزة البسيوني.

وانتقل المشير عبدالحكيم عامر بعد ذلك إلى منزله فـــي شارع الطحاوية بالجيزة. وكان المنزل يتكون من طابقين وبدروم ويطل على النيل فـــي المنطقة بجوار فندق شيراتون القاهرة وفيه حديقة كبيرة وهو محاط بسور عال. وكان يوجد بالبدروم مكاتب السكرتارية والحراسة الخاصة للمشير. وفـــي هذا المنزل ازدادت الحركة حيث أخذ يتصل به الضباط من الذين عادوا حديثـــًا من سيناء وبعض

العناصر المدنية والعسكرية الأخرى، إلى جانب إخوته وأقاربه الذين قدموا من أسطال بلدة المشير فـــي محافظة المنيا وقد حضر عدد منهم بناء على طلبه للإقامة معه فـــي مترله بالجيزة.

ومع اتساع الحركة غير العادية فـــي مترل المشير عبدالحكيم عامر بالجيزة، كلف الرئيس عبدالناصر مدير المخابرات صلاح نصر بالاتصال بالمشير وإبلاغه بأن هذا الوضع لا يليق بعبدالحكيم وغير مقبول، وأنه يجب إنهاؤه.. لكن المشير عامر رد عليه بأنه سوف يغادر مترله إلى بلدته أسطال فـــي محافظة المنيا فـــي صعيد مصر، وفعلاً سافر إليها.. وأخذ يلتقي مع أفراد عائلته وأبناء البلدة ويردد فـــي جلساته معهم أنه لن يرضى إلا بالعودة لقيادة الجيش، وأنه لن يقبل أن يكون "طرطورًا"، أو تشريفاتي مثل صلاح الشاهد.

وفي مذكراته "سنوات وأيام مع جمال عبدالناصر"، يقول سامي شرف مدير مكتب الرئيس عبدالناصر لشؤون المعلومات إن العلاقة بين جمال عبدالناصر والمشير عبدالحكيم عامر فسدت على نحو درامي وسريع عقب فجيعة هزيمة يونيو المدوية، التي أصدر عبدالناصر بعدها قرارًا بتنحية عبدالحكيم عامر عن قيادة الجيش وتعيينه نائبا للرئيس، وهو القرار الذي رفضه المشير بشدة، وحزم حقائبه واتجه إلى بلدته أسطال –مركز سمالوط بمحافظة المنيا– ليقضي بها بعض الوقت[215].

سافر عامر إلى أسطال، ثم عاد فـــي أول يوليو 1967 بعد لقائه محمد حسنين هيكل الذي تمكن من إقناعه بأن بقاءه هناك يعني رضاءه بالنفـــي الاختياري بعيدًا عن القاهرة.

---

215 المرجع نفسه.

وبدأ فـــي اليوم نفسه تنفيذ حملة اعتقالات وتطهير شملت عددًا من قادة القوات المسلحة وبعض الضباط من دفعة 1948 وهي دفعة شمس بدران، الذين كانوا يشكلون تنظيمـــًا خاصـــًا كان يتولاه شمس بدران بشكل سري، لم يعلم به القائد الأعلى للقوات المسلحة. وكانت قد ضبطت نوتة فـــي مكتب شمس بدران فـــي مبنى القيادة العامة بكوبري القبة تحوي أسماء هذا التنظيم وسلمها الفريق محمد فوزي للرئيس عبدالناصر، وبناءً على ذلك اتخذت إجراءات التحفظ، وأودع الضباط فـــي إحدى الفيلات فـــي منطقة المعادي، إضافة إلى عدد من أعضاء مجلس الأمة عن محافظة المنيا بعد إسقاط المجلس لعضويتهم عنه.

لكن النشاط المسلح أخذ يتزايد فـــي منزل عامر. بل إنه أمر في 1 يوليو 1967 وبعد أن استقر في منزله بالجيزة بنقل جميع الأسلحة التي كانت موجودة في منزله الأصلي بالحلمية إلى محل إقامته الجديد. وسرعان ما تحوَّل منزل المشير إلى ثكنة عسكرية نقل إليها الكثير من العناصر والمعدات، ووصل به الأمر إلى استدعاء نحو 300 رجل من أسطال للمشاركة فـــي حراسته، علاوة على بعض أفراد من الشرطة العسكرية. وفي تقدير أجهزة الأمن والاستخبارات، أصبح المكان بمن فيه "ورمـــًا" خارجـــًا على الشرعية القائمة.

وصلت عبدالناصر تقارير أمنية عن تخطيط المشير عامر ورجاله لمؤامرة لقلب نظام الحكم حُدد لتنفيذها يوم 27 أغسطس 1967. تضمنت الخطة شقين، أولهما تمهيدي ودعائي لإحداث بلبلة من الأفكار في صفوف القوات المسلحة والسعي لكسب تأييد أكبر عدد

ممكن من الضباط وتهيئة الأذهان لتقبل الوضع الجديد. أما الشق الثاني ويتمثل في الجانب العسكري التنفيذي، ويعتمد على قوات الصاعقة الموجودة في أنشاص والتي كان عليها تأمين وصول المشير إلى القيادة الشرقية في منطقة القناة، ثم تنصيبه قائدًا عامـًا للقوات المسلحة، ثم يقوم المشير بإعلان مطالبه لرئيس الجمهورية من هناك.. فإذا لم يستجب له الرئيس تحركت قطاعات من القوات المسلحة لفرض هذه المطالب بالقوة، وذلك بمعاونة القوات الجوية لضمان نجاح الخطة. وتم تحديد التوقيتات والتكليفات، فكان موكولاً إلى شمس بدران مثلا تأمين الشرطة العسكرية والفرقة المدرعة، وعثمان نصار تأمين منطقة دهشور العسكرية، وعباس رضوان تأمين منطقة القاهرة واعتقال بعض المسؤولين في الدولة بمعاونة أطقم المخابرات العامة بعد موافقة صلاح نصر – وكان على رأس المخطط اعتقالهم شعراوي جمعة وسامي شرف وأمين هويدي.

فيما بعد، رُويت تفاصيل كل تلك الأحداث على لسان جمال عبدالناصر في اجتماع مجلس الوزراء بتاريخ 17 سبتمبر 1967.

يومها قال ناصر:

"آسف لما وصلت إليه الأمور. ولقد حاولت بكل الوسائل أن أتلافى ما حدث. والحقيقة أنني لم أتدخل إلا عندما حدث اتصال بالجيش. ولقد حدث قبل ذلك اتصال بالمدنيين، وقلت: لن أتكلم!

"لقد كان عبدالحكيم لي أكثر من أخ. لكن الحقيقة لقد كنت أريد أن أترك السلطة؛ لأن بعد ما حدث يوم 8 يونيو كان لازم كلنا نمشي؛ الوضع الموجود هو وضع غير طبيعي؛ لأن بعد الهزيمة التي حدثت كان لازم يتغير النظام وتتغير الدنيا. ده بيحصل في كل العالم

والحقيقة بعد العودة في 10 يونيو، لم أكن مقتنعــًا أن عودة عبدالحكيم إلى القوات المسلحة ممكنة أبدًا، وأنا قلت له هذا الكلام يوم 11 يونيو، ولم أكن مستعدًا للحلول الوسط compromises، لكن رغم هذا، قلت له: يرجع نائب رئيس الجمهورية، وبعد أن رفض، قلت له: تظل في اللجنة التنفيذية العليا، ولا داعي للقطيعة!

"لكن حدثت تحركات الجيش، وجب عليّ التصرف، وكان ذلك صعبــًا عليّ جدًا، وقد اجتمعت والإخوان معه لأكثر من سبع ساعات في منزلي يوم 25 أغسطس، وتناقشنا حول ما حدث بالنسبة للجيش. وكنت قد اعتبرت تجميع المدنيين نزوة عابرة ثم تنتهي، وأستطيع أن أحتملها، ولم أواجهها بشيء. على كل حال هذه إرادة ربنا، ولكن بالنسبة للقضية المرتبطة بموضوع المشير لازم ستعرض على المحكمة، ويتم محاكمة كل المتورطين، ولا يمكن التراجع في هذا.

"وعبدالحكيم لم يكن صاحب فكرة الانقلاب أصلاً، بل هو جلال هريدي الذي أقنعه بها، وجاء هذا في الاعترافات التفصيلية لأحمد عبدالله، الذي كان مكلفــًا ليقوم بالعملية الأساسية في خطة الانقلاب.

"ومن الأمور التي أحزنتني دخول عباس رضوان في الموضوع! فلما بدأ جلال هريدي يعترف -هو أول واحد اعترف.. واعتراف كامل- جاءت سيرة عباس رضوان في الموضوع. لقد أبلغ عن ضابط مدرعات من الفرقة الرابعة أحضره ضابط من عند المشير الذي أرسله إلى عباس رضوان، وطلب منه معلومات عن قيادات الفرقة الرابعة، وقيادات المدرعات، وقيادات الألوية وأمكنتها، وقد أحضر له الضابط كل طلباته!

"طلبت عباس رضوان بالتليفون، وقلت له سيرتك جت في التحقيق! فاعترف أنه فعلاً قابل ضابط المدرعات. لكنه تكلم معه فقط كلامـــاً عموميـــاً! ولقد أخذت كلام عباس كقضية مسلمة. وقلت: قد يكون أحرج.. وهو على علاقة بعبدالحكيم!

"يوم الجمعة 25 يونيو اتصلت بعباس رضوان، وطلبت منه أن يذهب إلى مترل المشير بالجيزة، ويحاول أن يعتقل الضباط هناك، وإذا رفضوا يخرج عيلة عبدالحكيم من البيت؛ لأن ممكن أن يحدث اشتباك في أي وقت، وكان الفريق فوزي هناك.

"أخبرني عباس من بيت عبدالحكيم بأن الضباط يرفضون التسليم، وطلب مني أن أؤجل اتخاذ أي إجراء، فقلت له: أقبل التأجيل حتى الساعة 3 بعد منتصف الليل.

"اعترف أحمد عبدالله في أقواله بأن الخطة أعطيت له في النصف الأول من يوليو، وقال: إن أول واحد اتكلم معه جلال هريدي، ثم هاني بشير، وإنه رتب على هذا الموضوع، واتصل بضباط الصاعقة والعمليات. واستطرد جلال هريدي أن اجتماع 23 يونيو بعد منتصف الليل، هو الذي حضر فيه عبدالحكيم وشمس وعثمان نصار وجلال هريدي، وهو الذي كانوا يضعون فيه التفاصيل النهائية التي على أساسها يكون التنفيذ في 27 يونيو- بعد نص ليل 26.

"وشرح جلال هريدي.. انقسمت العملية لثلاث مجموعات، مجموعة المشير، ومجموعة شمس بدران، ومجموعة عباس رضوان. وكانت مجموعة المشير ستتجه إلى أنشاص، وبعد هذا إلى القصاصين، ويعينون ضابطـــاً كانوا متصلين به.

"بعد ذلك تتجه مجموعة شمس بدران بجواب من المشير إلى قائد الفرقة الرابعة المدرعة، عبدالمنعم واصل، ويحل محله اللواء سعد عثمان من الحدود.

"المجموعة الثالثة كانت بقيادة عباس رضوان، ومسؤوليته كانت القاهرة، وتنفيذ الاعتقالات فيها، والسيطرة عليها، كما بحثوا موضوع الإذاعة، وموضوع فرقة مشاة موجودة في القاهرة، وسألوا.. هل يستطيع عثمان نصار أن يسيطر عليها؟ فرد أنه لن يستطيع. فقالوا: إن العملية كلها جاهزة في الشرطة العسكرية، وإن شمس مجهز عملية هذا الانقلاب في الشرطة العسكرية.

"واعترف جلال هريدي بأن عباس رضوان طلب مجموعة من الصاعقة لتعمل معه في الاعتقالات؛ لأنه لم يكن مطمئنـــاً للانقلاب الذي سيحدث في الشرطة العسكرية الذي رتبه شمس، على هذا الأساس كان دور عباس رضوان. ويتابع جمال عبدالناصر الحديث.. بالنسبة لموقف المخابرات.. عملت معي أسبوعـــاً.. عشرة أيام بعد 10- 11 يونيو فقط! وحتى لقد طلبت صلاح نصر، لإعادة النظر في القيادات وفي الجيش، وحضر معي عدة اجتماعات، حضر فيها الفريق فوزي وكاتم أسرار، ولقد ألح صلاح نصر لآخذ إجراء حيال دفعة 48 -دفعة شمس بدران- وأنا رفضت مبدئيـــاً، فمن الصعب أن أتخذ قرارًا بالنسبة لـــ 160 ضابطـــاً مرة واحدة؛ لأنه قد يكون فيهم ناس جيدة!

"بعد ذلك لاحظت على صلاح نصر نوعـــا من التراجع، وعدم الكلام في أي موضوع خاص بالجيش! وحتى لما كنت أطلب معلومات، لم يكن هناك أي معلومات! ثم عادة كانت تصل إليّ تقارير يومية، خصوصـــاً في أوقات الأزمات.. لا شيء!

"ثم عرفت أن حسن عليش –رئيس الأمن القومي بالمخابرات العامة– يذهب إلى بيت المشير في الجيزة، وعرفت أنه تصلهم معلومات من المخابرات! ذلك الحقيقة ما جعلني شكيت، واتخذت إجراء 25 يونيو بالنسبة للجيش وبالنسبة للمخابرات العامة أيضـــاً. بالنسبة لتورط صلاح نصر.. اتضح من كلام عبدالحكيم لعباس رضوان.. أن يأخذ جماعات أمن من عند صلاح نصر! هذا الكلام كان اعترافـــاً من جلال هريدي ومن عثمان نصار.

"وبالنسبة للمخابرات.. طلبت من أمين هويدي أن يعمل تحقيقـــاً في كل شيء داخلها، واتشكلت لجنة يرأسها حلمي السعيد. ولماذا طلبت هذا؟! ليس من أجل القضية الحالية، وإنما بسبب الكلام عن انحرافات جهاز المخابرات في الفترة الأخيرة. ورأيي أنه يجب اتخاذ إجراءات، بمعنى إن لازم نحاكم، وكل من أخطأ يأخذ جزاءه، وإلا فنحن ندين النظام بهذه المأساة الكبيرة"216!

ويقول وزير الحربية أمين هويدي إن اللافت للانتباه أن جهازي المخابرات العامة والمخابرات الحربية كانا على علم بما يدبر، وأبلغت إدارة المخابرات الحربية ما لديها من معلومات للجهات المختصة،

---

216 د. هدى جمال عبدالناصر، مأساة المشير، جريدة "المصري اليوم"، القاهرة، 19 سبتمبر 2012.

ولكن المخابرات العامة -وكان يتولى رئاستها صلاح نصر- لم تبلغ ما لديها من المعلومات إلى الجهات المسؤولة حتى مساء 25 أغسطس217.

على الفور، أمر عبدالناصر بتشكيل مجموعة عمل ثلاثية من شعراوي جمعة وأمين هويدي وسامي شرف لوضع خطة لمواجهة وإفشال هذا المخطط، وهو ما بالفعل بعد إطلاق اسم كودي لهذه الخطة هو: "العملية جونسون".

اتفق الثلاثة على عقد اجتماعاتهم في نادي الشمس في حي مصر الجديدة، وكانت الاجتماعات تتم في وقتٍ متأخر من الليل بعد أن يكون النادي قد أغلق أبوابه حول حمام السباحة، وأمامهم لفائف من سندويتشات الفول والطعمية التي كان يحضرها من يكلف بذلك. وكان الثلاثة يصلون دائمــًا إلى مكان الاجتماع في مواعيد متقاربة وبطريقةٍ فردية.

وضع هؤلاء في البداية خطةً لاستدراج المشير منفردًا أو معه أقل عدد ممكن من الحراس، والتحفظ عليه في مكان أمين حتى تتم تصفية الجيوب الباقية في منزل الجيزة مثلاً. واستقر الرأي على أن طريق صلاح سالم هو أصلح مكان لذلك، حيث كان المشير يستخدمه جيئة وذهابــًا للقيام ببعض الزيارات الخاصة.

غير أنه جرى صرف النظر عن الخطة لاحقــًا، واتفق الثلاثة على خطة لاستدراج المشير إلى منزل الرئيس في منشية البكري، على أن

---

217 أمين هويدي، مرجع سابق، ص 257 – 258.

تتجه قوة عسكرية إلى منزل عامر في الجيزة لفرض حصار عليه والقبض على من هم فيه. وفي اليوم التالي مباشرة، يعاد النظام إلى جهاز المخابرات العامة تحت إشراف أمين هويدي.

اتصل عبدالناصر هاتفياً بالمشير يوم 24 أغسطس ودعاه لاجتماع به في المنزل المذكور في السابعة من مساء يوم الجمعة 25 أغسطس، فوافق عامر على الفور مرحباً، نظرًا إلى أن عبدالناصر كان في الأزمات السابقة بينهما البادئ بالتصالح وإصلاح الخلافات بينهما.

إلا أن أنصار المشير حينما بلغهم نبأ اللقاء انقسموا إلى فريقين، فريق يؤيد ذهاب المشير إلى اللقاء على أساس أنه فرصة لاحتواء الموقف، وفريق آخر توجس خيفة من اللقاء وعارضه بشدة. غير أن المشير حسم أمره وقرر قبول دعوة عبدالناصر.

وصل المشير عامر إلى مكان اللقاء مبكرًا عن الموعد بحوالي ربع ساعة، في حين قام شعراوي جمعة وسامي شرف بتنفيذ الجزء المخصص لهما في العملية، أي القبض على مرافقي المشير عقب وصوله المنزل، واتجه الفريق محمد فوزي إلى منزل المشير لفرض عليه تمهيدًا لتصفية المقاومة داخله.

ووفق ما كان واردًا في الخطة، فقد دخل إلى منزل عبدالناصر في الساعة السابعة تماماً كل من: وزير الحربية أمين هويدي ومحمد المصري من مكتب سامي شرف.. وأحد الضباط الأحرار والعميد صلاح شهيب من الياوران.. وأحمد شهيب من الضباط الأحرار وعضو مجلس الأمة عن دائرة مصر الجديدة. وكان قائد الحرس الجمهوري العميد محمد الليثي ناصف يمر باستمرار حول المنطقة وداخل المنزل.

حضر اللقاء كل من زكريا محيي الدين وأنور السادات وحسين الشافعي، ولم يكن أحد منهم يعلم أي شيء عما سيحدث إلا زكريا محيي الدين فقط الذي كان على دراية بالخطة كلها بالتفصيل. وفي هذا يقول السادات إن عبدالناصر طلب منهم حضور اللقاء قائلاً لهم: "اسمعوا يا جماعة، أنا عاوزها جلسة مواجهة وأنتم تكونوا موجودين"218.

وعندما دخل عامر إلى المترل ووجد أعضاء مجلس قيادة الثورة قال: "هي محكمة ولا إيه؟!".

في تلك الجلسة، اهم عبدالناصر صديق عمره عامر بالتآمر وسرد سلسلة من الوقائع؛ إذ قال: ".. ولكن كونك تتآمر يا عبدالحكيم فهذا وضع لا يمكن قبوله أو السكوت عليه، ويعني أيضاً أنك تتنكر للاتفاق الذي تم بيننا عقب نجاح الثورة في 23 يوليو، من أن أي واحد فينا من أعضاء مجلس قيادة الثورة إذا اختلف أو لم يكمل المسيرة لأي سبب، لا يتآمر".

فقاطعه المشير عامر قائلاً: "أنا لا أتآمر ولم أتآمر وأنا بأرفض كلامك ده"!

رد ناصر قائلاً: "أنت تآمرت فعلاً، وسوف أذكر لك حادثة واحدة من وقائع ثابتة، عندي الكثير منها وبأقول لك: أنت بعثت بسكرتيرك محمود أحمد طنطاوي للفريق صدقي محمود من خمسة أيام برسالة تتضمن أنك تنوي الاستيلاء على السلطة، وأنك تطلب من

218 أنور السادات، البحث عن الذات، مرجع سابق، ص 248.

صدقي محمود أن يشترك معاك ويحضر لمقابلتك. ولكن صدقي أبدى عدم موافقته. لدرجة أن حرم الفريق صدقي شتمت سكرتيرك وطردته من المنزل وقفلت الباب بشدة خلفه. وذي واحدة من آلاف غيرها".

استطرد قائلاً: "أنا في الحقيقة مش عارف ليه أنت بتربط نفسك بالقوات المسلحة وبقيادة الجيش. هل إحنا لما قمنا بالثورة كان هدفنا أن أتولى أنا رئاسة البلد وأنت تتولى قيادة الجيش؟.. عايز أفكركم كلكم وأنت بالذات مين اللي رشحك.. واقترح وأصر على تعيينك قائدًا عامـــًا.. مش أنا اللي كنت وراء هذا التعيين؟.. وإذا كان الأمر كذلك طيب ألم يكن من الطبيعي بعد الانفصال وما حدث وموقف الجيش ومكتبك هناك ودورك أن تحاسب على ما حدث؟.. حتى بعد ذلك ألم تكن هناك أكثر من مؤامرة ضد النظام ضبطت وهي من صنع رجال يعملون في مكتبك يا عبدالحكيم؟".

لم يتمالك المشير أعصابه عند هذا الحد من اللقاء، فانفعل وبدأ يفقد أعصابه، فقال له عبدالناصر: "الأمور واضحة.. أنت راجل متآمر وعليك أن تقدر الموقف الصعب اللي بنمر فيه وعليك أن تلزم بيتك من الليلة".

ويقول سامي شرف إنه عندما طلب عبدالناصر من عبدالحكيم أن يلزم منزله، تساءل المشير قائلاً: "يعني بتحددوا إقامتي وبتحطوني تحت التحفظ؟" فرد عليه عبدالناصر والآخرون بالإيجاب.

رفض عبدالحكيم عامر بشدة هذا القرار، وهو ما دفع بعض الحاضرين إلى محاولة إقناع المشير بقبول هذا القرار.

ويضيف سامي شرف قائلاً: "وتدخل السيد أنور السادات في المناقشات محاولاً إقناع المشير عامر بقبول القرار. إلا أن المشير عامر تطاول عليه بألفاظ جارحة لم يتفوه بها مثلاً للسيد زكريا محيي الدين عندما كان يحاول إقناعه أيضًا. وقد جاء ضمن ما قاله: "قطع لسانك أنت بتحاكمني يا رقاص.. يا.. ابن.. ".

وفي نحو التاسعة مساء، دخل أمين هويدي إلى المترل وجلس بجوار حجرة الصالون، حيث كان اجتماع الرئيس بالمشير. يقول هويدي إنه سمع في الداخل جانبًا من خلاف الرئيس والمشير، وكان الذي يتكلم هو عبدالناصر وكان الذي يرد هو عامر، "وقد سمعته وهو يقول للمشير: "عليك يا عبدالحكيم تقدير الموقف الصعب الذي تمر به البلاد. وعليك أن تلزم مترلك في هذه الفترة الحرجة".. كان الحديث يدور هادئًا في معظم الأحيان، ولكن كانت الأصوات ترتفع في حدة في أحيان أخرى، ولكن لم يكن في مقدوري متابعة كل ما يجري؛ لأنه لم يصل إلى أذني إلا بعض الكلمات بين وقت وآخر، وكنت منهكًا ومتعبًا بحيث كنت أميل للاسترخاء قليلاً قبل ما ينتظرني في اليوم التالي.

"وكان المشير -حتى منتصف الليل- مُصرًا على موقفه التعنت، ولا شك أن "تجمع أصدقائه" في الجيزة كان له دخل كبير في إصراره هذا. كان الرجل يلعب على عامل الوقت لعل وعسى أن يلين الرئيس كما حدث في المرات السابقة"219.

219 أمين هويدي، مرجع سابق، ص 365 – 366.

وفـــي كتابه "مع عبدالناصر"، يقول وزير الحربية أمين هويدي: "وقد سمعت الرئيس وهو يقول للمشير: "عليك يا عبدالحكيم تقدير الموقف الصعب الذي تمر فيه البلاد. وعليك أن تلزم مترلك فـــي هذه الفترة الحرجة". وسمعت المشير وهو يرد على الرئيس قائلاً: "يعني بتحدد إقامتي وبتحطني تحت التحفظ. قطع لسانك" وكرر ذلك أكثر من مرة"220.

في هذه الأثناء، اتصل الفريق فوزي بأمين هويدي مرتين، مرة حينما وصل إلى مترل الجيزة على رأس قواته ليخبره بإتمام محاصرته المترل، ومرة أخرى لإبلاغه بأن حرائق شوهدت في المترل، تبين فيما بعد أنها عبارة عن عملية حرق أوراق مهمة بواسطة بعض الضباط الموجودين في مترل الجيزة، كانوا يخشون أن تدينهم في حال إلقاء القبض عليهم.

ومع تصاعد حدة التوتر في الجلسة التي حاكم فيها عبدالناصر المشير أمام رفاق من مجلس قيادة الثورة، شن عامر هجومـــاً على عبدالناصر إلى أن قال الرئيس للمجتمعين إنه سيتركهم لبعض الوقت حتى تهدأ الأمور.

في منتصف الليل تقريبـــاً، خرج عبدالناصر من غرفة الصالون، ولما وجد هويدي في الخارج اصطحبه معه واضعـــاً ذراعه في ذراعه إلى غرفة المكتب على الجانب الآخر من الردهة الخارجية، وكان كلاهما يدخنان بشراهة، وخُيِّلَ لهويدي أن الرئيس يكاد يقضم

220 أمين هويدي، مع عبدالناصر، دار المستقبل العربي، بيروت، 1991.

سيجارته. وفور دخوله المكتب طلب عباس رضوان هاتفيـــًا من رقم مباشر من الذاكرة، وقال له: "عباس، أنت المسؤول عن فض الموقف في الجيزة". ويقول هويدي: "ولست أدري هل تم اتفاق الرئيس مع عباس قبل هذا الاتصال أم لا؛ لأن كلام الرئيس لعباس كان موجهـــًا لشخصٍ يعرف ما يجري.. وبعد ساعةٍ أخرى، خرج الرئيس من الصالون للمرة الثانية واتجهت معه إلى المكتب ليعاود الاتصال مع عباس، وكان حديثه هذه المرة محتدًا قاطعـــًا وهو يقول له: "أنت يا عباس مسؤول عن عدم فض الموقف". وبعد انتهاء المحادثة ذكر الرئيس أن الموقف في نظره يتعقد وأن عباس يتلاعب. ورددت على الرئيس: "مازال أمامنا أربع ساعات حتى الفجر، وحل الموقف هناك في مترل الجيزة؛ لأن المشير سيبقى على عناده ما دام مترل الجيزة باقيـــًا على أوضاعه". وأمن الرئيس على ذلك وصعد إلى الدور العلوي ليستريح بعض الوقت"221.

دخل هويدي إلى غرفة الصالون وسلم على الجميع. كان المشير جالســـًا على أريكة من الأرائك، وحينما رآه قال له: "أهلاً بوزير حربيتنا.. الله.. ده أنتم مجهزين كل حاجة والمسألة محبوكة على الآخر". كان أنور السادات هو الوحيد الذي يجلس صامتـــًا والدموع على خديه، أما حسين الشافعي فكان يبدو غير مهتم بما يجري، فيما كانت ملامح زكريا محيي الدين جامدة لا تدل على شيء.

221 أمين هويدي، 50 عامـــًا من العواصف.. ما رأيته قُلته، مرجع سابق، ص 366.

بعدها خرج عامر من الصالون متوجهـًا إلى دورة المياه، وخرج معه أمين هويدي، وبدا عامر ودودًا مع الأخير، ويتحدث على الباب بهدوء بالرغم من حرج موقفه ودقة الظروف.

لكن المشير كان قد أعد للجميع مفاجأة لدى عودته؛ إذ يقول هويدي: "وفجأة خرج المشير من دورة المياه وفـي يده كأس زجاجية بها بعض المياه وقال بأعلى صوته وهو يرمي الكأس على طول ذراعه: "اطلعوا بلغوا الرئيس أن عبدالحكيم خد سم لينتحر". ودخل فـي هدوء إلى حجرة الصالون ليجلس على الأريكة ذاتها وهو يبتسم فـي هدوء وكأنه لم يفعل شيئـًا. انزعج هويدي أشد الانزعاج حين سمع بذلك وصعد إلى الدور العلوي حيث يوجد الرئيس قفزًا فوق الدرج واستقبله الرئيس من أعلى السلم وهو يرتدي البيجامة و"الشبشب"، فقال له وزير الحربية: "المشير خد سم وانتحر"، فقال له الرئيس: "عبدالحكيم أجبن من أن ينتحر. لو كان عاوز ينتحر كان انتحر لما ودَّانا فـي داهية"222.

ويقول أمين هويدي فـي شهادته: "يبدو أن درجة انزعاجي كانت شديدة لدرجة أن الرئيس كان يحلو له بعد ذلك أن يحكي عن ذلك فـي مناسباتٍ عديدة وكان يضيف قائلاً: "تمثيلية عبدالحكيم خَالَت على أمين"223.

222 أمين هويدي، مع عبدالناصر، مرجع سابق، ص 182 - 183.

223 أمين هويدي، 50 عامـًا من العواصف.. ما رأيته قلته، مرجع سابق، ص 367.

حدث هرج ومرج بين الموجودين، أما "الثلاثة الكبار" فكانوا على حالهم وهدوئهم، ولكن خُيِّل لأمين هويدي أن عبرات السادات زادت كثافة.

استُدعي الدكتور الصاوي حبيب طبيب الرئيس الخاص وكان موجودًا في منشية البكري، فدخل على عجلٍ ومعه حقيبته الطبية، وحاول أن يسعف المشير الذي رفض أن يستجيب له، وحاول أن يضع إصبعه في فمه، ولكن من دون جدوى، مما اضطر معه أن يمسك حسين الشافعي بالمشير بشدة حتى يتمكن الطبيب من حقنه.

ورأى المشير أن يخرج إلى الحديقة ليشم بعض الهواء، وخرج معه هويدي، الذي يروي الواقعة كالتالي:

"كان الرجل وفي حركاتٍ تمثيلية كثر من النظر إلى السماء ثم يتنهد ثم يعود لينظر إلى السماء، وهنا دار بيني وبينه الحديث الآتي:

أمين: كيف حالك؟

المشير: أنا كويس والحمد لله.

أمين: سيادة المشير، هل يصح هذا الذي يحدث؟ هل يمكن أن يطور المشير الموقف إلى هذا الحد؟ أنا أكاد لا أصدق أن الأمور تصل إلى ما تصل إليه الآن.

عامر: يا أمين أنت لا تعرف شيئـــاً.

أمين: كيف لا أعرف؟ الوقت يمر ولا بدّ من حسم الموقف.

عامر: لحساب من يا أمين يحسم الموقف؟ اسكت أنت لا تعرف أي شيء"[224].

ثم عاد المشير إلى غرفة الصالون، التي غاب عنها هذه المرة حسين الشافعي. وحينما خرج هو: ي إلى الصالة الخارجية وجد الشافعي جالسـًا وأمامه طبق من الفاكهة وهو مقبل عليه في اطمئنان، ودعاه إلى تناول بعض الفاكهة ولكن الثاني اعتذر في ظل ما يجري. وأخيرًا قال له الشافعي: "أنا رأيي أن المشير يعود إلى مترله والموضوع "مش نافع".. الفجر قارب الظهور فماذا سيقول الناس عندما يرون ما يحدث في مترل الجيزة؟!".

بقي الجميع يدورون في حلقة مفرغة، كما لو أنهم في رهان على عامل الوقت.

في تلك الأثناء، كانت القوة التي تم تشكيلها بعلم الرئيس عبدالناصر قد نجحت بالفعل في حصار مترل المشير بالجيزة.. وعند وصول تلك القوات أعلن الضباط المعتصمون أنهم سوف يقاومون بالقوة، واحتلوا أماكن داخل المترل سبق إعدادها لذلك بالاشتراك مع المدنيين المسلحين في المترل، وحاول كل من شمس بدران وجلال هريدي استمالة أفراد القوة التي تحاصرهم كي يتراجعوا عن تنفيذ الأمر الصادر باعتقالهم. غير أن تلك القوة –التي قادها الفريق أول محمد فوزي– تمكنت من إنهاء الاعتصام بعد إلقاء القبض على من كان متحصنـًا داخله –وفي مقدمتهم شمس بدران وعباس رضوان–

224 المرجع نفسه، ص 267.

كما تم تفريغ المترل من كل الأسلحة والذخائر والقنابل اليدوية.. لتصبح الفيلا خالية إلا من عائلة المشير.

يروي الفريق فوزي تفاصيل ما جرى قائلاً: "بعد أن صدر الأمر توجهت إلى مترل الرئيس بمنشية البكري، وعلمت أن المشير قد حدد له موعد لمقابلة الرئيس عبدالناصر في الساعة 7 مساء نفس اليوم بمترل الرئيس، وأن المشير سيبقى هناك حتى انتهاء مهمتي في تطهير المترل... وعندما وصلنا إلى الباب الرئيسي لمترل المشير وجدته مقفلاً بسلسلة حديدية وقفل، وخلف الباب كان يقف شمس بدران وعثمان نصار وعبدالحليم عبدالعال وجلال هريدي وآخرون، وجميعهم مسلحون بالرشاشات القصيرة وفي أيديهم وجيوبهم قنابل يدوية. وأخطرت شمس بدران فلم يذعن للأمر. وفي تلك اللحظة وصل عباس رضوان –وهو يقيم بمترل قريب من مترل المشير– ليسأل عليه، وعندما علم بعدم وجوده بالمترل طلب مني الانتظار فترة لحين معرفة الموقف داخل مترل المشير، واصطحب معه شمس بدران بينما بقي الآخرون خلف باب الحديقة الخارجي.

"خلال النقاش صدرت بعض طلقات الرصاص من فوق سطح المترل للإزعاج، ولم يرد عليها أحد من القوة حسب أوامري، كما وصلني بلاغ عن مشاهدة دخان حريق علمت فيما بعد أن مجموعة شمس بدران قامت بحرق وثائق وخرائط سرية تجرمها لو وقعت في يدي. ثم خرج عباس رضوان وشمس من داخل المترل وفتحا باب الحديقة الخارجي وطلبا مني الدخول مع قائد القوة قائلين: مستعدين لتنفيذ ما تطلبه، وشاهدت ضباط شمس بدران يلقون أسلحتهم والقنابل اليدوية على الأرض.

"أصدرت الأمر رقم (1) من الميكروفون اليدوي طالبـــاً نزول جنود سريتَي الشرطة العسكرية بدون أسلحة أو ذخيرة أولاً، حيث كانت لواري حمولة 3 أطنان جاهزة لركوبهم بعد تفتيشهم حيث أخذوا إلى السجن الحربي. تلا ذلك صدور الأمر رقم (2) وهو يخص نزول الأفراد المدنيين بدون أسلحة أو ذخيرة، وانتظرت تنفيذه مثل الأمر الأول.. ثم أصدرت بقية الأوامر على التوالي، كل أمر يأخذ وقته في التنفيذ قبل صدور الأمر الذي يليه وهكذا.. رحلت الضباط المتقاعدين إلى السجن الحربي، وكان آخرهم شمس بدران الذي رحل إلى سجن القلعة، ثم بدأنا في جمع الأسلحة من البدروم والدور الأول والسطوح والجراج، ورحلت إلى معسكر عابدين في حمولة 13 لوري سعة 3 أطنان واستغرقت هذه العملية طوال الليل.

"ثم عينت الحراسة على منزل المشير وعينت اثنين من العمداء للحراسة 24 ساعة على المنزل، وتم تركيب تليفون خارج المنزل للاتصال"225.

وفي الخامسة صباحـــاً، اتصل الفريق فوزي بأمين هويدي وقال له: "المأمورية انتهت يا أفندم دون أي صدام والمنزل خال الآن". فقال له هويدي: "الحمد لله ومتشكر". وأسرع إلى الدور العلوي لإبلاغ الرئيس بالسيطرة على الموقف من دون صدام، فرد عبدالناصر: "الحمد لله"226.

---

225 محمد فوزي، حرب الثلاث سنوات: 1967– 1970، ط 5، دار المستقبل العربي، بيروت، 1990، ص 177– 179.

226 المرجع نفسه، ص 268.

بعدها غادر هويدي المنزل وعبر الشارع إلى مكتب سامي شرف، حيث وجده جالسـاً مع شعرواي جمعة. ومن خلال النافذة رأوا سيارة ليموزين سوداء تخرج من منشية البكري، وهي تقل المشير عامر، وزكريا محيي الدين وحسين الشافعي. توجهت السيارة إلى منزل المشير، حيث تم تحديد إقامته فيه "تحت الحراسة الشرعية للدولة"، حسب تعبير الفريق فوزي.

في قصاصة حصلت عليها "الأهرام المسائي" من مذكرات المشير عامر بخط يده، كتب قائلاً:

"ذهبت يوم الجمعة المشهود بناء على طلبه -يقصد الرئيس جمال عبدالناصر- وكنت أتصور أننا سنتكلم في المواضيع السابقة الخاصة بمستقبل شعبنا وبلدنا.

" كان عندي أمل أن يرى المصلحة العامة في ضوء صالحه الشخصي على الأقل، وقد نصل إلى حلول في مصلحة الشعب، ولكن حدثت الخيانة وأراد أن يقبض عليَّ في منزله، وهذه قصة كثيرون يعرفون تفاصيلها.

"ثم أعقب ذلك اعتقالات وسجن للضباط والأقارب ولأعضاء مجلس الأمة. حتى الحرمات انتهكت.. وتعذيب وأعمال لا يمكن وصفها، لم تحدث في تاريخ مصر"227.

---

227 زينب المنباوي، "الأهرام المسائي" تنفرد بنشر وثيقة للمشير عامر بخط يده، جريدة "الأهرام المسائي"، القاهرة، 15 يوليو 2014.

بعد أن استقر المشير عامر في المنزل تم قطع جميع الخطوط الهاتفة ما عدا خطـًا واحدًا فقط رؤي الإبقاء عليه. حاول عامر أن يتصل بعبدالناصر أكثر من مرة، لكنه لم يستجب له فأرسل إليه ورقة تسلمها محمد أحمد السكرتير الخاص للرئيس، يطلب فيها رفع الإقامة الجبرية عنه وإلا فإن الرئيس سيندم. ومرة أخرى لم يستجب عبدالناصر للتهديد.

غير أنه وفي 13 سبتمبر، ومع تواصل نشاط واتصالات المشير عامر هاتفيـًا ومعه بعض من أقاربه وإخوته، بهدف تأليب الرأي العام ضد النظام بعد وضعه تحت الإقامة الجبرية.. أصدر عبدالناصر قرارًا بنقل عامر إلى مكان أمين منعزل يتعذر معه إجراء مثل هذه الاتصالات والنشاط. وكلف الفريق أول محمد فوزي مرة ثانية بتنفيذ القرار فتوجه وبصحبته الفريق عبدالمنعم رياض رئيس الأركان واللواء سعد زغلول عبدالكريم مدير الشرطة العسكرية وبعض الضباط من الحرس الجمهوري إلى منزل المشير.. وكان الضابط المسؤول عن الحراسة في ذلك اليوم العميد محمد سعيد الماحي الذي شارك في تنفيذ المهمة.

دخل الفريق عبدالمنعم رياض أولاً ودعا المشير عامر لتنفيذ أمر رئيس الجمهورية والقائد الأعلى للقوات المسلحة فأبى تنفيذه.. وتردد في البداية، وحاول رفع عصا خشبية كانت بجواره، ولكن الفريق رياض تلطف معه ونصحه بمرافقته. في تلك اللحظة تناول عبدالحكيم عامر شيئـًا وضعه في فمه وأخذ يمضغه، مما لفت أنظار الكل والعائلة وصرخت ابنته نجيبة بأن أباها تناول سمـًا.

ثم دخل المشير في مرحلة فقدان الاتزان. وقام مستندًا إلى كتف الفريق عبدالمنعم رياض الذي اصطحبه بسرعة إلى الخارج.. وحاول هو والفريق أول محمد فوزي أن يضعوه في سيارة الإسعاف التي كانت مجهزة كإجراء احتياطي.. إلا أن عامر رفض ركوبها، فما كان من الفريق أل فوزي إلا أن أشار إلى أقرب سيارة، وركب فيها المشير والفريق عبدالمنعم رياض واثنان من الحرس الجمهوري، وتوجهوا به إلى مستشفى المعادي للقوات المسلحة التي كانت أخطِرَت على عجلٍ لعلاج حالة طارئة.

في الطريق إلى المستشفى، طلب الفريق رياض من المشير إخراج ما في فمه.. وبعد تمنعٍ، اضطر إلى طرد باقي ما كان في فمه وكان عبارة عن مادة تشبه اللادن الأصفر في ورق سوليفان.. فتلقفه ضابط الحرس المرافق الرائد عصمت محمد مصطفى، وكان معه النقيب محمد نبيل إبراهيم والنقيب عبدالرؤوف حتاتة من الحرس الجمهوري.

وضع الرائد عصمت ما تلقفه في منديلٍ ورقي حيث سلمه للمعامل فور وصولهم إلى المستشفى. وهناكً أجريت الإسعافات السريعة وعمل الأطباء: اللواء عبدالحميد مرتجي والعميد محمود عبدالرازق والعميد عبدالمنعم القللي والمقدم عبدالمنعم عثمان والرائد أحمد محمود عبدالله والرائد حسن عبدالحي.. على محاولة غسيل لمعدة المشير.. ولما رفض أعطي محلولاً ليتقيأ وتم ذلك فعلاً. وعندما قال له اللواء عبدالحميد مرتجي قائد المستشفى بعد أن أفرغ عامر ما في جوفه إنه لم يعد هناك خطرٌ الآن على حياته، قال المشير: "ده أسوأ خبر سمعته".

ويقول سامي شرف: "بعد فترةٍ قرر الأطباء أن الحالة أصبحت مستقرة وطبيعية ومطمئنة.. وبناءً على ذلك قرر الفريق فوزي

استئناف المهمة.. واتجه بالركب إلى استراحة المريوطية. ويقول فوزي إن المشير سار على قدميه من الغرفة إلى باب المستشفى الخارجي، يحيط به المرافقون من أطباء المستشفى وغيرهم. ركب المشير السيارة التي توجهت به إلى استراحة المريوطية، وأثناء الطريق بدا المشير هادئـــاً وطلب سيجارة، ولم يتبادل أطراف الحديث مع من معه.

وفي الساعة السابعة مساء ذلك اليوم أظهرت المعامل نتيجة تحليل ما لفظه وتقيأه المشير عامر، وأبلغ المقدم طبيب عبدالمنعم عثمان أن التحليل أظهر آثارًا لمادة الأفيون.

في استراحة المريوطية التي سبق اختيارها كمقر لإقامة المشير عامر كان في استقبالهم هناك قرابة الساعة الخامسة والنصف من بعد الظهر.. العميد محمد الليثي ناصف ومجموعة من ضباط الحرس الجمهوري والنقيب طبيب مصطفى بيومي حسنين وبعض أفراد الخدمة والإعاشة والحراسة، ولم يطلب المشير شيئـــاً سوى عصير الجوافة.

وقد مكث الفريق أول محمد فوزي والفريق عبدالمنعم رياض مع المشير نحو ساعة ونصف الساعة، دار فيها حوار حول الموقف العسكري.. وقال لهم المشير إن عليهم أن يطلبوا تعويض السلاح من الاتحاد السوفيتي الذي هاجمه واعتبره أنه خذل مصر.. وقال لهما: "يمكنكم طلب سلاح من الاتحاد السوفيتي. عندكم الرجالة في البلد كتير.. وعليكم استئناف القتال". ثم قال: "يا فوزي ويا رياض.. تبلغوا الرئيس أنه إذا لم يُنه هذا الوضع في 24 ساعة فإن الرئيس سيتحمل مسؤولية ما سيحدث".

ويقول سامي شرف: "أبلغ الفريق فوزي هذه الرسالة للرئيس.. بعدما غادر هو والفريق عبدالمنعم رياض الاستراحة. وكان المشير قد طلب ماكينة حلاقة وبعض الكتب التي وصلته في نفس الليلة".

في يوم 14 سبتمبر، لم يتناول المشير أي طعام إلا بعض السوائل. وفي الساعة العاشرة من صباح ذلك اليوم تم تغيير الورديات الطبية والحراسات المناوبة.. فاستلم الرائد طبيب إبراهيم البطاطا نوبته.. وشرح له زميله حالة المشير الصحية وتطوراتها وطمأنه بأن الحالة تشير إلى التحسن كما ذكر له الأدوية التي أعطاها له.. لكن المشير لم يتناول طعام الغداء نظرًا لاستمرار القيء.. وقرر الطبيب المعالج إتمام تغذيته بمحلول الجلوكوز عن طريق الوريد.

ويقول سامي شرف: "قرابة الساعة الرابعة من بعد الظهر أبدى المشير للدكتور البطاطا شكوى من ألم في أسنانه فأعطاه حقنة نوفالجين. وبعد ذلك دخل المشير الحمام وتقيأ ثم طلب بعض الماء ليغتسل في غرفته فحمل له أحد السفرجية -منصور أحمد- الماء فاغتسل ثم رقد على السرير".

"وفي الساعة الخامسة مساءً دخل الطبيب حجرة المشير فوجده نائمـــا وكان نبضه وضغط دمه طبيعيين.. غير أنه وبعد السادسة بقليل وأثناء توجه الطبيب مرة ثانية إلى غرفة نوم المشير سمع استغاثة السفرجي منصور الذي نادى عليه ليسرع إلى غرفة المشير حيث قرر أنه سمع صوت "شخير" عالٍ صادر عن المشير. ولما دخل الطبيب وجده راقدًا على الفراش في حالة غيبوبة ونبضه ضعيف.. فسارع بإعطائه حقنة "كورامين" و"أمينوفلين" كما أجرى له تنفســا

صناعيـــاً من أنبوبة الأوكسجين. ولم يجد ذلك كله حيث تحققت وفاة المشير عبدالحكيم عامر قرابة الساعة السادسة وأربعين دقيقة".

وحسب تأكيدات الطبيب المعالج، فإن المشير عامر لم ينطق بأي عبارات في الدقائق التي سبقت وفاته.. وكل ما تكلم به مع الطبيب أثناء تعليق أنبوبة الجلوكوز هو أنه قال له: "مفيش فايدة من كل اللي بتعمله ده".

ويقول سامي شرف: "في الساعة السادسة وخمس وأربعين دقيقة أبلغني العميد محمد الليثي ناصف قائد الحرس الجمهوري بنبأ وفاة المشير عبدالحكيم عامر فقمت بإبلاغ الخبر للرئيس بالإسكندرية في الحال وكان الخبر صاعقـــاً بالنسبة لنا جميعـــاً.. أما بالنسبة للرئيس فقد وضع سماعة التليفون بمجرد سماعه الخبر".

أمر الرئيس عبدالناصر بإبلاغ وزير العدل والنائب العام وكبير الأطباء الشرعيين فورًا لاتخاذ الإجراءات القانونية والتحقيق.

بدأت التحقيقات في واقعة انتحار المشير عامر تحت إشراف وزير العدل عصام الدين حسونة وانقسم التحقيق إلى قسمين:

الأول: تحقيق الطب الشرعي وقد أشرف عليه الدكتور عبدالغني سليم البشري وكيل وزارة العدل لشؤون الطب الشرعي ويعاونه الدكتور يحيى شريف أستاذ الطب الشرعي بجامعة عين شمس والدكتور علي عبدالنبي أستاذ الطب الشرعي بجامعة القاهرة والدكتور كمال السيد مصطفى مساعد كبير الأطباء الشرعيين.

والثاني: يتولاه النائب العام المستشار محمد عبدالسلام يعاونه المحامي العام وعدد من رجال النيابة العامة ويتولى التحقيق في كل

ظروف الحادث ومع كل الذين كان لهم أدنى علاقة به بمن فيهم أسرة المشير وأطقم الحراسة وهيئة مستشفى القوات المسلحة بالمعادي وكل من كان في استراحة المريوطية.

المعاينة وفحص الطب الشرعي المبدئي أجراهما كبير الأطباء الشرعيين د. عبدالغني سليم البشري، وكبير المفتشين الفنيين بمصلحة الطب الشرعي د. كمال السيد مصطفى في الساعة الواحدة والنصف صباح يوم 1967/9/15.

ثم انتقل د. عبدالغني سليم البشري، ود. كمال السيد مصطفى إلى دار التشريح، وانتدب كل من د. يحيى شريف، أستاذ الطب الشرعي بكلية طب عين شمس، ود. علي عبدالنبي، أستاذ الطب الشرعي بكلية طب القاهرة، وقام الجميع بتوقيع الكشف الظاهري على الجثة وإجراء الصفة التشريحية والتحفظ على العينات اللازمة للفحص.

وفي رأي كبير الأطباء أن السيد المشير تناول جرعة ثانية من عقار الأكونيتين بعد الساعة 6 م بقليل يوم 1967/9/14 على معدة خالية مما استتبع ظهور أعراض التسمم بسرعة مفاجئة، وحصول الوفاة في خلال دقائق قليلة.

أما النتائج التي توصل إليها كبير الأطباء الشرعيين فكانت:

١- إن المظاهر التي أثبتها الفحص الطبي الشرعي، ظاهرياً وتشريحياً، تدل على أن الوفاة نشأت عن حالة سمية أدت إلى هبوط سريع بالقلب والدورة الدموية والتنفس.

٢- إنه فيما تحقق لدينا من وجود سم الأكونيتين بالشريط المعدني الذي عثر عليه لاصقــًا بالجثة، بالإضافة إلى المظاهر التشريحية التي اتضحت من الفحص- هذا مع ظهور معروف من طبيعة تأثير السم على الجسم، كل ذلك يدل على حصول الوفاة نتيجة التسمم بالأكونيتين.

٣- إن عدم العثور على الأكونيتين عن طريق التحليلات الكيماوية التي أجريت على الأحشاء والعينات المضبوطة أمر متوقع ومسلم به علميــًا للأسباب السابق ذكرها.

٤- تأسيســًا على كل ما تقدم، مع استمرار تأثير المادة السامة، هذا مع وجود الشريط الحامل للأكونيتين محتفظــًا به مخفيــًا بالطريقة التي شوهدت بالجثة، كل ذلك لما يتفق وحصول الوفاة في هذه الحالة انتحارًا بتناول هذا السم، وقد مضى على الوفاة لحين الفحص الطبي الشرعي الكامل حوالي اثنتي عشرة ساعة228.

حرص النائب العام المستشار محمد عبدالسلام على أن يتولى التحقيق في ظروف وفاة المشير عامر بنفسه، بل إنه نبه معاونيه من أعضاء النيابة إلى الالتزام في تحقيقاتهم بأقصى ما يطالب به المحقق النزيه من الحيدة وعدم التأثر بفكرة معينة، وإفساح المجال لإثبات أي أقوال تبدي مهما تكن خطورتها لتكون بعد ذلك محلاً للفحص والاستنباط واستخلاص النتائج الصحيحة.

---

228 علاء الفطريفي، د. خديجة مصطفى تثبت: عبدالحكيم عامر تم حقنه بمادة سامة في "الوريد"، جريدة "المصري اليوم"، القاهرة، 6 يونيو 2011.

ويقول محمد عبدالسلام في مذكراته: "رأيت أن أسأل -انطلاقـاً من هذه الاعتبارات- الفريق أول محمد فوزي والمرحوم الفريق عبدالمنعم رياض وغيرهما من الضباط والأطباء، ومن الناحية المضادة سؤال أسرة المشير الذين اتهموا السلطات الحاكمة بقتله. وقد رأيت أن أسأل أفراد الأسرة في منزلهم حتى يكون التحقيق بعيدًا عن أي مظهر من مظاهر السلطان أو أي مظنة من مظان الإرهاب. وطلبت لنفس الاعتبارات من ضباط المباحث العامة وغيرهم من رجال الشرطة الذين صاحبوني في الطريق أن يبقوا بعيدًا عن المنزل مسافة تزيد على المائة متر..".

أراد النائب العام أخذ إفادة برلنتي عبدالحميد زوجة المشير أولاً، لكن حالتها النفسية لم تسمح بذلك، فأخذ إفادة كل من آمال ونجيبة -ابنتَي المشير- وسألهما وزوجيهما في هذه الزيارة عن ظروف وفاة المشير.

ثم يقول: "ولما كان كل منهم بعد تسجيل أقواله يبدي استعداده للتوقيع عليها، وكنت أصر، مبالغة في طمأنته، على ألا يوقع إلا بعد أن يطالع ما أثبت على لسانه"229.

وقد أصدرت النيابة العامة أول بيان لها، جاء فيه أن التحقيقات بدأت بسؤال كل من الفريق فوزي والفريق عبدالمنعم رياض وكل من كان له صلة في هذه المأمورية منذ أن بدأت وكذا هيئة مستشفى المعادي، إلخ.

---

229 محمد عبدالسلام، سنوات عصيبة.. ذكريات نائب عام، دار الشروق، القاهرة، 1985.

وجاء في البيان بعد ذلك ما يلي بالنص: ".. كما ثبت اليوم بصفة قاطعة من التحليل الضوئي والكيماوي الذي أجرته مصلحة الطب الشرعي أن المادة التي وجدت مخفاة تحت الشريط اللاصق وزنها 150 ملليغرامــًا هي مادة "الأكو نين".. وهي عقار شديد السمية سريع الأثر.. يكفي نحو ملليغرام أو اثنين منه لإحداث الوفاة في مثل الظروف والحالة التي شوهد عليها الجثمان".

وأصدر النائب العام محمد عبدالسلام قراره في الحادث يوم 10 أكتوبر 1967 وجاء فيه "أن أقوال الشهود وردت في شبه إجماع على أن تصرفات المشير وأقواله -بالتصريح أحيانــًا وبالتلميح أحيانــًا أخرى- كانت تنبئ عن أن فكرة الانتحار كان تراوده وبالأخص عندما يهدد بتقييد حريته، فحاول الانتحار يوم 25 من أغسطس عندما طلب إلى مقابلة رئيس الجمهورية وفهم أن النية قد اتجهت إلى اعتقاله، وظلت هذه الفكرة مسيطرة عليه حتى إذا ما تيقن في يوم الأربعاء 13 من سبتمبر أن الأمر قد صدر باعتقاله منفردًا في غير منزله أقدم على ما استقر عليه عزمه بقصد الحيلولة دون اعتقاله وما يتصل بذلك من تحقيق فيما أسند إليه من تهم بالغة الخطورة".

وساق القرار بعد ذلك ما ورد في أقوال الشهود من رجال القوات المسلحة، وعلى رأسهم القائد العام ورئيس هيئة أركان الحرب وأقوال الأطباء الذين تولوا إسعافه والذين تولوا رعايته الطبية في المستشفى، ومحصلها أن المشير ضاق بالاجراءات التي اتخذت ضده من تقييد حريته واعتقاله بعيدًا عن أفراد أسرته وأنه انتوى من أجل ذلك التخلص من حياته وأنه سبقت هذه المحاولة محاولة أخرى يوم

25 من أغسطس، وأنه كان يكرر النظر في ساعته كمن يترقب حدوث أمر بعد فترة ويقول إن الأمر لن يستغرق أكثر من دقائق كما كان يقاوم المحاولات التي تبذل لإسعافه ويبدي استياءه مما يقال عن زوال الخطر على حياته، طلب إبلاغ احتجاجه إلى رئيس الجمهورية وصرح بعزمه على التخلص من حياته إن لم تصله إجابة على هذا الاحتجاج، وأنه كان كثير التحدث عن مادة السيانور وأثرها – هذا إلى ما شهد به صهره الرائد طيار حسين عبدالناصر من أنه سبق أن حاول الانتحار يوم 25 من أغسطس حين فهم أن النية قد اتجهت إلى تقييد حريته".

وجاء في القرار بعد ذلك "أن التقرير الطبي الشرعي قطع بما أورده من شواهد علمية وواقعية بامتزاج سم الأكونيتين الذي وجد قدر غير قليل منه مخبأ على جسد المشير بقطعة الأفيون التي ثبت بشهادة ابنته السيدة نجيبة وعدد من الضباط أنه غافل حراسه ودسها في فمه ثم أخذ يلوكها إلى أن لفظها من فمه بناء على أمر الفريق رياض.

– وأنه ثبت من هذا التقرير كذلك أن الشريط اللاصق المخفي لمادة الأكونيتين السامة والمخبأ في وضع دقيق من جسم المشير قد تكرر نزعه وتثبيته حتى فقد معظم خواصه اللاصقة، بما يصلح تفسيرًا لمحاولة الانتحار أكثر من مرة.

– وأن ابنة المشير ذاتها إذ رأته يلوك تلك المادة في فمه لم تفتها دلالة ذلك، وصرخت طالبة الإسراع بنقله إلى المستشفى إنقاذًا لحياته من السم الذي تناوله.

وأوضح التقرير الطبي الشرعي أن استمرار أعراض القيء يومي 13و14 على ما قرر الأطباء يحتمل معه أن تكون وفاة المشير قد حدثت نتيجة تسمم من مادة الأكونيتين التي تناولها في منزله ممزوجة بالأفيون يوم 13، وهي مادة ثبت علمياً أن أثرها قد يكون فورياً وقد يتراخى إلى أكثر من 18 ساعة، وأن هناك احتمالاً آخر في أن يكون المشير قد استبطأ مفعوم السم فتعجل النهاية وأخذ قدرًا آخر منه عندما دخل الأخير تفسير لحالة الانهيار المفاجئ التي أصيب بها وانتهت بوفاته.

– وربط التقرير الطبي بين ما أثبته فحص أوراق السلوفان التي لفظها المشير في السيارة من احتوائها على أجزاء من أوراق مفضضة لامعة بها آثار مضغ وبين ما هو ثابت من وجود مسحوق الأكونيتين معبأ في جزء من شريط معدني مفضض لامع ومخبأ على جسم المشير بورق لاصق، مستخلصًا من هذا الارتباط أن المشير تناول في منزله قدرًا من مادة الأكونيتين الموضوعة في الشريط المعدني المفضض، مع احتمال أن يكون هذا القدر هو الذي تسبب وحده في حدوث الوفاة واحتمال أن يكون قد ساعد عليها وعجل بها قدر آخر منها تناوله قبيل وفاته في الاستراحة.

وفيما يختص بمصدر المادة السامة جاء في القرار أنه "تبين من أقوال الشهود من رجال إدارة المخابرات العامة، ومن فحص سجلات هذه الإدارة أن السيد صلاح محمد نصر المدير السابق لها قد تسلم في العاشر من إبريل 1967 ستمائة ملليغرام من مادة الأكونيتين السامة معبأة بمقادير متساوية في ست فجوات من المعدة أصلاً لوضع

حبات الريتالين في الأوراق المعدنية الخاصة. ولم ينف صلاح نصر واقعة طلبه مادة سامة وقرر أنه إنما طلب في تاريخ لا يذكره، مادة سيانور أوسيانيد البوتاسيوم وأنه تسلم مادة سامة لم يتحقق من نوعها وجهل مصيرها بقوله إنه وضعها في مكتبه وظلت فيه بحالتها إلى أن مرض يوم 13 من يوليو وانتقل من مكتبه في يوم 23 منه إلى احدى الاستراحات حتى أعفي من منصبه في يوم 26 منه دون أن يدري شيئـــا عن مصير المادة التي تركها في مكتبه – وقد ضبط الباقي من هذه المادة، وتبين أنه يزن 3.9672 غرام، وثبت من التحليل أنه من مادة الأكونيتين التي ظن السيد صلاح نصر أنها مادة سيانور أوسيانيد البوتاسيوم. وقد ضبطت بإدارة المخابرات مع تلك المادة ورقات معدنية من المعدة لونمع حبات الريتالين. وثبت من التقرير الطبي الشرعي والصور الشمسية أن إحدى هذه الورقات تكمل الورقة المضبوطة على جثمان المشير وبها مادة الأكونيتين، وبذا تحقق أن المشير حصل على المادة السامة التي انتحر بها من إدارة المخابرات".

ويشير القرار إلى شكوك أثارتها عائلة المشير بشأن ظروف وفاته، ثم يرد عليها بقوله "إن هذه الشبهات فوق أنها مردودة بما سبقت الإشارة إليه من أدلة قاطعة بوقوع الحادث انتحارًا فإنها لا تعدو أن تكون ظنونـــًا ليس من شأنها أن تؤدي إلى النتيجة التي تصورتها ابنتا المشير.

"إذ الواضح أن أقوالهما صدرت عن عاطفة الأبوة من جهة، وبفعل الصدمة التي تعرضتا لها بوفاة والدهما في ظروف أليمة من جهة أخرى، فحرصتا على أن تصفاه بالإيمان والشجاعة وأن تنفيا عنه التهرب من المسؤولية، كما أنه من الطبيعي بالنسبة لم تلح عليه فكرة

الانتحار من مدة سابقة ويتوقع في كل حين التعرض لمزيد من اجراءات تقييد حريته -كشأن المشير- أن يهيئ نفسه لتنفيذ فكرة عندما يتحقق موجبها، وذلك بإخفاء مادة سامة تكون في متناول يده في غفلة من أقرب المقربين إليه.

"وليس أقطع في مطابقة ذلك للواقع مما صارح به المشير صهره الرائد طيار حسين عبدالناصر من محاولته السابقة للانتحار في يوم 25 من أغسطس عندما استدعي إلى خارج مترله وعلم باتجاه النية إلى اعتقاله، وهو ذات المسلك الذي سلكه لأسباب وفي ظروف مماثلة في يوم 13 من سبتمبر، وهو ما يفسر ما دل عليه فحص الشريط اللاصق المخفي للمادة السامة على جسده من استقراره في موضعه زمنـــاً تكرر خلاله نزعه وإعادة تثبيته".

وبعد، فإنه لا غرابة في حرص المشير على الاحتفاظ بباقي المادة السامة بعد تناول قدر منها ما دامت فكرة الانتحار مسيطرة عليه وذلك لمعاودة استخدام هذه المادة إن لم تؤت المحاولة ثمرتها المرجوة لإسعافه بالعلاج أو لغير ذلك من الأسباب وأخيرًا فإنه مما يدحض ما أثارته كريمتا المشير من شبهات.

وينطق بصحة ما دلت عليه ظروف الحال وتسلسل الوقائع وتصرفات المشير وأقواله، وماديات الحادث والفحص الطبي الشرعي الشامل وتقارير التحليل من وقوع الحادث انتحارًا ما أقرت به السيدة نجيبة ذاتها من أنها كانت أول من اتجه اعتقاده إلى أن المادة التي رأتها في فم والدها قبل مبارحته المترل كانت مادة سامة مما اقتضاها أن تهيب بالآخرين لسرعة إسعافه.

ويقول القرار: "وبما أنه مما تقدم يكون الثابت أن المشير عبدالحكيم عامر قد تناول بنفسه عن بينة وإرادة مادة سامة بقصد الانتحار، وهو فـي منزله وبين أهله يوم 13 سبتمبر 1967، قضى بسببها نحبه فـي اليوم التالي، وهو ما لا جريمة فيه قانونـاً. لذلك نأمر بقيد الأوراق بدفتر الشكاوى وحفظها إداريـاً".

ولكن ينبغي هنا قراءة وقائع مهمة يرويها النائب العام في مذكراته؛ إذ يقول:

"فعلى الرغم مما انتهى إليه التحقيق وقرار الحفظ من الرد على اتهامات أفراد أسرة المشير والتقرير بأن الحادث وقع انتحارًا؛

– فإن السلطات لم يرضها سلوكي في التحقيق ولا ما أثبته فيه وفي القرار عن هذه الاتهامات، واعتبرت أن مجرد إثباتها شيئـاً من التعرض برئيس الجمهورية وبالقائد العام للقوات المسلحة وبمن اشتركوا في نقل وحراسة المشير حتى وفاته،

"وكأنهم كانوا يبغون مني أن أسلك في التحقيق المسلك الذي كانت تخشاه ابنتا المشير، فيا لها من عقلية لا تفهم أن مصلحة العدالة ومصلحة الحقيقة، بل مصلحة السلطات ذاتها، كانت توجب تسجيل وجهتي النظر في الحادث ومناقشتهما واستخلاص الحقيقة بعد ذلك من كل العناصر التي سجلها التحقيق، وهل كان من مصلحة السلطات ذاتها، فضلاً عن مصحلة العدالة أن يسجل في التحقيق على خلاف الواقع المعروف، أن أفراد أسرة المشير قرروا أن الحادث وقع انتحارًا، وهلا كان ذلك يفقد الثقة في التحقيق ويفتح الباب واسعـا لإطلاق الأقاويل المغرضة والاشاعات الكاذبة.

"لقد انتهيت من إعداد قرار الحفظ وعرضته على وزير العدل واتفقنا على تسليمه لمندوبي الصحف في مساء يوم 10 من أكتوبر 1967 وأخطرت إدارات الصحف بهذا الموعد وبأنني سوف أستقبل مندوبيها في مكتبي لأسلمهم صور القرار وأجيب على ما يستوضحونه في شأنه.

"وفوجئت وأنا في المترل وقبل ذهابي إلى المكتب بوزير العدل المستشار عصام حسونة يحدثني تليفونيـــاً ويقول، لدهشتي الشديدة، إن السيد محمد فائق وزير الإرشاد لا يوافق على نشر القرار بصيغته وأنه يطلب تعديله باستبعاد ما جاء من اهامات على لسان أفراد أسرة المشير وطلب مني وزير العدل أن أبدي رايي فيما طلبه وزير الإرشاد.

"فأجبته بأن القرار متكامل وأنه يرسم صورة دقيقة لما جاء في التحقيق وأن ضميري القضائي لا يسمح لي بتغيير ما جاء فيه من حقائق أو بتقطيع أوصالها بإثبات بعضها وإغفال البعض الآخر – أما عن نشر القرار فقد قررت لوزير العدل أنه كان في الدرجة الأولى مسؤولية وزارة الإرشاد إلا أنه يعنيني أيضـــاً كنائب عام يحرص على سمعة العدالة، وكمواطن يهمه وقوف الرأي العام على الحقيقة بأكملها – وانتهيت من حديثي إلى أن وزير الإرشاد له شأنه مع الصحف وأنه يملك بحكم إشرافه أن يتحمل منع نشر القرار أصلاً أو عدم نشره كاملاً، وأن عليه أن يتحمل مسؤولية ذلك لكنني من جانبي لا أملك إلا تسليم القرار بأكمله أو عدم تسليمه أصلاً.

"وبعد قليل اتصل بي وزير العدل مرة أخرى وأفهمني أن الأمر أصبح في غاية الحرج بعد أن أخطرت إدارات الصحف بموعد تسليم صور القرار، وقال لي إن اجتماعـــاً يعقد وقت الحديث ويضم وزير الإرشاد وبعض زملائه من الوزراء وعددًا من رؤساء تحرير الصحف وأهم يتداولون في الأمر. ورجاني وزير العدل أن أتوجه إلى مكتبي وأن أنتظر منه مكالمة أخرى في شأن ما ينتهي إليه الرأي في هذا الاجتماع.

"وتوجهت إلى مكتبي وبدأ مندوبو الصحف يتوافدون على دار النيابة ورجوهم الانتظار خارج مكتبي بحجة إتمام إعداد التقرير، وطال الأمر واشتد الحرج، وطلبت وزير العدل لأفهمه أني أصبحت في موقف لا يطاق وأن مندوبي الصحف مجتمعون خارج مكتبي ويلحون في تسليم صور القرار وأنني لن أجد مخرجـــاً من هذا الحرج إلا بتركهم والانصراف إلى منزلي فاستمهلني الوزير وبعد قليل أخبرني تليفونيـــاً أن الحكومة لم تجد بدًا من نشر القرار كاملاً بصيغته التي انتهيت إليها.

"أي جهد ضائع في مسألة تصورها بديهية وظنها بعض حكامنا مشكلة المشكلات"230.

ويستطرد النائب العام المستشار محمد عبدالسلام في مذكراته ليقدم بحيادية ملاحظات بالغة الأهمية؛ إذ يقول:

---

230 المرجع نفسه.

"ولا جدال إذًا في أن المشير مات منتحرًا ولا جدال في أن ابنتيه كانتا على غير حق في تصوير الحادث على أنه قتل عمد، لكنهما كانتا من جهة أخرى ولا ريب، على حق فيما أسندتاه إلى السلطات من إهمال وإجراءات أثارت ريبتهما، وفيما قررتاه من أن السلطات التي تتولى تقييد حرية شخص تكون مسؤولة عن وفاته حتى ولو مات منتحرًا، فمن غير المفهوم أن يحاول المشير الانتحار يوم 25 من أغسطس وتدل ظروف الحال وأقواله وتصرفاته يوم 13 من سبتمبر على أنه أعاد هذه المحاولة بالطريقة نفسها، من غير المفهوم بعد ذلك كله ألا تكون حراسته دقيقة على نحو يمنع تكرار المحاولة، وألا يفتش جسمه حتى ينتزع منه ذلك السم الذي وجد بعد وفاته ملتصقـًا به.

"ومن غير المفهوم أيضـًا أن يصمم الفريق أول فوزي على اقتياد المشير من مستشفى القوات المسلحة إلى استراحة المريوطية على الرغم من استمرار القيء ورفضه إجراء غسيل معدة، وعلى الرغم من اعتراض قائد المستشفى الدكتور مرتجي على نقله على ما قرره في التحقيق.

"وكان ذلك كله عجيبًا وكانت إجابة القائد العام أعجب، عندما استوضحته في التحقيق هذه الأمور فقرر فيما يختص بعدم تفتيش شخص المشير "أنني لم يخطر في بالي أن أفتشه للبحث عن مادة سامة واكتفيت بتعمد الالتصاق بجسمه من الخارج للتحقق من أنه لم يكن يحمل سلاحـًا ناريـًا أو جسمـًا صلبـًا"، كأن الأمر انتحار بالرصاص أو السكين لا أمر انتحار بالسم.

– وقرر فيما يختص بالحراسة التي تمنعه من الانتحار أن الهدف من الحراسة لم يكن منعه من الانتحار "بل تحديد الإقامة الفردية في مكان خلاف منزله".

وقرر فيما يختص بإصراره على نقل المشير من المستشفى إلى الاستراحة أنه حسب تقديره "خرج من المستشفى طبيعيـًا وعلى قدميه".

"أليست هذه إجابة عجيبة، وهلا يفسر قول القائد العام أن الغرض من الحراسة لم يكن منع المشير من الانتحار، هلا يفسر هذا القول بأنه لم يكن لدى السلطات مانع من انتحاره إن لم يفسر بأنها ترحب بهذا الانتحار.

"وثم اجراء آخر آثار ريبة ذوي المشير وريبة الرأي العام، فإن الوفاة كما أثبتت في سجل استراحة المريوطية حدثت في الساعة 6.35 من مساء يوم 14 سبتمبر ولم تبلغ النيابة إلا في الساعة 10.45 مساءً ونقلت الجثة بعد تشريحها إلى أسطال ودفنت فيها بغير حضور أحد من ذويه الذين لم يخطروا بالوفاة إلا في الساعة السادس من صباح اليوم التالي.

"على أن هناك نقطة أخيرة لا يكتمل التعليق دون الإشارة إليها وهي ما جاء في التقرير الطبي الشرعي وسلفت الإشارة إليه من قيام احتمال في أن يكون المشير قد تناول قبيل وفاته وفي استراحة المريوطية قدرًا آخر من مادة الأكونيتين عجل بوفاته، إن هذا الاحتمال يفتح الباب لاحتمال آخر لا يصل إلى حد الاستراحة، وهو أن يكون أحد خدم الاستراحة قد دس له في الشراب قدرًا من

الأكونيتين عجل بوفاته، ولكنه على أي حال مجرد احتمال أو افتراض لا دليل عليه فضلاً عن أنه يتنافى تماماً مع تسلسل الحوادث مع الأدلة والقرائن التي سبق سردها، والتي تدل على أن الحادث قد وقع انتحارًا"[231].

أثيرت إذًا أقاويل متكررة تذهب إلى أن الجهاز الرسمي دفع عامر إلى الانتحار، أو دس السم له، وهو ما دفع عائلته وكذلك زوجته برلنتي عبدالحميد، إلى المطالبة باستخراج جثته وتشريحها للتأكد من حقيقة موته. ونشر خبير السموم الدكتور علي محمد دياب في صحيفة "أخبار اليوم" في 27 سبتمبر 1975 أن المشير لم ينتحر، وإنما دُس له سم (الأكونتين) في كوب عصير الجوافة الذي قُدِمَ إليه.

وقد اختتم د. دياب تقريره التفصيلي الذي يقع في 17 ورقة فولسكاب بالقول: "مما سبق لا يستطيع الباحث المنصف المدقق إلا أن يقرر أن وفاة السيد المشير لم تكن انتحارًا وإنما كانت قتلاً بإعطائه سم الأكونتين بطريقة أو بأخرى بعد السادسة مساء يوم 14-9-1967 وإنني أقرر مطمئناً أن هذه الوفاة جنائية مكتملة لشروط الجناية من التعمد إلى سبق الإصرار والترصد، والله أعلم، وهو ولي التوفيق".

وأبدى المؤرخ العسكري جمال حماد رأياً مماثلاً في مقال له نشره في مجلة "آخر ساعة" (العدد 3274 الصادر بتاريخ 23 يوليو

---

231 المرجع نفسه.

1997) بعنوان "قتلوه ولم ينتحر". وقد أفرد الفصل الخامس من كتابه "الحكومة الخفية في عهد عبدالناصر وأسرار مصرع المشير" للحديث عن ملابسات رحيل المشير عامر.

وتقول برلنتي إنه "تم الادعاء عليه بأنه انتحر، وتم تشويه سمعته الشخصية وتصويره بأنه الذي جر الهزائم، وتم قتله في عملية دنيئة لا يزال يحملُ بعضُ الأحياء وزرها"232.

وأرفقت عائلة عبدالحكيم عامر في بلاغها للنائب العام بشأن إعادة التحقيق في ملابسات وفاة المشير عدة مستندات وإفادات، بينها تقرير علمي للدكتورة خديجة مصطفى، أستاذ الطب الشرعي والسموم بجامعة عين شمس، يفند واقعة انتحار المشير وتقرير الطب الشرعي، وينتهي إلى أن المشير لم ينتحر، وأنه جرى تسميمه عن طريق الحقن الوريدي بمادة من أشباه القلويات، واستبعد التقرير أيضاً تسمم المشير بمادة "الأكونيتين" كما انتهى تقرير الطب الشرعي آنذاك.

ودحض التقرير الكثير من النقاط الواردة في التقارير الطبية وتقرير الطب الشرعي والتحاليل الكيماوية الخاصة بالواقعة، ومنها أن هناك عملية تجويع وتعطيش قام بها الأطباء المشرفون على متابعة الحالة الصحية للمشير.

واستند التقرير إلى مراجع علمية بارزة من الغرب والشرق منها "الطب الشرعي والبوليس الجنائي" للدكتور يحيى شريف والدكتور

232 برلنتي عبدالحميد، الطريق إلى قدري.. إلى عامر، مدبولي الصغير، القاهرة، 2002.

محمد عبدالعزيز سيف النصر والدكتور محمد عدلي مشالي، بجانب موسوعات علمية وطبية متخصصة شهيرة.

ونص التقرير المذكور على ما يلي:

"أولاً: الكشف الطبي بمستشفى المعادي للقوات المسلحة:

والثابت به إجراء الكشف الطبي على المشير وقت وصوله وتحديدًا على الجهاز الهضمي ووجد سليمـــاً، مما يفيد بأنه تم فحص منطقة البطن، كما جاء في مذكرة النيابة بأقوال الرائد طبيب حسن عبدالحي أحمد فتحي أنه حدد أجزاء الجسم التي كشف عليها بأنها الصدر والقلب والبطن والرقبة والذراعان (صفحة 15 من تقرير الطب الشرعي). وبالرجوع للحقائق العلمية نجد أنه لا يمكن بل يستحيل أن يتم الكشف على الجهاز الهضمي ووصفه بأنه سليم دون أن يتم فحص منطقة البطن كاملة بحدودها.

التحاليل الطبية الخاصة بورقة السيلوفان الملفوظة من فم المشير بمستشفى المعادي للقوات المسلحة والتي قام بها الرائد طبيب سليمان مدني والرائد طبيب ثروت عبدالرحمن الجرف وموقعة من المقدم طبيب عبدالمنعم عثمان جميعها كانت نتائجها سلبية لكل من ورقة السيلوفان، وسلبية لجميع أنواع السموم المعروفة والمخدرات والمنومات.. إلخ..، وأكدها التحاليل التي أجريت بالمعامل المركزية للخدمات الطبية للقوات المسلحة، وبناء عليه فإن المشير عبدالحكيم عامر قد غادر المستشفى خاليـــاً تمامـــاً من سموم داخلية أو سموم خارجة ملتصقة بجسد سيادته.

وأود قبل أن ننتقل إلى مناقشة الأحداث في استراحة المريوطية أن أشير إلى شيء من صنع القدر، ألا وهو واقعة مرور المشير مستشفى المعادي قبل وصوله إلى الاستراحة كأنها إثبات ودليل أنه بريء من أى إدعاءات عن تعاطي أفيون أو سموم أو غيره.

ثانيــاً: مناقشة تقريري طبيبي الاستراحة ط/ مصطفى بيومي حسانين وط/ إبراهيم على البطاطة:

"بدأت نوبتجية الطبيب مصطفى بيومي حسانين الساعة الخامسة مساء يوم 1967/9/13 في استراحة المريوطية، حيث وصل السيد المشير قادمــاً من مستشفى المعادي للقوات المسلحة، حيث تم إثبات حالته الصحية السليمة تمامــاً، وحيث تم إثبات عدم حيازته أي سموم وكذا عدم تناوله أيــاً من السموم أو المخدرات، أثبت الطبيب مصطفى البيومي في تقريره أنه في الساعة التاسعة مساءً تقيأ سيادة المشير".

ولنا أن نطرح بعض التساؤلات:

ماذا عن الساعتين من 5 إلى 7 مساء؟ وهل كانت صحة المشير العامة كما كانت وقت مغادرته للمستشفى أم طرأ عليها تغير؟ وإن كان قد حصل فما هو ولماذا لم يتم تسجيله؟

ما هو تفسير الطبيب لسبب القيء الذي بدأ الساعة السابعة مساء؟

لماذا حاول الطبيب معالجة هذا القيء بحقن باسكوبان في العضل مع العلم بأن الباسكوبان يحتوي على نظير الأتروبين (هيوسين) وهذا ليس بعلاج للقيء؟

قام بحقن المشير وريديـــًا بالأتروبين. ونكرر أن الأتروبين ليس علاجـــًا للقيء، وهل عيب المحقن سبب وجيه لتغيير العلاج من باسكوبان في العضل إلى أتروبين في الوريد؟ والمثبت بالمراجع الطبية والمتعارف عليه في الأوساط المهنية الطبية أن الأتروبين لا يجب حقنه وريديـــًا إلا بحذر شديد وتحت ظروف معينة، فما هي الأسباب القوية التي اضطرت الطبيب أن يحقن الأتروبين في الوريد؟

في منتصف الليل طلب المشير قرصين دوريدن ليتمكن من النوم، ولكنه لم يستطع بلعهما نظرًا للقيء، إذًا مازال القيء مستمرًا بعد الحقن الوريدي للأتروبين وانقضت سبع ساعات كاملة منذ وصوله الاستراحة. الساعة 10 صباحـــًا حضر الطبيب المناوب ليتسلم النوبتجية، الطبيب إبراهيم علي البطاطة وقام الطبيبان سويـــًا بالكشف على سيادة المشير لتسليم وتسلم النوبتجية وعلى الرغم من مرور 17 ساعة كاملة ظل يعاني طيلتها المشير.

كل هذا ويقرر الطبيبان ويثبتان أن حالة المشير الصحية جيدة وأن ضغطه 85/120 والنبض حوالي 90 في الدقيقة والتنفس طبيعي!

مناقشة تقرير الطبيب/ إبراهيم علي البطاطة:

بدأت نوبتجيته الساعة 10 صباحـــًا يوم 1967/6/14، وهنا وصفه الطبيب البطاطة أن سيادته كان هبطان.

وكلمة هبطان لا يجب لممارس مهنة الطب أن يدرجها في تقريره الطبي؛ لأنها كلمة لها من المدى الواسع.

ماذا كان ينتظر البطاطة ليستدعي د. شريف عبدالفتاح؟

الساعة الخامسة مساء أثبت الطبيب علي البطاطة أنه ناظر المشير وعاوده الساعة السادسة "أي قبل دخول المشير في غيبوبة خطرة بعشر دقائق فقط"، فوجده نائمـــاً طبيعيـــاً ونبضه وتنفسه وحرارته وضغط دمه كلها طبيعية.

بعدها دخل دورة المياه ويقرر الطبيب أن الساعة حينئذ 20.6 على الرغم من أنه مسجل بدفتر الأحوال للاستراحة أن المشير دخل في غيبوبة خطرة الساعة 10.6؟!

ثالثـــاً: مناقشة رأي السيد الدكتور كبير الأطباء الشرعيين الوارد بصفحة 50 من التقرير الطبي الشرعي:

وصف سيادته مقاسات الشريط الملصوق على جدار البطن 10.5 * 2.5سم وأنه وضع على أسفل جدار البطن الأمامي وفي اتجاه مستعرض من الناحية اليسرى أعلى رباط الأوربية بقليل. وأود أن أسأل أي ممارس لمهنة الطب يكشف على الجهاز الهضمي "أي منطقة البطن" دون أن يلحظ هذا الشريط اللصاق الذي به ثلاثة نتوءات صلبة.

ص52 في قول الخبير "وجود آثار ضئيلة من الورق المعدني في المضبوطات من ورق السيلوفان التي لفظها السيد المشير والتي ثبت من الفحص إن أحداها تحتوى أفيونـــاً وأن أخرى يمكن القول بأنها تحتوى أفيونـــاً، فهذا خلط لشيء من الحقيقة مع كثير من الزيف والباطل.

مما سبق نخلص إلى حقيقة تم تأكيدها بعد الوفاة أن المشير بريء تماماً من تناول مزيج الموت مع الخمول العاطفي حيث إن معامل الطب الشرعي قطعت لاحقاً بسلبية "القيء والورقة الملفوظة من فم المشير" للأفيون والأكونيتين ولأشباه القلويات والمخدرات والسموم المعدنية والمنومات والمهدئات.

الحقيقة والصواب كما نرى فيما يلي:

"حصول القيء المتكرر" وصف كبير الأطباء الشرعيين أن القيء "كان من وقت نقل سيادته للمستشفى" غير صحيح قطعياً حيث إن فريق الأطباء والممرضين بالمستشفى والمرافقين جميعهم وعلى رأس الجميع اللواء مرتجى مدير المستشفى كانوا يقومون بمحاولات لإقناع سيادة المشير أن يتقيأ بوضع خافض لسان ولكنه رفض ثم حاولوا إقناعه بعمل غسيل للمعدة ورفض ثم بعد إلحاح من الجميع شرب نصف كوب محلول بيكربونات الصودا كمقيء وقام ببذل مجهود بإرادته للقيء وفعلا تقيأ حوالي 150—200 سم٣ سائل مصفر في وعاء كلوي وأرسل للتحليل.

ونحن نشك ونشكك في حدوث القيء المتكرر الوارد بتقريرى طبيبي الاستراحة؛ حيث إنه ورد في تقرير معاينة النيابة العامة ص 29 من تقرير الطب الشرعي السطر 16 وما بعده أن أرض الحجرة نظيفة من أي آثار للقيء وكذلك الحمام والمرحاض الإفرنجي والبيديه والحوضان الكبيران ولوحظ أن الحمام نظيف بوجه عام ووجدت النيابة العامة أن المياه مقطوعة، فكيف يتخيل المرء بأنه هناك قيء متكرر مع عدم وجود آثار له ومع انقطاع المياه. "ثم جاء في الفحص

الطبي الشرعي الكامل "بدار التشريح" أن جميع الملابس على جثة سيادة المشير خالية من التمزقات ولم يميز بها أثر ظاهر لتلوث بالقيء، وورد بأقوال السيد الدكتور شريف عبدالفتاح في ص 17 من تقرير الطب الشرعي "لم يلاحظ وجود آثار لهذا القيء ولم يخبره الدكتور بطاطة بما إذا كان احتفظ بشيء منه من عدمه ولم يخبره عن سبب هذا القيء".

ونخلص مما سبق سرده أننا نشك في صحة أقوال وتقريري الطبيبين المعالجين مصطفى بيومي وإبراهيم علي واستكمالاً لما بنى عليه السيد كبير الأطباء الشرعيين رأيه.

وهنا نحن نتساءل ماذا يقصد السيد كبير الأطباء الشرعيين بقوله إن الشريط اللصاق قد رفع عدة مرات في أوقات متفاوتة؟ هل يقصد سيادته أن السيد المشير أخذ من السم جرعات متعددة على فترات متفاوتة؟ مع علمكم بالحقيقة العلمية الثابتة لعقار الأكونيتين أنه يختلف عن الديجيتوكسين بأن ليس له أثر تراكمي بمعنى أن الجرعات المتفاوتة لن تؤثر لاحقـاً بما يساوي مجموعة أثر الجرعة الفردية وأن الإنسان عندما يقرر الانتحار فسوف يتعاطى الجرعة القاتلة مرة واحدة.

وفي رأينا أن تعدد أثر الشريط اللصاق على جثة سيادة المشير إنما يدل على رفعه وإعادة لصقه بعد الوفاة في محاولة لاختيار الوضعية المطلوبة والله أعلم.

وأرجع سيادة كبير الأطباء الشرعيين فاعلية الجرعة الثانية في إحداث الوفاة بسرعة مفاجئة وخلال دقائق أن سيادة المشير تناولها على معدة خالية، وهنا يظهر التساؤل جليـاً لماذا لم تحدث الجرعة

الأولى نفس الأثر المفترض من سيادته على أن المشير تناولها في منزله مع أنه أيضـــاً ثبت بالدليل القاطع أن معدة السيد المشير كانت خالية عند وصوله إلى المستشفى وعلى هذا فإن فرض كبير الأطباء الشرعيين يتضح بالأدلة القاطعة أنه بُني على خيال غير سليم بالمرة.

ومن جميع ما سبق تفصيله نخلص إلى أن تقرير كبير الأطباء الشرعيين فقد أي علاقة بين الأعراض الإكلينيكية السابقة للوفاة وسم الأكونيتين وهذه أولى الدعائم "المحاور" الثلاث التي بنى عليها كبير الأطباء الشرعيين رأيه في سبب الوفاة.

المحور الثاني أو الدعامة الثانية لأساس بناء الرأي هي كانت المظاهر التشريحية والتي انتهى منها سيادته بأنها "مظاهر تشريحية غير محددة والتي تماثل المظاهر التشريحية في حالات الوفاة من الهبوط الحاد في الدورة الدموية والقلب وأكد سيادته أن هذا يتفق تمامـــاً مع ما يحدثه الأكونيتين"، وبدورنا نناقش هنا ونفند أسبابنا بانهيار هذه الدعامة أيضـــاً حيث إن مجموعة "أشباه القلويات" نباتية الأصل جميعها لها تأثير سام في الجرعات السامة والتي منها الأتروبين والنيكوتين والكوكايين والإرجوتامين والديجيتوكسين والاستركنين والأمينوفلين والأفيون والأكونيتين والذي يعتبر أقواها جميعـــاً.

أشباه القلويات كلها تسبب الوفاة في الجرعات السامة بطريقة واحدة تقريبـــاً وهو تنبيه الجهاز العصبي أولاً ثم تثبيطه إلى حد الشلل بعدها إذًا لماذا أكد سيادة كبير الأطباء وأوجد العلاقة الوثيقة بين الصفة التشريحية والأكونيتين بالذات؟! بالرغم من سلبية تحاليل

الأنسجة والسوائل العضوية الخاصة بسيادة المشير لسم الأكونيتين تحديدًا كما أوردت معامل الطب الشرعي!. بينما كان ينبغي عليه كخبير محايد ألا يتأثر رأيه بميل معين أو فكرة مسبقة وأن يخلص إلى أن "المظاهر التشريحية بالجثة تتفق وحالات التسمم بأشباه القلويات ويتعذر علينا تحديد أي منها".

الدعامة الثالثة التي بنى عليها الرأي هي نتائج التحاليل للسوائل العضوية والأنسجة والتي أجريت بمعامل المصلحة التابعة لسيادته مع الإشارة والعلم المسبق للكيميائيين القائمين بالتحليل بأن سبب الوفاة تسمم بالأكونيتين حاد وسريع بعد التعاطي بدقائق، الأمر الذي يستتبع نجاح المعامل في تحديد الأكونيتين وكشفه ومع ذلك جاءت جميع التحاليل لسوائل الجسم وأنسجته خالية وسلبية من الأكونيتين بالذات، إذًا كيف يستند ويؤكد كبير الأطباء الشرعيين أن سبب الوفاة كان تعاطي الأكونيتين؟! ثم يعلل ويسبب "بأنه سم سريع الاختفاء والتحلل ويصعب الكشف عليه"، هذا قول ليس بحق وأريد به باطل.

ووصف كبير الأطباء الشرعيين الواقعة بأنها انتحار بناء على عدة وقائع.

ونحن إذ نستمع لهذا السيناريو والتخيل وخلق روابط وعلاقات مفتعلة نتساءل عن أمور ألا وهي:

1 - لماذا لم يقم كبير الأطباء الشرعيين بعمل الفحص الميكروسكوبي الباثولوجي للأنسجة.

2 —جاء بالصفحة الثانية من التقرير 506 ك سنة 1967 أنه بتحليل الدم والبول والأنسجة وجدت خالية من آثار مادة النوفالجين بينما أثبت الطبيب مصطفى بيومي أنه أعطى المشير حقنة نوفالجين بالوريد الساعة 4 صباحـاً في نفس يوم الوفاة 1967/9/14، وكذلك أثبت الطبيب إبراهيم علي البطاطة أنه أعطى المشير حقنة جفاريل الساعة 4 مساء بالوريد أي قبل الوفاة بساعتين ونصف فأيهما نصدق يا كبير الأطباء الشرعيين؟!.

3 —السادة الأطباء الشرعيون قاموا بوصف مفصل ص31 لجاكتة البيجاما التريكولين بلون رصاصي شوهد بها بعض بقع صغيرة قليلة محمرة جافة على هيئة طرطشة خفيفة تشبه التلوثات الدموية تنتشر على أعلى البدنين الأماميين كما وجدت نفس البقع على أعلى يسار الفتحة العليا الأمامية للبنطلون ثم صدمنا بأن المعامل "ص38 فقرة ج" تسلمت في 9/19 من كبير الأطباء الشرعيين حرزا تبين من الفحص أنه يحوي جاكتة بيجاما زرقاء اللون وجد بخلفية الكم الأيسر تلوثات خفيفة صفراء 10 20 سم "ولماذا يا كبير الأطباء لم تقم بتحريز جاكتة البيجاما التي كان يرتديها المشير لحظة الوفاة وعليها من البقع ما أخذتم 4 سطور في وصفها من تقريرك الشرعي"؟

وفي رأينا أن الطرطشة الدموية في أعلى بدني جاكتة البيجامة إنما نتجت عن محاولة الحقن الوريدي بسرعة في وريد تم استعماله مسبقـاً للحقن فانسد وعند دفع دواء الحقن تحت ضغط المحقن، ارتدت الخثرة الصغيرة السادة للوريد ومعها هذه الطرطشة الدموية.

4 –ثم لماذا يا كبير الأطباء سلمت الجاكتة الزرقاء التي حرزتها النيابة ولم تسلم ملاءة السرير التي حرزتها النيابة أيضــاً والموجودة بحجرة النوم والتي كان بها بعض تلوثات يميل لونها إلى الحمرة ص 32 وحرزتها أيضـــاً النيابة؟

5 –ولماذا يا كبير الأطباء لم تقم وقت المعاينة بتحريز أي من مخلفات الاستراحة في فترة الـــ24 ساعة المنقضية، خصوصـــاً أن فرضية التسمم هي الأولى في حادث الوفاة كما تشير الظروف المحيطة خاصة أن شخص المتوفى يمثل رمزًا وشخصية عامة وكان المفروض أن يكون الأداء المهني على قدر كاف من الدقة والحنكة والتسجيل.

6 –تمت الوفاة الساعة 6.30م حسب دفتر الأحوال أو الساعة 6.40 م حسب أقوال د. بطاطة أو الساعة 7.30م حسب ملاحظات د.شريف عبدالفتاح الذي وجد الجثة مازالت دافئة بالرغم من وجود مروحة كهربائية مدارة موجودة بين الحائط والسرير المسجاة عليه جثة المشير، بينما وصلتم الاستراحة جميعكم الساعة 12.50ص وبدأتم الكشف المبدئي الساعة 1.30ص أي بعد الوفاة بحوالي سبع ساعات كاملة؟ فهلا بينتم سيادتكم ماذا لو كان المتوفى عسكريــاً عاديــاً في أقصى المدينة بالله عليكم ما فترة التأخير المتوقعة للمعاينة؟! مع العلم بسهولة المرور في عام 1967.

7 –كبير الأطباء الشرعيين لم يرد منه تعليق على خلو الأمعاء بقسميها من المواد الغذائية والبراز، الشيء الذي يدل على أن المشير لم يتناول أي نوع من الأطعمة لمدة أقلها 48 ساعة قبل الوفاة أي أنه

"تجويع" يؤاخذ عليه "بيومي وبطاطة"، وكذلك لم يضع تفسيرًا لما لاحظه من سيولة بالدم مع زيادة عن العادي في درجة اللزوجة؟! ولم يلفت انتباهه أن هذا يعني أن المشير تعرض للجفاف Dohydration يعني كمان "تعطيش"، ألم يشعر سيادته بتعاطف مع المشير ضد بيومي وبطاطة؟

دلالات مهمة بعد دراسة تقرير الطب الشرعي:

- نستبعد شبهة الانتحار تمامـــًا وذلك لعدم وجود ما يشير إليه في مكان حدوث الوفاة، هذا وقد أثبتت جميع التحاليل والبحوث أن المشير لم يتناول أيـــًا من السميات المشار إليها سابقـــًا خاصة الأكونيتين قبل وصوله المستشفى وكذلك لم يتناول الأفيون.

- آثار المورفين الضئيلة التي أثبتتها معامل الطب الشرعي في البول والدم هي نتيجة تناول المشير دواء البنيلين قبل الوفاة بساعات قليلة والذي يمتد وجوده في الدم 24 ساعة بعد التعاطي بينما يمتد وجوده بالبول 6 أيام بعد التعاطي.

- أثبتت تحقيقات النائب العام أن الأكونيتين المعبأ في جزء، شريط الريتالين الذي ألصق بجثة المشير مصدره الوحيد معامل المخابرات العامة المصرية، وتأكد هذا من خلال الفحص المقارن الذي أجراه السيد الدكتور كبير الأطباء الشرعيين عند فحص الأحراز المسلمة بمعرفة مندوب المخابرات العامة السيد/مختار ذكري، والشريط اللاصق المتروع من على جثة عبدالحكيم عامر.

من جماع ما سبق كله يتضح لنا أن الوفاة حدثت لحظيـــًا نتيجة لوصول المادة السامة لدم السيد المشير فأحدثت حالة تسمم حاد

"بأحد أشباه القلويات" وذلك من خلال الأثر المباشر على عضلة القلب حيث أحدثت خللاً في كهربية الخلايا وهو ما أدى إلى حدوث الارتجاف البطيني مؤديـــاً للوفاة، ونحن نرى استبعاد الأكونيتين حيث إنه كان الهدف المراد للكشف عنه بالتحاليل من قبل المعامل الكيميائية الطبية الشرعية والتي أفردته بسلبية العينات جميعها منه كما أن الأعراض الموصوفة قبل الوفاة مباشرة لا تتفق وأعراض التسمم الحاد من تعاطي الأكونيتين بالفم.

الرأي

توفي إلى رحمة الله تعالى السيد المشير/ عبدالحكيم عامر بهبوط حاد في القلب والدورة الدموية نتج عن حدوث الارتجاف البطيني كأثر مباشر للتسمم الحاد بمادة من أشباه القلويات بالحقن الوريدي، هذا وقد تبين لنا انتفاء شبهة الانتحار واستبعاد سم الأكونيتين تحديدًا كمسبب للوفاة"233.

وفي شهادة وزير العدل عصام حسونة، في اجتماع مجلس الوزراء في 17 سبتمبر 1967، أي بعد ثلاثة أيام من الحادث، قال ما نصه:

"اتصل بي شعراوي جمعة يوم 14 سبتمبر الساعة 10:30 وبلغني بأن هناك حادث وفاة. في الواقع القضية حساسة ودقيقة، وملك شعب وملك التاريخ أيضـــاً. وجدت من واجبي أن أنتقل، برغم مدى قسوة المشهد عليّ شخصيـــاً. وصلت حوالي الساعة 12 إلى

233 المصدر نفسه.

استراحة المريوطية، وكان معي بعض المعاونين من أعضاء النيابة، وطلبت وكيل وزارة الطب الشرعي وبعض معاونيه أيضـــًا.

"عند وصولي كان الفريق فوزي في الحديقة، وطلبت منه أن يظل هناك، وكان هناك العميد محمد ليثي والعميد سعد، وقد وجدت من واجبي أن أعاين شخصيـــًا.

"وجدنا في المعاينة أنه لم تكن هناك أي إصابات، يبقى أمامي هيبة الموت وجلاله، يبقى فيه هيب حتى للمحققين ومن الأطباء الشرعيين! طبعـــًا الواحد بينسى صفته كإنسان ويستعيد صفته كمحقق، فبالصفة الثانية وجدنا شريطـــًا لاصقـــًا يخفي مادة غير معروفة وقتها. بدأ التحقيق على الفور، واتخذت له كل الضمانات.

"قسمنا التحقيق إلى خطوات:

"أولاً: لما انتقل الفريق محمد فوزي وعبدالمنعم رياض ومعهما بعض القوات إلى منزل المشير بالجيزة، تنفيذًا للأمر الصادر بالتحقيق، "بنقله إلى استراحة المريوطية، وتصفية الموقف حول بيت الجيزة"، وشهد عبدالمنعم رياض أنه قال للمشير: الموقف يقتضي أن تحضر معنا، ولكنه امتنع بشدة. قيل: إنه في هذه الحالة مضغ شيئـــًا، ثم أمكنهم أن يقنعوه أنه لا مناص من التنفيذ! ونزل فعلاً.

"ثانيـــًا: في الطريق من المنزل إلى مستشفى المعادي، لما رأوه يبتلع شيئـــًا، خصوصـــًا بأنه قال: لا أمل أن تنالوا مني!

"في مستشفى المعادي أقنعه الأطباء –ومعهم رئيس المستشفى الدكتور مرتجي– بتناول الأدوية، والتحليل كان سلبيـــًا، ونبضه نزل إلى الطبيعي.

"عين له طبيبان ظلا معه لثاني يوم، وكذلك المشرفون "في استراحة المريوطية"، وحسب كلامهم.. الحالة لم تكن ملفتة، ما عدا امتناعه عن الأكل.. سوائل فقط.

"وحسب كلام الشهود في الساعة السادسة والربعن بدأ الهيار مفاجئ، وأحضروا أكسجين، واستعانوا بمستشفى المعادي، فأرسل لهم الدكتور مرتجي طبيبـًا أعلن أنه توفي إلى رحمة الله.

"التحليل حتى الآن نتولاه بكل دقة، ومع ضمانات كاملة. وفي الوزارة.. الطب الشرعي، ومعه أعضاء النيابة، ومحامون عامون، والنائب العام. ووجدنا أيضـًا أنه في مثل هذا الحادث أن نستعين بأستاذ الطب الشرعي في جامعة القاهرة، الدكتور علي عبدالنبي، وأستاذ الطب الشرعي في جامعة عين شمس، الدكتور يحيى شريف، هؤلاء في التشريح طبعـًا وليس في التحليل، يمكن بالنسبة لموضوع التشريح، نحن لم ننشر عنه شيئـًا. وهنا قاطعه الرئيس.. والله.. أنا كنت طالب عدم التشريح.

"رد السيد عصام حسونة.. مستحيل.. هذا كان مستحيلاً! فإنني بتجاربي كمحقق.. نسيت تمامـًا صفتي كصديق وكأخ. كان مستحيلاً في قضية تسمم ألا يحدث ذلك، ولقد طلبت من وكيل الوزارة أن يتم ذلك في أضيق الحدود، وألا يمس الجثمان.

"وفي الواقع.. إذا انتقلت من صفتي كوزير عدل إلى الصفة الضعيفة، هو كان باسم ووديع وبشوش، وأنا ظللت معه وحدي.. وديع وبشوش ومبتسم مثل ما شفته في 52".

"أعود للصفة الجافة لي.. تحليل المادة المبدئي حتى الآن، نحن فوجئنا أنه لم يحدث في سجلات الطب الشرعي حتى الآن استخدام هذه المادة! وعبدالوهاب البشري ظل 30 سنة في موضوع السموم كلها، لم يحدث أن استُخدم! إن الكمية التي وجدناها مخفية 150 ملليغرامـًا، وطبقـًا لكتب الطب الشرعي، يقال إن مللي واحدًا يكفي للقتل، وحفظنا الباقي من المادة بعد التحليل. "اتضح بعد ذلك أنها مادة الأكونيتين". كل ذلك كان يحدث.. وجزء غال من الوطن محتل، واليهود على الأبواب، والجيش ممزق، والرجعية العربية وجدت فرصتها في الطعن! كل ذلك كان يحدث.. وجمال عبدالناصر يواجه أقسى أيام حياته، وهو بعد لم يتعد التاسعة والأربعين!

"لقد كان همه الأول أن يعيد التوازن إلى جيش جريح واجه هزيمة قاسية، وكان مصممـًا أن يصبح جيشـًا محترفـًا قادرًا أولاً على الصمود، ثم الردع والتحرير، وقد فعل.

"وكان شاغله أيضـًا في تلك الفترة مؤتمر القمة العربي في الخرطوم في 29 أغسطس، وكيف يستطيع في إطار عداء الرجعية العربية أن يحقق الدعم الاقتصادي لدول المواجهة. تلك كلها تحديات ينوء بحملها البشر، ولكن جمال عبدالناصر -كما عودنا دائمـًا- كان الأقدر على حملها"[234].

على أن الصراع بين الرجلين استمر بعد وفاة عامر، وبقيت جذوره متغلغلة فـي المؤسسة العسكرية؛ إذ إن عبدالناصر واصل

234 د. هدى جمال عبدالناصر، مصدر سابق.

محاولاً اقتلاعها حتى يناير 1967 -أي قبل رحيله بثمانية شهور فقط- عندما بادر إلى تطهير صفوف القوات المسلحة من الضباط الذين يدينون بالولاء لصديقه المشير عامر.

ويعيد المؤلف عبدالله إمام قراءة أوراق قضية رجال المشير عامر من خلال أقوالهم، واعترافاهم أمام المحكمة التي حاكمتهم على مخططاهم لإعادة عامر إلى موقعه كقائد عام للقوات المسلحة.. وهي الخطط التي أُعلِنَ رسميـــاً عن القضاء عليها بعد إبعاد عامر عن مترله، وعندما عاد إليه وجد أن رجاله قد ألقى القبض عليهم، وضاع أمله فـــي العودة كقائد عام للقوات المسلحة. ويضم الكتاب النص الكامل للتقرير الذي أعده النائب العام وبه جميع التحقيقات التي أجراها حول واقعة وفاة المشير عامر[235].

ويرى الكاتب الصحفي عبدالله إمام أنه ليس غريبـــاً أن يفكر عامر في الانتحار ويُقدم عليه، وهو الذي كان من قبل يفكر في الانتحار، بل وحاوله في مترل جمال عبدالناصر، على مرأى من زملائه أعضاء مجلس قيادة الثورة بل أيضًا وعقب هزيمة يونيو مباشرة على مرأى من شمس بدران.

أما شمس بدران فقد روى أنه بعد اتضح حجم الهزيمة العسكرية في يونيو 1967 استنتج أن المشير عامر يريد أن ينتحر، فاتصل بالرئيس عبدالناصر في مترله وطلب منه الحضور إلى مقر القيادة العامة؛ لأن الموقف يتطلب ذلك. رفض عبدالناصر وقال: "أنا آجي ليه.. العملية عملية عبدالحكيم وهو واخد المسألة كلها".

---

235 عبدالله إمام، الافتراء على ثورة يوليو: هزيمة يونيو - مؤامرة رجال المشير عامر.. وانتحاره - الصلح مع إسرائيل، دار الخيال، القاهرة، 2003.

غير أن عبدالناصر حضر عندما أبلغه شمس بدران تخوفه من احتمال إقدام المشير عامر على الانتحار[236].

ويقول وزير الثقافة سابقـاً د. ثروت عكاشة في مذكراته إنه في ساعة متأخرة من ليلة الخميس، الموافق 8 يونيو -في العام إياه- اتصل به هاتفيـاً مدير المخابرات العامة صلاح نصر لإبلاغه أن المشير عامر قد عقد العزم على الانتحار.. ورجاه -لما يعرفه عما كان بين د. عكاشة وبين المشير من ودٍ قديم- أن يسرع إليه ليثنيه عما اعتزمه.

وحين زاره د. عكاشة اكتشف أن المشير عامر منهارٌ تمامـاً، حتى أنه يقول في وصف حالته: "كان عبدالحكيم عامر جالسـاً يترقب قدره في صمتٍ رهيب.. ورأيت في عينيه ما هو عازم عليه". ثم يعود فيقول: "على أني رأيت عينيه الجاحظتين تكادان تفصحان عن تصميمه على أن يترك الحياة"[237].

فـي مذكراته عن حرب أكتوبر، تطرق اللواء محمد عبدالغني الجمسي رئيس هيئة العمليات بحرب أكتوبر إلى فترة النكسة، قائلاً: "بينما كنت أجلس مع اللواء أحمد إسماعيل ليلاً فـي جبهة القناة نراجع كالمعتاد يوميـاً نشاط العدو فـي سيناء وكذا نتائج أعمال قواتنا، قبل أن يتوجه كلٌ منا إلى خندق النوم المخصص له، دق التليفون وكان المتحدث هو الفريق أول محمد فوزي من القاهرة. كان هدف المكالمة هو إخطارنا بانتحار المشير عامر فـي منزله بمادةٍ

236 موسى صبري، وثائق 15 مايو، المكتب المصري الحديث، القاهرة، طـ 2، 1977، ص 231.

237 د. ثروت عكاشة، مرجع سابق.

سامة شديدة المفعول كان يخفيها ملاصقة لجسمه تحت الملابس الداخلية".

وتابع الجمسي قائلاً: "أخذ اللواء أحمد إسماعيل يناقشني في رد الفعل المنتظر لهذا الحادث بين القوات في الجبهة، ووصلنا إلى نتيجة مؤكدة هي أن انتحار المشير عامر لن يكون له تأثيرٌ عام، فما زالت حرب يونيو بأحداثها ونتائجها المريرة تترك أثرها العميق في نفوس كل العسكريين بعد أن فقدنا سيناء، واستشهد لنا الآلاف من رجال القوات المسلحة، ولم يكن أحد قد نسي دور عبدالحكيم عامر في الهزيمة كقائد عام للقوات المسلحة، واستعدنا معا الحالة السيئة التي وصلت إليها القوات المسلحة في ظل قيادته، وكان ذلك سبباً رئيسياً من أسباب الهزيمة"238.

أحد قيادات الضباط الأحرار وهو عبدالمحسن أبو النور –الذي كان أول قائد للحرس الجمهوري لأول رئيس جمهورية مصري اللواء محمد نجيب– يحكي أن عبدالناصر أصبح في حالة نفسية سيئة جدًا وأنه انعزل عن الجميع بعد انتحار المشير عبدالحكيم عامر، ويقول أبو النور إن السادات جاءه في هذه الفترة متزعجاً من الحالة التي عليها عبدالناصر وطالباً منه المشورة، فلم يكن من أبو النور إلا أن نصح السادات بأن يذهب إلى عبدالناصر وأن "يستحضر بعض القفشات والنكات المسلية" من أجل إخراجه من الحالة السيئة التي هو فيها.

238 محمد عبدالغني الجمسي، حرب أكتوبر 1973، مكتبة الأسرة، القاهرة، 2003.

ويقول أبو النور إن السادات جاءه في اليوم التالي فرحاً وممتناً له؛ لأن عبدالناصر تكلم معه كثيرًا بعد أن ألقى عليه بعض النكات والقفشات، فطلب منه أبو النور أن يستمر في دوره، بل إنه طلب منه أن يأخذ لعبدالناصر "شريط فيديو مسلياً"239.

أما المُسلي حقاً، وربما المأساوي، فهو ما عاشته مصر ودفعته ثمناً للصداقة بين ناصر وعامر.

239 عبدالمحسن أبو النور، الحقيقة عن ثورة يوليو، الهيئة العامة للكتاب، القاهرة، 2001،

1

حسنين وفاروق:
راسبوتين من بولاق

كان أحمد حسنين باشا شخصية مثيرة للجدل، من المهد إلى اللحد.

فهو ابن شيخ أزهري، وخريج أكسفورد.

وهو ابن حي بولاق، الذي ذاق طعم القصور ودسائس أصحابها.

قاد ولي العهد الذي أصبح ملكـًا، مثلما قاد الملكة التي أصبحت عاشقة؛ راسبوتين مصري بامتياز.

إنه المفتشُ بوزارة الداخلية إبان الحرب العالمية الأولى، والسكرتير بسفارة مصر في واشنطن، والأمين الثاني للملك فؤاد، الذي انتُدبَ رائدًا للأمير فاروق ولي العهد وأمير الصعيد، قبل أن يصبح الأمين الأول للملك، ثم رئيس الديوان الملكي اعتبارًا من العام 1940.

الرجل الذي أقام الوزارات وأسقطها، كان يرتدي مسوح البراءة حين يُسأل عن السياسة وكواليسها، زاعمـاً أنه لا يفقه فـي السياسة.

إلا أنه كان يدير أمور البلاد بنفس مهارتِه كبطل مصر فـي الشيش، وينجو من أزمات الحُكم بالطريقة نفسها التي نجا بها من الموت مرتين لدى محاولته قيادة طائرته الخاصة بمفرده من أوروبا إلى مصر، ويستكشف مواقف زعماء الأحزاب والسفراء القناصل، بأسلوبٍ يماثل استكشافه واحتَي العوينات وجبل أركنو فـي جوف الصحراء.

وأحمد محمد مخلوف حسنين البولاقي -وهذا هو اسمه بالكامل- شخصية مصرية دخلت التاريخ من أبوابٍ عدة؛ باب الدبلوماسية، فقد كان الشخصية الثانية فـي الهيئة الدبلوماسية المصرية الأولى فـي واشنطن عام 1923، وباب السياسة التي برز فيها بعد أن أصبح رئيسـاً للديوان الملكي عام 1940 وإلى أن لقي مصرعه فـي حادث سيارة غامض بعد ست سنوات من ذلك التاريخ.

ولد أحمد حسنين فـي 31 أكتوبر 1889 فـي بولاق ابنـاً لمحمد حسنين أحد مشايخ الأزهر، وهو حفيد أحمد باشا مظهر حسنين آخر قادة البحرية المصرية. تلقى تعليمه أولاً فـي المدارس المصرية وبعد أن قضى عامـاً فـي مدرسة الحقوق الخديوية قصد إنجلترا لإتمام تعليمه فـي أكسفورد -بعد أن ألحقه اللورد ملنر وزير المستعمرات البريطاني بالجامعة- ليعود منها عام 1914 عشية قيام الحرب العالمية

الأولى. وفـــي أثناء الحرب، تطوع حسنين فـــي الجيش البريطاني – حيث ارتدى زي الضباط البريطانيين– ثم عُينَ سكرتيرًا خاصـــًا للجنرال مكسويل قائد القوات البريطانية فـــي مصر، إلى أن ترك هذا البلاد فنُقل حسنين إلى وزارة الداخلية ليعمل تحت إمرة هورينلور كبير المفتشين الإنجليز بالوزارة والمشرف على الأمن العام آنذاك.

وتقول الوثائق السرية البريطانية إنه بحكم وظيفته تلك اصطحب عام 1919 القوات العسكرية التي ذهبت إلى الصعيد لإخماد الثورة والحركة الشعبية هناك، واختير فـــي العام التالي رئيســًا للبعثة الرياضية المصرية فـــي أولمبياد أنفرس (أنتويرب) فـــي بلجيكا، فقد كان أحد أبطال لعبة الشيش. كان أحمد حسنين قد شارك من قبل في الدورة الأولمبية في ستوكهولم 1912 تأكيدًا وتدعيمـــًا لوجود اللجنة الأولمبية المصرية في سجلات اللجنة الأولمبية الدولية؛ كما شارك في أولمبياد باريس 1928؛ ليصبح بذلك أول مصري يشارك في ثلاث دورات أولمبية متتالية240.

منذ شبابه وحتى آخر نفس فـــي حياته ظل حسنين مشمولا برعاية الجالس على العرش، سواء كان فؤاد الأول أو ابنه فاروق، ما يمكن القول معه إن كان من أكثر الشخصيات تأثيرًا فـــي سياسات القصر.

240 علي خضير، أحمد حسنين: الفارس الأولمبي الأول، مجلة "ذاكرة مصر المعاصرة"، العدد العاشر، مكتبة الإسكندرية، الإسكندرية، أغسطس 2012.

ومنذ البداية كان واضحـــًا أن نشأة الرجل حافلة بالمتناقضات.. الجد العسكري والأب الأزهري، التعلم فـــي بولاق والتعلم فـــي أكسفورد، زاد منها ما نسج حول شخصه من أساطير بعد أن قام خلال الفترة الواقعة بين عامي 1921 و1923 برحلتين استكشافيتين فـــي الصحراء الغربية، و ن ذلك عملاً فريدًا بمقاييس العصر بالنسبة للأوروبيين ناهيك عن المصريين، الأمر الذي استحق أن تُعنى به وسائل الإعلام المصرية والأجنبية. واحتفت الدولة بحسنين عندما أنعم عليه الملك فؤاد الأول بالبكوية، كما أقيم له حفلٌ كبير فـــي دار الأوبرا مساء يوم الاثنين الموافق 19 نوفمبر 1923 حضره الملك فؤاد بنفسه، وألقى ليلتها أحمد حسنين محاضرةً طويلة عن رحلته دعمها بصور241.

وانهالت على الرجل بعد ذلك الدعوات من الجمعيات العلمية فـــي أوروبا وأميركا فضلاً عن كبريات الصحف التي سعت إلى استكتابه، وكان منها جريدة "تايمز" التي نشرت له فـــي 3 يناير 1924 مقالاً مطولاً وضعته تحت عنوان "فـــي صحراء مجهولة.. قطع 2200 ميل على ظهور الجمال.. رحلة مملوءة بالمخاطر". كما نشرت مجلة "ناشيونال جيوغرافيك" فـــي عددها الصادر فـــي سبتمبر عام 1924 أبرز نتائج رحلته المهمة فـــي الصحراء، مصحوبة بخارطة تفصيلية و47 صورة.

عن هذا الإنجاز، نال أحمد حسنين عام 1924 ميدالية ذهبية من الجمعية الملكية البريطانية، وهي أرفع وسام تمنحه الجمعية لمستكشفين،

241 الرحالة المصري حسنين بك في دار الأوبرا الملكية، جريدة "السياسة"، القاهرة، 20 نوفمبر 1923.

وقد نالها أشخاصٌ من عينة ديفيد ليفنغستون وغرترود بل وريتشارد بيرتون. وربما يسترعي الانتباه أن حسنين هو الشخص الوحيد غير الأوروبي الذي ينال تلك الميدالية منذ توزيعها عام 1831 وصولاً إلى يومنا هذا.

وحاول أحد الأميركيين استثمار رحلة حسنين بك إلى الولايات المتحدة، فاقترح عليه أن يدفع له عشرين ألف جنيه إذا وافق على أن يطوف في أنحاء البلاد ليلقي محاضرات في المسارح عما شاهده، على أن يرتدي زي شيخ بدوي، لكنه رفض قبول ذلك؛ لأن مركزه يمنعه من الارتزاق بهذه الطريقة.

وآثر الرجل أن ينصرف إلى تأليف كتاب علمي حول رحلته، وقد استعان في ذلك بمذكراته خلالها، وبالصور التي التقطها والتي زادت عن التسعمائة، وهو الكتاب الذي صدر بالفعل في العام 1925 بالعربية تحت عنوان "في صحراء ليبيا"، وبالإنجليزية تحت عنوان The Lost Oasis، وكان أحد الأبواب التي دخل منها حسنين التاريخ.

والشاهد أن شخصية أحمد حسنين تعد من أكثر الشخصيات تأثيرًا في الحياة السياسية في مصر خلال النصف الأول من القرن العشرين.

ومع ذلك، فإن محمد التابعي يقول إن أحمد حسنين كان "يحب أن يعتقد الناس فيه الغباء بل "الهبل"! وأنه رجلٌ لا يُخشى شره! أو طرطور! أو ساعي بريد ينقل إليهم "الأوامر السامية" من جلالة

الملك.. أو "يرفع" آراءهم ونصائحهم إلى "السدة العلية الكريمة".. ومن غير أن يكون له هو رأي أو مشورة فـــي الموضوع.

"وصدقه بعضهم فـــي أول الأمر. ثم اكتشفوا الحقيقة وعرفوه.. وكرهوه!

"وآخرون عرفوا الحقيقة عندما عرفوه.. فأحبوه! وغير هؤلاء وهؤلاء فريق من الساسة الذين "كشفهم" حسنين باشا أمام فاروق. وكشف عن ألاعيبهم ومناوراتهم وأطماعهم وأكاذيبهم"

لكن الأهم هو أن أحمد حسنين" لم يكن بطلاً.. ولم يكن خائنـــًا لبلاده.. وإنما كان رجلاً ذا مطامع واسعة كثيرًا ما أفلح فـــي إخفائها وراء قناع من الزهد فـــي المناصب.. والجهل بالسياسة وأسرارها"242.

يقول صديقه حفني محمود إنه شاهد أحمد حسنين باشا وهو يقرأ كتاب "الأمير" لمؤلفه الفلورنسي نيقولا ميكيافيللي، الذي تعلم منه أحمد حسنين مبدأه الأهم: الغاية تبرر الوسيلة.

كان الشاب النحيل القامة الوسيم الطلعة الأنيق الملبس، ساحرًا فـــي حديثه مع النساء. وقد كتب الأديب فكري أباظة عنه مقالاً في مجلة "الهلال" قال فيه: "في اعتقادي أن "كسم الإنسان" له أثره الرائع وتأثيره البليغ في حياة الإنسان.. الوجه الجميل، والجسم الجميل، والقوام الجميل، كلها عناصر توحي بالخلال الجميلة، وتنم عن

---

242 محمد التابعي، من أسرار الساسة والسياسة: أحمد حسنين باشا: حياته الخاصة والعامة. دار الشروق، القاهرة، 2008، ص 27 28.

العواطف النبيلة، وتدل غالبـًا على ذكاء وقاد وذوق سليم واستعداد كامل للدنيا الحاضرة.. كل هذا توافر في أحمد حسنين باشا طفلاً – وصبيـًا – وفتى – وشابـًا – وكهلاً – وشيخـًا إن شاء الله"243.

استطاع حسنين أن يفتن ويخلب لب الفتاة لطفية ابنة الأميرة شويكار مطلقة الملك أحمد فؤاد. تزوج أحمد حسنين من لطفية –كريمة الوزير المفوض سيف الله يسري باشا– فـي عام 1926 وأصبح من أصهار الأسرة المالكة، وزوجـًا لأخت الأميرة فوقية كريمة الملك فؤاد.

وهكذا خطا حسنين خطوة مهمة على طريق السلطة والنفوذ.

يقول حسنين للكاتب الصحفـي محمد التابعي: "إن لطفية كريمة رقيقة حنون تستحق كل حُبّ، وهي أم مثالية. ولقد أحببتها بعد الزواج كما لم أحب امرأةً أخرى"244.

أنجب حسنين من لطفية –التي كانت تصغره بستة عشر عامـًا– ولدين، هما هشام، الذي أصبح ضابطـًا بالجيش، والثاني طارق الذي عمل بالتجارة وأنجب بنتين هما جيدة ونازلي.

وفـي كل خطواته كان أحمد حسنين يجري خلف طموحه، وكان يدرك أن ذلك يتطلب ما هو أكثر من مجرد قوام ممشوق ووجه وسيم وبنيان أنيق.

243 فكري أباظة. أحمد حسنين باشا: "الكسم"!، مجلة "الهلال"، القاهرة، 1 أغسطس 1937.

244 محمد التابعي، مرجع سابق، ص 33.

وجاءت اللحظة الفارقة فـــي حياة أحمد حسنين حين اختاره الملك أحمد فؤاد ليرافق إلى جانب عزيز باشا المصري -ولي العهد فاروق فـــي رحلة طلب العلم فـــي إنجلترا.

فقد أراد الملك أحمد فؤاد أن يلتحق ولي العهد بمدرسة ساند هيرست العسكرية التي يؤمها عادةً أبناء الأسر المالكة والعائلات الكبيرة فـــي إنجلترا وخارجها. وفـــي البداية اتجه الرأي إلى اختيار حسنين "بك" آنذاك ولكن سرعان ما عدل عن اختياره حينما اعتذر حسنين بأن عليه التزاماتٍ مالية كبيرة لا بد له من الوفاء بها قبل سفره. ووقع اختيار الملك على عزيز المصري لما كان يعرفه عن نشأته العسكرية فـــي معاهد تركيا وألمانيا، ولكن هذا الاختيار لم يلق قبولاً طيبـــاً لدى الإنجليز الذين كانوا يعرضون منذ البداية ترشيح شخصية إنجليزية وهو ما لم يوافق عليه الملك.

ولتهدئة تخوفات الإنجليز، استقر الرأي على انتقاء شخصٍ يكون مقبولاً لديهم ليكون إلى جانب عزيز المصري. وهكذا عادت دائرة التفكير لتشير إلى أحمد حسنين، وطلب الملك من كبير الأمناء سعيد ذو الفقار باشا أن يدبر وسيلة مع أحد المصارف لتسوية ديون حسنين.

وهنا يورد د. حسين حسني، السكرتير الخاص للملك فاروق، معلومة على قدرٍ كبير من الأهمية؛ إذ يقول: "وأذكر أني أبديت دهشتي لذلك الطَّلب، مع أنه كان من الميسور بل من المنتظر أن يأمر الملك بأن تقوم الخاصة الملكية بالتسوية المطلوبة، فأجابني (ذو الفقار باشا): بأنه سبق للملك أن سدد ديون حسنين "بك" مرتين من قبل

سامة شديدة المفعول كان يخفيها ملاصقة لجسمه تحت الملابس الداخلية".

وتابع الجمسي قائلاً: "أخذ اللواء أحمد إسماعيل يناقشني في رد الفعل المنتظر لهذا الحادث بين القوات في الجبهة، ووصلنا إلى نتيجة مؤكدة هي أن انتحار المشير عامر لن يكون له تأثيرٌ عام، فما زالت حرب يونيو بأحداثها ونتائجها المريرة تترك أثرها العميق في نفوس كل العسكريين بعد أن فقدنا سيناء، واستشهد لنا الآلاف من رجال القوات المسلحة، ولم يكن أحد قد نسي دور عبدالحكيم عامر في الهزيمة كقائد عام للقوات المسلحة، واستعدنا معا الحالة السيئة التي وصلت إليها القوات المسلحة في ظل قيادته، وكان ذلك سبباً رئيسياً من أسباب الهزيمة"238.

أحد قيادات الضباط الأحرار وهو عبدالمحسن أبو النور –الذي كان أول قائد للحرس الجمهوري لأول رئيس جمهورية مصري اللواء محمد نجيب– يحكي أن عبدالناصر أصبح في حالة نفسية سيئة جدًا وأنه انعزل عن الجميع بعد انتحار المشير عبدالحكيم عامر، ويقول أبو النور إن السادات جاءه في هذه الفترة متزعجاً من الحالة التي عليها عبدالناصر وطالباً منه المشورة، فلم يكن من أبو النور إلا أن نصح السادات بأن يذهب إلى عبدالناصر وأن "يستحضر بعض القفشات والنكات المسلية" من أجل إخراجه من الحالة السيئة التي هو فيها.

---

238 محمد عبدالغني الجمسي، حرب أكتوبر 1973، مكتبة الأسرة، القاهرة، 2003.

الذي ساير فاروق -إن لم يكن أغواه- بارتياد أماكن السهر وزيَّنَ له حياة الليل، وفعل معه ذلك لاحقـًا فـي مصر.

ويبدو أن أحمد حسنين قرر أن يحوز ثقة فاروق بأي ثمن، خصوصـًا أن والده الملك أحمد فؤاد كان في مرضه الأخير، ومن هنا أخذ يجاري نزوات ومغامرات ولي العهد المراهق، فـي حين كان عزيز المصري يسعى إلى إعداد فاروق للاضطلاع بمسؤولياته المقبلة عن طريق إلزامه بالانضباط والدراسة. وكان طبيعيـًا أن يصطدم الرجلان، ليعود عزيز المصري إلى البلاد تاركـًا أحمد حسنين ينفرد بالأمير الشاب ويسيطر عليه. وإذا كان البعض يردد أن علي ماهر أفسد فاروق سياسيـًا، فإننا نطمئن إلى مقولة أن أحمد حسنين أكمل عليه وأفسده اجتماعيـًا.. فهو الذي مهد له طريق اللهو والعبث وعدم الانضباط بالصورة التي أدت إلى سوء سمعة فاروق وإفساده الحياة السياسية فـي مصر.

ويرى محمد حسنين هيكل الرأي نفسه؛ إذ يقول: "ولعل الخطأ الذي وقع فيه الملك فؤاد أن اختياره لـ "عزيز المصري" كالمرافق الأول لابنه فـي إنجلترا، صحبه اختياره لـ "أحمد محمد حسنين" أحد أمنائه لكي يكون المرافق الثاني لابنه. وكان هناك تناقضٌ شديد بين شخصية وفكر كل من الرجلين.

"فأولهما كان يريد للأمير الشاب حياةً جادة صعبة، فـي حين كان الثاني من أنصار حياة سهلة ورخوة.

"والحاصل أن وجود الرجلين فـــي حياة الأمير الصبي أصابه بتناقضٍ عانى منه فيما بعد -وعانت مصر معه- عناءً شديدًا"246.

مكث فاروق فـــي إنجلترا بضعة شهور ليعود اضطراريـــاً قبل أن يكمل دراسته هناك، بعد وفاة والده الملك أحمد فؤاد فـــي 26 إبريل 1936.

هنا حانت الفرصة أمام أحمد حسنين. لقد كان فـــي قصر كنري هاوس -الذي يقع فـــي ضاحية كنغستون على مقربةٍ من لندن- فـــي معية فاروق يوم الإعلان عن وفاة الملك فؤاد والمناداة بفاروق ملكـــاً على مصر. عاد حسنين فـــي صحبة فاروق -الملك الشاب نصف الأمي- إلى مصر، وفـــي رأسه خطةٌ محكمة التفاصيل. كان هذا الداهية يعرف الكثير عن ظروف الملكة نازلي وعذابها وغيرة زوجها الملك فؤاد وتلهفها على الاستمتاع بحياةٍ حُرة طليقة.

ومن هنا عاد إلى القصر وهو يخطط لترويض هذه النمرة التي عاشت نحو سبعة عشر عامـــاً فـــي كنف زوجها القاسي والغيور247 الملك أحمد فؤاد، الذي كان يُحرِّم عليها مغادرة القصر ويضربها إذا خالفت أوامره. وبعد وفاته بأسابيع قليلة راحت تبحث عن حقها فـــي الحياة والاستمتاع، فانطلقت بشراهة امرأةٍ محرومةٍ لتحطيم قيودها، ودأبت على السهر وهي لم تخلع بعد ثوبَ الحداد. تعددت علاقات نازلي فـــي اتجاهاتٍ مختلفة وانفلت عيارها وشاعت أخبار

246 محمد حسنين هيكل، المفاوضات السرية بين العرب وإسرائيل، جـ 1: الأسطورة والإمبراطورية والدولة اليهودية، دار الشروق، القاهرة، 1996، ص 143.

247 حنفي المحلاوي، حريم ملوك مصر من محمد علي إلى فاروق، دار الأمين، القاهرة، 1993.

غراميالهما. ما سبب حرجـــاً شديدًا لفاروق. الذي تولى مُلك مصر تحت إشراف مجلس وصاية -يتألف من الأمير محمد علي توفيق، وعزيز عزت باشا، ومحمد شريف صبري باشا خال فاروق- حتى بلغ السن القانونية فأصبح ملكـــاً بلا مجلس وصاية عام 1937.

أما أحمد حسنين فقد لعب معها وتلاعب بها. تركها تشدُه وتصدُه، تُعرضُ وتقبل، تروحُ وتعود.. وهو هادئ لا يغضبُ ولا يثور، يمدُ لها فـــي حبال الصبر مثل أي صياد ماهر.

ألقى حسنين بالطُعم، وبقي يتفرج على السمكة وهي تحاول الإفلات.

وبعد فترةٍ من المقاومة، استسلمت نازلي لصيادها وأسلمت له القياد، وبدأت تطارد أحمد حسنين وتحاسبه على كل خطوةٍ يخطوها وكل امرأة يلتقيها.

ولكن، هل كان حسنين يحِبُّ نازلي؟

يرد التابعي فـــي كتابه عن أحمد حسنين بالنفي؛ إذ يقول: "كلا. ولكنه كان حريصـــاً على استرضاء "ملكة مصر".. وأم ملك مصر.. وصاحبة النفوذ الأعلى عند ابنها فاروق فقد كان فاروق يومئذ يحب أمه ويحترمها بل ويخشاها ويخشى غضبها ويعمل لها حسابـــاً ولا يخالف لها أمرًا.. وكان حسنين يعرف هذا كله.. ويدرك أن الذي

يسيطر على نازلي يستطيع عن طريقها أن يسيطر فـــي نفس الوقت على الملك فاروق"248.

وكانت الشرارة الأولى بين حسنين ونازلي.. فـــي 6 مايو 1936: الليلة التي عاد فيها فاروق إلى مصر.

248 محمد التابعي، مرجع سابق، ص 37.

2

حسنين وفاروق:
حكمة القرود

لفرط ما ادعّى أحمد حسنين التعقل، تعثّرت به نساءٌ من كل صنف ولون.

كان أسلوبه بالغ التهذيب والأناقة، لكن له مفعول مدية تقطع جميع الأوردة وتستقر في قلوب الباحثات عن الحب.

ولم تكن الملكة نازلي سوى أبرز قطعةٍ فنية في قائمة مقتنياته الثمينة.

في كتابه "سنوات مع الملك فاروق.. شهادة للحقيقة والتاريخ"، يقول د. حسين حسني السكرتير الخاص للملك فاروق إنه في صباح اليوم التالي لوصول الملك الشاب إلى مصر وجد أحمد حسنين باشا مبتهجاً، وبادره بالقول "إنه حدثت في الليلة الماضية مفاجأة سارة لم يكن يتوقعها، فإن الملك دعاه في المساء إلى الطابق

العلوي بقصر القبة وطلب منه أن ينتظر قليلاً فـــي إحدى القاعات، ثم إذا به يعود ومعه والدته الملكة نازلي، فكانت مفاجأة اضطرب لها، ولكن الملكة قالت له إنها بعد كل الذي سمعته من ابنها من مبلغ عنايته به أثناء وجوده معه فـــي إنجلترا حرصت على أن تلقاه لتعرب له شخصيـــاً عن مدى تقديرها لكل ما بذله نحو فاروق ولتطلب منه أن يستمر فـــي موالاته بالعناية والإرشاد. رأنها استبقته مدةً تبادله حديثـــاً كله عطفٌ ومودةٌ، وقد بات ليلته سعيدًا متأثرًا بما أبداه الملك الشاب من تقدير فـــي الكلمات التي قدمه بها إلى والدته، حيث ذكر أنه رأى من أول واجباته أن يقدم لها الرجل الذي أحاطه بكل إخلاصٍ وعناية. كما أن الملكة أغدقت عليه كلمات الثناء والتقدير مما جعله يشعر ببالغ التأثر، فهنأته بما حدث ووجدت أن يكون ذلك باعثـــاً على اطمئنانه إزاء ما كان يخشاه من احتمالات تصرفات الأمير محمد علي رئيس مجلس الوصاية معه، فإنه سوف يجد من عطف الملكة الوالدة حليفـــاً ينصره عند اللزوم"249.

ولما كان من شأن مهمة رائد الملك أن تظل قائمةً إلى حين تولي الملك سلطاته الدستورية – وقد نودي به ملكـــاً فـــي 29 يوليو 1937 بعد أن تم حساب عمره بالتقويم الهجري بناء على فتوى من الشيخ مصطفى المراغي شيخ الأزهر– فإن حسنين استمر فـــي عمله فـــي تلك الفترة، ولذلك كان يلازم القصر طوال النهار. وكان

249 د. حسين حسني، مرجع سابق، ص 76.

فاروق فـــي هذه السن الصغيرة فـــي حاجة إلى من يوجهه ويلهمه سداد الرأي وحُسن السياسة، وهذا ما انفرد به حسنين باشا.

حرص أحمد حسنين على إضفاء طابع ديني على الملك الشاب، فقد أيد اقتراحـــاً بأن يتم الاحتفال بتولي فاروق سلطاته الدستورية فـــي احتفال ديني، الأمر الذي رفضته حكومة الوفد برئاسة مصطفى النحاس باشا ونظرت إليه على أنه محاولة لانتحال الملك صلاحيات دينية تزيد من سلطات القصر الأوتوقراطية. كما اقترح أحمد حسنين على فاروق أن يستهل عهده بأداء صلاة الجمعة فـــي مساجد مختلفة، على أن يبدأ بأداء صلاة أول جمعة بعد وصوله فـــي مسجد الرفاعي حيث دُفِنَ والده وجده لزيارة المقبرتين فـــي أعقاب الصلاة. وقد تم ذلك فـــي موكب حافلٍ على النسق التقليدي القديم، أي بمركبة تجرها الخيل ويحفها فرسان الحرس الملكي. وكان لظهور موكب الملك على هذا النحو أثرٌ عميق فـــي نفوس العامة، حتى أطلق الشعب على الملك الشاب لقب "الملك الصالح".

فـــي المقابل، بدأ حسنين خطته وخطواته للوصول إلى قلب الملكة نازلي.

وبعد انقضاء يوم الأربعين لوفاة الملك فؤاد، انتقلت الأسرة الملكية إلى الإسكندرية كعادتها سنويـــاً، إلا أنه طرأ فـــي تلك السنة أمرٌ جديد لم يسبق حدوثه من قبل، وهو نزول حسنين فـــي المبنى الرئيسي لقصر المنتزه، المعد لنزول أفراد الأسرة الملكية، على الرغم من وجود مبنى مستقل فـــي احد أركان الحديقة لنزول من تُحتِمُ الظروف مبيته بالقصر من رجال الحاشية. وقيل فـــي تعليل ذلك إن

واجبات رائد الملك نحو القيام بمهمته على الوجه الأكمل لضمان انتظام الملك فاروق فـــي دراسته وانتظام تنفيذ البرنامج الموضوع له، تقتضي وجود الرائد إلى جانبه فـــي كل لحظة، ما يستدعي ملازمته له فـــي الإقامة كما كانت الحال فـــي إنجلترا.

وبعد رحلة إلى أقاليم الصعيد لمشاهدة آثار مصر الكبرى، رافقته فيها الملكة نازلي وشقيقاته الأميرات والحاشية التي تضم حسنين باشا، رُئي أن يقوم الملك الشاب برحلة طويلة إلى أوروبا لعل الرحلة تزيد فـــي تجاربه ومعلوماته، خصوصـــاً أنه لم يكمل دراسته ولا يملك من خبرات الحياة الكثير.

وتقرر مجددًا أن تصحبه أمه نازلي وشقيقاته فوزية وفايزة وفايقة وفتحية، وحاشية تضم الرائد حسنين باشا. وتحدد يوم 27 فبراير 1937 للسفر من بورسعيد على ظهر الباخرة الإنجليزية "فايسروي أوف إنديا" RMS Viceroy of India باتجاه مرسيليا، ومنها إلى سويسرا لزيارة معالمها الكبرى فـــي سان موريتز ثم جنيف وبرن وزيوريخ، على أن يكون السفر منها إلى إنجلترا رأســـاً ثم تكون العودة عن طريق فرنسا لزيارة باريس وفيشي، لملاءمة مياهها المعدنية لصحة الملكة نازلي.

واندلعت الثورة فـــي منزل أحمد محمد حسنين.

فقد ترامت إلى سمع زوجته لطفية هانم إشاعات وأقاويل عما بين الملكة نازلي وأحمد حسنين. فطلبت لطفية من حسنين أن تسافر معه فـــي هذه الرحلة. فوعدها بعرض الأمر على فاروق. غير أنه عرض الأمر على نازلي [illegible] قطعيـــا وعاد حسنين وأبلغ زوجته أن

الملك لا يوافق على سفرها؛ لأن الرحلة شبه رسمية ولا مكان فيها لزوجات الموظفين من رجال الحاشية.. لكن لطفية هانم ابنة الأميرة شويكار لم تقتنع بالأمر، وأخذت تسأل وتستقصي إلى أن علمت بأن زوجها لم يحدث فاروق في الموضوع، وإنما عرض الأمر على الملكة نازلي. زادت شكوك لطفية هانم، وعلا الصراخ والبكاء في منزل أحمد حسنين، وانفجر بركان غضب الزوجة.

ويبدو أن حُبَّ أحمد حسنين للمجد تغلب على حُبِّه لزوجته؛ لذا فقد أراد لخطته النجاح حتى لو كان ثمن ذلك غضب الزوجة التي تعد حفيدة محمد علي. ولكي تنجح الخطة كان ضروريًا أن تبقى لطفية هانم خارج الصورة وبعيدًا عن الرحلة، لضمان السيطرة على الملك فاروق عن طريق أمه الملكة نازلي.

بعد أيامٍ من انطلاق الرحلة التي استمرت نحو خمسة شهور، كان أحد رجال الحاشية يتنقل في سيره بين أركان السفينة على سبيل الرياضة، إلى أن ساقته قدماه إلى السطح الأعلى حيث توجد قوارب الإنقاذ، وإذا به يُفاجأ بحسنين باشا جالسًا على إحدى الأرائك الخشبية وإلى جانبه الملكة نازلي في حالة استرخاء لا تكون إلا بين من رُفِعَت بينهم كل كلفة. انزعج رجل الحاشية لما رأى وعاد مسرعًا إلى غرفته. في صباح اليوم التالي دعاه حسنين باشا إلى غرفته، ثم قال له: هل تعرف الحكمة التي يشير إليها تمثال القرود الثلاثة؟ تظاهر الرجل بعدم المعرفة، فقال له حسنين: إن التمثال يبدو فيه قردٌ وضع يديه على أذنيه أي أنه لا يسمع، والثاني وضع يديه على عينيه أي أنه لا يرى، والثالث وضع يده على فمه أي أنه لا

يتكلم، والتمثال فـــي جملته يتخذ رمزًا لما يجب أن يكون عليه رجل الحاشية من بطانة الملوك، فأرجو أن تعي ذلك. انصرف الرجل وقد وعى تمامـــاً ما سمعه، وإن بقي يشعر بالدهشة لما سمع وأكثر دهشة لما رآه فـــي الليلة السابقة!

وذهب الرجل إلى د. حسين حسني ليستنجد برأيه ويشاركه ما يثقل كاهله من الفزع والصدمة.

ويحكي التابعي الذي كان الصحفـــي الوحيد الذي رافق تلك الرحلة الملكية فـــي أوروبا -كيف وجد ذات مساء على سطح السفينة الملكة نازلي وأحمد حسنين مستندين فـــي الظلام إلى حاجز الباخرة، فيقول: "لا شيء عجيب أو مريب فـــي هذا كله.. فقط!

"فقط كانت الملكة تتكئ على حاجز السفينة.. وكانت يد حسنين تتكئ على كتفها!

"وكانت هذه أول "علامةٍ" أكدت عندي صدق الإشاعات"250.

لقد كان أقرب شخصين إلى نفس فاروق، يتقاربان ويتآلفان عاطفيـــاً من وراء ظهر الملك الشاب، ليصنعا جانبـــاً من مأساته الشخصية.

وفـــي سان موريتز، نزل أفراد الرحلة فـــي فندق "سوفريتا" المطل علي بحيرة. ولفت انتباه رجال الحاشية وقتذاك أنه فـــي تخصيص الحجرات المحجوزة للأسرة المالكة والحاشية، كان جناح

---

250 محمد التابعي، مرجع سابق، ص 43.

حسنين باشا يقع بين جناحي الملك فاروق والملكة نازلي بحيث إن حجرة نومه كانت ملاصقةً لحجرة الملك وحجرة الجلوس كانت ملاصقةً لجناح الملكة نازلي.. ولكن يبدو أن حسنين أحس بما أثاره هذا الاختيار من تساؤلات، فلم يعد إلى اختيار مثل هذا الموقع في الفنادق الأخرى التي نزل بها المشاركون في الرحلة.

على أن حسنين اضطر إلى التشدد مع نازلي حين سرت تعليقات بشأن إصرارها على ممارسة رياضة التزلج في سان موريتز بمساعدة مدرب يمسك بذراعها ويحيط خصرها بيده، وهي التي لم تمارس تلك الرياضة من قبل. وقف حسنين يراقب الموقف، فلما أقبلت قال لها: "لا.. لا.. مش كده يا ست!.. مش كده أبدًا.. بكره راح نسمع كلام فارغ كثير بسببك!". ولم تزد هي عن أن تبتسم في وجهه وهي تصعد إليه درجات السلم الخشبي الموصل بين الشرفة وساحة التزلج بالفندق.. حتى إذا وصلت أخذت بذراعه وهي تقول: "طيب خلاص.. مرة وفاتت!".

وتأمل الكثيرون في دهشة خضوع الملكة لموظف القصر.

كما أنها في المساء كانت حريصةً على الرقص، غالبًا بمصاحبة حسنين وأحيانًا برفقة سواه، وكان حسنين يبدي ضيقه بذلك ويحاول إقناعها بالاكتفاء بمراقبة الراقصين، لكنها كانت تنفذ إرادتها في أغلب الأحيان.

وصلت أخبار نازلي إلى مصر، فاشتعل الموقف.

ففـــي أعقاب وصول الرحلة الملكية إلى جنيف ونزول أفرادها فـــي فندق يطل على بحيرة، ورد إلى حسنين باشا خطابٌ شديد اللهجة من الأمير محمد علي ينتقد فيه ما صدر من الملكة نازلي من تصرفاتٍ تُعَدُ خارجة عن التقاليد الشرقية، ونال حسنين باشا لومٌ قاسٍ بعد أن اتهمه الأمير محمد علي بالتهاون فـــي الأمر. وعندما أطلع حسنين الملكة نازلي على فحوى الخطاب لم تعبأ بما جاء فيه، وصارحته بأنها لن تصنع سوى ما يروقها، قائلةً: "كفاية بأه.. كفاية سبعتاشر سنة وأنا محبوسة! خدوا الكورونا (أي التاج) من على رأسي.. مش عايزاها". ثم انطلقت تسب الأزهر والأزهريين الذين تظاهروا احتجاجـــا على صورٍ منشورة لها أثناء الرحلة وهي تتزحلق على الجليد، وأخذت تدعو الله أن يصيب "البرنس" محمد علي بكذا وكذا وكيت!

غضبت الملكة نازلي ولزمت جناحها الخاص، وفـــي المقابل اعتكف أحمد حسنين فـــي حجرته لمدة يومين، وأبلغ د. حسين حسني بأنه لا يرى أمامه سوى الاستقالة، ولكنه يخشى نتيجة ما قد يحدثه هذا القرار من ارتباك، خصوصـــاً أن الملك وأسرته موجودون بعيدًا عن الوطن؛ ولذلك فهو فـــي حيرةٍ من أمره وما زال يفكر فيما يحسن عمله. وانتهى إلى إرسال خطابٍ إلى الأمير محمد علي يعتذر فيه ويخفف من غضبه ومن شأن ما وصل إليه من أنباء، ويعد ببذل قصارى جهده فـــي هذا الأمر.

غير أن الملكة نازلي لم تُقِم وزنـــاً لغضب الأمير، وظلت تخرج إلى الملاهي الليلية وفـــي صحبتها حسنين باشا، وواصلت عدم مبالاتها

بالمواعيد المقررة للقيام بالرحلات التي جرى إعدادها لزيارة بعض المعالم هنا وهناك. وفـــي باريس، تكررت الحكاية نفسها، وغضب البعض من قرار نزول الملك فاروق وأمه الملكة نازلي وحاشيتهما الخاصة وحسنين باشا فـــي فندق "ريتز" ونزول باقي الحاشية الرسمية فـــي فندق آخر مجاور.

الشاهد أن الملكة نازلي كانت أحد أسباب تصدع الملكية فـــي مصر وسقوطها بعد ذلك، فهي لم تكن حريصة على عرش ابنها ومستقبله بقدر حرصها على الانطلاق، وتحقيق ما تصبو إليه، وأن تعيش حياها بعيدًا عن قيود القصور، وتعوض أيام القسوة والكبت والحرمان التي عاشتها فـــي كنف زوجها الملك فؤاد.

أما حسنين، فقد أشعل النار، وطحن البن، ثم وضعه على نار هادئة كأي بدوي يتقن لعبة الوقت. وكان حسنين يتعمد أن يثير غيرة نازلي عليه فـــي بعض الظروف ويحرص على التودد فـــي حضورها إلى الفتيات الجميلات، فـــي حين كانت الملكة تبدي ضيقها، وتنقر أحيانـــًا بأصابعها على المائدة الصغيرة أو على ذراعي المقعد بغضب وعصبية.

وذات مرة، كان أحمد حسنين يتودد إلى فتاة ألمانية تدعى جوي غيغل، وكانت معدودة يومئذٍ من أبطال التنس في بلادها، وطالت جلسة حسنين مع الفتاة طويلة القامة هيفاء العود، فإذا بالملكة نازلي تنتفض وقفة وتنادي بصوتٍ ينم عن الغضب:

حسنين.

أرخى حسنين على الفور ذراعه التي كانت تطوق خصر الفتاة وأسرع إلى الملكة نازلي:

أفندم ماجستيه.

(أي أفندم يا صاحبة الجلالة)، وخرجت "ماجستيه" من القاعة، ووراءها أحمد حسنين، في حين تبادل الحضور من الوفد المصري المرافق النظرات[251].

لم يكن حسنين يحبُّ نازلي، ولكنه كان حريصــًا على أن تحبَّه هي، اعتمادًا على مقولة "إن الأقوى بين كل محبين اثنين هو الذي حُبُّه أقل من صاحبه". وكان يمارس بذكاء لعبة ترويض النمرة، فإذا أحس أنها توشك أن تنفجر.. أرخى قبضة يده قليلاً، قبل أن يعاود جمع الزمام فـــي قبضة يده القوية.

وها نحن نرى محمد التابعي يصور حياتها عندما ذهبت إلى باريس فـــي صحبة الملك الشاب، حيث بدأت تسير على هواها.

يقول التابعي: "بدت على جلالتها أعراض التصابي!.. فقد انطلقت تزور صالونات التجميل وصبغ الشعر، تجرب كل يومين تقريبــًا صبغة جديدة، ولونــًا جديدًا لشعرها الذي كانت قد بدأت تظهر فيه شعرات بيضاء!

---

251 المرجع نفسه.

"ولاحظنا أن حسنين بدأ يقتصد إلى حد ما فـــي "إخلاصه وتفانيه" فـــي خدمة الملكة نازلي والسير فـــي ركابها، حيث تريد ف كل ساعةٍ من ساعات الليل والنهار.

"وهكذا أصبحنا نراه بي ' –ومعنا– أكثر من أي وقت مضى فـــي الرحلة..

"لماذا؟ هل كان يخشى افتضاح علاقته بالملكة الوالدة.. وأن يسمع ابنها أو يلاحظ شيئـــًا مريبـــًا على أمه ورائده الأمين؟

"أم ترى حسنين قد رأى أن الوقت قد حان لكي ينتقل من الفصل الأول إلى الفصل الثاني.. أي من إظهار الحب والتفاني.. إلى إظهار (التقل) والتحفظ والبرود؟.. وهي السياسة التي كان حسنين –رحمه الله– يجيد تطبيقها كل الإجادة مع هذا الصنف من النساء؟ النساء اللاتي جاوزن مرحلة الشباب وأخذن فـــي استقبال شمس المغيب؟

"وهذا الفصل الثاني – فصل "التُقل" والتحفظ والبرود– يزيد الوجد والشوق، ويشعل فـــي صدر المرأة نارًا فوق نار!.. نار تأكل ما بقي للمرأة من عزة وكبرياء.. حتى إذا عاد إليها الرجل أسلمته قيادها فـــي خضوع واستسلام؟ هذا هو الرأي الأرجح"252.

ولعل الملكة الجامحة لم يكن يوقفها شيء؛ إذ أخذت تنفق مبالغ طائلة على شراء المجوهرات، حتى أن صحيفة "لو فيغارو" أشارت فـــي عددها الصادر فـــي 25 مارس عام 1937 إلى فاتورة

252 المرجع نفسه، ص 76– 77.

المجوهرات التي دفعتها الملكة لمحل المجوهرات العريق Van Cleef & Arpels "فان كليف آند آربلز" والتي بلغت ما يعادل 250 ألف جنيه إسترليني، قيمة شراء بعض الحليّ والمجوهرات لها ولبناتها.

وبعد العودة إلى إنجلترا بمدة وجيزة، قالت الملكة نازلي إنها تجد مشقة في الذهاب إلى لندن والعودة منها، وطلبت أن تقيم في لندن أثناء الرحلة؛ لأن المسافة كانت طويلة بين كنري هاوس والمدينة وهي لا تكف عن السهر كل ليلة في أحد الفنادق الكبرى أو الملاهي الليلية وفي صحبتها حسنين باشا ووصيفة الشرف زينب هانم.

اتجه الرأي إلى نزول نازلي في جناح بالمفوضية المصرية ورحب بذلك الوزير المفوض حافظ عفيفي باشا. وفي مساء يوم انتقالها إلى المفوضية فوجئ حسين حسني بطلبها أن يكون في صحبتها لدى الخروج مع وصيفة الشرف؛ بسبب غضبها على حسنين باشا الذي تباطأ في الاستعداد للخروج. وإذا كان حسنين باشا قد أقام في كنري هاوس، فإنه كان كثير الغياب ليكون في خدمة الملكة نازلي.

وعندما وصل مراد محسن باشا ناظر الخاصة الملكية إلى فيشي على متن طائرة خاصة موفدًا من الحكومة -بموافقة مجلس الوصاية- لمناقشة برنامج الاحتفال بتولي الملك سلطاته الدستورية، أخذ يستفسر من رجال الحاشية عن حقيقة ما تفيض به أركان مجتمع القاهرة من أحاديث عن ألسنة المصريين العائدين من أوروبا، عن علاقة غير عادية لاحظها كثيرون بين الملكة نازلي وحسنين، وأنهما يتلازمان في

الملاهي الليلية وفـــي كل مكان. لم يستطع رجال الحاشية أن يكتموا عن مراد باشا ما يشعرون به من الضيق وخيبة الأمل إزاء ما جرى ويجري بين أم الملك ورائده، وطلبوا إليه أن يحاول إن استطاع أن يصلح الأمور ويوقف تيار الانهيار.

غير أن هذا الرجاء أتى بعد فوات الأوان.

ظل أحمد حسنين هو المستشار والأب البديل لفاروق، الذي عاش الكثير من التناقضات فـــي حياته.

ففـــي أثناء الرحلة الملكية، نمت مشاعر الحُبِّ بين فاروق وصافيناز التي أصبحت فيما بعد الملكة فريدة ووقعت بينهما الخلافات التي قد تقع عادةً بين متحابين فـــي سن الشباب. وذات مرة نشب بينهما خلافٌ، وعندما دخل د. حسين حسني عليه وجد أحمد حسنين باشا يحاول تهدئة خاطره، فقال له: "لا تفكر ولا تشغل بالك، فالفتيات كثيرات، وعند عودتنا إلى مصر سوف نقدم لك بدلاً من فتاةٍ واحدة عشر فتيات، بل عشرين فتاةً إن أردت..". هنا تدخل حسين حسني قائلاً: "ماذا تقول يا باشا.. حرام عليك.. لا تستمع يا مولانا إلى كلمة واحدة من هذا الكلام؛ فإن الفتاة التي تحبها تبادلك نفس الإخلاص وهي تتمتع بكل الصفات التي تستوجب الإعجاب والاحترام وتليق بملكة..". وعندما سمع الملك هذه الكلمات انفجر باكيـــاً، فمال عليه حسنين يربت على كتفه ويرجوه أن يتمالك نفسه، وقال لحسين حسني: يكفـــي ما قلته، ويحسن الخروج الآن لنتركه يستعيد هدوءه.

وبعد قليل، إذا بالملك يدعو حسين حسني للخروج معه قائلاً: "هيا لشراء هدية لـــ"فافيت": (وهو اسم التدليل لصافيناز)، وحرص على أن تكون الهدية غالية الثمن لا تقل عن قلادةٍ من الألماس253.

وفـــي الليلة التي سبقت عودة الملك من رحلته الطويلة إلى أوروبا عام 1937 تحدث فاروق مع كل د. حسين حسني وعلي رشيد بك بشأن مشكلة تعيين رئيس للديوان الملكي. ثم فاجأهما بالقول: "إن حسنين طبعــًا يطمع فـــي أن يقع عليه الاختيار، ولكن ذلك لن يكون أبدًا"254.

غير أن المنصب جاء إلى حسنين باشا بعد ذلك بسنواتٍ قلائل على طبقٍ من ذهب.

253 المرجع نفسه.

254 المرجع نفسه.

3

حسنين وفاروق:
الباشا يقفز من فوق السور

حينما ينحسر المد نعرف من كان يسبح عاريـًا.

ولقد نجح أحمد حسنين فـي السباحة فـي بحر السياسة وإدارة لعبة القصور، من دون أن يغرق أو يجرفه التيار الهادر بعيدًا عن مركز الحُكم.

حدث هذا رغم سخط كثيرين وانزعاجهم من الأخبار المتداولة عن التقارب العاطفي بين الملكة نازلي وأحمد حسنين خلال الرحلة الأوروبية الطويلة، حتى أن مصطفى النحاس كتب في مذكراته بتاريخ 16 مارس 1937 يقول:

"بدأ الذين عادوا من أوروبا يهمسون بأن الملكة نازلي تحررت أكثر من اللازم، وأنها تحضر حفلات ماجنة. وأن أحمد حسنين يأخذ فاروق إلى بعض الكباريهات ويصحب الملكة إلى حفلات غير لائقة.

"خاطبني الأمير محمد علي بهذا الخصوص. وقال: هذه فرصة نرفع فيها سن الرشد ونترك الملك يقيم في إنجلترا حتى ينضج، وقبل أن يستفحل الخطب، فرفضت مرة أخرى هذا الإجراء للأسباب التي سبق أن أقنعت بها نفسي، وقلت: ليس في الشر خيار"255.

تمكن حسنين، إذًا، من أن يجعل من الملكة نازلي رهن إشارة من إصبعه، حتى أنه طلّقَ زوجتَه وأم أولاده فور عودتِه من الرحلة الملكية فـــي ربوع أوروبا، وتفرغ للسيطرة على الملك والقصر من خلال حُبِّ الملكة نازلي له.

وحين سُئِلَ حسنين عن سبب الطلاق، رد بالقول إنه لم يكن هناك من مفر من ذلك إزاء ما واجهته به لطفية هانم من الطعن والتجريح، فضلاً عن أنها أطلقت لسانها فـــي كل مكانٍ بالطعن فـــي الملك والملكة نازلي، فكان الطلاق هو الرد الوحيد؛ لأنه إذا احتمل مطاعنها فيه شخصيـــاً فإنه لا يستطيع السكوت على ما يمس شخص الملك وأسرته.

وفـــي خضم غضب لطفية هانم وغيرتها على زوجها، عمدت إلى طبع آلاف النسخ من أزجال تلمح إلى الملكة نازلي زوجة أحمد فؤاد وابنهما فاروق، كان بيرم التونسي قد نظمها وتغنى بها الشعب إبان ثورة 1919، وتعرض لاحقـــاً للنفـــي خارج البلاد بسببها. طبعت لطفية هانم بضعة آلاف نسخة من الأزجال المذكورة فـــي شكل

---

255 مصطفى النحاس، مذكرات مصطفى النحاس: ربع قرن من السياسة في مصر 1927– 1952، دراسة وتحقيق أحمد عز الدين، دار العصور الجديدة، القاهرة، 2000.

نشرةٍ صغيرة. وعملت على توزيعها يوم عودة فاروق وأمه نازلي من رحلتهما إلى أوروبا.

يقول بيرم فـــي أحد تلك الأزجال:

"مرمر زماني يا زماني مرد

البنت ماشية من زمن تتمخطر

والغفلة زارعة فـــي الديوان قرع أخضر

يا راكب الفيتون وقلبك حامي

اسبق على القبة وطير قدامي

تلقى العروسة زي محمل شامي

وأبوها يشبه فـــي الشوارب عنتر

وحط زهر الفل فوقها وفوقك

وهات لها شبشب يكون على ذوقك

ونزل النونو القديم من طوقك

يطلع فـــي طوعك لا الولد يتكبر

ويوم ما يترل فـــي الجاكتة الكاكي

وستة خيل والقمشجي الملاكي

تسمع قولتها.. .. .. .. يا وِراكي

العافية هبلة والولد متشطر

الوزة من قبل الفرح مدبوحة

والعطفة من قبل النظام مفتوحة

ولما جت تتجوز المفضوحة

قلت اسكتوا خلوا البنات تتستر"256

والإشارات والتلميحات مفهومة، فالبنت هي نازلي، والغفلة هو أحمد فؤاد وكانت شواربه مبرومة مدببة الأطراف. وأما النونو القديم، والعطفة، والوزة، فأمرها متروك إلى ذكاء القارئ.

لم يلبث بيرم التونسي أن كتب زجلاً آخر أكثر جرأة بعد أن أعلن عن مولد فاروق فـي 11 نوفمبر عام 1920، ولم يكن قد مضى على زواج فؤاد بزوجته الثانية نازلي إلا قرابة سبعة أشهر، حتى أشيع أن الحمل فـي فاروق حدث قبل عقد القران - فكان الزجل الذي كتبه بعنوان "البامية الملوكي.. والقرع السلطاني"، وجاء فيه:

"البامية فـي البستان هز القرون

وجنبها القرع الملوكي اللطيف

والديدبان يرمح يجيب الزبون

وربة الجارية تجيب الرغيف

شوف الميراث حصل ولاد البطون

ودخل الأغراب "فاميلية" علي

. .. .

يا باديشاه دنت ابنك ظهر

ربك يبارك لك فـي عمر الغلام

256 بيرم التونسي، المجموعة الكاملة لشاعر الشعب، مكتبة مصر، القاهرة، 2005.

نزل يلعلط تحت برج الحمام

يا خسارة بس الشهر كان مش تمام"257

وكان أحمد فؤاد قبل اعتلائه العرش يقيم فـي قصر اسمه قصر البستان. و"فاميلية علي"، ي أسرة محمد علي. و"باديشاه" كلمة فارسية أو تركية ومعناها سلطان. و"الشهر كان مش تمام" تلميح إلى إنجاب فاروق قبل مضي تسعة أشهر على الزواج.

وكان أحمد حسنين يعتقد أن ناظر الخاصة الملكية مراد محسن باشا هو المسؤول عن إبلاغ زوجته ما أثارها عندما عاد من رحلته إلى فيشي، فقال لصديقه التابعي: "كتر خيره مراد باشا، عمل الواجب وزيادة"!.. غير أن هناك من يؤكد أن مراد باشا حين حضر إلى فيشي، أخذ يسأل أفراد الحاشية عن حقيقة الشائعات التي ملأت القاهرة عن العلاقة بين حسنين باشا والملكة نازلي258.

فـي ظل هذه المواجهة المحتدمة، استدعى فاروق أحمد حسنين ليقول له: "مراتك اتجننت يا حسنين؟.. شوف لك طريقة معاها.. وبسرعة". غير أن لطفية هانم رفضت الاعتذار للملكة نازلي، وتطورت الأمور لتصل إلى وضع مستحيل بينها وبين حسنين، الذي طلقها فـي نهاية الأمر.

المفارقة هنا أن طلاق أحمد حسنين باشا بدا مبررًا له كي يعود إلى الإقامة مؤقتـًا فـي القصر الملكي إلى أن يجدَ مسكنـًا ملائمـًا.

---

257 المرجع نفسه.

258 د. حسين حسني، مرجع سابق، ص 111.

وعلى ذلك فإنه عند انتقال البلاط الملكي إلى الإسكندرية بعد حفلات تولية فاروق ملكـــًا، عاد أحمد حسنين باشا إلى جناحه بقصر المنتزه حيث كان يقيم منذ عودة الملك من إنجلترا بوصفه الرائد المشرف على شؤون دراسة الملك الشاب.

إلا أن الهمسَ تردد والتساؤلات أثيرت بين جنباتِ القصر، فـــي ظل إقامة حسنين بالقصر الكبير فـــي المنتزه، بالرغم من وجود جناحٍ فـــي ناحيةٍ أخرى من الحديقة كان مخصصـــًا لنزول رجال الحاشية الذين تقضي الضرورة مبيتهم بالقصر، علمـــًا بأن حسنين باشا كانت قد زالت عنه صفة الرائد ولم يعد له سوى مركز الأمين الأول للملك. وما زاد الأمر تعقيدًا هو أن أحمد حسنين كان يستقبل أصدقاءه وبينهم عددٌ من رجال الأحزاب المعارضة، الأمر الذي أثار استياءَ وتساؤلَ الحكومة وأنصارها.

لم تكن الملكة نازلي غائبة عن الصورة المعقدة.

فقد دأبت نازلي على الخروج مع أحمد حسنين وارتياد الأماكن العامة. بل إن الكاتب الصحفـــي محمد التابعي اتصل فـــي إحدى المرات بالسكرتير الخاص للملك فاروق وطلب منه أن ينصح أحمد حسنين بمراعاة الابتعاد عن الظهور فـــي صحبة الملكة نازلي فـــي الأماكن العامة التي يراهما فيها كثيرون؛ إذ شاهدهما يجلسان فـــي سيارة فـــي الشارع الصغير الواقع خلف مقهى "التريانون" يراقبان خلال النافذة المطلة على ذلك الشارع ما يُعرَضُ فـــي ذلك المقهى من فقرات الترفيه من رقصٍ وغناء.

وقال التابعي إن ذلك من شأنه أن يثير من اللغط ما يسيء إلى سمعة وكرامة الأسرة المالكة وهو ما يجب تفاديه على أية صورة. وأضاف التابعي أن ما دعاه إلى التنبيه إلى ذلك هو إخلاصه للملك، مشيرًا إلى أنه لم ير أن في استطاعته الاتصال بحسنين مباشرة في ذلك الشأن نظرًا إلى ما فيه من إحراجٍ وحساسية. وطلب التابعي عدم ذكر اسمه نهائيـًا خوفـًا من أن يكون سواه قد رآهما وأن يذيع الخبر فيتجه الظنُ إلى أنه هو مصدرُ إشاعته.

وبطريقةٍ غير مباشرة، أثار السكرتير الخاص للملك فاروق الموضوع معَ أحمد حسنين، فقال له إنه يبدو أن تردد بعض أصدقائه عليه في القصر من رجال المعارضة السياسيين قد أصبح يثيرُ التساؤلَ حول مدى مشاركة الملك في تلك اللقاءات، ونَصحَه بأن يجعل مثل تلك المقابلات في مكتبه الرسمي بالقصر تجنبـًا لإثارةِ قلق الحكومة. وأشار إلى أنه من الأفضل أن يسرع حسنين باشا باختيار مسكن له حتى يقطع أسباب القيل والقال. فما كان من أحمد حسنين إلا أن قال وابتسامةٌ ساخرة على وجهه إنه يعلم أن إقامته في القصر تسوء كثيرين ولكنه لن يشفي غليلهم وسيظل مقيمـًا بالقصر ليموتوا بغيظهم، فأدركَ محدثه من لهجته وابتسامته أنه يعنيه شخصيـًا بكلامه.

إلا أن الأحداثَ أخذت منحىً آخر، بعد أن بدأ فاروق ينتبه إلى ما يدور حوله.

وبعد أيام قلائل من المصارحة السابق ذكرها، فوجئ د. حسين حسني بالملك يقول له فـــي نهاية مقابلته له: "صاحبك مستني إيه هنا، قل له يعزل بقى، وأنا عاوزك تبلغه أنه يخرج حالاً وتعرفني النتيجة فـــي أقرب فرصة". وحينما ذكر له سكرتيره الخاص أنه ربما كانت ظروف حسنين الخاصة هي التي استدعت عودته إلى الإقامة بالقصر، قال: إنه كان يقيم بصفته رائدًا ولكن لا مبرر لذلك الآن، وعليه أن يدبر شؤونه ويترك القصر. وبدا أن فاروق يفضل أن يفعل حسنين ذلك -أي الخروج من القصر- من تلقاء نفسه، ولهذا كان يرى أن يتم نصحه بالخروج[259].

وربما كانت العلاقة بين فاروق ورائده فـــي وقت سابق هي السبب فـــي حرص الملك الشاب على تجنب المواجهة مع حسنين وإثارة الموضوع بشكل مباشر.

حاول د. حسين حسني إثارة الموضوع من جديد مع حسنين باشا، فرد عليه فـــي غضب قائلاً إنه يعلم أن هناك أشخاصـــاً يسوؤهم وجوده فـــي القصر ولكنه لن يخضع لرغبتهم ولن يريح بالهم. وعندما سأله الملك عما جرى بينه وبين حسنين، اقترح د. حسني على فاروق إمهال أحمد حسنين تجنبـــاً للإحراج، ولو اقتضى الأمر الانتظار إلى حين العودة إلى القاهرة فـــي نهاية الصيف، لعله يرى فـــي ذلك فرصةً للخروج محتفظـــاً بكرامته، فوافق الملك على هذا الاقتراح.

وربما يسأل سائل، كيف سكت فاروق على علاقة حسنين بأمه؟!

---

259 المرجع نفسه.

لعل أحد التبريرات المطروحة هو ما أورده المستشار الصحفــي لفاروق فــي مذكراته؛ إذ يقول كريم ثابت:

"والرد على ذلك أنه سكت عليها فــي بادئ الأمر مُكرهــًا.. سكت عليها مكرهــًا؛ لأنه أمه؛ ولأنه كان يخاف منها؛ ولأنه كان يعرف حدة طبعها وتطرف نزواها، فخاف أن يستفزها خشية أن تثير فضيحةً علنية يستغلها الوفد، ويستغلها كيلرن، ويستغلها خصومه جميعــًا فسكت عليها صاغرًا!

"هذا فــي البداية..

"أما فيما بعد فقد لاحظ فاروق أن أمه ورائده يقللان من ملاحظاقما على بعض أعماله وتصرفاته، وأنهما لأجل ضمان رضائه وعدم إغضابه يغضان الطرف عن نزواته ومغامراته، فأخذ يتغاضى عن غرامهما من جهته، وكانت أخبار هذا الغرام بلغه تباعــًا من بعض خدمه وصديقاته..

"وساد بينهما مبدأ المثل العامي القائل "شيّلني وأشيّلك"!"260.

وهكذا يقول أصحاب هذه النظرية إن فاروق اشترى سكوت نازلي وحسنين على مسلكه بسكوته على علاقتهما، فــي حين اشترى الرائد والأم سكوته على غرامهما بسكوقما على حياته الخاصة!

---

260 كريم ثابت، نهاية الملكية.. مذكرات كريم ثابت: عشر سنوات مع فاروق: 1942 -1952، دار الشروق، القاهرة، 2000، ص 86.

فـــي هذه الأثناء، تحدث مراد محسن باشا ناظر الخاصة الملكية مع التابعي يوم الجمعة الموافق 5 يوليو 1940 عن طبيعة علاقة نازلي وأحمد حسنين، فقال: "إن حسنين باشا أخطر رجل فـــي مصر، وهو ممثل يجيد التمثيل خيرًا من يوسف وهبي، وأنا لا أنسى يوم جاءتني الملكة نازلي تقول إنها تحب أحمد حسنين ولا تستطيع الحياة بدونه وإنها تعسة؛ لأن حسنين صارحها بأنه لا يستطيع أن يقربها؛ لأنه لا يحبُّ الحرام. ثم قالت الملكة نازلي إنها كانت أوفدت إلى حسنين إحدى وصيفاتها.. أوفدتها إلى حسنين لتسأله عن سر بروده مع صاحبة الجلالة فقال لها إنه يتعذب وإنه يمسك بعواطفه؛ لأنه يحبُّها –أي يحبُّ الملكة نازلي– ولكنه لا يستطيع أن يفعل شيئًا يُغضب الله.. وانطلقت الملكة نازلي فـــي شكواها لمراد محسن باشا تقول:

"– يعني أعمل إيه أنا؟.. لا هو يسمح لي أن أعرف رجلاً سواه.. ولا هو يريد أن "يأخذني"!.. لا عاوز يرحم ولا يخلي رحمة ربنا تنزل!"[261].

ولأن أحمد حسنين لم يكن فـــي حياته الخاصة قديســـًا، فإن البعض استنتج أنه يتلاعب بنازلي التي ازداد وجدها وتضاعف هواها وحبها له، فها هو رجل يجد ملكة بين يديه ويرفض أن يقربها إلا فـــي الحلال.

وذات يومٍ قالت له: أنا أعطيك إنذارًا نهائيـــًا، إما أن تعاملني كامرأة وإما سأقطع كل علاقة بيننا وأصبح حُرة أفعل ما أشاء".

---

261 محمد التابعي، مرجع سابق، ص 105.

أجاب حسنين قائلاً إنه لا يستطيع أن يقربها إلا إذا تزوجها على شرع الله وسنة رسوله.. ثم أسرع يقول: وغير معقول أن أتزوج الملكة.

وهنا صاحت الملكة نازلي:

طظ فـــي لقب الملكة!

ولكن حسنين قال:

معنى هذا أن جلالة الملك سيطردني وأنا أفقر من أن أستطيع العيش على معاشي؛ لأن الديون تأخذ جانبـــاً كبيرًا منه.

كانت إجابة الملكة نازلي حاضرة وجاهزة، فقد قالت له:

أنا مستعدة لأن أضع ثروتي كلها بين يديك.

قال:

ولكنني لا أستطيع أن أعيش على حساب زوجتي وسوف أشعر بمرارة أنك دفعت لي ثمن هذا الزواج.

وصاحت هي:

يعني عايزني أعمل إيه؟ زوجة.. لا! رفيقة.. لا!.. عاوزني أبقى إيه؟

قال حسنين:

عاوز ملكة!

قالت:

يعني قطعة جماد!.. طوب.. حجارة؟.. لا يا سيدي. أنا بني آدم.. أنا دم ولحم.. أنا حرمت من كل حياتي. عاوزه أعيش. سيبني أعيش.

قال حسنين:

أنا خايف على سمعتك وسمعة السراي، وإلا لتركتك تفعلين ما تشاءين.

وهنا انفجرت قائلة:

طيب!.. سأبهدل سمعة السراي!.. أنا أخذت إيه من السرايات.. غير المرض والبؤس والشقاء! أنا عشت تمنتاشر سنة في ثلاجة..

ولكن حسنين أصر أمامها على أنه يخشى الله ولا يستطيع أن يفعل شيئـــًا يغضب الله.

وهنا قالت الملكة نازلي:

إذًا، سأذهب إلى فاروق وأقول له إنني سأتزوجك.

قال حسنين:

اذهبي، ولكنه سيرفض.

وذهبت الملكة نازلي فعلاً إلى الملك فاروق.. وكانت مقابلة عاصفة، يروي تفاصيلها مراد محسن باشا. فقد قالت نازلي لابنها إنها تحِبُّ حسنين باشا وتريد أن تتزوجه.

وقال فاروق: رافقيه أحسن!

قالت: إنه يرفض أن يكون عشيق الملكة!

قال صاحب الجلالة:

سأصدر إليه أمرًا ملكيـًا بذلك!

ولعل فاروق كان يسخر من أمه.

وعلى كل حال فإنه لم يفاتح حسنين في هذا الموضوع. وكان طبيعيـًا أن يعتقد مراد محسن باشا أن الملك سوف يغضب ويحقد على حسنين ويطرده من السراي، لكن شيئـًا من هذا لم يحدث. ولعل فاروق آمن بإخلاص حسنين باشا وأن هذا الإخلاص هو الذي يحول بينه وبين أن تكون له بالملكة علاقة غير شريفة.

لكن العاصفة أخذت فـي التجمع منذرة بأزمة داخل القصر.

ففـي منزل عمر فتحي -الذي أصبح لاحقـًا كبير ياوران الملك- أخذ فاروق يسير فـي إحدى الحجرات ذهابـًا وإيابـًا بخطوات عصبية وقد بدا على وجهه الغم والتجهم، ثم قال أمام عمر فتحي وحسين حسني: "لم أعد أستطيع الصبر، لقد أوشكت على الجنون وأطلب منكما مشاركتي فـي التفكير، ماذا أصنعُ مع الملكة نازلي وحسنين، هل أقتلهما؟.. هل أرسلها إلى مستشفى المجانين؟.. أم هل أبعث به سفيرًا إلى اليابان؟.. لم أعد أطيق هذه الحالة".

أخذ الاثنان يخففان عن فاروق وتهدئة خاطره، مبينين له ما فـي السلوك العنيف من مخاطر وإثارة للفضائح. وسعى الرجلان إلى نُصح الملك الشاب بأن يحتفظ بالهدوء ويلجأ إلى الحكمة، لعله يمكن إيقاظ

الملكة نازلي من غفوتها وإرشادها إلى ما تفرضه عليها واجباتها كأرملة لملك وأم لملك وأميرات، أو لعل حسنين من جانبه يصحو ضميره.

بدا فاروق فـــي تلك الليلة كأنه وحشٌ ثائرٌ جريح وقد أُحكمَت حوله أسوار القفص، وهو لا يملك منها فكاكـــًا ولا حيلةً للهرب.

كان الجرح غائرًا فـــي نفسه. لقد وجد نفسه شاهدًا على علاقة تجمع بين أمه التي كان يخصها بالحُبِّ والعطف بعد طول إبعاده عنها إلا لمامـــًا، وأستاذه ومرشده الذي كان يوليه من الثقة والتقدير الكثير. وعلى الأرجح، فقد قوضت تلك العلاقة إيمانَه بالمُثل العليا ومبادئ الأخلاق، وأصيب بصدمةٍ خاب معها ظنه وضاع أمله.

أما نازلي، فقد كانت تُعامِل فاروق على أنه صبيّ، وكانت تقول: "إن فاروق لم يُتم ما أتمه كل إنسان! لم يُتم شهور الحمل [هو ابن سبعة شهور]، ولم يُتم دراسته، ولم يُتم شيئـــًا بدأه، ولهذا فإني لا أتوقع أن يُتم مدته على العرش أيضـــًا"262.

وفـــي صبيحة يوم تعيين الملك فاروق علي ماهر رئيســـًا للديوان الملكي، قال أحمد حسنين باشا لسكرتير الملك الخاص د. حسين حسني وقد بدت عليه أمارات المرارة الشديدة: "عملتها يا سي حسني.. طيب ارتاح بقى خلاص؟!"، وكان يقصد بذلك أن الأخير كان وراء تعيين علي ماهر فـــي هذا المنصب الذي كان حسنين يتطلع إليه بكل قلبه.

---

262 مصطفى أمين، جريدة "الأخبار"، القاهرة، 1 أكتوبر 1952.

فـــي غضون ذلك، كانت مسألة مكان إقامة أحمد حسنين تثير أزمة خطيرة؛ إذ لم يخرج من القصر إلى مسكن خاص كما كان منتظرًا قبل عودة الملك وعائلته من الإسكندرية، بل إنه طلب نقل أمتعته إلى قصر القبة ونزل هناك. وكانت الملكة نازلي من ناحيتها نزلت مع الأميرات فـــي قصر أبيها فـــي الدقي وأعلنت اعتزامها الإقامة الدائمة هناك.

وعلى الرغم من أن الملك أمر بإجراء إصلاحاتٍ شاملة فـــي القصر بمناسبة قرب زفافه، ما استدعى إخلاء الجناحِ الذي يقيم حسنين باشا، بل على الرغم من إبلاغه ذلك على لسان الملك فإن حسنين باشا لم يصدر منه ما يدل على قرب مغادرته القصر، وظل يخرج ويدخل كما يشاء، بل كان يحضر فـــي وقتٍ متأخر من المساء.

وسرعان ما أمر الملك بإغلاق أبواب القصر فـــي الساعة العاشرة مساء، وهو الموعد الذي قلما يعود فيه حسنين باشا. ودار همسٌ فـــي القصر بعدها بأنه عندما فوجئ الملك بما علمه من أن الباشا حضر ليلاً، متأخرًا، وتسوَّر أحد الأبواب ليستطيع الدخول، لم يطق صبرًا وأمر بأن تُجمع أمتعته فـــي الحال وتنقل إلى جوار أحد أبواب الحرملك، بقصر عابدين، فوجد حسنين باشا فـــي ذلك إهانةً بالغةً له على مرأى ومسمعٍ من الخدم وصغار الحاشية، فاتخذ مسكنـــًا له اعتكف فيه زمنـــًا بحجة المرض وامتنع عن الذهاب إلى القصر.

غير أن الملك رضخ للعبة لي الذراع التي مارسها مرشده فـــي سن المراهقة.

وبعد بضعة أسابيع من العزلة المعتمدة، زار الملك أحمد حسنين لترضيته وإقناعه بالعودة إلى عمله. وعلى الأرجح فإن الملكة نازلي لعبت دورًا فـــي الضغط على ابنها فاروق، الذي بدا عاجزًا عن كبح جماح أمه أو إيجاد وسيلةٍ لاتقاء شر الفضيحة فيما لو اشتد الصراع بينهما.

استأجر حسنين باشا بعد ذلك فيلا أنيقة فـــي ميدان المساحة بالدقي، وهي التي ظل بها إلى حين وفاته. نالت فيلا حسنين اهتمامـــاً خاصـــاً بسبب مكانته ونفوذه، حتى أنه حين مرض عقب مشاركته في تشييع جنازة اللورد موين، زاره الملك فاروق أكثر من مرة في داره، في حين "رؤي توفيرًا لأسباب الراحة لرفعته، أن يمنع مرور السيارات من الشارع الذي يطل عليه البيت"263.

وبعد فترة من سكنى الفيلا، ذاع بين رجال القصر فـــي حذرٍ شديد أن الملكة نازلي تزوجت من حسنين باشا بعقد عرفي، كان أحد شهوده الفنان سليمان نجيب مدير دار الأوبرا. ولعلَّ ذلك كان الحل الوحيد الذي لم يرَ الملك بدًا من التسليم به ليضع حدًا للصراع النفسي الرهيب الذي كان يعانيه منذ أمدٍ طويل. وقيل إن فاروق نفسه هو الذي اقترح الزواج وأصر عليه بعد أن تعددت نزوات الملكة نازلي، ووجدت أخبار غرامياتها طريقها إلى الصحافة.

هناك ثلاث روايات عن توقيت زواج نازلي وحسنين، الأولى هي رواية مصطفى أمين264 التي يؤكد فيها أن الزواج تم في عام 1937،

263 هؤلاء زاروا حسنين باشا، مجلة "الاثنين والدنيا"، القاهرة، 20 نوفمبر 1944.

264 مصطفى أمين، ليالي فاروق، كتاب اليوم، دار "أخبار اليوم"، القاهرة، 1996.

في حين تقول الرواية الثانية (مصطفى النحاس)265 إن الزواج تم في عام 1940، وأخيرًا هناك رواية محمد التابعي التي يؤكد فيها أن الزواج تم في عام 1943 بعد عودة نازلي من القدس.

يؤكد مصطفى أمين أن الشيخ مصطفى المراغي، شيخ الأزهر، هو الذي قام بعقد الزواج، وكان شاهدا العقد الوزيرين السابقين أحمد لطفي السيد باشا وجعفر والي.

ويقول محمد التابعي: "كان أحد شهود الزواج المرحوم سليمان نجيب، مدير دار الأوبرا، وكان حسنين يثق كل الثقة في حذره وكتمانه، ومثله الملك فاروق. ولقد حاولت أن أعرف اسم الشاهد أو الشهود الآخرين، وكذلك اسم المحامي الشرعي الذي عقد هذا الزواج العرفي فلم أوفق، وربما كان الشاهد الآخر هو مراد محسن باشا ناظر الخاصة الملكية، أو لعله كان أحد خدم فاروق المقربين، ربما ولكنني لا أستطيع أن أقطع بقول"266.

وكتب النحاس يقول بتاريخ 15 سبتمبر 1940: "أخبرني حمدي سيف النصر أن "راسبوتين مصر" الشيخ المراغي كان في زيارته، وجرى الحديث بينهما حول شائعة زواج الملكة نازلي من أحمد حسنين، فقال: إن الملك سأله عن الزواج العرفي.

"فقال المراغي إنه مباح وإنه لا يخالف الشرع، ونصح الملك "ألا يتصرف تصرفـًا يؤخذ عليه في هذا الخصوص؛ لأن الملكة "أمه"

---

265 مصطفى النحاس، مرجع سابق.

266 محمد التابعي، مرجع سابق.

وسوء سمعتها يؤثر على مركزه. وأحمد حسنين همزة الوصل بينه وبين الإنجليز، والإساءة إليه وإغضابه خسارة كبيرة، وأن الملك عندما سمع هذه النصيحة صمت ولم يرد"[267].

وقال حمدي للنحاس إن الشيخ المراغي أكد للملك فاروق شرعية الزواج العرفي، ثم قال له: "ومادامت الملكة نازلي بالغة رشيدة، وحسنين باشا رجلاً رشيدًا وقد قالا إن شاهدين حضرا العقد، فلا يوجد مانع شرعي يمنع هذا الزواج". وأضاف أن الملك سُر من نصيحته، وهدأت ثائرته بعض الشيء.

في المقابل، يجادل البعض بأن مثل هذا الزواج لم يقع أصلاً وأنه ليس سوى مجرد شائعات لا محل لها من الصحة. ويشير هؤلاء إلى تصريح للملكة نازلي في جريدة "نيويورك تايمز" يوم 8 مارس عام 1949 تحت عنوان "أرملة الملك فؤاد تخرج من المستشفى بعد إتمام العلاج"، حيث نشرت الجريدة حوارًا مع الملكة نازلي في أعقاب نجاح الجراحة التي أجريت لها في مستشفى مايو كلينيك في الولايات المتحدة. وفي الحوار، نفت الملكة للصحفية إليزابيث كاي زواجها من أي شخص بعد وفاة الملك فؤاد، وكان ذلك ردًا على سؤال للصحفية حول حكاية زواج نازلي من أحد رجال القصر.

ولا شك أن ما صنع هذه الصورة المهزوزة للملك هو خليطٌ من شخصية الملك فاروق التي لم تنضج على نارٍ هادئة، وانقياده ليصبح ألعوبةً في يد أحمد حسنين الذي نجح بدوره في السيطرة على

---

267 مصطفى النحاس، مرجع سابق.

الملكة نازلي عاطفيـــاً، مستغلاً طيشها الذي دفعها إلى فعل ما يروق لها من دون رادع، حتى أنها دخلت في صراع مكشوف مع المطربة أسمهان للفوز بقلب حسنين باشا[268].

ونقرأ الكثير عن هذا الأ ـ فـــي مراجع عدة[269]، كما نطالع ما أورده محمد التابعي عن هذه العلاقة وتأثيرها على الملك فاروق؛ إذ يقول:

"تدلهت نازلي ملكة مصر وهتكت فـــي حُبِّ حسنين، ولم تخجل من أن تعلن حُبَّها له أمام رجال القصر، ثم أمام ابنها الملك فاروق.. تنسى مقامها كملكةٍ، وأرملة ملك وأم ملك! ونسيت حرمة سنها وقد جاوزت الأربعين.

"وكانت الصدمة النفسية قاسية عنيفة على فاروق الذي كان يومئذٍ فـــي الثامنة عشرة من عمره.. ميلادية! أو التاسعة عشرة هجرية!

"وكان فاروق يحبُّ أمه.. ولم يكن يفوق حُبَّه سوى احترامه لها.. كانت تناديه أمامنا وأمام رجال الحاشية وخدم الفنادق "فاروق".. وكان هو يخاطبها أو يناديها دائمـــاً "ماجستيه"، أي صاحبة الجلالة.

"وكان يخشاها ويتقي غضبها ويعمل لها حسابـــاً.. وكانت كلمتها عنده لا ترد.

---

268 رشاد كامل، الملكة نازلي: غرام وانتقام، دار ميم، القاهرة، 2010، ص 194 -204.

269 محمود صلاح، أحمد حسنين، أسرار السياسة والحب، كتاب الهلال، دار الهلال، القاهرة، أغسطس 2005.

"كثيرًا ما سمعتها -أثناء رحلتنا إلى سويسرا وفرنسا وإنجلترا- سمعتها تنهاه أمامنا علنـــًا عن قيادة سيارته بنفسه.. أو تنهره وتطلب منه أن يترك سيارته ويركب معها فـــي سيارتها؛ لأنها كانت تخاف عليه من تهوره فـــي قيادة السيارات بسرعةٍ جنونية.

"وكان يخضع دائمـــًا ويطيعها.. ولا يرى غضاضة أو بأســـًا وهو الملك فـــي أن ينزل على إرادتها مثل أي طفل صغير.

"هكذا كان مقدار حُبّ فاروق واحترامه لأمه نازلي.. ثم ها هي ذي تتدلهُ وتتهتك فـــي حُبٍّ موظف من موظفـــي القصر.. وتذهب تشكو حُبَّها لناظر الخاصة، ولا تخجل من أن تعلن أمام موظفـــي القصر أنها عاشقة ملهوفة على أحمد حسنين!.. بل ولا تخجل من أن تصارحه هو -ابنها الملك- بأنها تحِبُّ هذا الموظف أحمد محمد حسنين، وأنها قدمت نفسها وجسمها ولكنه يرفض! ثم تصرخ وتصيح أنها من لحم ودم..! وتطلب من ابنها أن يزوجها من حسنين!

"كانت الصدمة النفسية قاسية عنيفة.. على فاروق. وتهاوت المُثل العليا التي كان يراها فـــي أمه -صاحبة الجلالة- تهاوت وتحطمت تحت قدميه.. وكان -كما أسلفت- لا يزال فـــي سن الثامنة عشرة"270.

وربما يمكن القول إن هناك حدثين أثرا كثيرًا فـــي شخصية فاروق ونتج عنهما تحولات نوعية فـــي سلوكه، وفـــي كلا الحدثين كان

---

270 محمد التابعي، مرجع سابق، ص 111 112.

أحمد حسنين حاضرًا بقوة. الحدث الأول سياسي، ونعني به أزمة 4 فبراير عام 1942 حين حاصرت الدبابات قصر عابدين وفرض الإنجليز عليه وزارة مصطفى النحاس بالقوة بعد تخييره بين التنازل عن العرش أو قبول الوزارة الوفدية. وهنا نصحه أحمد حسنين بالخضوع وقبول الأمر الواقع، ولكن فاروق شعر بانكسار شرعيته السياسية؛ إذ عامله المندوب السامي البريطاني السير مايلز لامبسون (اللورد كيلرن لاحقــًا) معاملة طفلٍ شقي لا يستحق قطعة الحلوى بقدر ما يحتاج إلى علقةٍ ساخنة.

وكان لامبسون يقول: "إن فاروق ولد جبان ويجب إخافته بين الحين والآخر"[271].

الحدث الثاني الذي أدى إلى نقلة كبيرة فــي حياة الملك فاروق ذو طابع إنساني. فقد أحس فاروق بمهانة نتيجة طيش أمه الملكة نازلي، وإصرارها على إقامة علاقة مع رئيس ديوانه أحمد حسنين. بل إن نازلي اشترطت على فاروق أن يصدر أمرًا إلى حسنين بالزواج منها، قبل أن ترضى بالعودة من فلسطين إثر رحلة بدأت أواخر عام 1942 ثم طالت أكثر من اللازم. هذه العلاقة العاطفية هزت الملك، وإن كان قد جرى لاحقــًا التغطية عليها بعقد زواجٍ عرفــي.

بعد هذين الحدثين أصيب فاروق بإحباط ويأسٍ شديدين واستيقظ لديه حرمانه القديم، وراح يمارس تعويضــًا فــي الانغماس فــي

271 مايلز لامبسون، مذكرات اللورد كيلرن: 1934 -1946، تحرير: تريفور إيفانز، ترجمة: عبدالرؤوف أحمد عمرو، جـ 2، سلسلة تاريخ المصريين، العدد 87، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، 1995.

السهر والقمار والإسراف فـــي الطعام، حتى بدا بدينـــًا مرهقـــًا فـــي سنواته التالية. أدى هذا السلوك إلى اضطراب علاقته بزوجته فريدة؛ فأخذ يشك في خيانته لها مع وحيد يسري، لاعب البولو الأكبر منها سنـــًا، وكذا مع الضابط البريطاني سيمون إلويز272، وكان هذا حدثـــًا ثالثـــًا يضاف إلى الحدثين السابقين اللذين أثرا فـــي حياة فاروق وأديا إلى تحولات هائلة فـــي سلوكه.

خرجت الخلافات بين فاروق وفريدة إلى العلن، وحاول أحمد حسنين تأجيل الإعلان الرسمي للطلاق في انتظار الفرصة المناسبة، في حين بدا الزوجان الملكيان في حالة انفصال على أرض الواقع؛ حيث كان يلتقيان مثل الضيوف حديثي المعرفة في حفلات أعياد بناهما، إلى درجة أهما "كانا يتبادلان التحية؛ ثم يقف كل منهما في جانب بعيدًا عن الآخر، وبلغ من تشدد فريدة في موقفها أها لما احتُفلَ بعقدِ قران شقيقها سعيد على كريمة سيف الله يسري والأميرة السابقة زينب في دارهما بالمعادي، لزمت فريدة الطابق العلوي؛ لأن فاروق كان في الطابق الأرضي، ولم تنضم إلى المدعوين إلا بعد انصرافه.. مع أن العُرس عُرس شقيقها"273.

وبعد أزمةٍ عنيفةٍ وضغوط سياسية من بريطانيا، تم تكليف حسن صبري باشا بتشكيلِ وزارةٍ ائتلافية فـــي 28 يونيو 1940، فسعى إلى

272 Artemis Cooper, Cairo in the War: 1939-1945, London, Penguin Books, 1998.

273 فاروق هاشم، فريدة ملكة مصر: الحب والعرش والفن، دار الشروق، القاهرة، 2010.

الحصول على موافقة فاروق على تعيين أحمد حسنين رئيســـًا للديوان الملكي، ليبعد بذلك شبح احتمال عودة علي ماهر إلى القصر.

غير أن أهل القصر اكتشفوا متأخرًا أنهم تخلصوا من ذئب، فجاء مكانه ثعلب.

4

حسنين وفاروق:

"يا ساتر.. يا رب"

كان مصرع أحمد حسنين باشا حادثا غامضــًا إن لم يكن مريبــًا.

وأثيرت شكوكٌ حول ما إذا كان حادث التصادم بين سيارته وشاحنة تابعة للقوات البريطانية مدبرًا.

لنعد إلى تلك الأيام لنستقرئ أحداثها المثيرة.

فـــي مطلع فبراير عام 1946 كانت الوزارة البريطانية يومئذ من حزب العمال بزعامة كليمنت أتلي، وكان وزير الخارجية إرِنست بيفن.

وعرف حسنين كيف يوجه صديقه عبدالفتاح عمرو سفير مصر فـــي لندن إلى استغلال صداقته مع بيفن. وكان أن استدعت وزارة الخارجية البريطانية مايلز لامبسون من مصر، وهو ما أسعد الملك فاروق الذي كان يضمر عداء شديدًا لهذا الرجل الذي أهانه بشدة وانتقص من سلطاته كملك فـــي أزمة فبراير 1942.

وهكذا برَّ حسنين بوعده أو بقسمه وثأر لنفسه وللملك من مايلز لامبسون.

غير أن حسنين لقي مصرعه بعد ذلك بأسبوعين اثنين. وبدا موته مفاجأة مثيرة كما كانت حياته سلسلة من المفاجآت التي تحبس الأنفاس.

وكان أمضى سهرة يوم الأحد 17 فبراير 1946 في مسكن مع بعض الأصدقاء ومنهم أم كلثوم، التي غنت لهم "سلوا قلبي" كلمات أمير الشعراء أحمد شوقي، وتلحين رياض السنباطي. وحمل حسنين مقعدًا صغيرًا جلس فيه بين يدي أم كلثوم، وكان ينصت بكل جوارحه إلى تلك الأغنية المكتوبة في مدح الرسول الكريم.

امتدت السهرة حتى مطلع فجر يوم الاثنين.

وفي يوم الثلاثاء 19 فبراير كان حسنين مدعوًا لتناول طعام الغداء عند أسرة صديقه الظاهر حسن المحامي في المطرية، لكن تراكم الأعمال أبقاه في مكتبه بقصر عابدين إلى الساعة الثالثة بعد الظهر.. ورأى حسنين أنه تأخر كثيرًا عن الموعد فاعتذر هاتفيًا لصاحب الدعوة، وقيل إنه اقترح تأجيل الدعوة إلى المساء، لتكون عشاء بدلاً من الغداء؛ لأنه يشعر ببعض التعب ويريد أخذ قسطٍ من الراحة.

وهكذا عدَّل حسنين خط سيره في اللحظة الأخيرة، كأنما كان على موعدٍ مع الموت في الطريق المؤدية إلى بيته.

استقل حسنين سيارته عائدًا إلى داره فـــي الدقي، وكانت السماء تمطر. وبينما كانت سيارته تجتاز كوبري قصر النيل فـــي طريقها إلى الدقي، أقبلت سيارة لوري بريطانية من الجهة المضادة.. وانزلقت عجلات السيارة البريطانية بفعل المطر ولفت اللوري نصف لفة على الكوبري –الذي وضع الملك أحمد فؤاد حجر أساسه فـــي 4 فبراير 1931– وصدمت سيارة حسنين من الخلف صدمة شديدة.

وسمع سائق السيارة صوت حسنين باشا الجالس فـــي المقعد الخلفـــي وهو يقول: "يا ساتر.. يا ساتر يا رب".

وتقهقرت سيارة اللوري إلى الخلف بعد أن ارتبك سائقها، ودار نصف دورة حول سيارة أحمد حسنين، ففوجئ بسيارة قادمة من الاتجاه الآخر، فعاد إلى الخلف مرة أخرى ليصدم سيارة أحمد حسنين مرة ثانية والتفت السائق خلفه فرأى أحمد حسنين وقد انحنى قليلاً فـــي مكانه بالسيارة وبدأ الدم ينزف من أنفه.

أوقف السائق السيارة ونزل منها يصيح ويطلب المساعدة. ومرت مصادفة فـــي اللحظة نفسها سيارة وزير الزراعة أحمد عبدالغفار باشا صديق حسنين وزميله أيام الدراسة فـــي أكسفورد، وأسرع أحمد عبدالغفار وحمل صديقه إلى مستشفى الأنجلو أمريكان بالجزيرة، بالقرب من مكان الحادث، لكن حسنين كان أسلم الروح، فنقلوه إلى داره فـــي الدقي.

طار الخبر إلى القصر.

وأسرع فاروق، وكان يرتدي بيجامة وفوقها (روب دي شامبر) وفـــي قدميه شبشب، أسرع بملابسه هذه واستقل إحدى سياراته إلى دار حسنين فـــي الدقي.

بعد نحو ساعة، كان فار ق واقفـــاً أمام الجسد المسجى أمامه لحسنين.. رائده وأستاذه ومربيه ثم رئيس ديوانه؛ ثم قال: "مسكين يا حسنين"، وسأل ذلك عن مفاتيح مكتب حسنين، وتناولها ودخل غرفة المكتب وأغلق وراءه الباب. وكان فاروق يبحث عن أية مذكرات يكون حسنين قد كتبها، وعن عقد زواجه بأمه الملكة نازلي، وأية أوراق مهمة أخرى قد يكون تركها وراءه.

ويقول كريم ثابت فـــي مذكراته إنه ذهب إلى مترل حسنين فور علمه بالحادث، وجلس مع بعض مساعدي الفقيد الذين هرعوا إلى المترل أيضـــاً. ثم دخل عليهم فاروق وكان بادي الانزعاج، فغادر المساعدون تاركين لهما فـــي الغرفة، "فعزيته، فقاطعني بقوله: لقد جمعت بنفسي كل أوراقه الخصوصية هنا وفـــي عابدين قبل أن تمتد إليها يد!"274.

وخرجت صحف مصر والصحف العالمية فـــي اليوم التالي تحمل أخبار الحادث الذي راح ضحية له أحمد باشا حسنين رئيس الديوان الملكي.

وكان عنوان مانشيت جريدة "الأهرام" هو: "من فجعات القدر: وفاة أحمد حسنين باشا فـــي حادث تصادم" مع عنوان أصغر هو: "مصاب فادح".

---

274 كريم ثابت، مرجع سابق، ص 82.

وأفردت الصحيفة صفحتها الأولى بالكامل لسرد تفاصيل وقوع الحادث، مع الإشارة في خبر منفصل إلى أن الملك فاروق أنعم على اسم الفقيد بالوشاح الأكبر من نيشان محمد علي.

وقالت بعض الصحف إنها تشك في أن الحادث قضاء وقدر.

قالوا إن أحمد حسنين قُتل، وإن نهايته لم تكن مجرد مصادفة.. واتهم بعضهم الإنجليز بتدبير الحادث، وذلك تصفية لمواقف سياسية قام بها أحمد حسنين، لم تعجب الإنجليز، خاصة أثناء فترة الحرب العالمية الثانية.. لكن البعض الآخر اتهم الملك فاروق بأنه هو الذي دبر حادث مصرع أحمد حسنين رئيس ديوانه. وقالوا إن الملك فاروق لم ينس أبدًا حقده وغضبه علي أحمد حسنين، الذي جعل نازلي تجبر ابنها الملك فاروق على زواجها منه.

ودلل هؤلاء على ذلك بأن الملك فاروق بمجرد أن سمع خبر وفاة أحمد حسنين حتي أسرع إلى فيلا أحمد حسنين في الدقي، وحصل على مفاتيح مكتبه، ثم عاد إلى القصر وفي جيبه هذه المفاتيح، واستولى على بعض الأوراق والمستندات.

وقال محمد زكي حسين -وزير الأوقاف- لجريدة "الأخبار"، بعد حادث وفاة أحمد حسنين بسنوات ست، إنه كان أحد الشهود الذين رأوا الملك فاروق في فيلا أحمد حسنين يوم وفاته، وقال إنه كان يشغل وقتها وظيفة رئيس مجلس إدارة المجالس الحسبية في مصر، وقد حضر بصحبة رئيس مجلس حسبي مصر إلى فيلا حسنين لحصر تركته بعد وفاته، وإنه فوجئ بوصول الملك فاروق إلى الفيلا، ودهش حين رآه يصعد درجة المترل بسرعةٍ جنونية وفي أقل من لمح

البصر؛ ثم اتجه فـــي الحال إلى مكتب أحمد حسنين وأخذ يجري تفتيش المكتب، ولم يمكث طويلاً وسرعان ما غادر المترل دون أن يلاحظ أنه قدم العزاء إلى أهل الفقيد.

وأضاف قائلاً: "بعد أن غادر الملك المترل بدأت بمساعدة رئيس مجلس حسبي مصر حصر التركة، واتجهنا إلى مكتب حسنين باشا الذي اعتدى عليه الملك بتفتيشه وبعثرة ما به من أوراق، مما زاد مهمتنا صعوبة، وهنا حضرت شقيقة حسنين باشا، وذكرت لنا أن الملك فاروق تناول من هذه الأوراق وثيقة زواج شقيقها من الملكة نازلي.. لكن شقيقة أحمد حسنين أرسلت إلى الجريدة تكذّب هذا الكلام، ما جعل الجريدة تعرض التكذيب على محمد زكي حسين الذي عاد ليؤكد الواقعة.. وقال بالنص: "لقد توجهت إلى مترل الفقيد أحمد حسنين باشا، ومعي رئيس مجلس حسبي مصر وعددٌ من الخبراء، وذلك بعد أن أخطرنا بوفاته فـــي حادث تصادم، وقابلتني السيدة شقيقته وبادرتني بالقول إن الملك حضر إلى المترل، وصعد إلى الطابق الأعلى ودخل غرفة الفقيد ومكتبه، وقالت إلها تستنتج أنه أخذ بعض الأوراق من مكتب الفقيد.

"فصعدت معها إلى الطابق الأعلى، ورأيت جميع أدراج المكتب مفتوحة، والأوراق مبعثرة فيها، ما يدل على أن أحدًا اعتدى على المكتب وعبث بمحتوياته، فلما سألتها عما تظنه قد أخذ من هذه الأوراق أجابت بقولها إلها تظن أنه أخذ عقد زواج المرحوم شقيقها من الملكة نازلي"!

ونشرت جريدة "الأخبار" فـــي أول ديسمبر 1952 تصريحـًـا لكريم ثابت المستشار الصحفـــي للملك فاروق قال فيه: الذي حدث

أنه لما توفي أحمد حسنين أسرعت إلى بيته، وذهب إلى هناك الملك فاروق فورًا عندما بلغه الخبر، ودخل فاروق حجرة المرحوم أحمد حسنين الخاصة وفتح جميع أدراجها، وأخذ الأوراق وانصرف، وقال لي فاروق فـــي نفس اليوم إنه عثر فـــي أدراج أحمد حسنين على وثيقة عقد زواجه بالملكة نازلي.

وفـــي العدد نفسه، قال أنطونيو بوللي، الكهربائي السابق في قصر عابدين، وأقرب أفراد حاشية الملك فاروق: "فـــي يوم وفاة أحمد حسنين كان فاروق متأثرًا جدًا، وما كاد يسمع بوفاته حتى صحبني معه إلى فراش الموت الذي كان راقدًا عليه أحمد حسنين، وراح يبحث وينقب حتى أخذ أوراقـــًا، كان مهتمـــًا بألا تقع فـــي يد أي إنسان، ولم يخبرني الملك عن هذه الأوراق بشيء. وأضاف بوللي قائلاً: أظن أن الملك فاروق كره أحمد حسنين باشا؛ لأنه شعر بعد وفاته أنه كان محتاجـــًا إليه، وأنه "لاص" بعد وفاته، وكان فاروق يتضايق من الشائعات عن علاقة الملكة نازلي بأحمد حسنين، لكنه فـــي قرارة نفسه كان يعلم أنها علاقة شرعية، لكنه لم يجد عنده الشجاعة ليقول حقيقتها للناس!

"وعمومـــًا فقد أخبرني فاروق أنه عثر على وثيقة زواج الملكة نازلي من أحمد حسنين، وأنه أعدمها حتي لا تقع فـــي يد أي إنسان".

يومها قال فاروق لصديقه ومستشاره الصحفـــي كريم ثابت إن رئيس الديوان "تركنا وإحنا فـــي عز الشغل"!

وبعد قليل، أنعم فاروق على اسم أحمد حسنين بالوشاح الأكبر من نيشان محمد علي. وفسر فاروق هذه الخطوة بأنها لكي تقام جنازة عسكرية لرائده ورئيس ديوانه.

وفـــي تلك الليلة، سهر فاروق فـــي "أوبرج الأهرام" مع كريم ثابت، وقال له أثناء السهرة: "لا بد أن هناك مأتمـــاً آخر الليلة فـــي الدقي".

وكان يشير بذلك إلى أمه الملكة نازلي التي قررت منذ خلافها معه الإقامة فـــي دار كانت لوالدها فـــي حي الدقي.

ثم أردف فاروق قائلاً: "من حسن الحظ أن كل شيء قد انتهى الآن!"

ثم حدَّث مستشاره الصحفـــي عن الليلة التي طلبت فيها أمه الملكة نازلي منه الموافقة على زواجها من أحمد حسنين، وغضبه الشديد من هذه الفكرة. وكلّمه كيف أنه فـــي مرة أخرى لم يستطع تحمل "ما يجري تحت سقف القصر الذي مات فيه والدي، فأصدرت أمري إلى الخدم بأن يلقوا بفرش حجرة أحمد حسنين فـــي حديقة القصر".

واسترسل فاروق فـــي الحديث عن طلاق أحمد حسنين من لطفية هانم "زوجته الشرعية بعدما ذاقت المر من علاقته بأمي"، قبل أن يفسر ما قام به فـــي ذلك اليوم العصيب قائلاً: "ولذلك كان أول ما عملته اليوم بعد وفاته أن جمعت أوراقه الخصوصية بنفسي خوفـــاً من أن يكون فيها شيء يتصل بهذه الفضيحة، فيقع فـــي يدٍ غريبة".

وبرر الملك فاروق لجليسه سبب إبقائه على أحمد حسنين طوال تلك الفترة بالقول: "ولكني كنتُ مضطرًا إلى الاحتفاظ بحسنين.. كان يعرفُ طبيعتي وأخلاقي.. وكان يعرفُ سياستي وأسراري.. وكان يعرفُ دخائلي وشؤوني الخاصة.. وكنتُ فـي البداية محتاجـًا إليه فـي عملي، ثم لم أعد فـي حاجةٍ إليه، ولكني كنتُ قد اعتدتُ العمل معه، وكان يريحني فظل فـي خدمتي بقوة الاستمرار، سيما أنه كان فـي عمله مطيعـًا ومؤدبـًا"[275].

نطالع في الوثائق خطابـًا بتاريخ 13 أغسطس 1947، أرسله أحمد علي السكرتير الخاص للملكة نازلي من سان فرانسيسكو في الولايات المتحدة –حيث كانت تقيم نازلي– لرئيس الوزراء محمود فهمي النقراشي باشا، لشكره على إقامة ضريح لأحمد حسنين باشا.

الغريب أن جثمان أحمد حسنين قد دُفِنَ مرتين!

المرة الأولى بعد وفاته ودفن فـي مقبرة الأسرة "بقرافة المجاورين".. والمرة الثانية بعد وفاته بأربع سنوات، حين بنت له الحكومة مقبرة خاصة فـي الجزء الشمالي من مقبرة مملوكية – بالقرب من طريق صلاح سالم الآن– تكلفت 22 ألف جنيه، وتم نقل رفات أحمد حسنين إليها، وأشرف على عملية النقل حيدر باشا وأحمد عبدالغفار باشا وعثمان المهدي باشا وطارق وهاشم ولدا أحمد حسنين وابن اخته محمد علي رمضان، وتولى القيام بنقل الرفات 15 جنديـًا من رجال البحرية الملكية وثلاثة ضباط، وقد صمم المقبرة الجديدة

275 المرجع نفسه.

حسن فتحي أستاذ "عمارة الفقراء" الشهير. والذي لا يعرفه كثيرون هو أن المهندس حسن فتحي -أشهر مهندس مصري عرفه العالم منذ إيمحوتب- كان صهر أحمد حسنين باشا؛ إذ تزوج الأول لفترةٍ من عزيزة حسنين، شقيقة أحمد · سنين.

وكانت الحكومة المصرية قد طالبت الحكومة البريطانية بتعويضٍ عن حادث مصرع أحمد حسنين، فأرسلت القيادة البريطانية -بعد سنتين من الحادث- شيكـــاً بمبلغ 12500 جنيه إلى القصر الملكي تعويضـــاً لأسرة الراحل أحمد حسنين. الغريب أن مصر كانت قد دفعت نصف مليون جنيه قبل ذلك تعويضـــاً عن مصرع السردار الإنجليزي سير لي ستاك، فور وقوع حادث اغتياله.

وفـــي يوميات محمد التابعي كتب يقول يوم وفاة حسنين: "مات أحمد حسنين كما مات سنيكا!

"كانت الشائعات قد تواترت بأن الملك فاروق هو الذي قتل حسنين، خطر على بالي ما حدث لسنيكا على يد نيرون.

"ووجه الشبه بين نيرون وفاروق واضح، فكلاهما طاغية، أحدهما حرق روما، والآخر حرق القاهرة، أحدهما قتل أمه وأخاه، والآخر قتل عرض أمه وأخوته!.. أما وجه الشبه بين حسنين وسنيكا، فهو أن حسنين كان رائد فاروق، وسنيكا كان رائد نيرون، وقد اختلف الناس فـــي أمر سنيكا كما اختلفوا فـــي أمر حسنين.. فحتى الآن لم يصدر التاريخ حُكمه فـــي أحمد حسنين، وهل أعان فاروق على البغي والعدوان، أم أنه كان يحاول أن يروضه على العدل والدعة؟

"بل إن التاريخ لم يصدر حكمه على سنيكا، وقد مضى على وفاته 1890 عامـــًا، لقد كان سنيكا فيلسوفـــًا، وكانت حياته مليئة بالمآزق والأهوال، وكان حسنين عالمـــًا وأديبـــًا ورحالة، كانت حياته كلها مآزق وأهوال، وكلاهما كان يرتفع وينخفض، يفشل وينجح، ويغوص فـــي قاع البحر، ثم ما يلبث أن يطفو فوق سطح الماء.. وكما كان لحسنين صلة شرعية بأم فاروق، كان لسنيكا مثل هذه الصلة بأم نيرون، وقد ظل سنيكا يُعلم نيرون ويشير عليه إلى عام 63، وطلب سنيكا من نيرون أن يعتزل الحياة العامة فلَّبى طلبه فـــي عام 65، أصدر نيرون أمرًا سياسيـــًا لسنيكا بأن ينتحر!

"وتلقى سنيكا أمر الانتحار، وكان بين أهله وأصدقائه، والتفت لهم وقال له: إنه لا يستطيع أن يجازيهم على حسن صنيعهم بأكثر من أن يعتبروا مما حدث له على يد نيرون. وفـــي نوفمبر 1945 أرسل أحمد حسنين إلى الملك فاروق استقالته من منصب رئيس الديوان، وقال فـــي هذه الاستقالة: "لقد ضحيت بحياتي من أجلك، وكان أملي أن أجعل من وجودي إلى جانبك قوة أسخرها فـــي خدمة بلادي، وكم يؤسفني أن أملي قد خاب".. وكانت هذه الاستقالة قبل وفاته بأربعة أشهر. وكذلك فاروق أصدر أمرًا ساميـــًا لحسنين بالبقاء فـــي وظيفته، أي بالانتحار!. وهكذا مات حسنين كما مات سنيكا".

نهاية درامية لرجلٍ عاش حياة حافلة بالدراما.

ويذهب البعض إلى القول بأن رحيل أحمد حسنين أربك فاروق كثيرًا وطويلاً، فقد كان حسنين بالرغم من كل شيء أبـــًا ومرشدًا،

وهنا انكشف فاروق وأصبح يتصرف بتخبط؛ نظرًا لتضارب آراء مستشاريه، وعدم قدرته على ضبط الإيقاع بين الوفد والإنجليز والقصر.

وبعد مصرع حسنين تبت عنه الصحف والمجلات الأجنبية باهتمام قائلة إنه كان المستشار الأول للملك فاروق وإنه كان المستشار الذي تتلمذ فاروق على يده، ما أغضب الأخير، لدرجة أن كريم ثابت يقول: "وامتعض فاروق من تلك الكتابات امتعاضًا شديدًا، ورسم خطًا أحمر تحت كل عبارة وردت فيها لفظة مستشار استنكارا لها، وقال لي يومًا معقبًا عليها: "إن هؤلاء المغفلين – إشارة إلى أصحاب تلك الكتابات– يظنون أن حسنين كان هو الذي يعمل ويتصرف، ولا يعلمون أن حسنين لم يكن سوى آلة منفذة!"276.

وبعد وفاة حسنين ظل منصب رئيس الديوان شاغرًا سنة كاملة، لا لأن فاروق لم يجد الرجل الذي يُعيِّنه فيه، وإنما لأنه أحبَّ أن يظهر للملأ أنه يستطيع أن يستغني عن حسنين، بل يستطيع أن يُصرّف شؤون الدولة بدون رئيس ديوان. بل إن كريم ثابت ينقل عن فاروق قوله: "لم الاستعجال في تعيين رئيس للديوان.. ألستُ أنا الرئيس الفعلي للديوان وإن لم يعرف الناس ذلك!"277.

---

276 المرجع نفسه، ص 15.

277 المرجع نفسه، ص 16.

وعقب رحيل أحمد حسنين بأسبوعين أو ثلاثة أسابيع ذهب فاروق يزور أمه نازلي في قصرها الذي ورثته عن أبيها في الدقي، ودخل عليها في قاعة القصر الكبرى.. وتسمرت قدماه عند الباب.

فقد رأى أمامه في صدر القاعة صورة لأحمد محمد حسنين بالحجم الطبيعي وقد جللت بالسواد، وأمام الصورة على الأرض جلست أمه الملكة نازلي وحولها سيدات حاشيتها وخادمات القصر، وجميعهن متشحاتٌ بالسواد.

وعلى جانبَي القاعة الكبيرة جلس نحو عشرين شيخًا يتلون الأوراد ويدعون بالرحمة للراحل.

توقف فاروق لحظة عند باب القاعة، وقد عقدت الدهشة لسانه، ثم مشى إلى حيث كانت أمه وقال لها وهو يشير بيده إلى الصورة وإلى السيدات والمشايخ، قبل أن يقول: "إيه ده كله؟! وعلشان إيه ده كله! مات.. خلاص مات.. فلزوم ده إيه؟!".

انتفضت نازلي واقفة على قدميها وانفجرت في ابنها قائلةً: "ده؟ ده اللي عملك راجل.. ده اللي حافظ لك على عرشك.. بكرة راح تشوف يجرى لك إيه.. بعد موت حسنين".

هز فاروق كتفيه ساخرًا، وانصرف.

وإن هي إلا أسابيع معدودة حتى غادرت نازلي مصر إلى أوروبا للعلاج والراحة كما زعمت، ولكنها غادرت مصر وفي نيتها ألا

نعود.. وكان منها ما كان.. وكان كذلك ما كان من فاروق.. وكيف استهتر إلى أبعد حدود الاستهتار، إلى أن وقعت ثورة 23 يوليو 1952.

ولعله تذكر يومئذ وهو يوقع وثيقة تنازله عن العرش قول أمه: "بكره تشوف راح يجري لك إيه بعد موت حسنين".

سيرة موجزة

ياسر ثابت، صحفي مصري، من مواليد ألمانيا عام 1964.

حاصل على درجة الدكتوراه في الصحافة عام 2000.

عمل مديرًا للأخبار في قناة سكاي نيوز عربية، أبوظبي، الإمارات العربية المتحدة (2011)، ومنتجًا أول للأخبار في قناة الجزيرة في قطر (2002)، ورئيسًا لتحرير غرفة الأخبار في قناة الحرة في الولايات المتحدة (2007)، ورئيسًا للتحرير في قناة العربية في دبي، الإمارات العربية المتحدة (2007).

له مؤلفاتٌ عدة، بينها:

•"غرفة خلع الملابس: وجوه وقياسات" (دار اكتب، القاهرة 2014)

•"أجمل القتلة" (دار اكتب، القاهرة 2014)

•"ذنب" (دار اكتب، القاهرة 2014)

•"الصراع على مصر: ذئاب مبارك والعهد الجديد" (دار كنوز، القاهرة 2014)

•"أيامنا المنسيّة" (منشورات ضفاف، بيروت/ منشورات الاختلاف، الجزائر 2014)

•"تحت معطف الغرام" (دار اكتب، القاهرة 2014)

•"مراودة" (دار اكتب، القاهرة 2014)

•"زمن العائلة: صفقات المال والإخوان والسلطة" (دار ميريت، القاهرة 2014)

•"صناعة الطاغية: سقوط النخب وبذور الاستبداد" (دار اكتب، القاهرة 2013)

•"رئيس الفرص الضائعة: مرسي بين مصر والجماعة" (دار اكتب، القاهرة 2013)

•"حروب العشيرة: مرسي في شهور الريبة" (دار اكتب، القاهرة 2013)

•"دولة الألتراس: أسفار الثورة والمذبحة" (دار اكتب، القاهرة 2013)

•"محاكمة الرئيس: البحث عن القانون الغائب" (دار اكتب، القاهرة 2013)

•"شهقة اليائسين: الانتحار في العالم العربي" (دار التنوير، القاهرة 2012)

•"قصة الثروة في مصر" (دار ميريت، القاهرة 2012)، (طبعة ثانية، مكتبة الأسرة، القاهرة 2013)

•"هيا بنا نلعب: عن الأوطان والأوثان" (دار اكتب، القاهرة 2012)

•"فضة الدهشة: تغريد على غصن تويتر" (دار العين، القاهرة 2012)

•"لحظات تويتر: ألف تغريدة وتغريدة" (دار العين، القاهرة 2011)

•"جرائم بالحبر السري" (مركز الحضارة العربية، القاهرة 2010)

•"حروب كرة القدم" (دار العين، القاهرة 2010)

- "فتوات وأفندية" (دار صفصافة، القاهرة 2010)
- "فيلم مصري طويل" (مركز الحضارة العربية، القاهرة 2010)
- "كتاب الرغبة" (الدار العربية للعلوم ناشرون، بيروت 2010)
- "جرائم العاطفة في مصر النازفة" (الدار العربية للعلوم ناشرون، بيروت 2009)
- "يوميات ساحر متقاعد" (دار العين، القاهرة 2009)
- "قبل الطوفان: التاريخ الضائع للمحروسة في مدونة مصرية" (كتاب ميزان، القاهرة 2008)، (طبعة ثانية، دار كنوز، القاهرة 2013)
- "جمهورية الفوضى: قصة انحسار الوطن، وانكسار المواطن" (كتاب "ميزان"، القاهرة 2008)، (طبعة ثانية، دار كنوز، القاهرة 2013)
- "ذاكرة القرن العشرين" (مكتبة الدار العربية للكتاب، القاهرة 2001)
- "موسوعة كأس العالم" (مدبولي الصغير، القاهرة 1994).

الفهرس

مقدمة	5
الشاطر ومرسي:"أصحاب البلد"	11
الشاطر ومرسي :صفقات سرية	25
الشاطر ومرسي: إمبراطورية عائلية	33
سالم ومبارك: رجل الظل	49
سالم ومبارك: صعود "الأب الروحي"	93
سالم ومبارك: شجرة العائلة	146
عثمان والسادات: المقاول والرئيس	167
عثمان والسادات: "ساكن قصادي"	179
عثمان والسادات: "اضربهم بالجزمة يا ريس"	196

عامر وناصر: الرجل الأول.. والأول مكرر	213
عامر وناصر: جيمي.. وروبنسون كروزو	224
عامر وناصر: العُمدة يقود الجيش	239
عامر وناصر: عامر 56	257
عامر وناصر: صدمة دمشق وصدفة القاهرة	269
عامر وناصر: أسرار دولة.. على سرير المشير	290
عامر وناصر: الموت في عصير الجوافة	304
حسنين وفاروق: راسبوتين من بولاق	371
حسنين وفاروق: حكمة القرود	384
حسنين وفاروق: الباشا يقفز من فوق السور	398
حسنين وفاروق: "يا ساتر.. يا رب"	421